

بسم الله الرحمن الرحيم

جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

مركز دراسات اللغة العربية وآدابها

التفكير البيني:

أسسه النظرية وأثره في دراسة اللغة العربية وآدابها

أ.د/صالح بن الهادي رمضان

## تقديم المدير التنفيذي لمركز دراسات اللغة العربية وآدابها

## المقدّمة

إذا أردنا أن نبحث عن نواة الفكر البيني النظري في تاريخ الأفكار دون إنكار لروح البينية التي اتسمت بها المنعرجات الثقافية الكبرى في جميع الحضارات القديمة على النحو الذي سنرى منذ عصر هرمس الرامز لما بين العوالم من العلاقات فيمكن أن نعدّ الوعي الرومنسي عامة والفكر الألماني خاصة نقطة البداية في هذا الباب ومنطلق هذا التفكير النظري في مسألة البينية من خلال مقولة "الداخل والخارج" أو مقولة "الذات والموضوع"، فقد أراد الفكر الرومنسي منذ أواسط القرن التاسع عشر دحض المقولة الكلاسيكية التي طالما كانت تفصل الداخل عن الخارج وتضع بينهما حدودا صارمة شبيهة بالحدود التي تضعها بين العقل والعاطفة فتري أنّ الداخل هو كلّ ما يتحكّم في الذات وفي الأحاسيس والمشاعر وفي التفكير الوجداني، وفي الهوية الخاصة، وأنّ الخارج هو كلّ ما يتحكّم في الأعمال والمواقف والإجراءات العملية الموضوعية، ويتحكّم في الآخر، وقد ذهب جوته (Goethe) في نطاق هذا الدحض النظري إلى أنّ هذه الثنائية أي "الداخل والخارج" ثنائية عدمية، ورأى أنّها لا تعبّر عن حقيقة الظاهرة الفكرية، والفضائية عموما (Space) بل إنّ التفكير الداخلي يمكن أن يتحوّل إلى إحساس خارجي أو إلى عمل خارجي والعكس بالعكس. وقد عمّق هيجل (Hegel) هذا التوجّه الجديد في فهم العلاقة بين الداخل والخارج متأثرا في ذلك بأفكار معاصره جوته، وأنكر تماما وجود "داخل وخارج" بل

زعم أنّ الوجود الحقيقي هو "البين بين" وأنّ مكوّنات العالم جميعها مفتوحة بعضها على البعض الآخر. وقد زاد سيقمون فرويد هذا التحول في المفهوم تعميقاً وذلك ببلورة مفهومي الإسقاط والاستبطان إذ جعل الإسقاط نقلاً لما في الداخل إلى الخارج والاستبطان نقلاً لما في الخارج إلى الداخل. وذهب سامي علي في تفسيره للنظرية النفسية العلائقية إلى أنّ الجسم الواعي هو ذاته داخل وخارج في آن وهو علاقة "بين بين"، وأنّ الوعي بالأشياء هو وعي يصل الداخل بالخارج ولا ينظر إلى الواحد منهما إلّا من خلال الآخر، فحين نقول "إنّ الباب مفتوح" فإننا نقول في الآن نفسه "إنه غير مغلق"<sup>1</sup>. وقد أسلم هذا المفهوم الجيني (Générique) إلى تأسيس مختلف الأفكار الحديثة التي تدعو إلى الاعتناء بالغيرية وإلى تقديم النظرية العلائقية على النظرية الجوهرانية. وتأسست فكرة البينية على مبدأ مؤداه أنّه لا يوجد فكر إلّا في علاقة بفكر آخر لذلك قد لا يصحّ أن ندرس حقلاً معرفياً إلّا في علاقته بحقل آخر. إنّ هذه الفكرة ذات القيمة الظاهرية المهمة هي نفسها الفكرة التي تأسست على قاعدتها عامة النظريات اللسانية الحديثة وما يدور في فلكها من دراسات ترى في اللغة وسيطاً بين الإدراك والعالم الخارجي، أي مجالا بينيا يبصر في فضائه العقل الإنساني العالم بأعيانه التي يحولها إلى مجردات أو أطرزة أو مقولات، ثم يفكّكها بمعيار تجربته وحده ويسقطها على الخارج من جديد.

وبعد فقد نشأت الدراسات البينية النظرية في مناخ من الخصومات العلمية بين الرافضين لهذا المفهوم المتمسّكين بحدود العلوم التقليدية وبتمايز التخصصات، وبين الداعين إلى إعادة بناء منظومة جديدة من العلوم وإلى إعادة تعريف العلم وصلته بالأسر أو بالمجالات المجاورة له. وهي في الحقيقة خصومات بين عصريين معرفيين متباينين أو بين رؤيتين للعلم مختلفتين، رؤية الذين يقدرّون أن للعلم حقيقة واحدة دائمة غير قابلة للتغيير، وأنّه خطاب مفارق للواقع، ثابت فوق كل حركة تاريخية، فكل علم -حسب رأيهم- موضوع ومنهج وأدوات لا تتغير ولا ينبغي لها لأنها جزء من جوهر ذلك العلم.. ويمكن أن ندخل في زمرة أصحاب هذه الرؤية جميع القائلين بثنائية العلوم الصورية (الرياضيات والمنطق) والعلوم العملية، وهم يرون أن العلوم الصورية لا تخبرنا عن العالم الخارجي، ويعتقد أصحاب هذه النظرية أنّ القيمة العلمية للتخصّص لا تحصل إلّا باستقلاله التام عن سائر التخصصات، وأنّ صرامة

---

<sup>1</sup> M. Sami Ali: De la projection ;Collection Psychismes;Dunod;2004p56.

المنهج العلمي تقتضي الإيغال في التخصص الدقيق، وتستوجب أن تكون المفاهيم والمناهج وأدوات العمل خاصة بكلّ حقل من الحقول المعرفية . إنّ هذه النظرة الجوهرانية تترجم تصورا ثنائيا للمعرفة العلمية ، تصورا يقوم على مفهوم المركز والهامش أو الجواهر والعرض، والفكر البيني حسب هذه النظرة فكر يهتم بالأعراض دون الجواهر وبالهوامش دون المراكز لذلك يتّهم هؤلاء المنتسبّون بالتخصّص الدقيق غيرهم من العلماء الذين يدعون إلى تلاحق المعارف وتفاعل التخصصات بأنّهم لا ينفذون إلى جوهر التخصص بل يرون أنّهم يسبحون على شواطئه المسطّحة ولا يتطرّقون في أعمالهم إلّا إلى القضايا الجانبية والجزئية والهامشية. والواقع أنّ هذه الرؤية لا تؤمن بتاريخية العلوم والمعرفة، ولا ترى أنّ العلوم تعبير عن ثقافة الإنسان في كل مرحلة من مراحلها، ولا يرى هذه الفريق أنّ الكسر المعرفي أو القطيعة المعرفية محرّك من المحركات الأساس الدافعة لتاريخ العلوم، وأنّ كل نظرية علمية إنما هي إجابة مؤقتة عن أسئلة متجددة دائمة ، إجابة تنتظر غيرها من الإجابات التي تقدّمها وتعوضها إلى حين . إنّ هذه الرؤية هي في الحقيقة رؤية وضعية تصدّق في واقع الأمر قول يورجين هابرماس (J.Habermas) من أنّ المعرفة هي نتاج ثقافة المجتمع وتمثله للأشياء، وهو نتاج يمكن أن تشوّهه نزوات المجتمع ورغائبه وميوله . وأما الرؤية المقابلة فهي رؤية الذين يذهبون إلى أنّ العلم والمعرفة منتوج بشري متغيّر، وهو شكل من أشكال التعبير عن التفكير الإنساني في مرحلة من مراحل تاريخه، وأنّ إنتاج المعرفة العلمية ممارسة اجتماعية متغيّرة، وهم يرون أنّ البينية مكوّن من مكونات كلّ علم، وهي السدى الذي يشدّ النسيج المعرفي الإنساني بعضه إلى بعض، ويرون أنّ كلّ علم من العلوم يتضمّن في مادته ومنهجه ومفاهيمه نسبة ما من علم آخر يشترك فيها معه، فعلم التاريخ القديم مثلا يتضمن في جانب منه مجالا يتقاطع فيه مع علم الحفريات وهو علم قائم بذاته. وعلم المنطق كذلك يتداخل والرياضيات في أكثر من مستوى، ويرون كذلك أنّ الأصول المنهجية التي يقوم عليها علم المنطق إنّما هي قاسم مشترك بين الرياضيات وعلوم اللغة، فالقياس أصل من الأصول المنهجية في علم النحو، وعليه يعتمد النحاة في استنباط القواعد من المدونة اللغوية، ولكنه كذلك أصل من الأصول المنهجية في علم الفقه لأنّ استنباط الأحكام الفقهية لا يتم إلّا بالقياس والسماع . وفي هذا السياق يقول عالم الإيبستيمولوجيا الفرنسي روبرت بلانشيه (R.Blanché) : " إنّ اختلاط العلوم بعضها ببعض أصبح اليوم هو القاعدة تقريبا، وأخذت هذه العلوم في التزايد والامتزاج فيما بينها وأصبحت حدودها متحركة وغير ثابتة، وتوحّدت في داخلها المعارف الأكثر تباعدا والأكثر اختلافا مثل السيبرنيطيقا

(Cybernetics) التي تقوم على التعاون بين المنطق ثنائي القيم ونظرية الدوائر الكهربائية، وكذلك فيزيولوجيا الأعصاب، وتنشأ وحدة العلوم استنادا إلى تلك العلاقات العديدة الموجودة في نسيج الأجزاء المختلفة للمعرفة<sup>2</sup>. وتذهب هذه الرؤية كذلك إلى أنّ الصلات الجامعة بين العلوم لا تختلف عن تلك التي تجمع بين التيارات الفكرية في مناخ من المناخات الثقافية، فالحقول المعرفية تتصارع وتتنازع المواقع والموضوعات، ويسعى كل علم إلى الهيمنة على غيره وإلى افتكاك مجال من مجالاته .

والواقع أنّ حركة تجديد النظر في مفهوم العلم وحدوده لم تحدث من داخل منظومات العلوم بل إنّ الذين يشقّون الطريق لإعادة تصنيف العلوم والمعارف هم مؤرّخو المعرفة والعلماء متعدّدو التخصص الذين جمعوا بين حقول لا يمكن للعالم ذي التخصص الواحد أن يمثّلها كجمع الخليل بن أحمد بين اللغة والعروض وجمع الفارابي بين الموسيقى والفلسفة وأصول اللغة أو جمع قاستون باشلار في العصر الحديث بين الفيزياء، والشعر، فهؤلاء العلماء هم الذين أسهموا في بناء الفكر البيئي قديما وحديثا<sup>3</sup>، وهذا أمر طبيعي لأن الرافضين له غير معنيين بالتفكير في مدّ الجسور بين العلوم وفي ابتكار علوم جديدة صالحة لعصرنا هذا. ولعل الكتاب الذي وضعه متاي دوغان وروبرت باهر على ما فيه من مشاكل منهجية يعدّ ممثلا لهذا الصوت ولهذه الرؤية البيئية إذ يذهبان إلى أنّ التلاقح بين الحقول المعرفية والتخصصات المتجاورة هو الذي يضاعف احتمالات الابتكار، ويريان أنه كلما ابتعد العلماء عن محاور تخصصهم ومراكزها وراحوا يبحثون عن مصادر المعرفة والاستكشاف في مناطق التخوم والحدود تعاظمت فرص الخلق والإبداع<sup>4</sup> .

---

<sup>2</sup> نظرية المعرفة العلمية، تعريب حسن عبد الحميد، دار رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة 2014 ص 141 وانظر بقية النص أسفله مختارات التفكير البيئي.

<sup>3</sup> ينظر في حديثنا عن أعلام الفكر البيئي أسفله الفصل الأخير من هذا الكتاب.

<sup>4</sup> صدر هذا الكتاب بالإنجليزية: Creative Marginality : Innovation at the interactions of Social

Sciences .Westview Press; Boulder; San Francisco and Oxford 1990

وصدر بالفرنسية بعنوان : l'Innovation dans Les Sciences .

sociales;La marginalité créatrice ;P.U.F 1

إن الفكر البيني مسار في تاريخ الفكر العلمي مناهض تمام المناهضة لجملة من المبادئ التي تقوم عليها أخلاقيات (Ethique) الفكر العلمي في العصور القديمة، وهي مبادئ تحرّك الرافضين للفكر البيني في عصرنا هذا ويمكن أن نجعلها في المحاور الآتية

## -مبدأ تراتبية العلوم والمعارف وتفاضلها :

إنّ العلوم والمعارف في الفكر الإنساني القديم مؤسسات ثقافية واجتماعية مترابطة متفاضلة وفق ما تقتضيه البيئة التي تنشأ فيها تلك العلوم والمعارف وتحتاج إليها، وفي هذا الترتيب والتفاضل توسم علوم أوحقول معرفية بأنها علوم شريفة ونافعة ورفيعة وتوسم أخرى بأنها علوم وضيعة وهامشية وغير نافعة . وقد كان تاريخ الثقافات القديمة حافلا بألوان الصراع بين القوى المتحكّمة في العلوم والمعارف، وظهر هذا الصراع في أشكال تعبيرية مختلفة. وإنّ افتقار الإيبستيمولوجيا القديمة إلى الحسّ البيني قد أوقع الخطاب الماوراءعلمي في المفاضلة بين العلوم كالمفاضلة بين البلاغة والحساب والنحو والمنطق والنثر والنظم. واتضحت في خطاب هذه المفاضلات النزعة النفعية الذرائعية<sup>5</sup> التي بني عليها تفضيل علم على آخر يقول التوحيدي متحدّثاً بصوت من يفضّل الحساب على البلاغة في الليلة السابعة من كتاب الإمتاع : " ولما عدت إليه في مجلس آخر (يعني الوزير أبا عبد الله العارض ابن سعدان) قال سمعت صياحك اليوم في الدار مع ابن عبيد فيم كنتما ؟ قال: كان يذكر أنّ كتابة الحساب أنفع وأفضل وأعلق بالملك، والسلطان إليه أحوج وهو بها أغنى من كتابة البلاغة والإنشاء والتحرير...وبعد، فمصالح أحوال العامة والخاصة معلقة بالحساب على هذه الجديلة يجري الصغار والكبار والعلية والسفلة، ومازال أهل الحزم يحثّون أولادهم على تعلم الحساب ويقولون لهم هو سلّة الخبز..."<sup>6</sup>. إلّا أنّ ردّ أبي حيان التوحيدي كان مستندا إلى حجج مستمدّة من مواضع<sup>7</sup> الفكر البيني القديم إذ يذهب إلى أنّ علم الحساب يحتاج

---

وصدر بالعربية بترجمة محمود الذواذي، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر سورية 1997 .

<sup>5</sup> ينظر في صالح زياد: القارئ القياسي، منشورات دار الفارابي بيروت 2008 ص222.

<sup>6</sup> الإمتاع والمؤانسة، تحقيق أحمد أمين وأحمد الزين، منشورات المكتبة العصرية بيروت صيدا د- ت ج 1 ص96-97.

<sup>7</sup> لم نجد في ما بين أيدينا من الأبحاث ما يدلّ على أنّ الدارسين يستثمرون التراث العربي الإسلامي الذي استعمل عبارة **الموضع استعمالاً فنياً اصطلاحياً** واستفاد استفادة كبرى من النظرية الشعرية الأرسطية. لقد احتفل القدامى



بهذا المفهوم احتفالاً بعيد المدى وعزب ابن سينا والفارابي و ابن رشد كتابي الشعر والخطابة و فهموا الأسس النظرية لمفهوم الموضوع ولمختلف صيغ استعماله في الخطاب الأرسطي . وقد كان أرسطو أفرد الجزء الخامس من كتاب الأورقانون للمواضع سمّاه طوبيقا . (Topics) وتتبع أنواع المواضع في مختلف الخطابات فصنّفها إلى مواضع جدلية وهي مواضع المناظرات المنطقية والمواضع السفسطائية والمواضع الخطيبية والمواضع الشعرية . ولا يعنيها في هذا المقام إلاّ المواضع التي نستفيد منها في قراءة الخطاب الأدبي التداولي أي الخطابة والشعر . و قد اتفق شراح أرسطو على أن هذا المفكر العالمي لم يورد عبارة المواضع بمعنى واحد بل استعملها في سياقات مختلفة دالة على أن هذا المفهوم متعدّد الوجوه والدلالات<sup>7</sup> . لذلك يعسر علينا مهما اجتهدنا أن تعريف أرسطو للموضع في وجهة دلالية مخصوصة لأنّ هذا المفكر لم يعرفه بشكل جامع مانع وإنّما تلوّن المفهوم بحسب السياقات التي ناقش فيها أرسطو مضامين أنماط الخطاب التي اعتنى بها وحركة إنتاج المعنى . وقد عرّف أرسطو الموضع في كتاب **المواضع** ، بقوله "إنّ **المواضع هي اسطقسات القياسات**"، ولكنّا طلبا للوضوح و التبسيط والتيسير نستند إلى تعريفات الفلاسفة المسلمين فقد وضّحوا بأسلوب بيداغوجي دقيق الدلالة العامّة للمفهوم فقال ابن رشد : إنّ الموضع "أصل منه تؤخذ المقدمات في قياس من المقاييس التي تعمل على المطالب الجزئية في صناعة" . فالدلالة العامّة للمواضع في الفكر الأرسطي أنّها قوانين تستنبط منها المقدمات الجزئية في القياس أوإن شئنا قلنا إنّها أحكام حكم منفردة تتولّد منها أحكام كثيرة تجعل كلّ واحد منها جزء قياس أو هي فكرة عامّة أو مقدّمة صالحة للاستعمال ضمن قياس شعري أو خطابي أو برهاني ، وقد جاء عرض هذا المدلول مثلا في مقدّمة حديث أرسطو عن المواضع المشتركة في الحادث حيث يقول : " من المسائل ما هو كوني و ماهو خاص ، فمن الكوني مثلا قولك :كلّ لذة هي شيء حسن ومن الخاصّ قولك مثلا : " بعض اللذة هي شيء حسن " .

إنّ هذا الاتجاه الدلالي الأوّل يعطي الموضع دلالة مضمونيّة شكلية في آن ، فالموضع بهذا التعريف شكل معنوي ممكن في صناعة القضايا الشعرية والخطيبية والمنطقية ، وهو جهة معنويّة يتّجه إليها المتكلّم ليأخذ منها الحجة التي ينبغي استخدامها في تلك المقدّمة، ويستعمل الخطيب والمنطقي هذا النوع من الحجج لإثبات القضية ولدحضها في آن لذلك ينظر أرسطو إلى الموضع من جهتي الإثبات والنفي . و يمكن للمتأمل في كتاب الخطابة أن يلحظ أنّ أرسطو يستعمل الموضع في معنى مشتقّ من مسالك الأجناس الخطيبية الكبرى الثلاثة وهي الخطابة القضائية والحملية والمشارجية يحدّد مواضعها العامّة والخاصة من خلال الأزواج الأخلاقية الثلاثة الكبرى وهي النافع والضارّ بالنسبة إلى الفضائل والرذائل المتّصلة بالخطابة المشارجية والجميل والقبيح بالنسبة إلى الخطابة الحملية والحقّ والباطل بالنسبة إلى الخطابة القضائية .

وقد استعرض أرسطو مختلف المواضع التي ينبغي استعمالها في هذه الأجناس الخطيبية من ذلك مثلا أنّه حدّد في مسالك اختيار المواضع الواجب استخدامها في **المفاضلة بين الأشياء المشتركة في الفضائل** الأشكال المعنويّة العامّة فقال " إنّ كلّ شيء ممدوح هو دوما ممدوح بالنسبة إلى شيء أصغر منه يحتويه ويجاوزه في الكمّ أو في النوع" ، ويعني أرسطو بهذا أنّ حجة المدح بالكثرة مثلا لا تكون مقنعة إلاّ في سياق المفاضلة بين الأكثر والأقلّ . ( انظر مثلا المفاخرات الجاهلية ) . وذلك لأنّ الإقناع لا يتمّ إلاّ في إطار ثقافة واحدة ، إذ ينبغي أن يكون المتخاطبان متواضعين على القيم التي يتفاخران بها .

فالموضع في الخطاب الأدبي اتّجاه بالقول نحو **جهة معنوية** أو نحو " **خزينة من الحجج النموذجية** " التي يأخذ منها الشاعر أو الخطيب أو المترسل أو المناظر المعنى الأدبي الذي منه يصوغ الغرض وينظم معانيه .

إلى علم البلاغة، وأنّ هذين العلمين ليس أحدهما بمنفصل عن الآخر يقول: "قلت أيها الرجل قولك هذا كان يسلم لو كان الإنشاء والتحرير والبلاغة بائنة من صناعة الحساب والتحصيل والاستدراك، فأما وهي متصلة بها وداخلة في جملتها ومشتمة عليها وحاوية لها فكيف يطرّد حكمك وتسلم دعواك؟ ألا تعلم أنّ أعمال الدواوين التي ينفرد أصحابها فيها بعمل الحساب فقيرة إلى إنشاء الكتب في فنون ما يصفونه وما يتعاطونه بل لا سبيل لهم إلى العمل إلاّ بعد تقدمة هذه الكتب التي مدارها على الإفهام البليغ والبيان المكشوف والاحتجاج الواضح، وذلك يوجد من الكاتب المنشئ الذي عبته وعضضته؟"<sup>8</sup>.

لقد أدرك أبو حيان التوحيدي أنّ العلم مهما يكن نوعه لا يمكن أن يظهر وأن يستعمل وأن يفكر فيه العالم، وأن تبرز مضامينه ومنهجه ومصطلحاته أو مفرداته وفوائده النظرية والعملية ما لم يكن له خطاب يتجسم فيه، وهذا الخطاب هو اللوقوس<sup>9</sup> نفسه أي لغة العلم والفكر، فالبلاغة ليست موضوع الترف الأدبي والزخرف البياني بل هي مادة جميع أنشطة التواصل الفكري، وهي من المجالات البيئية لأنّ لكل معرفة بلاغتها التي تصاغ فيها مفاهيمها. إلاّ أنّ أبا حيان نفسه يقع في فخّ المفاضلة بسبب تعصّبه للجانب الفني والأدبي من الفكر العلمي، فيفضّل البلاغة الأدبية على الحساب ويقع في التناقض الذي نبّه عليه في مستهل خطابه: "فلو ظن ظانّ أن مدار الملك على الحساب فهو صحيح، ولكن بعد بلاغة لأنّ السلطان يأمر وينهى ويلطف ويخاطب ويحتج وينصف ويوعد ويعد..."<sup>10</sup>.

ولا يظهر هذا التنافس بين العلوم فحسب بل يظهر كذلك بين المؤسسات الحاملة للمعارف أو الوظائف في صلب الدولة، وفي هذا السياق يندرج ذلك المطلع الشهير لأبي تمام الطائي في قصيدته البائية:

السيف أصدق إنباء من الكتب \*\*\* في حدّه الحدّ بين الجدّ واللعب

فهو شعر فيه انتصار من الشاعر لمؤسسة الجند والحرب وللمدافعين عنها بإزاء مؤسسة التنجيم، ولا شكّ في أن هذا النوع من المعاني الشعرية يدل على أنّه كان يوجد صراع في قصور العباسيين بين هذه

<sup>8</sup> م.ن ص 98.

<sup>9</sup> اللوقوس هو الكلام المؤثر بالعقل والأفكار.

<sup>10</sup> الإمتاع 100/1.

المؤسسات التي ترغب كلّ واحدة منها في إثبات نجاعتها وجدواها ووظيفتها النفعية بالنسبة إلى شؤون الدولة .

لقد كانت الثقافات القديمة جميعها تقسّم العلوم وتصنّفها بحسب الطبقات المناظرة في تصورهما لمكانة الطبقات الاجتماعية فتعلي من شأن بعض العلوم وتعدّها علوما شريفة أو نبيلة، وتحطّ من شأن علوم أخرى وتعدّها علوما وضيعة، والأمر نفسه حاصل في الصناعات وفي مجال الأجناس الأدبية إذ تعدّ الشعر والخطابة والرسائل من الأجناس الرفيعة بالقياس إلى سائر الأجناس الأدبية. ونحن لا نكاد نجد في النظرية الأدبية القديمة اهتماما بالمقامة أو بالخبر الأدبي أو بالسيرة الذاتية أو بغيرها من الأجناس الأدبية التي كانت توضع على هامش النظرية. وإنّ هذا التصور التفاضلي للعلوم وثيق الصلة بمبدأ ثان في مجموعة المبادئ الخاصة بتراتبية العلوم وهو صفوية العلم :

### -صفوية العلم:

ترجع مسألة الصفوية في العلوم والأدب والفنّ إلى أصل ثقافي عام يجاوز تاريخ الأفكار إلى التاريخ الثقافي الإنساني عامة، وإلى المنظومة المعرفية والتمثلات الفكرية التي تتقاسمها الحضارات الإنسانية القديمة وفي أنماط المعاش بشكل أعم. ففي العالم الرعوي القديم كان المنتج الحيواني يرتّب بحسب أصالة النوع وهجنته ، فكلما كان الصنف الحيواني أصيلا غير مولّد أو مهجّن كان ذلك أدلّ على الجودة سواء أكان للمركوب أو للمأكول، وكلما كانت الأنواع صافية اللون غير هجينة أي كانت بيضاء أو سوداء كانت كذلك أدلّ على الجودة. وينطبق الحكم نفسه على العالم الزراعي القديم فكلما كانت أصناف المزروعات أصيلة غير مهجنة كانت أجود . وقد أثر هذا التصور في تحديد مفهوم جمالية الأشياء فكان جمالها يقاس برسوخه في اللون غير الهجين وخاصة الأسود والأبيض. ويقدم لنا الجاحظ في رسالة مفاخرة السودان على البيضان نموذجا رائعا في خطاب المفاخرة بالنوع أو حجة الكيف كما يقول كايين برلمان<sup>11</sup> حين قال: "قالوا وليس لون أرسخ في جوهره وأثبت في حسنه من سواد، وقد جرى

---

<sup>11</sup> حجج الجودة : وهي عند غرايس حكمة من الحكم (The maxim of quality)

وقد عرفها عبد الله صولة فقال : " وهي ضدّ الكمّ من حيث أنّها نسيج وحدها، فهي واحدة ضدّ جمع، وتستمدّ قيمتها من وحدانيّتها ، فهي واحدة مقابل آراء البشر المختلفة " . ينظر في عبد الله صولة: في نظرية الحجاج، مسكلياني للنشر، تونس 2011 ص 27 . .

المثل في تبعيد الشيء: " لا ترى ذلك حتى يبيضّ القار وحتى يشيب الغراب"...وأصلب الأحجار سودها  
وقال أبو دهب الجمحي يمدح الأزرق المخزومي وهو عبد الله بن عبد شمس بن المغيرة :

فإنّ شكرك لا انقضاء له \*\*\* ما دام بالجزع من لبنان جلمود

أنت الممدّح والمغلى به ثمننا \*\*\* وهل يعاتب صخر الجندل السود<sup>12</sup>.

إنّ هذا النموذج الأعلى في الفكر الإنساني القديم هو الذي أنتج النظرة الصفوية للعلوم والفنون .وإنّ ترتيب العلوم والمفاضلة بينها في الفكر القديم يقتضيان أن تكون موضوعات العلوم متميزة وأن يكون التداخل بينها غير محمود، وفعلًا فإنّ النزاع بين النحويين والمناطقية مثلاً هو في حقيقة الأمر نزاع حول منطقة بينية لم يدرك النحاة ولا المناطقية أنها لا يمكن أن تكون مكوّناً من مكونات تخصّص أو علم دون آخر. إلّا أننا لا نعدم في الفكر القديم ملحوظات ثاقبة حول فوائد تداخل المعارف والعلوم من ذلك قول الجاحظ في الحيوان : " وليس من الأبواب باب إلّا وقد يدخله نتف من أبواب أخرى على قدر ما يتعلّق بها من الأسباب ويعرض فيه من التضمين، ولعلك أن تكون بها أشدّ انتفاعاً"<sup>13</sup>.

وبعد فإنّ هذه المبادئ المكرّسة لتمايز العلوم لم تصمد في العصر الحديث إزاء المنظومات الفكرية التي أعادت النظر في مفهوم حدود العلم، وقد كان كلود ليفيس شتراوس (C.L.Strauss) أحد رواد هذا

---

مثال : السؤال : لماذا اخترت قراءة الكتاب دون الجريدة ؟

الإجابة بحجة الجودة : لأن الكتاب أعق تعبيراً عن الأفكار .

ويستعمل المحاور الحجاج بالكم : وهي عكس الجودة و هي عند غرايس (the maxim of quantity) .

مثال :

السؤال : لماذا تعدّ كثرة الإنجاب أفضل من قلته ؟

الإجابة :لأنني أفكر في ما يجلبه الأولاد من أنس وما يحققونه من مساعدة في كافة مناحي الحياة .

ويحتاج المناظر إلى معرفة المواضيع العامة ليرتجل الإجابات ويتجنّب الإحراج في كثير من الأسئلة .

<sup>12</sup> رسائل الجاحظ،تحقيق هارون 207/1.

<sup>13</sup> الحيوان تحقيق هارون ج6 ص15.

الاتجاه في إنشاء العلاقات المخصصة بين العلوم الإنسانية وفي صدارته علم الإناسة (Anthropologie) واللسانيات، ويقدم عبد السلام المسدي كتابه الأنتروبولوجيا البنيوية بقوله: "ومعلوم أنّ الكتاب من أسبق المصادر المعاصرة إلى سنّ تضافر المعارف بين اللسانيات وسائر العلوم الإنسانية لذلك خصّص المؤلف فصلا للتحليل البنيوي في علم اللغة وفي الأنتروبولوجيا، وفصلا لعلاقة اللغة بالمجتمع وآخر لعلاقة علم اللغة والأنتروبولوجيا"<sup>14</sup>. وجاء بعده إدغار موران (E.Morin) فواصل مسيرته المنهجية مستثمرا فكر باسكال (Pascal) العلمي ومقولته الشهيرة وهي "أنه لا يمكن معرفة الجزء دون معرفة الكل". ولم يكن فكر علماء الاجتماع أقلّ شراسة في مهاجمة المؤسسة العلمية المغلقة على ذاتها فبيار بورديو (P. Bourdieu) يعدّ العلم مؤسسة اجتماعية ذات سلطة أو حقا من حقول السلطة، فالعلم لا يمكن أن يشتغل بمعزل عن الرعاية الاجتماعية والاقتصادية والثقافية، وهو تابع من توابع القوى المؤثرة في الواقع، وتزداد قوته الاجتماعية بتحوّله إلى مادة تعليمية حيث تظهر الحاجة إلى أنواع بعينها من العلوم لتأدية وظائف اجتماعية، فتتراتب المعارف وتتفاضل وتظهر علوم رفيعة نبيلة أو شريفة وأخرى وضيفة وغير نافعة. ونحن نرى اليوم كيف تتعامل المجتمعات مع العلوم التي تقوم عليها المقررات المدرسية والبحثية المؤهلة للوظائف الاجتماعية العليا مثل الطب والصيدلة والطيران والهندسة الجينية والإلكترونية، وللمهن البحثية، وكيف تخصّص لها الكليات والمدارس الكبرى استثمارات عالية في مجال البحث البيئي حتى أنّ المركز القومي للبحث العلمي الفرنسي ينجز مشاريع بيئية تتضافر فيها التخصصات البيولوجية والحيوانية، وتعد فيها أبحاث التنوّع البيئي وعلم المحيط، والتخصصات التواصلية والإنسانية، وتشارك هذه التخصصات في الاهتمام بكيفية انتشار الأبحاث العلمية في الجمهور الواسع أي كيفية انتقال المعرفة المتصلة بالبيئة والتلوث والصحة الغذائية، وكيفية صياغة العلماء للخطاب الموجّه إلى غير المتخصّصين في هذه الحقول المعرفية لتثقيفهم وتوعيتهم وتدريبهم على طريقة اختيار العبارات الدالة على المفاهيم العلمية دون تشويه الحقيقة العلمية وتعلمهم كيف يمكن أن يستغلّ الإعلام الخطاب العلمي وينشره عبر الفضاءات الإعلامية ؟

لقد كان الفكر البيئي في تاريخ الأفكار - رغم تلك النظرة الصفوية التي رأيناها - محرّكا من المحركات الكبرى لدفع هذا التاريخ وإلخسابه ولتطوير نظريات المعرفة في جميع الحضارات. ففي

<sup>14</sup> قاموس اللسانيات ، الدار العربية للكتاب، تونس 1984، ص80.

العصور القديمة كان البحث عن روح المنطق العام الرابط بين مختلف الصناعات والعلوم وراء أبقراط وأرسطو، وكانت الرغبة في الكشف عن أسرار العلاقة بين العلوم الشرعية والعلوم اللغوية وراء تأصيل مختلف العلوم وبيان عللها وأدلتها العقلية والعقلية. وفي العصر الحديث كانت رغبة كايين بيرلمان (C.Perelman) في إدراج نظرية الحجاج ضمن نظرية المعرفة يحركها تخصصه فيلسوفا في الحقوق المدنية وروحه المنطقية الوضعية . وتتوج جون بروكمان (J.Brockman) ملحمة التحوار بين العلم والأدب في القرن الماضي بكتاب بيني على غاية من الأهمية بالنسبة إلى من يريد التعمق في الدراسة البيئية سمّاه الثقافة الثالثة وهو ( The third Culture :Beyond The scientific Revolution). وهكذا فإنّ البيئية أصبحت مصطلحا علميا عالميا يجري على ألسنة المتخصصين في الآداب وفي فلسفة اللغة وعلوم التواصل منذ أكثر من أربعة عقود، وهو مصطلح يستعمل بلغات مختلفة أهمها الإنجليزية والفرنسية والعربية. وهو يختلف بطبيعة الحال في مضمونه عن مفهوم البيئية في علم الأصوات أي الأصوات المتوسطة التي بين الشدة والرخاوة<sup>15</sup>، وقد تمخّض هذا المصطلح لثلاث دلالات مختلفة متكاملة هي : أولا دلالة تعدّد التخصص (Pluridisciplinarity-Pluridisciplinarité) وهو أن يشترك أكثر من تخصص في معالجة الموضوع نفسه، دون أن يكون الهدف من البحث إدماج المعارف بعضها ببعض كأن تقام ندوة حول الآثار المادية في إحدى المدن فيسهم عالم الحفريات بدراسة حول الأواني والمصوغات والنقوش ، وعالم طبقات الأرض يبحث حول الترسّبات التي تحفظ تلك الآثار، ويسهم عالم التاريخ في دراسة تاريخ المباني في تلك المدينة. ويذهب باتريك شارودو (P.Charaudeau) إلى أنّ تعدّد التخصصات " هو مجال تتكامل فيه الدراسات المتخصصة في حقول معرفية متميزة وتتراكم دون أن تتفاعل وتتقاطع بالضرورة، فكلّ تخصص يضيف إلى الموضوع المطروق معرفة ما أو وجهة نظر أو مقارنة ما، ويحافظ في الآن نفسه على استقلاله إزاء سائر التخصصات المشاركة له في خدمة ذلك الموضوع أو ذلك الحقل المعرفي "<sup>16</sup>. وثانيا دلالة التخصص البيئي (Interdisciplinarity-Interdisciplinarité) أي ألا يكون لتخصص ما وجود

<sup>15</sup> يستعمل علماء الأصوات هذا المصطلح، ينظر مثلا : الطيب البكوش :مفهوم البيئية في الصوتيات العربية، دراسات لسانية، جمعية اللسانيات، تونس 1997.

<sup>16</sup> Pour une interdisciplinarité focalisée dans les sciences humaines et sociales ;in Les cahiers des sciences humaines en Europe 17;2010 p195.

فعلي إلا بالتقاطع بين تخصصات مختلفة ، وأن تسعى التخصصات المختلفة إلى بناء معرفة واحدة من خلال تقاطعها كالكيمياء الحيوية أو اللسانيات الحاسوبية، أو علم اللغة الاجتماعي، وثالثا دلالة التعالي التخصصي (Transdisciplinarity-Transdisciplinarité)) أي أن يخرق موضوع واحد عدّة تخصصات وأن تتجمّع عدّة معارف من تخصصات مختلفة وتتجاوزها للبحث في موضوع خارج تلك التخصصات كموضوع الزمان في الفلسفة وفي الأدب وفي الفيزياء<sup>17</sup> . وقد كان لتبلور مفهوم الثقافة في بعدها الإيجابي دور بعيد المدى في تبلور التقاطع المعرفي، وتزعمت المدرسة الأميركية المقارنة هذه الدعوة إلى "تقاطع التخصصات الذي يسهم في بناء المعرفة الشاملة القادرة على التأثير العالمي"<sup>18</sup> . ولكن لهذا المصطلح وجهة دلالية ثانية وهي صفة التفاعل الإبداعي بين فنيين أو علمين مختلفين، وهو بهذا التعريف صفة قديمة في تاريخ الآداب والفنون والعلوم .

وككلّ مصطلح جديد لم يتفق الدارسون بعد على تعريف مفهوم البينية وحدودها ومجالاتها، ولم تنتج دراساتهم ما يكفي من الأعمال التي تهتم بالمصطلح والتي يمكن أن يطمئن إليها أهل التخصص في ما يعرف اليوم بالعلوم البينية، فالبينية في الفكر العلمي الحديث موضوع خلافي ومجال من مجالات المؤثرة في تاريخ الأفكار، ومدخل من المداخل المهمة إلى تصنيف العلوم والمعارف وربطها بالفكر العلمي. وقد صدرت منذ عقود عدة دراسات مسحية لتوثيق المرجعيات النظرية التي تعرّف البينية ومجالها موضوعها<sup>19</sup> وتؤرخ لها<sup>20</sup> فمن التعريفات الأولى- وقد جاء في عمل أنجزه ميشال نيساني- أنها: " عملية تفاعل وتبادل للمعارف بين تخصصات مختلفة، وهو تبادل قد يفضي إلى أن تتكامل التخصصات المتداخلة فتكون تخصصا جديدا. والبينية هي تضاف يحدث بين مكونين أو أكثر يكون

---

<sup>17</sup> راجع هذا التمييز ضمن: Concepts clés; Ressources Pédagogiques; 1-4 -Interdisciplinarité

<sup>18</sup> محمد بن عياد: الأدب المقارن وثقافة، ضمن حوليات الجامعة التونسية العدد 50 لسنة 2006 ص 400 .

<sup>19</sup> R.A.Ciccorio: Integration in the curriculum. An Historical and semantic inquiry. Main. Currents; 27; pp60-62; 1970.

<sup>20</sup> J.C.A.Fazenda: Interdisciplinarida de historia tepria; São Paulo: Papirus; Editoria.

كلّ مكوّن منها منتميا إلى علم من العلوم أو تخصص من التخصصات"<sup>21</sup>. فالبينية بهذا التعريف مجال معرفي يثبت قدرة الفرد أو الشخص ذي الثقافة العالية المتنوعة على امتلاك معارف دقيقة في تخصصات مختلفة كأن يجمع بين علم الإحصاء الكمي والرياضيات الاحتمالية وعلم الاقتصاد السياسي . وربما كانت هذه التخصصات متباعدة كأن يجمع بين الاقتصاد المالي وعلم الموسيقى"<sup>22</sup>. ويقول ويليام نويل (W.H.Newell) وجولي تومسن كلاين (J.T.Klein): "إنّ الدراسة البينية دراسة مرجعها حقلان معرفيان فأكثر، وهي دراسة تجيب عن أسئلة وعن مشاكل يعسر على نظام معرفي واحد حلّها"<sup>23</sup>. وفعلا فإننا نلاحظ اليوم أن كثيرا من التخصصات البينية تحتاج في مراحل الدراسات العليا إلى أكثر من مؤطر، لأن التخصص بيني، فالبحوث التي تتجز في تعلمية الفيزيا مثلا تحتاج إلى مشرف من تخصص الفيزيا ومشرف ثان من علوم التربية ولغة العلوم وربما احتاجت إلى مشرف ثالث من علوم الإحصاء إذا كان الموضوع يستند إلى منهج إحصائي، ويمكن أن نقيس على الفيزياء سائر التخصصات. ويرى غير باحث أن الفكر البيني يجيب في العصر الحديث عن الإشكاليات التي يطرحها تراكم المعرفة وتعقدها"<sup>24</sup>. ويعرفها باتريك شارودو بأنها " جهد معرفي يبذل للربط بين المفاهيم والأدوات والنتائج التي يصل إليها التحليل في مختلف التخصصات"<sup>25</sup>

<sup>21</sup> M.Nissani:Fruits;salads;andsmoothies:A Working definition of interdisciplinarity.Association for Integrative Studies;Newsletter 18;1;4.

<sup>22</sup> Nour.Selamna : Interdisciplinarité : Concepts-Clés; in Ressources Pédagogiques; ICRA; Equipe Interdisciplinarité 1-14

<sup>23</sup> Advancing Interdisciplinary studies; in William.H.Newell ed; Interdisciplinary; Essays From the Literature.New York College Externale Examination Board.

<sup>24</sup> ينظر مثلا في : G.A.Lynton: Interdisciplinarity:Rationales and criteria of assessment.In.L.levin etI.Lin;Interdisciplinary revisited Re-assessing the concept in the light of institutional experience StockholmOECD-CERI;Swedish National Board of Universities and colleges Linkoping University.

<sup>25</sup> المرجع المذكور أعلاه ص204.



ويرى بعضهم من ناحية ثانية أنّ البينية ستصبح المقوم الأساس لتعريف العلم وأنّ كثيرا من العلوم تتداخل على نحو يجعل التمييز بينها عملا لا طائل من ورائه، ويقترح هؤلاء العلماء استبدال مصطلح العلم بمصطلح الحقل المعرفي (Champ de savoir) لأنهم يرون أن علوما كثيرة تتداخل مجالاتها بشكل حيوي ولا يمكن الفصل بينها من ذلك مثلا أن علم الجغرافيا الطبيعية Géographie (Physique) أصبح على غاية من التداخل مع علوم أخرى مجاورة له أو منافسة له في الاهتمام. يقول مومار سيس (M.Cisse) وممادو ديكاييت (M.Diakite) في مقال لهما بعنوان: اللسانيات وتحليل الخطاب والبينية: "إنّ تصنيف العلوم والتمييز بينها بشكل صارم عمل اعتباطي لا طائل من ورائه، فالفاعل بين المعارف خصيصة مؤسّسة لجميع مجالات المعرفة، وإنّما نشأت كثير من العلوم بتلاقح بين علوم قديمة كعلم الكيمياء الحيوية، والفيزياء الحيوية والرياضيات الحيوية (Biomathématiques) والجراحة الاتصالية (Téléchirurgie) وهي حصيلة تضافر المعالجة الحاسوبية والآلية (Robotique) والجراحة<sup>26</sup>. وقد تخلصت الجغرافيا في العصر الحديث من البحث في المجال البشري أي الاهتمام بالفضاء الذي يستحدثه الإنسان لنفسه في المكان والمعاش<sup>27</sup> واستقل هذا المجال وأصبح يسمّى جغرافيا المجال. ولما لحظ علماءها التداخل الكبير بينها وبين علم طبقات الأرض (Géologie) واختلاف مناهج التعامل مع المعلومة استتبّطوا مصطلحا جديدا هو الجيومورفولوجيا (Géomorphologie) ومخصّوه لوصف التضاريس الأرضية والترسّبات المائية وأثرها في تكوين الأخاديد الأرضية، ولكنه ظل في بعض المؤسسات العلمية جزءا من علم طبقات الأرض<sup>28</sup>. ويرى آخرون أن التخصص الضيق لا يتلاءم وروح العصر الحديث، فالطبيب بحاجة في تكوينه المعرفي إلى ثقافة التواصل النفسي والاجتماعي مع المريض، وهذه الثقافة لا يمكن أن يكتسبها الطبيب ما لم يكن له في مقرراته الدراسية وهو طالب مقرر أو اثنان في علوم التواصل وكيفيات بناء الخطاب واستعمال آليات إقناع المريض بمراعاة حاله النفسية. فعلوم التواصل في مجال الطب حقل بيني يمكن الطالب

<sup>26</sup> Linguistique-Analyse du discours et Interdisciplinarité; Revue Internationale des sciences du langage;8;2007;p12.

<sup>27</sup> Roget Brunet: Les mots de la Géographie: Dictionnaire critique;Reclus; La documentation Française 1992p235.

<sup>28</sup> م.ن ص 239.

الطبيب من معرفة أساليب التخاطب مع المريض بحسب أنواع الأمراض وشخصيات المرضى وأوضاعهم النفسية والاجتماعية وجنسهم وسنهم وأمزجتهم التي يدركها الطبيب بالمراس والدربة لذلك يدرج في مقررات تعليم الطب مقرر يبني يدرّب الأطباء على مخاطبة المريض بأسلوب يجمع بين المصارحة وهي ضرورية وسياسة القول التي لا تصدم المريض بل تجعله يتفاعل مع المرض مهما تكن خطورته تفاعلا إيجابيا . وقد كان تطور مؤسسات البحث العلمي في الدولة الوطنية الحديثة، واستقرارها في صلب الخطط الإستراتيجية للتنمية في جميع المجالات دافعا هاما من دوافع تطور العلاقات العلمية والمعرفية بين مختلف التخصصات، فقد أصبح علم الإحصاء ومناهجه علما مساعدا لعامة العلوم الإنسانية والأساسية، ولا يمكن اليوم لأي مختبر أو حلقة بحث أو مكتب من مكاتب الدراسات في أي تخصص من التخصصات أن ينجز بحثا حول ظاهرة من الظواهر الطبيعية أو الاجتماعية والثقافية أو العلمية دون إنجاز ما يتطلبه البحث وجوبا من إحصاءات واستبيانات. وقد تنامي تفرّع العلوم الأصول إلى تخصصات دقيقة وجزئية في مختلف الحقول المعرفية حتى أصبح علم الوحدات الصغرى علما أفقيا فرعيا في عامة العلوم كعلم الخلايا الوراثية (Microgénétique) وعلم الذرة بمختلف فروعها و علم الحياة الدقيق (Microbiologie) . وقد جاوز علماء الجغرافيا في العصر الحديث التصنيف القديم لهذا المجال الواسع، وصنّفوه إلى عشرة مجالات هي الجغرافيا البشرية والتطبيقية والتعليمية والجزرية والطبيعية والكمية وجغرافية التغذية والحيوان والسكان والنبات<sup>29</sup>.

والواقع أن أغلب الباحثين يعتقدون أيامنا هذه راسخ الاعتقاد أن مستقبل الدراسات الأدبية في العقود القادمة ستكون لا محالة للمجالات المعرفية البينية، لأن المشاريع البحثية الضيقة قد استنفدت طاقاتها الفكرية والمنهجية وأعلنت عجزها التام عن مواكبة مقتضيات العصر ومتطلّبات البحث العلمي في مجال الآداب، وأصبحت موضوعات متحجرة محتّطة، فتاريخ الأدب في صيغته التي ورثت عن جيل طه حسين قد استنفد جميع الموضوعات المسحية والتوثيقية، ودراسة الأعلام والأجناس الأدبية والأغراض. والموضوعات البنيوية لم تعد تغري الباحثين المتطلّعين إلى ربط الأدب بالحياة الحقيقية، وفي تقديرنا إن الدراسات البينية هي التي تفتح للباحثين سبل الربط بين الأدب والحياة في مظاهرها كافة، وقد لاحظنا أنّ حقول البحث العلمي في اللغة العربية تتفصل كل يوم أكثر فأكثر عن العالم

---

<sup>29</sup> علي لبيب (مشرفا) قاموس الجغرافيا، شمال جنوب، تونس 2002.

الاجتماعي والنفسي والجمالي والاقتصادي الذي يعيشه الإنسان العربي، وأنّ مخيال البحث في التخصصات الضيقة ينضب يوما فيوما، ويظهر عجزه عن استنباط الموضوعات المفيدة لإنسان هذا العصر الداعمة لإشعاع اللغة العربية . وهو ما أثر سلبا في واقع اللغة العربية وفي صلتها بالعلوم الإنسانية المجاورة لها . ولحظنا في محيطنا الجامعي والبحثي إهمالا متزيدا لعلاقة اللغة العربية بالآداب الأجنبية، وبمنظرة الآخر للثقافة العربية <sup>30</sup> ولكلّ هذا حاولنا في هذا السفر أن نضع جملة من مسالك التفكير البيني التي يمكن أن تفيدينا في تطوير آفاق البحث في الأدب العربي بصفته مجالا بينيا.

ولم يكن الأدب القديم أقلّ مجالات المعرفة حاجة إلى تضافر التخصصات، فقد أصبح الأدب في العصر الحديث بانفتاحه على العلوم الإنسانية المساندة للدراسة الأدبية بحاجة هو أيضا ماسة إلى تضافر التخصصات في دراسة النص الواحد وتأويله، وغدت الشعريات الحديثة بحاجة إلى قراءة منفتحة <sup>31</sup> ، متعددة التخصصات، وقد وجدت التيارات التجريبية في الأشكال التعبيرية الرمزية مكونا من مكونات بناء الشعرية الحديثة، وشكلا من أشكال التواصل لا يمكن لشاعر أن يستغني عنه. ولما كانت الأسطورة وثيقة الصلة بالرمز فإنه من الطبيعي أن تكون وثيقة الصلة بالشعر. وانعتاق الأسطورة من الزمان والمكان يجعل قابلية تجدد تأويلها أمرا ممكنا، ويمكن الشعر من توظيفها باستمرار، وفي هذا

---

<sup>30</sup> الحقّ أنّ المستشرق سيغريد هونكة لم تدّخر جهدا في كتابها الشهير "شمس العرب تسطع في الغرب" لبيان أثر الثقافة العربية في اللغات الأوروبية في نهضة الغرب الحديث، ومن الأعمال المهمة التي تتفاعل فيها ثقافة اللغة العربية وسائر الثقافات العالمية نذكر عمل كاترينا مومزن، (Katarina Momzen) في جوتة والعالم العربي، عالم المعرفة 194، الكويت، شباط 1995، ص 9-10. وهذه الباحثة من كبار المتخصصين في الأدب المقارن بين الألمانية والعربية، ومن الذين انكبوا على دراسة صلة الأدب الأوروبي عامّة والأدب الألماني خاصة بالأدب العربي من عدّة قرون ، وقد بيّنت في أطروحتها كيف تأثر جوتة بالأدب الشرقي في شعره وسردياته. وقد اهتم الكثير من النقاد العرب بكتابة كاترين مومزن ، فترجمت مؤلفاتها إلى اللغة العربية. ونذكر من هذه الترجمات فضلا عن "جوتة والعالم العربي" وقد ترجمه عدنان عباس علي وراجعه الدكتور عبد الغفار مكاي كتابها الهام "جوتة وألف ليلة وليلة" وقد ترجمه أحمد الحمو ونشر بدمشق سنة 1980.

<sup>31</sup> يمكن أن نعدّ القراءة المنفتحة وريثا للقراءة المنغلقة، وقد سمّاها جاك دريدا القراءة المزدوجة، وهي ضرب من القراءة يتحرّر فيها الدالّ من الدلالة الشكلية التي تلحّ عليها النظرة البنيوية إلى الدلالة الجوهرية أي إلى مصدر القوّة الكامنة في ذلك الدالّ. ويسعى رواد هذه القراءة إلى جمع شتات المناهج التي ترفض القراءة البنيوية المحورية المغلقة وتؤسّس للقراءة المنفتحة.

المضمار يقول بدر شاكر السياب: " هناك مظهر مهم من مظاهر الشعر الحديث وهو اللجوء إلى الخرافة والأسطورة، ولم تكن الحاجة إلى الرمز، إلى الأسطورة أمس مما هي عليه اليوم، ونحن نعيش في عالم لا شعر فيه، أعني أنّ القيم التي تسود قيم "لا شعرية"، والكلمة العليا فيها للمادة لا للروح، وراحت الأشياء التي كان بوسع الشاعر أن يقولها أو يحولها إلى جزء من نفسه تتحطم واحدة فواحدة<sup>32</sup>.

إلا أن عامة أهل العربية من المدرسين والباحثين وطلاب العلم لم يتقحموا بعد هذا المجال البيني ولم يتساءلوا عن إمكان الاستفادة من هذا الموضوع ومن نتائج الأطروحات الكبرى التي تقدم في إطاره، ومن ثمة جاءت الرغبة في إنجاز هذا العمل، وذلك في سياق الجهود التي يبذلها مركز دراسات اللغة العربية وآدابها بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية. ونرمي من ورائه في مرحلة أولى إلى تعريف عامة أهل التخصص في الآداب العربية والمجالات القريبة منها بمفهوم الفكر البيني وبالمناخ المعرفي الذي نشأ فيه وهو مناخ معرفي يسم الثقافة العالمية التي نعيشها في المحيط الجامعي وغير الجامعي. ولهذا الفكر في الحقيقة جذور في تاريخ الفكر العربي الإسلامي، عند الجاحظ والفارابي والتوحيدي وابن سينا وابن خلدون وسائر علماء العربية ومفكرها من الذين نظروا إلى قضايا اللغة في سياق الفهم العالمي للمعرفة، وسنعمل على إبراز هذا الفهم في القسم الأول من هذا العمل. ونرمي في مرحلة ثانية من الكتاب إلى البحث عن مدى استفادة الثقافة العربية من الفكر البيني في مختلف مستوياتها، ونرمي في مرحلة ثالثة إلى الوقوف على نقاط القوة الكامنة في اللغة العربية والقادرة على الإسهام في إنتاج الفكر البيني العالمي.

لقد كانت منابر النقاش العلمي التي كنّا نسهم فيها منذ أكثر من خمس سنوات تسعى إلى إعادة فهم منزلة اللغة العربية من اللغات العالمية الحاملة للمعارف الدقيقة والإنسانية والاجتماعية في عصرنا هذا، وإلى إعادة التفكير في مضامين تعليمها وطرائقه، وإلى وظائف ذلك التعليم وأهدافه وعلاقته باللغة العربية ذات الكفاءة التواصلية. وكان السؤال الذي يتردد على ألسنة الباحثين وهم يسعون إلى إعادة تعريف علوم اللغة في العصر الحديث هو: هل ينبغي لتخصص اللغة العربية في هذا القرن الجديد - كي لا نقول الألفية الثالثة - أن يحافظ على المنظومة العلمية والتعليمية التي اشتغلت بها الأجيال السابقة بصرف النظر عن التطور الاجتماعي والثقافي وعن التغيير الذي تشهده مهن اللغات في

<sup>32</sup> حسن توفيق: بدر شاكر السياب، دراسة فنية وفكرية المؤسسة العربية للدراسات والنشر 1979 ص 313.

عصرنا هذا ؟ هل دراسة اللغة لا تعني بالضرورة سوى دراسة المضامين النحوية والصرفية والبلاغية والأدبية التي اهتم بها الوسط التعليمي منذ قرون أم يمكن أن تتوسّع دوائر الاهتمام باللغة لتشمل قضايا وأنشطة تعليمية أخرى تقتضيها حاجات اللغة العربية في عصرنا هذا ؟ وبعبارة أخرى هل التخصص مجال محدّد بصفة نهائية لا يمكن أن يعاد فيه النظر بحسب معايير تشتق من العصر المعرفي الحديث، ويظل خاضعا للمنظومة المعرفية التي نشأت فيها العلوم اللغوية منذ تأسيس علوم اللغة أم يمكن أن يعاد النظر في محتوى التخصصات ووجهتها ومفاهيمها ومناهجها ؟.

وقد أسلمنا هذا السؤال إلى محاولة البحث في منظومة العلوم الإنسانية والاجتماعية المجاورة لتعليم اللغات للنظر في العلاقات البينية بين تعليم هذه المعارف وتعليم اللغات، فخلصنا إلى أنّ حقول الدراسات اللغوية لم تعد لها قدرة على تعليم اللغات والتواصل الثقافي بمعزل عن العلوم المجاورة لعلوم اللغة، فلا يمكن اليوم على سبيل المثال أن نعلّم النحو والصرف دون أن تكون لنا معرفة دنيا بنظريات الأخطاء : كيف يرتكب المتكلم الأخطاء ؟ ما هي المؤثرات البنيوية والتداولية التي تسهم في إنتاج الخطأ في مجال الإعراب أو التصريف أو الإملاء والتحرير؟. ما هي القواعد التي يمكن أن نستنبطها من الأخطاء المنكرّة في كتابة الطلاب والتي تكون مناويل يمكن إصلاحها، ولكن ينبغي معرفتها قبل إصلاحها. إنّ عبارة "قاعدة" لم تكن تستعمل في الخطاب العلمي القديم ولا ينبغي لها إلاّ في سياق ضبط معيار الاستعمال السليم للغة، فالقاعدة هي المنوال النظري المستخلص من المدونة اللغوية، وهي مصطلح ذو قيمة تعليمية معيارية ، وقد وضع اللغويون مصطلح الجواز لتبرير الخروج عن القاعدة في الاستعمال العروضي مثلا ، وكانت الخلافات بين البصريين والكوفيين شكلا من أشكال الصراع بين النزعة التعقيدية للغة والنزعة الوصفية أو نزعة تغليب الاستعمال . ولم يكن الفكر اللساني يهتم بقواعد الأخطاء. إلاّ أن الفكر التربوي الحديث انكبّ على محاولة فهم مصادر الخطأ وأسبابه منذ أن لاحظت الدراسات الميدانية والوصفية ما يحصل من وجوه الاشتراك بين الطلاب في أخطاء بعينها تظهر في خطاباتهم الشفهية المكتوبة وتتطور من جيل إلى آخر. وهذا الاشتراك هو الذي يبرّر التفكير في مناويل الأخطاء ، إذ لا يعقل ألاّ تكون للأخطاء الشائعة في كتابات الطلاب مناويل نظرية يرجع إليها . من ذلك مثلا أننا لاحظنا في كتابة الطلاب المنتسبين إلى المراحل الإعدادية جنوحا لتغيير الحرف المهموس بما يناسبه في أزواج الحروف من الحروف المجهورة والمفخمة كأن يكتب الطالب فعل "تاق يتوق طاق يطوق" والخطأ في هذا المثال راجع إلى أن النطق الشفهي في هذا الحرف ينزع إلى الطاء .

وفي السياق نفسه نلاحظ أنه لا يمكن أن ندرس الخطابات الاجتماعية في الحياة العامة إذا اقتصرنا في إجراء الدرس البلاغي على دراسة الجهاز المستنبط من النص الأدبي القديم وهو جهاز مختلف عما تتطلبه البلاغة التواصلية في العربية الحديثة، ودون الانفتاح على الدرس التداولي وعلى وسائل التواصل التي يتعامل بها المجتمع الحقيقي في اللغة العربية الحية.

إنّ المعارف العلمية التي يحتاج إليها تعليم العربية هي معارف بينية، وهي معارف نجدها في علم الاجتماع، فهو القادر على أن يقدم للباحث في مجال اللغة العربية فهما أعمق للظاهرة اللغوية ولمستويات التكلم بها ولصلتها بالحياة اليومية ولوسائل ترقيتها الاجتماعية ولطرائق إحكام الصلة بينها وبين المجتمع الذي يتكلمها، بل هو القادر على تدريب المتخصصين في اللغة العربية على نشرها في سائر الأصقاع الإسلامية. ونجد هذه المعارف البينية كذلك في علم اللغة الحاسوبي، وهو من أوكد علوم هذا العصر وأنجعها لأنه يمكننا من التعامل مع اللغة العربية بصفتها لغة حية، ويساعد الساهرين على حظوظها في العالم على تخزين ثقافتها القديمة والحديثة بتكوين موسوعات تفيد الراغبين في معرفة آدابها وعلومها. وتمكّن البرامج التربوية من ابتكار برمجيات لتعليم الأطفال لغتهم وترغيبهم في الدخول إلى عوالمها. إن عامة طلاب الآداب العربية يجهلون علم اللغة الحاسوبي أو يكادون، وهو في الحقيقة أحد المسالك المستقبلية في تعليم اللغة العربية للناطقين بها وخاصة لغير الناطقين بها بإعداد برمجيات ميسّرة لتعليم اللغة العربية، وميسّرة للتكوين الذاتي . وهم يجهلون بالدرجة نفسها علوم الاتصال والتواصل، وما تعيشه اللغة من تطور في مختلف حقول الحياة الاقتصادية والاجتماعية.

وقد استندنا في عملنا هذا إلى منهجين : منهج مستمدّ من تاريخ الأفكار كما وضع أسسه المفكر الألماني ماكس فيبار (M. Weber) وذلك لأنه استطاع أن يزواج بإحكام ممتاز بين علوم السياسة وعلوم الاقتصاد وبين علم الاجتماع الأخلاقي وسائر المعارف الاجتماعية، ونذكر على وجه الخصوص المحاضرة التي ألقاها بجامعة مních سنة 1918 بعنوان "العالم والموهبة"<sup>33</sup> واستندنا ثانيا إلى منهج لساني وظائفنا حاولنا من خلاله أن نترسّم أثر الفكر البيني في بناء المنظومات العلمية في مختلف الحضارات مركزين النظر على الحضارة العربية الإسلامية، ودورها في إثراء الفكر العالمي. وقسّمنا هذا

---

<sup>33</sup> ينظر في : M. Weber: La vocation du savant; in le savant et le politique; Paris ;Plon 1969.

الكتاب قسمين كبيرين قسما نظرنا فيه إلى البينية بما هي إبداع معرفي وبما هي حركة علمية ومسار إبيستيمولوجي، وبما هي محصل من محصلات التفاعل والتزاوج والتكامل بين العلوم عبر التاريخ الثقافي، وقسما يمثل الوجه الأدبي للإبداعي للبينية وذلك بحكم تخصصنا في مجال الآداب واهتمامنا باللغة العربية وفضاءاتها الأدبية. والواقع أنّ بين القسمين تداخلا وتفاعلا في أكثر من مستوى ذلك لأنّ الإبداع في الكتابة الأدبية والإنتاج الفني عموما لم يكن بعزل عن المناخ التفاعلي بين العلوم الإنسانية والعلوم التي محورها الطبيعة والصناعات في مختلف الثقافات القديمة والحديثة على السواء.

وبعد فإنّ نظرتنا إلى البينية في هذا المصنّف الذي نعدّه مدخلا إلى الفكر البيني في الثقافة العربية نظرة متعدّدة الوجّهات، فنحن لا نقتصر على المفهوم العلمي الذي يعالج في إطاره قضايا التفاعل بين العلوم ومسائل تاريخ الأفكار من جهة التداخل بين الحقول المعرفية أو من جهة نظرة الثقافات إلى المنظومات العلمية وصلتها بالمجتمعات العالمية، كلاً بل لا نقتصر على الفهم السوسيولوجي الذي طبع فكر علماء من قبيل إدغار موران أو شارل بيرسي سنوي فيما يعرف بالثقافة الثالثة، وهو الفكر الذي ينظر إلى البينية بصفتها خلاصا لمستقبل التربية والتعليم، ولم نفهم البينية في ضوء الدراسات الإنشائية التناسلية بصفتها حيّزا حدوديا بين الأجناس الأدبية والخطابات والنصوص وبما هي حركة تماسّ بين مختلف مظاهر الإبداع، كلاً بل إنّنا نفهم البينية في دلالتها الجامعة لهذه المفاهيم كلها، ولذا سيجد القارئ في هذا الكتاب أسلوبا جديدا في التعامل مع الفكر البيني، أسلوبا لا يفصل فيه الإبداع المعرفي والعلمي عن الإبداع الفني والثقافي والجمالي والله المستعان...

التمهيد

الدراسات البينية في الثقافة العربية



يمكن أن نقسم الدراسات السابقة في مجال البيئية في الثقافة العربية نوعين : الدراسات النظرية والنظرية، وهي قليلة بل نادرة، إذ نحن لا نكاد نظفر ببحث أكاديمي جاد في هذا الموضوع. والدراسات الإجرائية التي لم يكن أصحابها واعين تمام الوعي بمفهوم البيئية. والواقع أن عامة الدراسات التي تجمع بين الدرس الأدبي وأحد المناهج الإنسانية أو الاجتماعية أي التي تتناول الظاهرة الأدبية من وجهة نظر علم من العلوم الإنسانية يمكن أن يدخل في الدراسات البيئية. ولما كان الأمر على غاية من الاتساع والتشعب فإننا لا نهتم بتلك الدراسات التي يكون محورها تخصصاً غير تخصص اللغة والأدب ولكنها تنطلق في مدونتها من الأثر الأدبي لتتجز عملاً متصلاً بعلم آخر غير علوم اللغة والأدب. فعلماء الاجتماع والنفس والحفريات والأنثروبولوجيا والأساطير اتخذوا من المادة الأدبية منطلقاً لأبحاثهم وهو محققون في ذلك لأن تلك المادة جزء من التراث المعنوي ومن الثقافة الكتابية التي تساعد على فهم المعمار المادي والفضاء العربي وتعين على دراسته. فالظواهر الحضارية التي استفاد الباحثون في دراستها من الشعر لا تحصى، وكذلك لا يمكن مثلاً أن تدرس الظاهرة الشعبية دون العودة إلى شعر بشار بن برد وإسماعيل بن يسار وأبي نواس وإلى رسالة ابن قتيبة في الرد على الشعوبية وإلى كتاب العصا للجاحظ، وهي جميعها وثائق أدبية، وقد عاد عبد العزيز الدوري إلى نماذج منها في كتابه الجذور التاريخية للشعوبيين. واستند طاهر لبیب في دراسته السوسيولوجية للحب العذري إلى شعر جميل بثينة وكثير عزة وقيس بن الملوح. والواقع أن هذا النوع من الدراسات هو أيضاً دراسات بيئية كما ذكرنا، ولكنها بقدر ما كانت مفيدة في مجالها العلمي كانت بينيتها غير مفيدة في تخصص الأدب، وهي غير مفيدة لأنها تعاملت مع الوثيقة الأدبية كما لو أنها حقيقة تاريخية وهو معطى ستعود إليه في قادم المباحث. ونجد نوعاً ثانياً من الدراسات البيئية اهتم أصحابه بالتفاعل الاصطلاحي بين علوم العربية وسائر العلوم المجاورة لها، ومن ذلك أثر علم الحديث النبوي في مصطلحات النحو العربي، ونذكر في هذا السياق مؤلفاً مهماً عنوانه " الحديث النبوي وأثره في الدراسات اللغوية والنحوية" لمحمد هادي حمادي، والواقع أن عنوان الكتاب غير دقيق من حيث صلتته بمحتواه لأنه ليس بدراسة شرعية كما يوحي العنوان وليس الأمر متصلاً بتأثير مضامين الحديث الشريف بل يتعلق البحث بتأثير منهج علماء الحديث في جمع المادة وتصحيحها وتوثيقها وتمييز صحيحها من المجروح فيها، ويبين البحث كيف اشترط علماء اللغة أن يكون " الناقل عدلاً رجلاً كان أو امرأة حراً كان أو عبداً...<sup>34</sup> وأما الدراسات

<sup>34</sup> مؤسسة المطبوعات العربية، بيروت 1982، ص 210.

التي تتمحور حول تخصص اللغة العربية وآدابها وتستدعي علما آخر أو أكثر لدراستها فيمكن كذلك أن نقسمها نوعين، يحاول النوع الأول تعميم المعرفة البينية ونشرها على أكبر عدد ممكن من القراء لتحفيزهم على فتح نوافذ الدراسة الأدبية على الثقافة الحديثة، وهذه الدراسات يمكن أن نعدّها - دون تهجين أو استنقاص - بحوثا مدرسية تبسيطية. وإنما نعدّها كذلك لأنها لا تطرح القضايا المعرفية المتصلة بالتقاطع بين العلوم اللغوية والأدبية وسائر العلوم الإنسانية، ولا تثير مسألة نقل المفاهيم من مجال إلى آخر، وما يترتب عنه من إشكاليات الإسقاط والتفاوت بين الخطابات، وتباين أنواع مادة البحث، وهي لا تختبر هذه المناهج ببيان حدودها ووجوه نجاعتها ومواطن قصورها، بل تكتفي بنقل المفاهيم العامة في تلك العلوم ونماذج من تطبيقاتها على الأدب العربي. ونذكر من الدراسات المشهورة منذ عقود كتاب عزّ الدين إسماعيل "التفسير النفسي للأدب"، وهو يعدّ إلى زمن غير بعيد المرجع الأساس في دراسة الأدب من وجهة نظر علم النفس العام، وهو كما ذكرت لا يخلو من فوائد عامة تحفّز الطلاب على الانفتاح في هذا النوع من الدراسات البينية لكنه يقع في عدّة إشكاليات من أهمها أنه لا يقدّم للقارئ المراجع النظرية التي يستند إليها في دراسته تلك. ثم إنّ الفصل الأول الذي صدر به الباحث كتابه وهي بعنوان "الحكم والتفسير" يوجّه الكتاب وجهة غير ملائمة لموضوع العمل وهو ما جاء في العنوان "التفسير النفسي للأدب" فقد عامل الباحث الأدب وعلم النفس كما لو أنهما مجالان مترادفان والواقع أنّ العلاقة بينهما هي علاقة منهج علمي أونظرية معرفية بمجال إبداعى يقول: "ومن كلّ ذلك ننتهي إلى أنّ الأدب والفنّ بعامة له كيانه المستقلّ وله دوره في الحياة وهو الكشف عن مجموعة الحقائق التي تمثل هذه الحياة والتي تشكل علاقة الإنسان بها، وهو في ذلك كعلم النفس وكغيره من العلوم التي تستهدف نفس الهدف وإن اتخذت لذلك منهجا غير المنهج الأدبي"<sup>35</sup>. ومن هذه المقدمة نفهم أنّ عز الدين إسماعيل لن يهتم بأدوات التحليل النفسي للأدب، ولن يتناول النصوص الأدبية من جهة البنية النفسية كما فعل سيقمون فرويد في قراديفا لجونس (Gradiva-Jensen) مثلا وإنّما سينزلق إلى النقد التعبيري، وسيخلط بين دراسة الأدب دراسة نفسية واتخاذ الأدب مصدرا للمعرفة النفسية وشتان بين الأمرين. صحيح لقد حلل عز الدين إسماعيل فكرة العلاقة بين لغة الفنّان وأعراض العصاب والنرجسية ولكنه لم يكن وفيّا لمبادئ التحليل النفسي كما أسّس لها فرويد بل كان أقرب إلى النقد التعبيري منه إلى التحليل النفسي. إنّ النرجسية في التحليل النفسي مندسّة في البنية اللغوية اللاواعية، وهي البنية التي

<sup>35</sup> التفسير النفسي للأدب، دار العودة ودار الثقافة بيروت 1962 ص26.

يتلفظ بها الشاعر أو الكاتب ويلتقطها المحلل من خلال عبارات الإيقو (Ego). ولقد خلط عزّ الدين إسماعيل بين ثلاثة مفاهيم كبرى مختلفة تمام الاختلاف وهي : مفهوم الغنائية ومفهوم النرجسية ومفهوم الشعر الرومنسي. ولم يهتمّ هذا الباحث -فيما نعلم- ولا غيره ممّن جاء بعده من النقاد العرب الذين تناولوا قضايا النقد النفساني وخاصة عبد القادر فيدوج بموضوع التفاعل بين هذين المجالين مجال الأدب ومجال التحليل النفسي. ونحن نوجّه النقد للفكر الأدبي العربي لأننا نرى أنّه كان بالإمكان الاستفادة من المصنّفات العالمية التي تحمل عناوين بينية جامعة بشكل تقاطعي لا تتابعي بين الأدب وعلم النفس التحليلي وهي كثيرة نذكر منها على سبيل المثال كتاب "الأدب وعلم النفس التحليلي" لبول ولان أسون (P.R.Assoun) فقد أعاد صياغة المفاهيم النفسية الأساس وتدقيقها، وكتاب بيير بيار (P.Bayard) "كيف نتكلم عن الكتب التي لم نقرأها" وهو يعبر في عنوانه عن إشكالية التحوّل والتأثير والتأثير بين الأدب وعلم النفس التحليلي: "هل يمكن أن نطبّق الأدب على التحليل النفساني؟" فقد تساءل الباحث في أطروحته عن إمكان تطوير مفاهيم التحليل النفساني ومناهج عمله من خلال قراءة التجارب الأدبية، وهو يزعم أن الأدباء يستطيعون تقديم أشكال علاجية لأمراض نفسية لم يهتد إليها علم النفس التحليلي، وأنّ فعل القراءة يمكنه أن يكون فعلاً علاجياً. إنّ هذه الدراسات البينية التي نفتقر إليها في المكتبة العربية هي التي "أعطت دراسة النصوص الأدبية التحليل النفسي الوليد فرصة تجاوز الحقل الطبي المحض ليجعل من نفسه نظرية عامة للنفسية والضرورة الإنسانية"<sup>36</sup>.

---

<sup>36</sup> النقد التحليلي النفسي ضمن مدخل إلى مناهج النقد الأدبي، بقلم مارسيل ماريني، تعريب رضوان ظاظا، سلسلة عالم المعرفة 221 الكويت 1997 ص 50.

ومن المؤلفات التي نجح أصحابها في قراءة الشعر العربي القديم قراءة بينية نذكر كتاب "الإحساس بالزمان في الشعر العربي" لعلي الغضاوي فقد اهتدى هذا الباحث إلى ولوج دراسة الزمان من باب الفكر البيني لأنه لم ينظر إلى الموضوع بعين الأديب ولا بعين المتفلسف بل نظر إليه من زاوية تتقاطع فيها وظيفة الأدب ووظيفة تاريخ الأفكار وهو مدخل من المداخل البينية يقول: "ولسنا نطمح في هذه الدراسة إلى التأريخ لفكرة الزمان في الشعر ولا لبيان مدى قدرة الشاعر على النظر التجريدي لأنّ التأريخ للأفكار والمفاهيم لا يفي به الشعر وحده، ولأنّ فلسفة الشاعر وشعر الفيلسوف يبدوان لنا من المواضيع التي لا تفيد الدراسة الأدبية ولا ترقى إلى مرتبة الدراسة الفلسفية، وإنما نرمي إلى دراسة الزمان باعتباره معنى أو موضوعا شعريا يتجلّى في أكثر من مظهر"<sup>37</sup>. لقد نبّه الباحث في لغة علمية صارمة إلى الفرق بين دراسة الزمن موضوعا فلسفيا ودراسة موضوعا أدبيا، واستفاد من الأدبيات التي تزخر بها المقاربات الفلسفية الحديثة عند أعلام من قبيل مارتن هيديجر وبول ريكور. ولا يمكن أن ننهي هذا المبحث دون أن نلمح إلى ما يزرع به التراث العربي الإسلامي من صراعات معرفية حادة تتصل بالتفاعل بين العلوم ولم تكن هذه الصراعات ترمي إلى الخوض في قضايا بينية بقدر ما كانت تسعى إلى الانتصار إلى هذا المنزع في المعرفة أو ذاك، وفي صدارة هذه الصراعات قضية العلاقة بين النحو المنطق، وهي مسألة بينية أسالت كثيرا من الحبر قديما وحديثا، بين الرافضين لهذا الصلة والمدّعين أنّ النحو العربي سليل المنطق اليوناني . ففي التراث العربي أثّرت مسألة العلاقة بين النحو والمنطق في سياق دفاع بعض النحاة عن استقلال علم النحو وعن عدم تأثره من حيث طريقة التفكير ومن حيث المصطلحات والمفاهيم بالتقسيم اليوناني للكلام، يقول الزجاجي : "الاسم في كلام العرب ما كان فاعلا أو مفعولا أو واقعا في حيّز الفاعل أو المفعول به، هذا الحدّ داخل في مقاييس النحو وأوضاعه وليس يخرج عنه اسم البتّة، ولا يدخل فيه ما ليس باسم، وإنّما قلنا في كلام العرب لأنّا له نقصد وعليه نتكلّم، ولأنّ المنطقيين وبعض النحويين قد حدّوه حدّا خارجا عن أوضاع النحو فقالوا: الاسم صوت موضوع دالّ باتفاق على معنى غير مقرون بزمان، وليس هذا من ألفاظ النحويين ولا أوضاعهم وإنّما هو من كلام المنطقيين، وإنّما كان قد تعلّق به جماعة من النحويين، وهو صحيح على أوضاع المنطقيين ومذهبهم لأنّ غرضهم غير غرضنا، ومغزاهم غير مغزانا، وهذا عندنا على أوضاع النحو غير صحيح لأنه يلزم منه أن يكون كثير

<sup>37</sup> الإحساس بالزمان في الشعر العربي من الأصول حتى نهاية القرن الثاني للهجرة، منشورات كلية الآداب منوبة 2000

من الحروف أسماء لأنّ من الحروف ما يدلّ على معنى دلالة غير مقرونة بزمان نحو إنّ ولكن وما أشبه ذلك<sup>38</sup>. ويذهب عبد القادر المهيري في تفسير هذا التفاعل بين العلمين إلى أنّ لهذا " النصّ أهمية كبيرة فهو يدلّ على الشعور الواضح بالفرق بين النحو والمنطق، وعلى موقف الرفض الذي وقفه عدد من أشهر النحاة<sup>39</sup> ويذهب المهيري كذلك في السياق نفسه - وهو ما يهّمنا من ناحية الفكر البيني - إلى أنّ الزجاجي " يضع القضية على الصعيد المنهجي لا على صعيد البحث عن جدوى كلا الفئتين كما فعل السيرافي ويونس بن مّتي المنطقي في مناظرتهم ، فالفتان (يقصد العلمين ) يمكن أن يلتقيا في المادّة المدروسة، ولكنهما سرعان ما يفترقان لأنّ ما هو صالح لهذا ليس صالحا لذلك، وما يعتبر صحيحا في نطاق هذا لا يعتبر في نطاق ذلك صحيحا<sup>40</sup>. وهو الموقف نفسه في قول ابن تيمية " : حتى أنّ النحاة لما دخل متأخروهم في الحدود ذكروا للاسم بضعة وعشرين حدّا لم يصحّ منها شيء " كما ذكر ذلك ابن الأنباري المتأخر<sup>41</sup>. وقد اختلف المحدثون في تقويم صلة النحو العربي بالمنطق فذهب جيل منهم إلى القول بأنّ النحو العربي متأثر بالمنطق اليوناني وجرّهم إلى هذا الاعتقاد رأي أحد المستشرقين من الذين تعجّلوا في قراءة التراث الفكري العربي ولم يحسنوا تقديره حقّ قدره، ولم يفهموا تاريخ الثقافة العربية ، وهو المستشرق ماركس (Merx) فقد زعم هذا المستشرق أنّ الاهتداء إلى المقولات النحوية المجردة قد استغرق في الثقافة اليونانية قرونا طويلة ، وممرّ بتراكمات معرفية معقدة، ولذلك لا يمكن أن نقبل أن تكون المقولات في النحو العربي قد نضجت في عصر الخليل وسيبويه، فالرصيد المنطقي الذي أخذه العرب من اليونان كان - حسب رأيه- عنصرا أسهم في بلورة المقولات النحوية العربية. وذهب ماركس إلى أنّ تقسيم الكلام إلى اسم وفعل وحرف تقسيم مقتبس من المنهج المنطقي اليوناني، وكذلك تصنيف المقولات النحوية كالحال والمقولات الصرفية كالذكر والمؤنث والظرف. وقد تأثّر كثير من اللغويين العرب المحدثين بهذه النظرية نظرا إلى افتقارهم إلى الحد الأدنى من مقومات الحسّ البيني، وانساقوا وراءها دون أن يقدرّوا قصورها المعرفي وخطورتها الحضارية، وكان

<sup>38</sup> الإيضاح في علل النحو، ص 48.

<sup>39</sup> خواطر حول علاقة النحو العربي بالمنطق واللغة، حوليات الجامعة التونسية العدد العاشر 1973 ص 30.

<sup>40</sup> م. ن ص 31.

<sup>41</sup> الرد على المنطقيين، تقديم وتعليق رفيق العجم، دار الفكر اللبناني بيروت 1، 1993/36.

من هذه الأفكار ما جاء في الفصل الذي خصّصه إبراهيم مذكور لهذه المسألة في مجلّة المجمع اللغة العربية، وما خصّصه إبراهيم أنيس في كتابة أسرار اللغة لهذا الموضوع أيضا ، وفي كتاب مهدي المخزومي مدرسة الكوفة، وخاصة محمد رشاد الحمزاوي في كتابه مجمع اللغة العربية بالقاهرة. وفي ثنايا المطارحات أثّرت قضية نظرية العامل في أصول النحو وتأثّر أصحابها كابن جني وابن الأنباري والزجاجي بالمنطق اليوناني في مسائل التعليل والمصطلحات المستخدمة في خطاب أصول النحو. إلا أنّ هذه النظرية سرعان ما فقدت بريقها وتأثيرها نظرا إلى وهنها العلمي وضعف حجج أصحابها وتهافتها إزاء حقيقة تاريخ الأفكار والعلوم ، ويؤرّخ عبد القادر المهيري لردود الفعل على هذه النظرية بقوله : "ولعلّ أهمّ بحث ظهر في هذا الموضوع المقال القيم الذي نشره عبد الرحمن الحاج صالح بعنوان "النحو العربي ومنطق أرسطو" حيث تتبّع أطوار النظرية القائلة بتأثّر النحو العربي بالمنطق ومواقف الدارسين منها عربا ومستشرقين، وتناول حجج ماركس حجة حجة لنقديدها بالبرهان العقلي أوبالرجوع إلى محتوى بعض مؤلفات أرسطو"<sup>42</sup>. ثم يعلق المهيري على هذه القضية بقوله : "هذا ما يدفعنا إلى القول بأنّ البحث اللغوي عند العرب انطلق من مصدر لغوي، تدفعه روح لغوية وتحذوه رغبة النحاة في وضع نظام شامل، تندرج ضمنه كلّ المعطيات مهما تباينت وتشعبت ". إنّ عبارة الروح اللغوية في كلام هذا الباحث تعني بوضوح أنّ عبد القادر المهيري يرفض أن يكون الدرس النحوي متأثرا في مقولاته الكبرى بالروح المنطقية اليونانية . والواقع أن افتقار المسألة كلها إلى النظرة البينية هو الذي حال دون إفحام خطاب ماركس بشكل نهائي، هذا الخطاب الذي لا يميز بين المنطق بما هو مقولات فكرية مجرّدة ومنطق النحو بما هو مقولات لغوية لا يجزّ التفكير فيها إلى المقولات المنطقية بالضرورة، أي إنّ الخليل بن أحمد وسيبويه لم يكونا بحاجة إلى الصناعة المنطقية اليونانية ليميّزا مقولة الجنس أي ليميّزا المذكر من المؤنث أو لتصنيف المفردات الداخلة في مقولة العدد. إنّ الفكر البيني هو الإطار المعرفي الحقيقي الذي يمكن مثل هذه المطارحات من أن تكون فعلا مخصصة وأن تتجاوز منطق المفاضلة بين العلوم وبين الأمم ، فليس بخاف على أحد أنّ نظرية ماركس لم تكن نظرية في تاريخ العلوم ، وفي مسألة من مسائل البحث عن أصول الثقافة الحقيقية بقدر ما كنت مفاضلة ضمنية خفية بين الثقافة العربية والثقافات الإغريقية القديمة لأسباب غير علمية لا نطنّ أنّ القارئ الكريم يجهلها...

<sup>42</sup> خواطر حول النحو العربي ص22.

## القسم الأول

### مقدمات نظرية في أصول الفكر البيني

## الفصل الأول

البيئية وإعادة بناء الخارطة المعرفية في العصر الحديث



يمكن أن نلاحظ قبل أن نتحدث عن الدراسات السابقة في المجال البيئي التنظيري أنّ أعمالاً كثيرة أسهم بها أصحابها في تطوير هذا المجال وترسيخه دون أن يعلنوا صراحة أنهم من دعاة الفكر البيئي، ودون استعمال هذا المصطلح أو أحد المصطلحات القريبة منه، وهذه الدراسات هي عادة تلك التي تهتم بالأصول المعرفية للعلوم أي الإبيستمولوجيا أو بخطاب العلم أو لغة العلم، أو بوجوه التقاطع بين المعارف الإنسانية، ونذكر من هذه الدراسات على سبيل المثال المؤلفات التي بدت لنا غنيّة من جهة المعارف البيئية ككتاب الروسي لاف فيجوسكي (L.S.Vygotsky) "التفكير واللغة"، فقد وضع الباحث كتابه هذا في مطالع الأربعينات (1934) فكان لبنة أولى في مجال التقاطع بين اللسانيات وعلم نفس الطفل، وعلم الاكتساب<sup>43</sup>. وقد أسهمت الدراسات التي بشرت باستغلال الحاسوب في معالجة اللغة بهذا التقاطع بين التخصصات ونذكر منها كتاب آلان كونت (A.Comte) ثورة المعلومات، وقد صدر سن 1973 واهتمّ باستخدام الحاسبات الإلكترونية في تخزين المعلومات واسترجاعها، وتناول علاقة اللسانيات بعلوم الإخبار والاتصال وبتقنيات الآلة الحاسبة. وفي السياق نفسه ظهر كتاب الحاسبة الإلكترونية والتنمية لحافظ قيسي سنة 1978، وسيكولوجيا الاتصال والعلاقات الإنسانية لغسان يعقوب. ومن الدراسات المؤسّسة للعلوم البيئية كذلك كتاب أوجين نيدا (E.Nida) نحو علم الترجمة الصادر سنة 1976 وهو في الصلب التفكير البيئي الذي يطرح قضايا العلاقة النظرية بين الترجمة وعلوم اللغة<sup>44</sup>. وتذهب روبرتا فرانك إلى أنّ مصطلح البيئية قد نحت في فترة متقدّمة من القرن العشرين، ولكنه سبق بمصطلح آخر قريب منه هو الإدماج (Intégration)<sup>45</sup>.

ولئن ظهر مفهوم البيئية بصفته مصطلحاً علمياً في المجال "الفرنكوفوني" في الخمسينات من القرن الماضي، فإنّ من الأسباب الكبرى والعوامل الأساس التي أسهمت في تطور المناخ المعرفي الملائم

<sup>43</sup> ينظر في الترجمة العربية لطلعت منصور مكتبة الأنجلو المصرية 1976.

<sup>44</sup> ينظر في: عبد السلام المسدي، قاموس اللسانيات ص 79.

<sup>45</sup> R.Frank: Interdisciplinarity The first Half century. Issues in integrative Studies; 6p139.

لازدهار الفكر البيني في العصور الحديثة التحول الجذري الذي عرفته النظريات المعرفية منذ أواسط القرن الثامن عشر، وكان لإيمانويل كانت (E.Kant) بعيد الأثر فيها. ومن هذه الأسباب الكبرى انتقال الفكر العلمي العالمي من فكر دائري تردّ بمقتضى قوانينه جميع الجزئيات والتفاصيل والمفردات والفروع إلى الأصول المعروفة، وتردّ فيه الأشياء المتنوعة في كافّة مظاهر الحياة وأنماط التفكير والسلوك والمعيش إلى المنوال الأمثل والنموذج المتفرد أو إلى "خلية أم"، وتختزل الظواهر على تعقّدها في عنصر بسيط يفسّر نشأتها<sup>(46)</sup>، وانتقل الفكر العلمي من فكر الأشباه والنظائر إلى فكر أفقي انتشاري منفتح، فالعقل العلمي يعمل منذ أكثر من أربعة قرون على تجديد الخطاب العلمي في ضوء الاكتشافات الكبرى ليتجه به نحو تغليب النظرة الاستكشافية على النظرة التبريرية التي يعمل الفكر القديم على الوفاء لها. وتحولت فلسفة العلوم من فلسفة تصنف العلوم وترتيبها بحسب موضوعاتها إلى فلسفة تنظم صلات العلوم بعضها ببعض بحسب منفعتها الاجتماعية وبحسب أسبقيتها المنطقية داخل كل منظومة من منظومات العلوم<sup>47</sup>.

إنّ الخطاب العلمي في العصر الحديث يقرب المعارف بعضها من بعض ويعمل على إنشاء صلات اقتراض وتعاون وتبادل بين مناهج البحث العلمي في عامة الحقول ، وقد تمكنت الحضارة التكنولوجية منذ أربعة عقود تقريبا من فرض منظومات علمية أفقية أي من تأسيس حقول علمية مشتركة تستفيد منها مختلف الحقول العلمية التقليدية، فعلم الحاسب مجال مشترك بين علوم اللسان وخاصة علم المعجم الإدراكي، وعلم وظائف الأصوات، والعلوم الطبية، وخاصة علم تقويم الأعضاء وعلوم الإيقاع أو الموسيقى وعلوم الاتصال وعلوم الهندسة المعمارية والزخرفية والديكور.

والواقع أن مفهوم العلم غدا منذ الاكتشافات الكبرى التي سبقت عصر الاختراع أي منذ أواخر القرن الخامس عشر الميلادي، أي عصر العبور من كتابة الرمز إلى كتابة العلامة، مفهوما بينيا، فمنذ ذلك القرن أخذت أصنافية العلوم تنفجر لتؤسّس في كل حقل من الحقول الكبرى أصنافية جديدة يتخصّص كلّ علم من علومها في موضوع من موضوعات العلم القديم، ولا ننقّق في هذا السياق مع الرأي القائل

---

(46) جورج نونوماخير: من الشعر إلى الشعرية (بالفرنسية). منشورات كلية الآداب، مَنوبة 1990 ص329. وبالفرنسية أيضا: الإنسان الرومانسي لجورج قيزدورف .

<sup>47</sup> روبرير بلانشيه: نظرية المعرفة العلمية ص 168.

بأنّ الفلسفة قد أخذت تتخلّى عن مكان الصدارة في الأنساق المعرفية الحديثة لتحلّ محلّها العلوم الدقيقة وخاصة منها العلوم التجريبية، كلاً بل إنّنا نرى أنّ هذا الرصد التاريخي غير دقيق، وأنّ الأصوب منه أن نقول إنّ منظومة المعارف الفلسفية القديمة قد تخلّلت وأخذت تتخلّى عن جانب كبير من فروعها لفائدة العلوم الإنسانية في دلالتها الوضعية. أما الفلسفة فستظلّ وثيقة الصلة بتجديد المنظومات الإبيستيمولوجية، بل ستظلّ مورد الفكر الإبيستيمولوجي الذي يسائل العلوم ويحرجها ويدفعها إلى إعادة النظر في مبادئها ومناهجها وهو ما حدث في موضوع علم النفس حيث تبلور اهتمام فلسفة النفس التجريبية خاصة بالتفكير في المجال الطبيعي للنفس البشرية ، ولكنه اهتمام ارتبط بالطبّ بصفته مجال اختبار النفس، والبحث عن أسرارها ، وبذلك تخلّى علم النفس في صيغته القديمة عن موضوعه وعن وظائفه القديمة وعمّا علق به من معارف ذات أبعاد تربوية قديمة<sup>48</sup>.

لقد أخذ علم النفس العام منذ أواخر القرن الثالث عشر للميلاد يستقلّ عن الفلسفة ويتميّز منها، إلّا أنّ تأسيس علم نفس الطفل لم يتم بشكل نهائي إلّا في مطلع القرن العشرين، وقد كان لعلم طب الأطفال أثر بعيد المدى في بلورة الأبحاث الخاصة بالطبيعي والثقافي أو الفطري والمكتسب، واتجه مع المختبرات الألمانية خاصة منذ سنة 1870 تقريباً إلى التخلص نهائياً من النظريات الفلسفية القديمة، وقد غنم علم نفس الطفل من هذه القطيعة المعرفية التي شهدتها علم النفس العام بفضل تطور مفهوم الطفولة في الفكر الإنساني، وصار الطفل في تصور العلم كائناً مستقلاً عن الكهل . وقد أثبتت الأبحاث الحديثة أنّ الطفل هو أب الإنسان وليس العكس؛ لأنّ عالم الطفولة هو العالم الإدراكي الذي يختزن التجارب ويبني الإدراك وتتمثّل الأشياء فيحمل العقل الباطن بصمات ما يحدث للطفل من الحوادث وما يسجله من الوقائع، وهذه البصمات الدماغية والنفسية والعصبية هي التي توجّه ما يستقبله من حياته وانطباعاته ومزاجه وسلوكه ومواقفه وتصوّره للآخر. وقد تخلّى الفكر العلمي كذلك عن النظرة التي يعامل بمقتضاها الطفل معاملة الكيان الناقص والعقل القاصر حتى قال الشاعر ويليام وردسورث ( W.Wordsworth ) " إنّ الطفل أب الإنسان (L'Enfant est le père de l'Homme) ". وقد نشأ هذا العلم نشأة بينية لأنه احتاج منذ تأسيسه إلى أن يجاوز في نظرته إلى الطفل الواقع الثقافي الكلاسيكي ، فكان علم تربية الطفل مساعداً له في ذلك، وهو علم قديم ورثه المحدثون عن اليونان)

<sup>48</sup> ينظر في : Annick.Ohayon : Psychologie et Psychanalyse en France; La découverte Collection ; 2006.

(Pédagogie|Pedagogy) ، وكان للمسلمين بعيد الأثر في تطويره وخاصة بما كتبه الطبيب الإفريقي ابن الجزار القيرواني في مصنفه المعروف بسياسة الصبيان وتدبيرهم<sup>49</sup> ، ولكن هذا العلم القديم لم يتقاطع وعلم النفس في تلك العصور بل ينبغي أن ننتظر الفكر الرومنسي لنرى تطلع العلماء إلى عالم الأطفال وإلى استكشاف ما ينطوي عليه من وجدان مميز لهذه المرحلة، فقد تشكلت صورة الطفولة في الأدب الرومنسي عند كتاب السيرة الذاتية وهم يعلنون أن طفولتهم هي مستقبلهم وأنها هي المحددة لمصائرهم، وأن تفاصيل الحياة هي المكون الرئيس لجوهر الحياة أي أن الجزء هو الذي يحدد الكل لا العكس. ونذكر من العلوم المستحدثة في سياق الانفجار الذي عرفه علم النفس الاجتماعي علم اللاوعي الجماعي، وهو كذلك علم ذو أصول قديمة تعود إلى ما ورد من أفكار في جمهورية أفلاطون، حيث وازن هذا الفيلسوف بين نفسية الفرد ونفسية المجتمع، وقد عرف هذا العلم استقلالاً معرفياً بعد إذ عارضه المفكر إميل ديركايم (E. Durkheim) معارضة شديدة، ولكن علماء من قبيل قوستاف لوبون (G. Le Bon) وأبراهام كاردينار (A. Kardiner) تمكنوا من تأسيس هويته العلمية ومن إنشاء مفهوم الشخصية الأساسية (Basic Personality). وتظهر القيمة البنائية لهذا العلم فيما ذكره أفلاطون نفسه وهو يوازن بين علم النفس الفردي وعلم النفس الجامعي قائلاً: "إن كل فرد من الأفراد يحمل في خصائصه الطبيعية الخصائص التي تحملها المجموعة كلها"<sup>50</sup>. كما يظهر أثره في التقريب بين علوم الإنسان من خلال الأبعاد الثلاثة التي يتألف منها هذا العلم وهي : علم النفس العام ( Psychologie Générale/ Psychology) وعلم الاجتماع ( Sociologie/ Sociology) وعلم الإناسة أو علم الإثنولوجيا ( Ethnologie/ Ethnology). ولم يكن علماء النفس لفترة طويلة يتحدثون عن العلاقة بين تخصصهم وعلم النفس الاجتماعي لأنهم يتجاهلون هذا العلم، ويعدونه علماً وضعياً وهامشياً بالقياس إلى علمهم. وقد تمكّن جون ستوزال من مجاوزة هذا الصراع بين العلماء بفضل النظرة البنائية التأليفية التي اعتمدها في قراءة الحدود الفاصلة الواصلة بين هذه المجالات المتجاورة في علوم الإنسان فقال: "إنّ المهمّ في دراسة علاقة العلوم بعضها ببعض ليس إظهار فضل هذا العلم أو ذاك أو الحديث عن

<sup>49</sup> صدر هذا الكتاب عن الدار التونسية للنشر بتحقيق محمد الحبيب الهيلة سنة 1968 وأعيد طبعه بدار الغرب الإسلامي ببيروت سنة 1984.

<sup>50</sup> الجمهورية الباب الرابع ص 455 و ينظر كذلك في Jean.Stoetzel:La psychologie sociale; Paris 1963 p11. Flammarion

أسبقيته في الزمن بل المهم هو إظهار التفاعل بينهما في مجال ابتكار المفاهيم وبناء طرق البحث وأساليب التعامل مع المعطيات<sup>51</sup>. وفي هذا الباب نلاحظ إنّ علم النفس الاجتماعي قد أسهم في دفع علم النفس العام بما أنجزه من بحوث اختبارية وأمراسية، وبشقّ طريق الأبحاث الميدانية التي لا تكتفي بما ينجز في المخبر بل تخرج إلى الميدان وتتجزّ الاستبيانات والدراسات المسحية، وتحلل المواقف الحقيقية الأصيلة، ففي مجال علم النفس الاجتماعي تمّ إرساء الأساليب التحليلية المعتمدة على العينات والطرق الإحصائية وقراءة المعلومات المجمّعة من الاستبيانات<sup>52</sup>. وفي سياق بناء علم النفس الاجتماعي تمّ إعداد طرائق الاتصال بالمستجوبين في الأبحاث الميدانية، وهي جميعها منهجيات بحثية ببنية أفقية تستفيد منها عامة العلوم الإنسانية والاجتماعية بما في ذلك علوم اللسانيات وعلم الأدب .

ومن العلوم المهمّة التي استنبطها الفكر الغربي الحديث في مجال البحث عن البينية بين العلوم الإنسانية، وهي خارطة معرفية جديدة افتكّها المحدثون من علوم قديمة ووسموها بعلم النفس التربوي أو علم نفس المراهق، وهو علم بيني لأنه يجمع بين الوجه النفسي للبحث العلمي والوجه التعليمي في مفهومه الواسع، فنظريات الاكتساب لم تتفكّ تعمل منذ أكثر من قرن على فهم القوانين المتحركة في قدرة المراهق أو الشاب على تمثّل العالم بقوانينه الاجتماعية، ولم تتفكّ تسعى إلى تفسير ردود الأفعال التي يواجه بها الإنسان في هذه المرحلة العمرية العالم من حوله. وهي تعمل على تقريب ثقافة المراهق من صانع القرار التربوي ليأخذها بعين الاعتبار في إنجاز المقررات التعليمية وفي بناء أساليب التعامل مع المراهقين.

ولا يمكن أن ننسى من العلوم المهمة في مجال البحث عن العناصر البينية علم النفس التحليلي (Psychanalyse / Psychoanalysis) وعلم النفس السريري (Psychiatrie / Psychiatry) وهما علما حديثان دفعا بحركة تفكيك حقل الطب القديم وإعادة بناء علوم أمراض الجسم أو الصناعة الطبية<sup>53</sup> على أسس إنسانية واجتماعية جديدة: فقد تولدت منذ بداية القرن الميلادي الماضي فروع

<sup>51</sup> م. نص 200.

<sup>52</sup> ينظر في المرجع المذكور أعلاه ص 27.

<sup>53</sup> راجع في خصوص التمييز بين الطب علما والطب صناعة: ناصيف نصار: الذات والحضور، دار الطليعة للطباعة والنشر بيروت 2008 ص 339 وما بعدها.

علمية استوت في أواسط القرن علوما مستقلة لكنها حقول علمية بينية منها علم الطب العام والطب الباطني والطب الشرعي، وهو علم يتقاطع فيه الطب العام وعلم الإجرام (Criminologie / Criminology)، وفي مجال العلوم التطبيقية اقتضى تطور الفضاء العمومي من سكن وطرق و زراعة مكثفة ووسائل علاج بالطب البديل أن يستتبط العلماء تخصصات تتقاطع فيها جملة من العلوم المركبة منها علم الكهرومغناطيسية والجيولوجيا وعلم الجغرافيا المجالية والإحصائية التي تستثمر علوم الإحصاء والتخطيط لتهيئة المدينة والجغرافيا الرقمية، وعلم تعليمية اللغات وعلم التقويم، وفي مجال علوم اللسانيات نذكر علم النفس اللغوي وعلم اللغة الاجتماعي وعلم الأصوات السمعي، وعلم الدلالة وعلم المعجمية.

وإذا أردنا الاقتراب أكثر فأكثر من مجال تخصصنا فإننا نرى أن اللسانيات قد تحولت في الفكر الإنساني الحديث كما يرى عبد السلام المسدي وغيره إلى شجرة علوم تحاكي في شكلها المعرفي العام ما كانت عليه الفلسفة أو الحكمة في العصور القديمة، وقد شهدت هذه الشجرة من المعارف من التنازل والتوالد والتفاعل بين العلوم الإنسانية ما جعلها بحق أم العلوم الإنسانية الحديثة، يقول المسدي : "وأما مبدأ التفرد والشمول فإنه ثمرة من ثمار اللسانيات، فكلما تركّز التخصص في فنّ من أفنان الشجرة العامة برزت نزعة تحاول تجاوزه عودا على بدء من موقع الاستيعاب والاستقصاء (...) وهي تعكف على كلّ الظواهر الإنسانية في غير احتراز أو تحفظ باعتبار أنّها تستكشف ظاهرة اللسان فيها جميعا ونواميسها من مصادر لسانية وغير لسانية فتعتمد إلى إجراء مقطع عمودي على كل منتجات الفكر بمنظور مخصوص، فبعد البحث عن خصائص الخطاب الإخباري والخطاب الشعري والأدبي تعمد اللسانيات إلى دراسة نواميس الخطاب العلمي والقضائي والإشعاري والديني والمذهبي"<sup>54</sup>. وقد غدت اللسانيات مصدر التفاعل بين مختلف التخصصات كما يرى المسدي في السياق نفسه إذ يقول : "أما على صعيد فلسفة العلوم ونظرية المعارف فقد كان للسانيات فضل تأسيس جملة من القواعد النظرية والتطبيقية أصبحت الآن من فرضيات البحث ومسلّمات الاستدلال حتى عدّت مصادرات عامة، وأبرز هذه القواعد فضلا عن النزعة العلمية المتخفية لقواعد النسبية والمعيارية بغية إدراك الموضوعية عبر

---

<sup>54</sup> اللسانيات وأسسها المعرفية، منشورات الدار التونسية للنشر بتونس والمؤسسة الوطنية للكتاب بالجزائر 1986 ص168.

الصرامة العقلانية اثنتان هما قاعدة تمازج الاختصاص وقاعدة التفرد والشمول، فأما تضافر المعارف فإنه يعدّ أسّا من أسس البحث الحديث<sup>55</sup>.

وبعد فإنّ النظرية المعرفية الحديثة هي أولاً نتاج التصور العلمي المركّب للعالم، وذلك على الأقل منذ القرن التاسع الهجري أي منذ أن بيّن عبد الرحمن بن خلدون في مقدمته الشهيرة أن علم التاريخ والعمران البشري أشدّ تعقيداً مما كان يتصوره المؤرخون القدامى. لقد كان تصور ابن خلدون للتاريخ بصفته خطاباً تأصيلاً تصوراً بينياً يعيد بناء الخارطة المعرفية على أسس علمية تأصيلية، لأنه يرى أن كتابة التاريخ تحتاج إلى تضافر عدّة علوم لا مندوحة من أن يلم بها المؤرخ وأن يدرك ما بينها من صلات التفاعل والتكامل وفي صدارتها علم الإحصاء السكاني أو ما نسمّيه اليوم علم الديموغرافيا أو الجغرافيا السكانية، لأنّ هذا العلم يمكن المؤرخ من تمحيص المعطيات الإحصائية وتمييز صحيحها من خرافيتها، وقد عاب ابن خلدون على المؤرخين الذين سبقوه تقديم أرقام عن عدد الحمامات والمساجد والجيوش وضحايا المجاعات وغيرها من المعطيات التاريخية التي لا تصمد بإزاء علوم الإحصاء والديموغرافيا والتي غابت عن أذهان المؤرخين القدامى. وقد اتسعت المنظومات العلمية الحديثة وتفرّعت حقولها المعرفية بفضل هذا التصور، فصار كلّ علم من العلوم منظومة متسعة باطراد، وبعد عصر إسحاق نيوتن (I. Newton) تأسّس الفكر العلمي على مبدأ النظر في القيمة الوظيفية لعناصر الطبيعية متناهية الصغر والتي تجاوز في صغرها الهباءة والذرة ومنها الراديوم والبروتون والإلكترون أو الكهرّب والفوتون. وهذه العناصر تكوّن المجال البيئي الجامع بين العلوم الأساس كالفيزياء النووية والميكروبيولوجيا أو علوم الأحياء متناهية الصغر والكيمياء الحيوية والعلوم اللغوية وخاصة علم الدلالة الذي أثر في تطوير المجال السيميائي بالكشف عن مفهوم المعنم (Sème) والمعينم (Sémème) وهما الوجدتان الداليتان الصغريان. وخلصت هذه العلوم المتداخلة إلى تطوير فهم الإنسان لحقيقة انتظام عالم الأحياء. ونذكر كذلك علم الصوتيات التوليدية الذي نشأ في الستينات من القرن الماضي وتخلّى بموجب ما أنتجه من معارف عن الأصوات عن مفهوم الفونيم أو الصوتم لاستعمال مفهوم القطعة (Segment) وهي الوحدة الأساس في التمثيل الصوتي<sup>56</sup>.

<sup>55</sup> م.ن .

<sup>56</sup> ينظر في البنية الداخلية للفونيم، ضمن أعمال ندوة اللسانيات وإعادة البناء، منوبة تونس 2004 ص233.

إنّ الفكر العلمي المستند إلى نظرية النسبية يبرهن كلّ يوم على أنّ العناصر المكونة للمادة أكثر تدخلا ودقة وتشعبا مما نتصور، وأنّ "الواقع غير المرئي بالعين المجردة أو المسموع بالأذن المجردة أيضا يجاوز في حقيقته بتعقّده وتركيبه ما نحمله عنه من تمثّلات ومن تصورات، وأنّ تقدّم البحث العلمي إنّما هو على الدوام توغّل متواصل في البحث عن أسرار الأنظمة ودقائقها"<sup>(57)</sup>. وقد كان اكتشاف الآلة المجهريّة وتخطيط الصدى - وهي آلات تنفذ إلى توصيف العالم المتناهي الصغر في دنيا الخلايا الحيّة - قلبا لجميع الموازين في مجالات التطوّر العلمي. ففي مجال علم الأحياء مثلا اكتشف الإنسان بفضل دراسة الخلايا البصرية قدرة الحيوان على تحليل طيف الألوان بما يفوق قدرة الإنسان آلاف المرات<sup>58</sup>، وفي مجال اللسانيات الصوتية رأينا كيف فاقت الصوتيات السمعية ( Acoustic Phonetics / Phonétique Accoustique ) بفضل آلات التسجيل الصوتي الدقيقة وطرائق الاستشعار عن بعد، كيف فاقت الصوتيات النطقية، وذلك في التمييز بين صفات الأصوات وتفاعلها في التركيب اللفظي. وأنّ ترى كيف يقطعّ دارس الصوت الصفات المكوّنة لصوت واحد إلى مئات الأجزاء لإدراك خواصّ في غاية الدقّة لا ندركها بالأذن المجردة.

لقد استفادت الأفكار البينية في عامة الحقول العلمية من الكسر المعرفي الذي عرفته علوم الفيزياء وعلوم الأرض في مطالع القرن الماضي، وأدركت هذه الأفكار أنّ الأنسجة الحياتية ليست أبنية منعقدة بعضها دون بعض بل هي خلايا متواشجة، وأنّ العناصر التي تشغل بها مختلف العلوم ليست هي العناصر الأساس في أنظمة الحياة وليست هي المتحكمّة في القوانين وإنما ينبغي أن نبحث عن عناصر أخرى تنتشر بشكل أفقي في عامة مناحي الحياة .

إنّ مختلف التخصصات العلمية والإنسانية والأدبية سواء منها ما ظهرت آثارها المعرفية في الدرس الفلسفي أو في المناحي التطبيقية في علوم الحياة كالهندسة الجينية أو في العلوم التجريبية المتّصلة بالطبّ والكيمياء والزراعة والجغرافيا الرقمية وعلوم التكنولوجيا واختراع الرقائق الإلكترونية تشغل على

---

<sup>57</sup> المرجع نفسه والصفحة نفسها .

<sup>58</sup> أثبتت دراسة الموجات البصرية والذبذبات الصوتية أنّ حاستي البصر والسمع عند القطّ مثلا قادرة على التمييز بين عشرات الدرجات اللونية ضمن لون واحد كالأحمر أو الأخضر، وموجات صوتية متناهية البعد في حين لا يستطيع بصر الإنسان التمييز بين أكثر من خمس أو ست درجات في اللون الواحد وحاسة السمع عنده موجات محدودة .



أساس أن النسيج المكوّن لحياة المخلوقات أو الكائنات البيولوجية والفيزيولوجية لا يمكن أن تختزله المعرفة العلمية النظرية والتطبيقية مهما تفرّعت الحقول المعرفية، وأنّ التقدّم في مجال كتابة الخطاب الواصف للظواهر بجميع أنماطه إنّما هو - كما قال المفكر الأدبي جورج نونوماخير مرّة أخرى - عملية تعقيد للمعرفة غايتها أن تزداد قرباً من فهم حقيقة الظواهر، لأنّ الظواهر والآلات والأجسام الطبيعية والصناعية لا يمكن أن تعيش وتتحرّك وتؤدي وظائفها إلّا بمئات العمليات المعقّدة المتناقضة والمتكاملة والمتتالية. وإذا كانت الأفكار البنيوية في العقود الأولى من القرن العشرين قد احتقلت بالعلاقات بين الأشياء وبالأبنية العامّة فإنّ الدراسات الظاهرية المتنامية نتائجها منذ عقود قد جاوزتها إلى تشقيق المكوّنات التي تدركها الحواسّ والملكات العقلية لفهم خصائص قدرتها على التحوّل من مركّب إلى آخر (59).

ماذا ينتج عن هذا التعقّد في مستوى الخارطة العلمية الحديثة ؟ ينتج عنه بطبيعة الحال أن كلّ علم من العلوم لا يمكن مستقبلاً أن يقتطع من العالم جزءاً خاصاً به، بل لا يمكن أن يصنع مفاهيم موضوعية معزولة عن المفاهيم التي يصنعها علم آخر. ولقد رأينا كيف أسهم علم طب الأسنان والعظام عامة مثلاً في خدمة علم الحفريات أو طبقات الأرض، وهو علم بيني كان نتاج تقاطع علم تقليدي هو التاريخ وعلم جديد هو علم طبقات الأرض (Géologie) وعلم الكيمياء (تحليل الكربون) وذلك بدراسة هيكل السن أو العظم الذي يعثر عليه الباحث في الحفريات وترسّبات ما فيه من مواد حجريّة وكربونية ، ومن ثمة تحديد الزمن التاريخي لتلك الحفريّة.

ويمكن أن نضيف إلى ما ذكرناه في مقدّمة هذا الكتاب أنّ التحوّلات العميقة التي حدثت في مجال المعارف العلمية والصناعية ثمّ التكنولوجية قد أفضت إلى تغيير الخارطة العلمية بولادة علوم جديدة لم تكن من المنظومات الأساس ، وربّما كان للمجتمع العلمي الحديث أثر في الإغلاء من شأنها على غرار ما حدث في الخمسينات من القرن الماضي حين حصل مانون يعقوب (M Jacob) على جائزة نوبل العالمية للبيولوجيا الخلوية (Biologie cellulaire) فكان ذلك إيذاناً بميلاد هذا العلم، والأمر نفسه حدث في مجال علوم البيئة منذ أكثر من أربعة عقود، فقد كان المناخ السياسي العالمي الذي

---

<sup>59</sup> سبق أن ألمعنا إلى هذه المسألة في كتابنا: الخطاب الأدبي وتحديات المنهج. انظر ص 32 ؛ ولكننا لم نكن راضين تمام الرضا عن صياغتها، وقد دقّقنا النظر فيها في هذا السياق ونرى أنّها إلى الآن لا تزال بحاجة إلى جهد تأملي أكبر !.

نشأت فيه مفاهيم المحافظة على البيئة من التلوث الصناعي وعلوم المناخ وخاصة الفرع المتصل بالكوارث الطبيعية والصناعية دافعا لحديث العلماء عن المياه والتربة واتجاه العالم إلى إنشاء حقول بحثية متصلة بمستقبل الكوكب الأزرق ، وقد أدى هذا التحول إلى ظهور منظومة جديدة من العلوم الإنسانية المتصلة بالبيئة وهي علوم بيئية بالأساس لأنها تستثمر معارف الجغرافيا الطبيعية وعلم الأحياء ( Zoologie / Zoology ) وعلم النبات ( Botanique / Botanic ) وعلم البكتيريا أو الجرثومات ( Bactériologie / Bacteriology ).

إنّ المعرفة العلمية في التواصل الحديث لا تنتقل بشكل مغلق بين مجموعة من العلماء تنتمي إلى فضاء واحد وتستعمل خطابا متعاليا رمزيا واحدا، كلا بل لقد أصبحت المعرفة العلمية بفضل صفحة الواب تنتقل بشكل انتشاري أفقي سريع بين جميع الناس القادرين على تصفّح الواب وهم يعدون بالملايين إن لم نقل بالمليارات ؟ وهذا الانتشار هو الذي يسهم في تغذية البيئية العلمية وتعقيد تقاطع المعارف ووظائفها لأنّ تلقي المعارف بشكل معقد يتداخل والثقافة الفلسفية والأدبية والصناعية وينتج مجموعة مستهلكة للعلم أوسع من مجموعة العلماء التقليدية .

ولم يعد بإمكان لغة الخطابات العلمية القديمة ومصطلحاتها التعبير عن خصائص اللوقوس التي ابتكرها الإنسان في العصر الحديث ، ولم تعد قادرة على التعبير عن إشكاليات الفكر العلمي المستحدث ، بل ولم تعد تقوى على فهم الأطروحات التي ينتجها الفكر الإنساني في العصر الحديث. وقد اقتنع عامة الباحثين في الإنسانيات<sup>(60)</sup> منذ أواسط القرن التاسع عشر بأنّ الأشكال التعبيرية منفتحة على ثقافة التعدد مثل الرواية والكتابة الأدبية الصحفية هي المدخل الضروري لفهم واقع ثقافة هذا العصر ولتمثّل الأدب في هذا العصر، واقتنع المستقبلون (Futiristes)<sup>(61)</sup> أنّ الأجناس الأدبية القديمة تتخلّى شيئا فشيئا لصالح التواصل الأدبي المنفتح على الأشكال المتقطعة مثل الرواية الجديدة والقصة القصيرة جدا وقصيدة الومضة وشعر الصلّام، وهذه الأشكال هي التي ستنتج في ملاحقة الرغبة الحديثة إعادة تشكيل الخارطة الفنية وفي كسر الأنساق الأدبية باستمرار وبشكل مذهل في

<sup>60</sup> بيير شارتييه: مدخل إلى نظريات الرواية، ترجمة عبد الكبير الشرقاوي، دار توبقال، المغرب 2001 ص 82 .

<sup>61</sup> ظهرت الحركة الفنية والأدبية المستقبلية بظهور كتاب بيان المستقبلية لفيليبو توماسو مارينيتي Filippo Tommaso Marinetti سنة 1909 ، وهو اتجاه يحتفل بالحركة والتقدم والسرعة، وقد تأثر كتابه ورسموه بالمدينة الحديثة وما تضفيه على الحياة من حركة وألوان ومعمار يدلّ على نسق السرعة .

جميع الثقافات التي تشهد انتشار القراءة الفردية والحرّة، وستظلّ هذه الأشكال لمدى بعيد معبرة عن المنعرج المعرفي الذي تعيشه الحضارة الإنسانية في عصر الحداثة وما بعد الحداثة. إنّ القراءة التي يمارسها الإنسان في العصر الحديث وفي فضاءاته الاتصالية قراءة بينية، وهي جزء من التلقي البيني الذي تتسم به عملية التواصل السمعي البصري<sup>62</sup>، وهي تزاخم مؤسسة القراءة التقليدية، تلك القراءة التي تهيمن عليها ثقافة النظريات الشكلية والسردية أو ما يمكن أن نسميه "بالعقل التقني" وهذا العقل الموغل في الشكلنة لا يمكن أن يبدع ولا أن يعطي من النتائج المعرفية ما يساعد الدراسات السوسولوجية والنفسية والأنثروبولوجية وغيرها من حقول المعرفة على الاستفادة من الأشكال الأدبية الحديثة. وإذا استثنينا نماذج محدودة من أعمال إدوارد سعيد وجبرا إبراهيم جبرا فإنّ الفكر الأدبي ظلّ بعيدا البعد كلّه عن سائر الأنشطة الثقافية التي يعيشها الإنسان في مختلف أشكال التعبير.

ونذكر من الأجناس الأدبية الجديدة التي تتطلب من الساهرين على تعليم اللغة العربية مزيد التفكير في استنباط مشاريع تعليمية بينية تأخذ بعين الاعتبار ثقافة القارئ الحديث جنس الرواية الجديدة فهي إبداع منبثق من التصورات المعرفية المستقبلية، من الخيال الأدبي والممكنات الإنسانية في مختلف مجالات الحياة<sup>(63)</sup>. وهي من أبرز الأجناس الحاضرة لما يمكن أن نسميه بالفضاء البيني إذ توفر للكاتب فضاء التعبير عن تعدّد الأصوات الثقافية في الفضاءات المتقاطعة وفي الأمكنة التخومية والحدودية كالمحطات الرياضية في أعالي الجبال والمطارات والمحطات الأرضية والأرصفة وقاعات المؤتمرات ومعارض الرسامين والشوارع المزدهمة. وقد كسرت نمطية الأمكنة المغلقة التي تحتفل بها الأشكال الكتابية التقليدية. ولقد فسّر جورج قيزدورف وجورج نونوماخير علاقة الشعرية الحديثة أو البويطيقا بمنجزات الحضارة الإنسانية الحديثة فذهبا إلى أنّ النظريات الشعرية القديمة إنّما هي فرع من النظريات المعرفية التي كانت تدرك الأشياء من خلال الكلّيات في كافة الحقول العلمية الطبيعية

<sup>62</sup> إنّ ما توفره الشبكات الفضائية من تنوّع في البرامج وما تقترحه على المشاهد من تعدّد في الموضوعات والمجالات يفرض على منتجي البرامج أن تكون لهم ثقافة بينية واسعة وأفقية يستطيعون بها إنتاج محتوى قادر على شدّ انتباه المشاهد وذلك بتقديم عروض متنوعة تشبع رغباته وتصرفه عن التفكير في تغيير القنوات بشكل مستمرّ.

<sup>63</sup> يلحظ مؤرّخو الرواية أنّ فكر الخيال العلمي وهو من إنتاج الفكر المستقبلي هو الذي شجّع على ظهور الكتابة الروائية في مجال الخيال العلمي وكتابة المغامرة البوليسية، والروايات السوداء (Le Roman Noir)، وقد قوي نسق هذا الإبداع بظهور الإخراج السينمائي وكتب المغامرة أو ما يعرف بكتاب الجيب البوليسي وغيرها من ألوان الرواية البوليسية المعدّة لكتابة السيناريو.

والإنسانية، وهي نظريات تفكر في تفسير الظاهرة وتبحث عن الإجابة عن الأسئلة الكلية فتصوغها صياغة عقلانية مغلقة. فلم تكن العلوم تتوالد وتتنامى، وإذا كان علم البيان في الشعرية الكلاسيكية هو العلم المهيمن على تلقى الأشياء وإدراكها فلأنه لا يعقد العالم ولا ينفذ إلى تفاصيله وجزئياته، بل إنه كسائر النظريات المعرفية القديمة "ليس بعلم استكشافي بقدر ما هو علم تبريري تردّ بمقتضى قوانينه جميع الجزئيات إلى الأصول المعروفة كما سبق أن ذكرنا وهي - على اختلاف المنجزات الإنسانية في مختلف الحضارات - تسعى إلى جعل كلّ جديد وسيلة للبرهنة على الحقائق القديمة المعروفة" (64).

ومن الأصول النظرية التي غذّت خارطة الفكر البيني الحديث ما يمكن أن نلاحظه في مجال الصلة بين الأنا والآخر في الفلسفة والاجتماع وعلم الجمال ، ويعسر في هذا السياق أن نلّم بدلالات الفضاء بين الأنا والآخر في الفكر الإنساني الحديث نظرا إلى تعقد المفهوم واختلافه من مذهب فكري وأدبي إلى آخر ومن ثقافة إلى سواها ، فالآخر لم يكن من المفاهيم الفلسفية القديمة ولم يكن له كما قال سعد البازعي موضع اصطلاحي<sup>65</sup> بل يمكن أن نرجع وعي المفكرين به إلى الفيلسوف هيجل، فقد حظي بمكانة هامة في تفكيره الجدلي المثالي، وذهب إلى أنّ الإنسان لا يمكن أن يثبت إنسانيته ( Ego ) ويبرهن عنها إلاّ أمام إنسانية أخرى أي أمام الآخر أوبالأحرى الغير، لأنّ الآخر يمكن أن يكون مخلوقا غير الإنسان فلا معنى "للأنا" إلاّ باعتراف الآخر. ويذهب مارتين هيديجير إلى أنّ الذات مع ( l'Être- avec ) هي الوجود الحقيقي للإنسان، وأنّ الذات الإنسانية كي تصف العالم تطلب وجود غيرها من الذوات<sup>66</sup>. والجماعة الحقيقية هي التي تسمح بالوجود الأصيل مقابل الوجود الزائف، أي تسمح للآخرين بإبراز شخصياتهم ومواهبهم وحياتهم<sup>67</sup>. وقد أخذ هذا المعنى سعد البازعي فصاغه بقوله : " إنّ مفهوم الآخر ينطوي في الغالب على فهم جوهري للذات أي أنّ الذات وهي تحدّد آخرها ترى نفسها هي الأساس الذي تصدر عنه المعايير التي يمكن أن تحدّد من خلالها الآخر وأن نجيب عن سؤال من

<sup>64</sup> جورج نونوماخير: من الشعر إلى الشعرية ص329.

<sup>65</sup> الاختلاف الثقافي و ثقافة الاختلاف ، المركز الثقافي العربي ، بيروت 2008 ص ص 32

<sup>66</sup> ينظر في مفهوم الوجود عند هيديجير ، فريدة غيوه مجلة التواصل جامعة باجي مختار العدد 10 مارس 2003 ص

<sup>67</sup> السابق ص 133 .

هو ذلك الآخر ؟. وكذلك موقع ذلك الآخر من سلم القيم ، ومن هنا فإنّ تحديدنا الآخر يتضمّن موقفا أخلاقيا ينضمّ إلى الموقف المعرفي " .<sup>68</sup> ويذهب جان بول سارتر إلى أنّ الأنا حين يرى غيره يرى نفس العالم يفهم بأنّه ليس وحده يرى العالم بل يوجد الغير أو الآخر. ولئن كان كتاب إدوارد سعيد الاستشراق إحدى الحلقات المهمّة في بلورة مفهوم الآخر عند الغربيين أي الشرقي بثقافته وتكوينه الحضاري والنفسي والاجتماعي، فإنّ المصطلح أخذ فعلا حضوره يكثف من تسعينات القرن الماضي<sup>69</sup> ولكن بمفهوم الغيرية ( l'altérité ) لا الآخريّة كما قال البازعي. وأخيرا نرى بدورنا كما قال سعد البازعي أنّه من الصعب إحداث فصل تامّ بين الآخر الفلسفي والفكري والنفساني والإبداعي، والأمر الأهمّ عندنا أنّ الآخر أو الغير يظلّ في مطلق الأحوال صورة للآخر أو لتمثّلنا للآخر أكثر مما هو الآخر عينه. إنّ الآخر في الفكر الإنساني اليوم هو حاصل تصورنا للفضاء البيئي الذي تجتمع فيه الإنسانية التي نشترك فيها مع غيرنا من الذين تربطنا بهم مصالح ومنافع وعداوات وخصومات، ومن الذين كان لهم في تاريخنا أثر ما من الآثار السلبية والإيجابية. والآخر ليس ذاتا منغلقة بل هو وجه من وجوه الذات تكون لنا بها صلة تشاركية خلافية أو تضامنية : الآخر هو من يختلف معنا في إدراك الأشياء. ولما كان الآخر بهذا التعقيد فإنّه يعسر أن نلّم في مضمار واحد بدلالته في الثقافة الإنسانية ولكن نكتفي بالقول إنه ركيزة أساس من ركائز الإدراك البيئي في جميع التيارات الفكرية الحديثة. وقد صار الإنسان الحديث بفضل هذا التصور للآخر قادرا على تصور الفضاء البيئي أو تمثله، وهو الفضاء الذي نشترك فيه مع الآخر سواء كان الفضاء العمومي أو فضاء الحوار بين الحضارات أو فضاء الحوار الثقافي والعلمي.

لقد كان الشارع أو الطريق في السرديات القديمة فضاء هجينا لا يحفل به الكاتب ولا يمثل فضاء من فضاءات السرد في الأجناس القصصية القديمة كالمقامة أو الخرافة أو القصة العجيبة أو الخبر السري، وهو بفضل الخارطة الإبداعية الحديثة يصبح أحد الفضاءات الأساس في الإبداعي القصصي لأنه فضاء بيئي تلتقي فيه الأصوات الثقافية، وتصنع فيه مصائر الشخصية القصصية، ويمثل فضاء الإبداعي الاجتماعي.

---

<sup>68</sup> الاختلاف الثقافي ص 36 .

<sup>69</sup> م.ن ص 35 .

## الفصل الثاني

الأصنافيات المعرفية :

من فكر القطيعة إلى فكر التواصل

## الرياضيات بين الحق والجمال.

جعل الدكتور محمد السويسي أستاذ الرياضيات العربية وأدب العلماء هذه العبارة عنوانا لمحاضرتة التي ألقاها عام 1989 بمدّج ابن خلدون بكلية الآداب منوبة بتونس وقال فيها:

" ومن المعلوم أنه يوجد تواصل مستمرّ بين الرياضيات وسائر العلوم بل وسائر الأنشطة البشرية، والجمال والفنّ لا يشذّان عن هذه القاعدة. إنّ في الرياضيات لجمالاً لكنّه لا ينبغي أن يشتبّه هذا القول بما للرياضيات من دخل وأياد في جمال آيات الفنّ البديعة، ومن الواجب أن نميّز بين تطبيقات الرياضيات على الجماليات وجمال الرياضيات الذاتي. وسنستعرض باقتضاب شيئاً من هذه التطبيقات على أنّنا سنعيّر اهتماماً بالخصوص إلى ما للرياضيات في حدّ ذاتها من روائع الجمال، وسيكون ذلك ممّا ردّ فعل على أفكار مسبقة متمكّنة تمكّنا وثيقاً، منتشرة انتشاراً فسيحاً تؤذي ظلماً سمعة الرياضيات لدى الجمهور العريض ولا سيما جمهور رجال الأدب والفنّ فيقال الرياضيات جافة، وعريّ طريقها، لا يسلكها إلّا من منحته الطبيعة "حذبة الرياضيات"، وتقدّم الأدلة على ذلك. وفي سياق الشبكة العلائقية من التفاعلات المتبادلة العميقة بين تأملات الرياضيات المعرفية والمنتجات العملية الفنية كنت تعرّضت منذ أكثر من أربعين سنة في مجلة "المباحث" إلى أثر الهندسة النظرية في فنّ البناء وفي النقش العربي، فبراعة العرب في الهندسة قد أدّت إلى اختراع بناء طريف لا يدرك لهم فيه شأو ولا يشقّ غبار... اخترعوا العقود المفصّصة الصمّاء المتشابكة وتفنّنوا في السقوف والقباب، وصنعوا من فوق الحيطان أشكالاً مجسّمة من الجصّ يخمرّ بالماء فيشكل حسب قول ابن خلدون على التناسب تخريماً بمثاقب الحديد إلى أن يبقى له رونق ورواء....وذاك عند ابن خلدون هو معنى الجمال والحسن في كلّ مدرك.. وكذلك الأمر في تقاسيم الموسيقى وموشّحاتها...ينتشر الصوت لا يحصره مخطّط تناسق وتوافق، ويتكرّر هو عينه والنغم والإيقاعات ذاتها بلا نهاية، مبنوثة في كلّ ترجيعه بصبغة جديدة.

ويمكن أن نعدّد الأمثلة وأن نبيّن أنّ كلّ تناسق كما في النغم يصطبغ بصبغة العدد والهندسة، وأنّ التناسب ينعش لوحات الرسم ويدخل الحياة على القصائد الشعرية الغنائية. يقول الملحن الكبير رامو (Rameau) " إنّ العلوم جزء من الموسيقا إذ هي تعتمد على التناسبات ورنين الجسم المصوّت يحدث التناسبات جميعا... ولا شكّ في أنها مبالغ ومجازفة أن يزعم حصر طبيعة الفنّ في الرياضيات وحدها، ومع ذلك إنّ في هذا الرأي عمقا وردّ فعل مفيدا على ما شاع من نظرات متداولة تجعل الفنّ في مواجهة الرياضيات كما قابلوا بين عقلية الظرف وعقلية الهندسة. .. فلنعد حينئذ إلى الفنّ ولنترك أولا عددا من الفلاسفة ومؤرّخي العلوم وأساسا أهل الفكر يصرّحون برأيهم في العلاقة بين الرياضيات والفنّ، فهذا برتران رسل (B.Russel 1872 - 1970) يصرح بأنّ الرياضيات إذا ما أدركت حقّ إدراكها فيها لا الحقيقة فحسب بل كذلك المثل الأسمى من الجمال، وهذا هنري بوانكاري (H.Poincaré) العلم والأسلوب باريس 1908 ص 57) يقول: " قد يعجب بعضهم ممّن يذكر الشعور والإحساس حين يتحدّث عن البراهين الرياضية وهي في الظاهر لا تهتمّ سوى الإدراك إلّا أنّ في هذا التعجب تغافلا عن الشعور بالجمال الرياضي، عن تآلف الأعداد والأشكال وتناسقها، عن الأناقة الهندسية، وذلك شعور جمالي حقّ يعرفه علماء الرياضيات الحقّ". وقول نوفاليس (Novalis) " الجبر شعر"... وكثيرا ما يكون للفكر الرياضي في تصرّفه مع الحقيقة والواقع الفيزيائي على جناح الخيال المنطقي نزوات تصنع بها مفاهيم غريبة يرى فيها من لم يكن من أهل الذكر أضغاث أحلام وتمويهات ظنون المعنويين... وفي خاتمة القول سنعرض سوّالا كنّا عرضناه في خاتمة مقالنا في العلم والأدب في كتاب أدب العلماء: هل بقي بعد ما سبق تتافر بين العمل العلمي وبين ما اتصفت به روائع الأدب والفنّ من صفات الشمول والعموم، وهل هناك ما يحول بين آيات العلم والألحان التي تردّها شوارد أعمال الإنسان، وروح الطرب الحقّ كما يقول برتران رسل وشعور الشخص بكونه يتسامى على مستوى الإنسان وهما معيارا الجودة العليا يوجدان على السواء في الرياضيات وفي الشعر؟.

محمد السويسي

الدروس العمومية

كلية الآداب منوبة تونس 1990



## 1- الأدب بين الحكمة العقلية والتخييل :

شاعت في أعراف الفكر العالمي منذ الماضي السحيق، وفي تاريخ الأفكار قديما وحديثا أن بين الشعر والفلسفة تنافرا، وأنّ الفلاسفة يبحثون عن الحكمة بينما يسعى الشعراء إلى تبديدها وإفسادها بأوهام العاطفة وبفتنة القول. وعلة هذا الصراع أنّ الفلسفة هي البحث في الحقائق المجردة أو هي حبّ الحكمة، في حين يبنى الشعر على طلب الحقائق التخيلية، فكان الصراع بين الشعر والفلسفة صراعا بين الفكرة والصورة، أو بين الحقيقة البرهانية والحقيقة التخيلية، أو بين البحث عن عقل المعنى وتقويده والبحث عن تخليصه من قيود المطابقة. ويمكن أن نعدّ كتابات نيتشه أواخر القرن التاسع عشر بداية التشكيك في هذا التنافر بما أضفاه على أفكاره من صور وأخيلة مجنّحة. وقد ظهرت في العقود الأخيرة عدّة أصوات يعترض أصحابها على هذا التمييز الجوهراني (Essentialiste) بين الأدب والحكمة أو بين الفنّ والحكمة العقلية، وهو تمييز كما قلنا يرى في الأدب مجال التخييل والعاطفة والإمتاع، وفي الحكمة مجال الحقائق العقلية أو هو صورة أخرى للصراع بين العلم والأدب على النحو الذي رأينا. وترى هذه الأصوات أنّ الأدب يسهم بدوره في بناء المعرفة وفي طرح الأسئلة الكبرى التي يثيرها العقل الإنساني في مسائل الحياة والوجود والكون، وأنّ التمييز الثنائي الضيق لا يتماشى وتاريخ النصوص والخطابات التي أنتجت المعرفة البشرية في قضايا المعرفة منذ العصور القديمة. ويرى فيليب سابو (Ph. Sabot) في هذا السياق أنّ الأدب كان منذ أقدم العصور ظهيرا للفلسفة ولل فكر البشري، وأنّ الأشكال الأدبية كثيرا ما كانت تنير اهتمام الفلاسفة، ويذهب إلى أنه بالإمكان أن نستخلص من الأثر الأدبي "وجهة فكرية" ذات قيمة فلسفية أو يمكن إدراجها في نسق فلسفي مخصوص<sup>70</sup>. إنّ هذا التوتر التاريخي بين الفلسفة والأدب انقدحت شرارته الأولى في أعمال الفيلسوف اليوناني أفلاطون، فطرد الشعراء من جمهوريته لأنهم في تصوره يزيّفون الحقائق ويغالطون الناس بأوهامهم، فالصور التي يبتدعها الفنّان في رأي أفلاطون ليست سوى محاكاة للأصل، وهي تشوّهه وتفسده. ويرى مؤلّف الجمهورية أن هناك كونا مثاليا توجد فيه أشياء في مثاليّتها، وأنّ الكون الذي نعيشه كون فساد بالنسبة إلى عالم المُثُل، فإنّ

<sup>70</sup> Philosophie et littérature: Approches et enjeux d' une question; P.U.F Collections Philosophie; 2002 p12

الأشياء التي نعيش بها ليست حقائق وإنما هي صور من الحقائق، وهي ظلال الحقائق، فالنظرة المثالية الأفلاطونية ترى الشجرة المغروسة بمختلف أنواعها صوراً لشجر موجودة في عالم المثل. وهو الاتجاه نفسه الذي دعمه إيمانويل كانت حين تأقّف من صعوبة متابعة فكر جان جاك روسو (J.J.Rousseau) وادّعى أنّ جمالية الكتابة عنده تشوّش عليه القراءة وتلهيه عن النفاذ إلى أطروحاته. وقد قرأ فيليب سابو موقف أفلاطون من العلاقة بين الفلسفة والشعر قراءة نقدية فذهب إلى أنّ خطاب هذا الفيلسوف قد وقع في تناقض كبير إذ نراه - وهو يسعى إلى تمييز الفلسفة من الشعر في محاوراته - يلجأ إلى استعمال الاستعارات التي يستمدّها بطبيعة الحال من مجال التخيل، كاستعارة الشمس للتعبير عن المعرفة، والظلام للتعبير عن الجهل، ونراه يبني فكره الفلسفي على رموز الأسطورة<sup>71</sup>. ويفسر الباحث رأي جاك دريدا الذي يذهب إلى أنّ إنكار الفلسفة للشعر ينبغي أن يصاحبه تخلّص من الكلام وفنونه ووجوه تصرّفه في الاستعارات والمجازات التي لا يمكن لأيّ خطاب أن يتخلّص منها مهما كان تعاليه العقلي!!! والواقع أنّ الفكر التفكيكي كله يقوم على ردّ الاعتبار إلى هذه البينية المهمة التي تشدّ الفلسفة إلى الأدب والعكس بالعكس. وقد حدّد فيليب سابو في أطروحته هذه ثلاثة أنماط من العلاقات المعرفية بين الأدب والفلسفة: النمط الأول سمّاه الرسم التعليمي، والنمط الثاني سمّاه الرسم التأويلي، وسمّى النمط الثالث الرسم الإنتاجي. ففي خصوص الرسم التعليمي يرى الباحث أنّ الأثر الأدبي يمكن أن يدرس بالاستعانة بمفاهيم فلسفية يستدعيها الدارس من خارج الأثر، ويضرب لهذا النمط مثالا بكتاب جيل دولوز (G.Deleuze) بروسست والعلامات (Proust et les signes)، وهو تحليل فلسفي للرواية الشهيرة التي أسالت حبر أقلام الكثيرين من الفلاسفة وأهل الأدب وهي "البحث عن الزمن الضائع" (A la recherche du temps perdu). وأما النمط التأويلي فيعني أنّ وراء كلّ أثر أدبي أطروحة أو فكرة تختبره وتكمن في العالم الأدبي الذي يحرك المبدع<sup>72</sup>، ففي هذا النمط يكون الأثر الأدبي حاملاً لحقائق فكرية لا يمكن أن يعبر عنها غيره من أشكال الكتابة غير الأدبية، وبذلك يلتحم المضمون بالشكل ولا تدرك الحقائق إلّا من خلال الصور الأدبية والأبنية الفنية، وهذه الفكرة تتناظر فكرة شكل المعنى عند هلمسلاف (Forme de l'expression). إلّا أنّه يعيب على الدراسات التي تتدرج في هذا النمط

<sup>71</sup> م.ن ص 15.

<sup>72</sup> م.ن ص 55.

إهمالها للشكل، وإظهارها له كما لو أنه مكوّن ثانوي بالنسبة إلى أطروحة الأثر، ويظهر ذلك حين تعاد صياغة الأطروحة في لغة فلسفية مجردة تظهر بإزائها العناصر الفنية كما لو أنها مجرد أمر هامشي بالنسبة إلى جوهر الفكرة .

ويمثّل الباحث لهذا النمط بتحليل بول ريكور (P.Ricoeur) للبحث عن الزمن الضائع في الجزء الثاني من مصنّفه الزمن والقصّ. وفي النمط الثالث أو الرسم الإنتاجي يسعى الباحث إلى بيان الكيفية التي يمكن بها أن نستنتج من الشكل الأدبي نفسه الأطروحة التي يقدّمها المبدع في أي موضوع من موضوعات الحياة. ويستدلّ الباحث على هذا النمط بكتاب فانسن ديكومب (V.Descombes) الشهير "بروست وفلسفة الرواية" (Proust et la Philosophie du roman). ففي هذا النمط لا يكون همّ الباحث استخلاص الصلة بين الأثر الأدبي والاتجاه الفلسفي الذي ينتمي إليه بل تصبح الغاية استخلاص ما يقدّمه الأثر الأدبي من أفكار وأطروحات جديدة. ويمكن في ضوء هذه الأنماط الثلاثة أن نستعرض بإيجاز صلة الأدب بالفلسفة في الثقافة العربية، ونحاول أن نبيّن أثر الأشكال الأدبية في بناء المعرفة المجردة عامة، لكننا نشير أولاً إلى مسألة إيبيسيمولوجية لم يهتمّ بها الباحثون في العلاقة البيئية بين الأدب والفلسفة وهي مسألة نظرية مجردة تكوّن أسساً من الأسس المبدئية لكلّ دراسة بينية.

نرى أولاً أن الحديث عن صلة الأدب بالفلسفة لا يمكن أن يستقيم خارج العلاقة بين النظرية الأدبية والنظرية المعرفية العامة إذ لا يمكن للنظرية الأدبية أن تتأسّس خارج نظام المعرفة ، فكلّ نظام أدبي - بصفته نظام تواصل - يخضع لتصور معرفي تصنّف بمقتضاه أجناس الأدب وفق نظام المعرفة كما تتصوره تلك النظرية.

وإنّ لكلّ نظرية من الأدب مرجعاً فكرياً وثقافياً مستمدّاً من ثقافة المجتمع ورؤاه ومثله وقيمه ، فهي تتأثّر في تكوّنها وفي نضجها وفي انغلاقها وتحجّرها بمؤثّرات ترجع إلى طرائق التواصل في لغة تلك الثقافة. ولا يمكن أن نفهم أدب الخطابة مثلاً إذا عزلناه عن أعراف التواصل في الثقافة المنتجة للأجناس الخطابية ، فنظام التواصل إذن هو في قلب نظرية الأدب، وحين يقول أبو الطيب المتنبّي مثلاً:

على قدر أهل العزم تأتي العزائم \*\*\* وتأتي على قدر الكرام المكارم.

فذلك لأنّ النظام التواصلّي السياسي يقتضي من الشاعر أن يذيع الفتوحات والأحداث والوقائع وأن يصوغها في مشهورات. ولم يبيّن الباحث فيليب سابو في كتابه الذي ذكرناه هذه الصلة بين المعرفة والشعر. إنّ معاداة أفلاطون للشعر هي في الحقيقة خصومة في جميع الحضارات القديمة ، وهي صراع بين أطروحتين مؤداه هل يمكن أن يكون الشعر والفنّ عموماً مكوناً من مكونات الحضارة أو المعرفة؟ والخصومة تعني أنّ الأمر ليس محلّ اتفاق بين الناس، فأن يكون الشعر أداة تواصل وأن يكون الشعر شكلاً من أشكال تنظيم العلاقات بين الناس وأن يكون الشعر مؤثراً بين المؤسسات الفاعلة لم يكن موضوع اتفاق بين جميع الناس، فكثير من الناس يكرهون الشعر إلى اليوم، بل الأكثر من هذا إذ نلاحظ أنّ الكثير من أهل التخصص لا يعرف لماذا يتمّ إنتاج الشعر؟ لماذا يوجد الشعر في حياة الإنسان؟ سيقول الجمهور: هو تحقيق الجمال والمتعة، ولكن هذه الإجابة لا قيمة لها من الناحية المعرفية. ولكننا إذا وضعنا المعرفة الشعرية في سياق المعرفة الفلسفية العامة أمكننا أن نقول إنّ الشعر هو استكشاف مستمرّ للغة القادرة على تنظيم التواصل بين الناس في المجتمعات المتمدّنة وشبه المتمدّنة أي البدوية المتطورة، فالخصومة النقدية بين أنصار الشعر وخصومه تدور جميعها في الحقيقة على إشكالية معرفية هي: هل يمكن أن نقبل النظر إلى العالم من خلال الإدراك الاستعاري للأشياء؟ بما أنّ الشعر هو إدراك استعاري للأشياء؛ يعني لا تدرك الأشياء في حقيقتها إنما تدركها مظلّلة منعكسة ، فالإشكال المعرفي الكبير الذي دار حول الشعر بين خصومه وأنصاره هو هل نقبل أن ننظر إلى العالم من خلال ذاتية مشتركة بيننا وبين من نتجه إليه بالخطاب ؟ وإذا قبلنا أن نتواصل من خلال الأنظمة الاستعارية فإنّ ذلك يسلمنا إلى قبول التنازل عن ذاتية اللغة. لقد كان لظاهريّة (Phénoménologie/ Phenomenology) ميرلو بوتني (M.Ponty) دور بعيد المدى في تقريب الشقّة بين الفلسفة والشعر، بل يمكن أن نقول إنّ الظاهريّة نفسها منطقة تقاطع بين الشعر والفلسفة، ففي كتابه نثر العالم (La Prose du monde) تظهر الموضوعات التي يشترك فيها الفكر الفلسفي والتأمّل الشعري مثل موضوع الصلة بين الذات والموضوع أو بين الذات والأشياء، وقد بيّن جان بيار ريشار أنّ شعر فيرلان (Verlène) كان منعطفاً تاريخياً في الشعر العالمي الحديث حيث ظهر نمط جديد من التفكير في العاطفة أو في استعمال العاطفة الشعرية استعمالاً موضوعياً غير دال على مجرد إحساس الفرد بل دالّ على إحساس المفكّر في قضايا عامة<sup>73</sup>. فقد احتفلت أعمال إدمونت هيسارل (E.Husserl) ومارلو

J.P.Richard: Poésie et profondeur; Seuil 1955;p175.

بونتي بالحديث عن التجربة الإنسانية الحيّة الملموسة والمعيشة، وعن كثافة العالم المحسوسة والتي سبقت الفكر الفلسفي المجرد. وقد صرح الشاعر روني شار (R. Char) أنّه بفضل حواسّه الخمس يتمثل العالم في نسيجه المحسوس، فالكلمة لا تشير إلى الشيء بل تمثله أولاً<sup>74</sup>، وفي هذا السياق يقول نيكولا كاستان (N. Castin) في مقال له طريف بعنوان الشعر والفلسفة، من عدد خصصته مجلة آداب لهذا الموضوع: "يوجد في المسار المعرفي الفلسفي كما في المسار المعرفي الشعري صلة أساس بين الذات والأشياء المحيطة بها، هذه الصلة هي الجسد الحيّ المكوّن للرؤية العالم"<sup>75</sup>. فعلى الشاعر الحديث أن يعيد تعريف الفضاء والعالم من حوله، وفي هذا التعريف يقتحم الشعر فضاء الفلسفة لأنّ التعريف مسبوق بلا شكّ بالسؤال وهو لحظة شعرية فارقة في حياة اللغة. وفي تاريخ الحضارة العربية الإسلامية كانت صلة الأدب بحبّ الحكمة في صدارة الأسس التي بني عليها الفكر الأدبي: فترجمة عبد الله بن المقفع لكليّة ودمنة كانت لحظة تقاطع مهمّة في تاريخ العلاقات بين الثقافات الشرقية، ولم يكن هذا الكتاب في مقدّمته سوى إعلان عن التفاعل المخصب والممكن بين التخيل والعقل، وبين العلامة والرمز، وبين الفكرة والصورة، وقد عبّر ابن المقفع عن هذا التقاطع في مقدّمة المقدّمة حين ذكر أنّ أصل هذا الكتاب ليس شكلاً أدبياً بل جوهر الحكمة، وأنّ الشكل الأدبي طارئ عليها، وقد اضطرّ إليه الحكماء لإيصال الحكمة إلى عقول العامة من الناس: "هذا كتاب كليّة ودمنة وهو مما وضعه علماء الهند من الأمثال والأحاديث التي ألهموا أن يدخلوا فيها أبلغ ما وجدوا من القول في النحو الذي أرادوا. ولم تزل العلماء من أهل كل ملة يلتزمون أن يعقل عنهم، ويحتالون في ذلك بصنوف الحيل، ويبتغون إخراج ما عندهم من العلل، حتى كان من تلك العلل وضع هذا الكتاب على أفواه البهائم"<sup>76</sup>. فكتاب كليّة ودمنة كان لبنة من لبنات التزاوج بين الأدب والحكمة، فالحقائق الحكيمية متعالية في الأصل على الأعراض الأدبية والصور النسبية، ولكن التواصل الاجتماعي في كلّ الأمم وفي كلّ الأزمان يحتاج إلى أن ينزل هذه الحقائق إلى العيان، وأن يلبسها ثوب المجاز ليفهمها عامة الناس. وهذا التقاطع بين الحكمة المجردة والأدب المجسد للحكمة هو الذي فتح باب القراءات البيئية لكلّ من يعمل أدوات القراءة بحسب

<sup>74</sup> Sous ma casquette amarante;Entretien avec France Huser;Recherche de la base et du sommet;Gallimard1983;p827.

<sup>75</sup>

<sup>76</sup> كليّة ودمنة، منشورات دار بوسلامة للطباعة والنشر تونس 1977 ص54.

المنطلق المعرفي الذي ينطلق منه. ففي قصص كليلة ودمنة مجال للنشاط القرائي المستند إلى مرجعيات الفكر الأخلاقي ( بالمفهوم الإيطيقي ) الذي يرى في أشكال الحيوان تعبيراً عن الصراع بين العقل والغريزة وبين الخير والشرّ وبين العدل والظلم، وبين العلم والعمل. وفي الكتاب مجال للقراءة الاجتماعية لما تتضمنه العلامات اللغوية من قضايا تتصل بالمسائل الاجتماعية التي كانت تطرح في عصر الكاتب. فبين تأسيس الأخلاق العملية والدعوة إلى التفكير في الأخلاق النظرية تراوح الفكر الاستعاري الذي نسج خيوط قصص الحيوان عند ابن المقفع، وفي هذا السياق يقول كمال عمران : " ولكنّ الأدب عموماً أجلّ من أن يقبع في سطح الواقع على هامش حقيقة الإنسان فكان ابن المقفع يروّض العقل على السلوك الاجتماعي الناضج إصلاحاً للمعاش وإسعاداً للمعاد"<sup>77</sup>. ولم يكن أدب أبي عثمان الجاحظ في القرن الثالث الهجري دون أدب ابن المقفع من حيث ثراء مظاهر التقاطع بين الأدب والحكمة، فقد أثبتت الدراسات الحديثة مدى إسهام هذا الكاتب في إنشاء مفهوم الفكر البيئي، وهو ما سنراه في الفصل الخاص بأعلام البيئية، إلا أننا نكتفي في هذا السياق بالإلماح إلى أنّ التنوّع المعرفي الذي عرفه فكر الجاحظ أو التنوّع الموسوعي هو الذي سيدفع النقاد المحدثين إلى دراسته وفق منهج بيئي، وفي هذا السياق يقول كمال عمران متحدّثاً عن الوشائج العميقة بين الأدب والحكمة في كتابة الجاحظ : " وإنّ مدوّنة الجاحظ وحدها تكفي لتكشف عن الثراء المعرفي الذي تميّزت به الثقافة العربية الإسلامية على عهده، فقد سبر غور النفسية البخيلة، ونقل أخبار عصره في رسائله، والذائقة الأدبية في البيان والتبيين، وبرّز في إيلاف عالم الحيوان للانتهااء إلى عظمة الخالق في شكل أدبي استوعب الطرق الكلامي، ولكنه لم يعزب عن الأدبية التي كانت تعرّج على القضايا الشائكة... فكان كتاب الحيوان كتاب علم كلام... وهو كتاب طبيعة يتأمل عناصرها ويتساءل عن وظيفة الإنسان فيها "<sup>78</sup>.

ولعلّ كتاب الإمتاع والمؤانسة لأبي حيّان التوحيدي يقدّم صورة ناصعة عن اكتمال التناغم بين الأدب والحكمة في التراث النثري، فهذه الموسوعة الأدبية شكل من أشكال الكتابة البيئية في مختلف دلالتها الفكرية والإنشائية والعلمية. ولقد أطنب الدارسون في التأريخ لمرحلة الطفرة المعرفية التي شهدتها

---

<sup>77</sup> الإنسان ومصيره في الفكر العربي الإسلامي، منشورات المؤسسة العربية للتوزيع وكلية الآداب منوبة تونس 2001، 193/1.

<sup>78</sup> م.ن.

القرن الرابع الهجري أي عصر أبي حيان، وهي طفرة شهدت انتقال العقل العربي الإسلامي من التفكير العلمي والتقعيد إلى البحث في قضايا التأسيس المعرفي، وكانت المحاور التي تقاطعت فيها الحقول المعرفية أبرز موضوعات ليالي الإمتاع والمؤانسة. ولئن وضعت في عصر أبي حيان الأدبي أي في القرون الثالث والرابع والخامس أهمّ كتب الأدب في دلالته الموسوعية فإنّها لا تثير من المسائل البينية ومن قضايا تقاطع التخصصات ما يثيره كتاب الإمتاع : فمصنّفات من قبيل عيون الأخبار لابن قتيبة والعقد الفريد لابن عبد ربّه وزهر الآداب للحصري القيرواني والأُمالي لأبي علي القالي إنّما هي موسوعات نمطية تستعرض في مسارد جافّة تعليمية موضوعات الأدب وأغراض الشعر وشذرات الأمثال والخطب والمناظرات، وآداب المجالسة والأكل والظرف وغيرها مما يحتاج إليه الأديب الأريب في المدينة العربية القديمة. ولكن كتاب الإمتاع لم يكن كذلك بل كان حكاية رمزية أو قصة مجلسية تحاكي تقاطع المعارف في الفضاء الثقافي للمدينة القديمة .

## 2- العلم والأدب: قطيعة أم تواصل ؟

لا يمكن أن نخوض في هذا الموضوع البيني دون أن نعود إلى الكتاب الشيق الذي ألّفه سوزان ميريو بعنوان "العلم والشعر: سبيلان إلى المعرفة"<sup>79</sup>، وهو مؤلّف في تاريخ الأفكار والجماليات في صلب الدراسات البينية التاريخية، وقد أرّخت فيه صاحبته لمختلف صلات التجاذب والتفاعل والتراشح بين العلم والشعر في تاريخ الإنسانية منذ العصور السحيقة. وقد ذكرت في مستهلّه أنّ تطور العلاقة بين هذين المجالين تخضع عبر التاريخ للمنزلة التي يتبوّؤها كلّ منهما في الحقول الثقافية التي تحتضنهما. وقسمت هذا التاريخ أربع مراحل كبرى، تمتدّ المرحلة الأولى من الأصول إلى القرن السابع عشر، وهي مرحلة يسير فيها الشعر والعلم في مسارين متوازيين ولكنهما يشتركان في تصور الوجود تصورا كلياً يسعى إلى إلحاق الخاص بالعام، والجزئي بالكلي والفرعي بالأصلي وهو التصور الكلاسيكي تقريبا، أي التصور الذي يبحث في الخيال الشعري أي في نظرية المحاكاة والتمثيل وفي الاكتشاف العلمي على السواء عن العامّ من خلال الخاصّ، ففي الصورة الشعرية يكون المعنى حجّة يستدلّ بها الشاعر على القانون الجمالي الذي يتبنّاه. وأما المرحلة الثانية فهي تواكب عصر الاختراعات والاكتشافات الكبرى، وهي المرحلة التي شهدت تطور منزع التجريب والملاحظة في الفكر العلمي،

<sup>79</sup>S.Mériaux: Sciences et Poésie: deux voies de la connaissance ;L'Harmattan;2003.

ولكنّ هذا المنزع لم يستطع تفسير روحانية الظاهرة الشعرية وهو ما حدا بالفكر الرومنسي في المرحلة الثالثة من تاريخ العلاقة بين الشعر والعلم إلى التمرد على العلم بصفته مناقضا للروح العامة للوجود. وأما المرحلة الرابعة فتمتدّ من نهاية القرن التاسع عشر إلى يومنا هذا وفيها عودة إلى روحانية الفكر العلمي وتمرد على المنزع الوضعي الذي هيمن على ثقافة القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، وقد أعادت نظرية النسبية طرح السؤال عن مفاهيم الفضاء والزمن، وفقد العلم خطابه الوثوقي الصارم ليحلّ محلّه خطاب النسبية ولغة الاحتمال ومنطق الاختبار، فانفتح المجال لرجال من قبيل إدغار موران (E.Morin) وجان بياجيه (J.Piaget) للتساؤل من جديد عن إمكان التقريب بين الكائن الإنساني والمعرفة، وهذا السؤال هو الذي كان وراء الحركة الفكرية التي تزعمها العالم الفيزيائي والروائي الإنجليزي شارل برسي سنوي (C.P.Snow) في ما سمّاه بالثقافة الثالثة. وقد كان هذا العالم الأديب ألف سنة 1959 كتابا عنوانه الثقافتان (The tow cultures) بيّن فيه أنّ العلم والأدب عالمان منعزل كلّ منهما عن الآخر، وفي سنة 1963 دعا العلماء والأدباء إلى نبذ القيم السائدة وتأسيس ثقافة ثالثة تؤلّف بين الثقافة العلمية والثقافة الأدبية، وفي سنة 1995 نشر جون بروكمان كتابا بينيا سبق أن ألمعنا إليه في مقدمة هذا الكتاب وهو الثقافة الثالثة (The third Culture : Beyond The scientific Revolution) وقدم فيه قائمة أسماء العلماء الأنجليز الذين يمكن أن نعدّهم من ذوي الثقافة الثالثة . ونلفت انتباه القارئ الكريم أولا إلى أننا لا نستعمل عبارة العلم في المعنى الأنطولوجي الواسع أي الإدراك العقلي للموجودات والأشياء (Savoir) بل نستعمل عبارة العلم (Science) في دلالته الضيقة أي النشاط العقلي البشري الذي يقوم على التفكير في الظواهر الطبيعية والإنسانية وعقلنتها وتفسير كيفيات اشتغال قوانينها ونواميسها وما ينجرّ عن ذلك التفكير من خطابات مفهومية تضع المعادلات العلمية وتسم الظواهر وتصنّفها وتضبط ما بينها من علاقات بحسب المقولات التي تنتمي إليها تلك الظواهر، فيكون بذلك الخطاب العلمي خطابا مشكلنا منطقيا واستدلاليا يسعى إلى وصف الحقائق العامة وصفا تجريديا. فالعلم بهذا المعنى هو منطقة وحيّز من أحواز الفكر البشري، ولا صلة له في خطابنا هذا بالمعرفة التي تمثل ملكة من ملكات الإدراك الإنساني . وبهذا التمييز نفهم أنّ العلاقة بين العلم والمعرفة يمكن أن تكون علاقة بين ما هو فلسفي وما هو علمي. ومن جهة أخرى لا نستعمل عبارة الأدب في المعنى الثقافي العام (Culture) فالعلاقة بين المعرفة والأدب ليست من القضايا التي نطرحها في هذا الباب، وإنما تستعمل العبارة في المعنى الضيق الذي يرادف تقريبا المعرفة المعبرة عن التجربة الجمالية.



وقد كان العلم والأدب على مَرَّ العصور وكَرَّ الدهور مجالين متجاورين متحاورين، يراقب كل واحد منهما الآخر، ويلامسه: فالأدب يمدّ الخطاب العلمي بأنظمة التمثيل والاستعارة حتّى خشي المناطق على الحجة العلمية من أن تتلاعب بها السفسطة فوضعوا شرائط الحدّ بين المعرفة المنطقية والمعرفة شبه المنطقية (Paralogisme/Paralogism)<sup>80</sup> إذ يمكن لعالم الفضاء أو الأستروفيزيا مثلا (Astrophysique) أن يقرب صورة نظام فضائي ما من ذهن المتعلم أو الإنسان العامي باستعمال تشبيه تمثيلي أو استعارة من عالم محسوس مألوف لدى المتعلم أو الرجل العادي . ويمدّ العلم الأدب بالطاقات التخيلية وبمسالك الإبداع والفكر المستقبلي، وهو ما نشاهده في الأشرطة السينمائية الخيالية العلمية وفي الخيال العلمي الروائي، ومن نماذجه المشهورة في أواسط القرن التاسع عشر رواية "عشرون ألف قدم تحت الماء" لجول فارن (J.Verne) أو رواية آلة استكشاف الزمن لهربرت جورج

---

<sup>80</sup> هي مواضع منطقية من الناحية الشكلية، وهي قائمة على أبنية منطقية كقانون التعدية وقانون التماثل وقانون التضمن وقانون التبادل ، وعلى علاقات رياضية كإدراج الجزء في الكلّ، وإدراج الفرع في الأصل، ولكنها ليست قائمة على قياس برهان واستدلال ضروريين، وإنما هي قابلة للاندرج في القياس الخطابي أو السفسطائي، وهي قابلة للنقاش لأنها قد تتضمن قياسات مغالطة ، ونذكر من هذه الأشكال شبه المنطقية المواضع الآتية : " ما لا يدرك كلّ لا يترك جله - من يستطع الأكثر/ الأكبر يستطع الأقل/ الأصغر "، ويمكن ترجمة هذه المواضع إلى جمل استعارية من قبيل : "من يستطع قيادة سيارّة يستطع قيادة دراجة "، من يسرق بيضة يسرق جملا ". ويكثر استعمال هذه المواضع في الشعر الحكمي والإنساني عموما ، فمن المواضع شبه المنطقية قول أبي الطيب :

وتعظم في عين الصغير صغارها \*\*\* وتصغر في عين العظيم العظام . فهذا البيت يمتح من موضع شبه منطقي، ونعده شبه منطقي لأننا لا نستطيع أن نجزم بأنّ عظيما من العظماء لا يستعظم صغيرة ولو لمرة واحدة، أو أنّ صغيرا من الصغار لا يستصغر عظيمة من العظام ولو لمرة واحدة، فمن الناحية الصورية المحض ليست هذه المواضع سوى مواضع مشهورة أو محتملة احتمالا كبيرا فهي إذن شبه منطقية . وإلى هذا النمط من المواضع يمكن أن ننمي الحجج الاستعارية التي تستعمل في القياس الخطابي أو الحجاجي، ولكنها تقوم على المغالطة : فقولك مثلا ( من يستطع الأكثر يستطع الأقل إذن من يستطع قيادة السيارة يستطع قيادة الدراجة ) مقنع في الظاهر بما هو حجة شبه منطقية أو موازية إلا أنّ كثيرا من الناس يقودون السيارة ولا يستطيعون قيادة دراجة .

وتستخدم هذه القوالب العامة في الحجاج الحواري الذي تقوم عليه المناظرات والمساجلات الفكرية والسياسية، وبها يتدرب المناظر على الردّ السريع على الأسئلة غير المنتظرة، ويكتسب القدرة على تقديم الإجابة المفحمة من جهات حاجية مختلفة دون أن تكون الحجة مقنعة بالضرورة .

والس (H.G.Wells)، وما طالعناه في أيام الطلب بكلّ شغف عن مغامرات الطيران عند رجال من قبيل الطيار الفرنسي سانت إكزبيري (S.Exupery).

إنّ بين العلم والأدب تقاطعا معرفيا في مستوى الوظيفة الأنطولوجية الكبرى وهي أنّ كليهما بحث استكشافي، وأنّ كليهما بحث باللغة، ومغامرة نحو المجهول في فضاء المعرفة . فالعالم الذي لا يأخذ بنصيب من الفكر الأدبي ومن المعارف الفنية والتخيلية ومن الأبعاد الإبداعية والجمالية للكون يعسر عليه أن يخلق بعيدا في مجال تخصصه. وكذلك الشاعر أو الروائي أو المسرحي الذي يتوقع في ثقافته اللغوية الضيقة، ويهمل عالم الأحياء وقوانين الفيزيا ونظام الكون وعالم الأرض والتضاريس والبحار والمناخ وغيرها من المعطيات الثقافية، إنّ هذا الأديب لن ينتج سوى أدب باهت مسطح كصهوة حصان نزار قباني، لا صلة له بالحياة. ولقد صاغ شيلير (Schiller) حقيقة هذا التقاطع في إحدى رسائله بقوله : " إنّ الفنّ لا يمكن أن يدرك الجمال الكامل ما لم تتوازن فيه الروح النسبية والروح المطلقة ، فعلى الإنسان الذي يطمح إلى تحقيق الإنسانية الكاملة أن يستمع إلى العقل وإلى الروح معا، عليه أن يستجيب لذاته الشاعرة ولذاته العالمية المفكّرة، ذاته الشاعرة التي تحرّره من الغرائز الحيوانية التي تكبله وذاته العالمية التي تخرجه من ظلام الجهل الذي يكبله إلى فضاء المعرفة المنير الذي يحزّره"<sup>81</sup>.

### 3- العلوم الطبية وعلوم التواصل:

إنّ للتقاطع بين الصناعة الطبية والفنون الأدبية والتشكيلية والإيقاع تاريخا ضاربة جذوره في أقدم الحضارات البشرية، فالبحت في حقل التداوي بالموسيقا كان موضوعا من موضوعات الكتابة البيئية في الثقافات الرومانية، واليونانية والعربية الإسلامية ، ويمكن أن نعود في هذا المجال إلى ما كتبه الدكتور عبد الناصر كعدان من معهد التراث العلمي بجامعة حلب عن العلاج بالموسيقا في الطب العربي، فقد بيّن كيف كان كبار الأطباء والفلاسفة العرب يجمعون بين علم الطب والموسيقا في أبحاثهم النظرية وتجاربهم العلاجية مثل الكندي والفارابي وإخوان الصفا، ولكنّ هذا التقاطع يزداد اليوم اتساعا

---

<sup>81</sup> Schiller: Lettres sur l'éducation esthétique de l'homme; texte traduit de l'allemand par Robert Leroux ;Floch 2001p 217.

بظهور مدارس الطبّ البديل وخاصة في الجامعات الكندية حيث توطّدت الصلة منذ ثلاثة عقود بين الطبّ النفسي والموسيقا، وقد بيّن الدكتور أوليفيه لوزير (O.Lesur) من جامعة شاربروك (Sherbrooke) أنّ مرضاه أصبحوا أكثر ميلا إلى قبول استعمال الموسيقى للتخفيف من الضغط النفسي من استهلاك الأدوية التقليدية، وأثبتت التجارب التي أنجزها وفريقه الطبّي أنّ الاستماع إلى الموسيقى ذات الإيقاع البطيء المحاكي لنبض القلب يمكن أن يسهم في التقليل من استهلاك الأدوية الكيميائية . والواقع أنّنا أردنا بهذه المقدّمة أن نستدلّ على اتساع هذا المجال البيني أي التقاطع بين الطبّ والفنون والآداب وثنائه وأهميته بل وخطورته، وأن نلمع إلى تشعّب مذاهب الدراسة وتعدّد فرص البحث العلمي البيني، وأردنا كذلك أن نفتح أمام القارئ المتخصّص في اللغة العربية وآدابها مسالك البحث التي لم ينتبه إليها المتخصصون في الآداب وفي الشعر بوجه أخص حتّى نفتح أمامهم أبواب البحث العلمي الذي يحكم الصلة بين الدراسات اللغوية والأدبية والدراسات الطبية والعلمية عموما، ولكننا نقتصر في هذا المبحث على مسلك واحد من مسالك الدراسة وهو صلة الطبّ بالبلاغة والخطابة .

### 3-1 بين صناعة الخطابة وصناعة الطبّ في التراث العربي:

ناظر ابن رشد في كتابه تلخيص الخطابة بين صناعة الخطابة وصناعة الطب ليبيّن أنّ غاية الأقاويل الخطابية ليست الإقناع بل محاولة الإقناع وحمل السامع على الاقتناع، فهي صناعة روحانية تتكلف الإقناع في جميع الأمور فقال : " ليس يتبع فعلها الإقناع ضرورة كما يتبع فعل النجار الكرسي ضرورة إذ لم يكن هناك عائق من خارج بل عملها هو أن تعرف جميع المقنعات في الشيء وتأتي بها في ذلك الشيء وإن لم يقع إقناع، والحال فيها في هذا المعنى كالحال في صناعات كثيرة مثل صناعة الطب فإنّه ليس الفعل فيها الإبراء ولا بد، بل إنما فعلها أن تبلغ من ذلك غاية الشيء الممكن فعله في ذلك الشيء المقصود بالإبراء، ولذلك قد يشارك في أفعال هذه الصنائع من ليس من أهلها مثل أن يبرئ من ليس بطبيب ويقنع من ليس بخطيب"<sup>82</sup>. نلاحظ أولاً أن تسمية الخطبة صناعة مصطلح قديم قدم النظريات البلاغية في الثقافات المتوسطية أي الثقافة الرومانية والثقافة الإغريقية فقد استعمل أرسطو عبارة "تقنية" (Techné). أما الاستعمال في الثقافة العربية فقد تبلور عند الجاحظ في تعريف مختلف الصناعات القولية، ففي الجزء الأول من البيان والتبيين ينعت الجاحظ الأجناس القولية التواصلية

<sup>82</sup> تلخيص الخطابة ص5.

جميعها بالآلات، فقد عرّف الشعر بأنه آلة "ومن تمام آلة الشعر أن يكون الشاعر أعرابيا"<sup>83</sup>، وعرّف القصص بأنه آلة "قال إبراهيم بن هانئ: من تمام آلة القصص أن يكون القاصّ أعمى ويكون شيخا بعيد مدى الصوت"<sup>84</sup>، وهو يعني بالقصص السرديات المجلسية ذات الصبغة الوعظية التي تسمّى كذلك المقام مثل مقامات الحسن البصري. وهو يعرّف البلاغة أي الخطابة بقوله: "أول البلاغة اجتماع آلة البلاغة"<sup>85</sup>. أما ابن رشد فإنّ تشبيهه الخطيب بالنجار لدليل على هذا التصور التقني أو الفني (Technical) لصناعة الخطابة. ونلاحظ ثانيا أنّ النقاط التي تتقاطع فيها الصناعات النظرية والعملية هي عنصر من عناصر التعريف في أصنافية العلوم القديمة، فالنظرة البينية في هذا الفكر جزء رئيس من تعريف العلم . فالخطابة والطب يشتركان في كونهما فنّي الممكن من الأشياء، فالطبيب يحاول الإبراء وتوفير ظروف الشفاء - بعد عناية الله تعالى- ، وقد ينفع الدواء نفسه جسما ولا ينفع جسما آخر نظرا إلى اختلاف الأجسام في تقبّل العلاج، وقد يهتدي إلى العلة وقد لا يهتدي، وكذلك الخطيب قد يقنع بحجّة ما أحد الحاضرين وقد لا يقتنع بها آخر في المقام نفسه أو في مقام آخر، فالطب والخطابة من هذه الجهة فنّان يحاولان المعالجة والإبراء، أما الخطابة فتعالج النفوس المريضة والأرواح القلقة في الأغراض الوعظية والإرشادية والتعليمية، وتعالج النفوس المتدبرة والمتصارعة والمتباغضة في الفضاء العمومي ، وخير جنس خطابي يحقّق هذا الغرض خطابة إصلاح ذات البين بين العشائر والقبائل، وهي من المؤسّسات الخطابية التي كان لها في المجتمعات القبلية ولا يزال دور بعيد المدى في الحياة العامة، ويتصدّى لها شيوخ القبائل من الذين يحظون بسلطة معنوية وبتقدير جماعي مثل هرم بن سنان في الجاهلية أو الأحنف بن قيس في العصر الأموي، ولذلك ينصح في هذا الجنس من الخطب الإطالة والتكرار والإعادة، وذلك لأنّ الإصلاح يتطلّب ترويض النفوس وتطهيرها وتقريب الشقّة بين المتناحرين، وتصغير الخلاف وإخراجه مخرج الأمر البسيط، وتعظيم نقاط التلاقي والتواصل والتفاهم، ومحاولة رتق الفتق والتذكير بما بين الأحياء من أواصر دموية ومن تاريخ مشترك، فعمل الخطيب إذن يشبه إلى حدّ بعيد عمل الطبيب النفسي أوحى الطبيب العضوي الذي يداوي الجراح

<sup>83</sup> البيان والتبيين تحقيق عبد السلام هارون ط دار الجيل بيروت، دت 94/1.

<sup>84</sup> م.ن 95/1.

<sup>85</sup> م.ن 92/1.

المادية، ولهذا الأمر قال ابن قتيبة في مقدّمة أدب الكتاب: "ليس يجوز لمن قام مقامًا في تحضيضٍ على حرب أو صلح بين العشائر أن يقلّ الكلام ويختصره، ولا لمن كتب إلى عامّة كتابًا في فتح أو استصلاح أن يوجز، ولو كتب كاتب إلى أهل بلد في الدعاء إلى الطاعة والتحذير من المعصية كتاب يزيد بن الوليد إلى مروان حين بلغه تلکّؤه في بيعته " أمّا بعد، فإنّي أراك تقدّم رجلاً وتؤخّر أخرى فاعتمد أيّهما شئت والسلام"، لم يعمل هذا الكلام في أنفسها عمله في نفس مروان<sup>86</sup>. إنّ الإصلاح بين الجماعات في خطابة إصلاح ذات البين عملية طبيّة ترويضية إقناعية، يقوم فيها الخطيب بوظيفة الطبيب النفسي، والحكيم السائس والمرتبّي الاجتماعي لأنّ فيها حملا على الإقناع بترك التباعد وعلى التسامح والتغاضي والعفو، وعلى اجتماع الكلمة فهي إذن عملية تطهيرية (Catharsis) تحتاج إلى الإكثار من الكلام والتكرار والإعادة لضمان فعل الكلام في النفوس، ولمداواة الجراح والتأليف بين المخاطبين المتباغضين، ومن ثمّ جاء الإطناب عملا قوليا علاجيا تطهيريا شبيها بالصناعة الطبية أوشبها أيضا بالمرسح المأسوي في الثقافة اليونانية ذلك العمل الفنّي الدرامي الذي يبكي الجمهور ويحمّله على التعاطف مع قوى الخير فيتطهّر من أخطائه وأمراضه، ويتخلّص ممّا فيه من نزعات الشرّ.

ولا يمكن أن نختم هذا الفقرة دون أن نشير إلى ما بلغه التفاعل بين الأدب والطب في التراث العربي من خلال ما كتبه بعض الأطباء من مقامات تجمع بين المنفعة الطبية والتسلية والترفيه الأدبي، ونذكر في هذا مقام كتاب "دعوة الأطباء" لابن بطلان، فهي نموذج فنّي جعله صاحبه في شكل رسالة أدبية ذات بنية سردية تقصّ حكاية "طفيلي قادم من بغداد إلى ميفارقين، فالتقى بسوق العطارين على وجه الصدفة شيخا طبيا استلطفه وشكا له كساد صناعة الطبّ بتلك المدينة، وحين سأل الشيخ الرجل المسافر عن سبب مجيئه إلى ميفارقين علم منه أنّه جاء بحثا عن دواء لمعدته، فاطمأنّ وهو البخيل إلى أنّه يستطيع استضافته في بيته دون أن يخشى مصاريف الضيافة. واستقرّ بهما المقام في منزل الشيخ الذي لاحظ أنّ الضيف نهم أكل، واغترّ من جديد بقوله إنّ معدته لا تقوى على الشراب، فقرّر جمع أصدقائه الأطباء من ذوي التخصصات المتنوّعة في مجلس شراب ينسون به مشاكلهم، ودار في ذلك المجلس حديث في قضايا الطبّ كان بمثابة الامتحان للضيف، وتبيّن من خلال ذلك الامتحان

<sup>86</sup> مقدمة أدب الكتاب تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الجيل بيروت 1983 ص 8.

ادّعاؤه للصناعة الطبية وجهله بها<sup>87</sup>. فقد كانت هذه الرسالة المقامية ثمرة من ثمار التفاعل التخيلي بين الطبّ والأدب، وثمره من ثمار التوازن بين الممتع والمفيد وبين النافع والجميل في تصور الإنسان العربي القديم للعلم.

### 3- 2 بين الصناعة الطبية والبلاغة في العصر الحديث :

لقد عاد المحدثون إلى هذه الصلة البينية التي يلتقي فيها علم الطبّ وصناعاته بالبلاغة الشفهية أي الريبوطيقا (Rhétorique) والكتابية أي كتابة الخطاب الطبي في التعليم والتكوين والتشخيص والتقارير. ولكنهم تناولوها من جانب ثان فاهتموا بالخطاب الطبّي الواسف للأمراض والعلل ولكيفيات التداءي والعلاج. ولم يهتمّ المحدثون بهذه المسألة من الزاوية التاريخية أو التربوية العامة كما فعل القدامى بل عالجوها من الزاوية التداولية العملية

ونلاحظ أولاً أنّ الخطاب الطبي يمثّل في المدرسة الحديثة جانبا من المقرّرات الرئيسة في التعليم الجامعي وفي التدريب المهني. ولا نهتمّ في هذا السياق بالخطابات الطبيّة في حقل التحليل النفساني والأمراض العصبية لأنها - وإن كانت مجالا بينيا مهما - حقل واسع يضيق عنه هذا البحث المسحي، وقد حظيت فروعه التخصصية بدراسات لا تحصى، وهي دراسات متصلة بتحليل أنواع الخطاب المرضي ( الهذيان - الهستيريا - العصاب - الانفصام - الهوس...) وبأشكال التواصل بين الطبيب والمريض وأجناس التحليل السيميائي لعلامات الأمراض وأعراضها، وإنما نعتني في هذا السياق بفروع الخطاب الطبّي في الحقول التخصصية الجسمانية، وهي في التعليم الجامعي الحديث خمسة فروع رئيسة:

-الخطاب العلمي المتصل بوصف الجسم ومكوّناته العضوية في صلتها بالوظائف والتفاعلات الكيميائية والفيزيولوجية .

-الخطاب الوصفي المتصل بالأمراض وعلاماتها وأعراضها، وطرائق تشخيصها والمفاهيم والمصطلحات المستعملة في ذلك.

---

<sup>87</sup> من دعوة الأطباء لابن بطالان تحقيق وتقديم وشرح فاطمة الأخضر، منشورات حنبعل للطباعة والتوزيع والنشر ، تونس 2009 ص 16.

- الخطاب الواصف لتاريخ الطبّ والأدوية .
- وصف الأدوية ومصطلحاتها ومركباتها.
- التواصل بين الطبيب والمريض وخطاب الكشف الطبي والتوجيهات العلاجية.
- تقرير الطب الشرعي.

وقد انبثقت عن هذه الثقافة العالمية الحديثة عدّة حقول معرفية اهتمّت بتحليل الخطاب الطبي في مختلف الفروع التي ذكرنا، وهي حقول رافدة للمعرفة الجامعية مغذّية للدرس الأكاديمي في مجالات التخصص التي ذكرنا، ومن هذه الحقول على سبيل المثال وصف الأمراض، فقد تطرّق إليه عدّة مؤرّخين واهتموا بأساليب الأطباء والحكماء في كتابة الخطاب الوصفي، ومن الأبحاث الممهّدة لهذا الحقل المقال الشهير لجان ستاروبنسكي (J.Starobinski) وعنوانه "الموجز في تاريخ الوعي بالجسد (Brève Histoire de la conscience du corps) المنشور بالعدد الخامس والأربعين من المجلة الفرنسية للدراسات النفسانية، وقد عرض فيه نماذج من أساليب الأطباء اليونان في وصف الأمراض وفي نقل كلام المرضى وهم يصفون الآلام التي يعانون منها، وقد قدّم جاك بيجو (J.Pigeaud) لمؤتمر تاريخ الخطابة المنعقد بفلورانس (Florence) في يونيو 1983 بحثاً بعنوان "الخطابة والطبّ عند اليونان: أرخيغان (Archigène) نموذجاً " وخصّصه لموضوع واحد وهو وصف الألم ودرجاته في الخطاب الطبي اليوناني. ويذهب الباحث في مستهلّ دراسته الشّيقة إلى أنّ الحقل المعرفي الذي يعنيه هو البلاغة أو طريقة التعبير أو لغة الخطاب الطّبي في وصف الآلام بما هي جزء من أعراض الأمراض، وأنه سيتناول بالتحليل نقد جالينوس (Galien) لأرخيغان في تعريف الألم. ويذهب أرخيغان في مصنّفه عن الألم إلى أنّ لكلّ عضو من أعضاء الجسد ألماً خاصاً به وإحساساً متميزاً من سواه ، ويعني هذا التفصيل أنّ لغة الخطاب الواصف للأمراض ينبغي أن تكون على درجة من الدقّة بحيث يستطيع الطبيب أن يميّز بها الأمراض بعضها من بعض، وينبغي أن يناقش المريض في العبارات التي يستعملها في وصف الألم الذي يحسّ به، ويدقّق معه اختيار الألفاظ الواصفة لذلك الألم. ثمّ يستعرض أفعال الشعور والأحوال المصاحبة لألم العضو كالوخز المصاحب لألم المثاني والنقل المصاحب لألم المعثكلة، والضغط المصاحب لألم الكبد. وقد بيّن الباحث كيف أولى أرخيغان عناية قصوى للاستعارات المستعملة في وصف الآلام وكيف اتّخذها مدخلاً إلى فهم نوع المرض ودرجته ومدى خطورته حتى غدا الكشف الطّبيّ جنساً من أجناس تأويل الخطاب في غياب الآلة الكاشفة التي

يتمتع بها جسم إنسان العصر الحديث<sup>88</sup>. ولما كان بلوغ المنتهى في ضبط معجم الآلام في الخطاب الوصفي السليم عملاً شاقاً فقد تولى إيبوقراط (Hyppocrate) وضع معايير تحديد أصول الحوار بين الطبيب والمريض بغية الوصول إلى تحديد دلالات الألفاظ على الأمراض والآلام. وفي العصر نفسه أسهم ريفيس إيفاس (Refus D' Ephèse) بمصنّف في هذا الغرض سمّاه "التحقيق مع المرضى في أمراضهم". وقد أثّرت في هذا الموضوع قضايا جدلية وخلافية كبرى من أهمّها: هل الإحساس بالمرض يمكن أن يكون إحساساً مشتركاً بين المريض والطبيب، أي هل يمكن للطبيب أن يتمثّل وصف المريض لإحساسه؟، وقد ذهب ريفيس إيفاس إلى أن الحوار الذي يجري بين الطبيب والمريض هو أولاً حوار ماورالغوي (Métalangage) يتحسّس من خلاله الطبيب وهو يفحص لغة المريض نوع المرض، وقد لاحظ جالينوس أنّ المحاورّة بين الطبيب والمريض عمل شاقّ لأنّ لغة التشخيص ليست دقيقة، ولأنّ المعاجم قد لا تكون كافية لمسح جميع تفاصيل الأمراض. ويرى جالينوس أنّ المريض لا يستطيع أن يتابع مراحل آلامه بالدقّة المطلوبة وبما يكفي من التركيز، ويرى أنّ المريض لا يملك أحياناً اللغة القادرة على وصف مرض بعينه، بل يذهب إلى أنّ وصف مرض بعينه وما يصاحبه من ألم لا يقدر عليه إلّا من عرف جميع الأمراض وجربها وأحسّ بجميع الآلام<sup>89</sup>. وينتقد جالينوس استعمال أرخيغان لبعض الأوصاف التي تتضمّن مفارقة في الأسلوب كنعته ألما من الآلام بأنّه ألم لذيق أو لطيف، أو كنعته بعض الآلام بأوصاف بصرية من معجم الألوان كأن يقول "مرض أزرق أو رمادي". إلّا أنّ عمل أرخيغان يظلّ على غاية من الأهمية من جهة القيمة البيئية فهو عمل في التربية اللغوية يدرّب المريض على فهم مرضه وإدراك ما يحدث بجوفه ووصفه بما يقرب من حقيقته، وإعطائه معنى ودلالة مناسبة وكاشفة عن أسرار الجسم وحركته وخصائصه الفيزيولوجية.

وبعد فإنّ صلة الحقل المعرفي الطبّي بالخطابة في دلالتها الأرسطية المتسّعة أي نظرية الإقناع والمحاكاة تزداد في عصرنا هذا تعقّداً، وتزداد قيمتها البيئية اتساعاً وذلك نظراً إلى تطور المشاكل التي يعيشها الوسط الطبّي الحديث، ونظراً إلى تشابك الصلات بين العالم الطبي والصحافة ووسائل الإعلام والمؤسسة القضائية والقوانين المنظّمة لمهنة الطبّ في المجتمع الحديث، ونظراً إلى تطور قضايا القطاع

Rhétorique et medecine chez les grecs: Le cas d'Archigène; in histoire de la <sup>88</sup>  
Rhétorique: Florence 1981 p3.

Locis Adfectis ;Khun;Leipzig 1824;88-89.

<sup>89</sup>



الصحي عموماً بظهور مفاهيم من قبيل الخطأ الطبّي، والسّر المهني الطبّي، وزراعة الأعضاء والطبّ الشرعي أي الطبّ الذي يشخّص أسباب الوفاة في حالة حدوث جرائم قتل أو حوادث شغل أو اعتداء بالعنف. إنّ تداخل المسائل الأخلاقية والشرعية والقانونية والاجتماعية والتقنية تجعل هذا المجال من أخصب مجالات الدراسة البيئية في عصرنا هذا لأنه يحتاج إلى آراء الفقهاء في الشريعة ورجال القانون وعلماء اجتماع والأطباء والحقوقيين، لفهم الظواهر وتشخيصها وللبحث عن حلول ملائمة للقيم الشرعية وضامنة لحقوق الأطراف المتنازعة. إنّ الموضوع الإيظقي أو الأخلاقي / العلمي في العلوم الطبية والاقتصادية والاجتماعية والقانونية يصبح اليوم محور تقاطع بين مختلف التخصصات، ويتحوّل في ضمير الباحثين إلى مجال من مجالات التفكير البيئي عنه يقول عبد العزيز العيادي: "إذا كانت مثل هذه القضايا تعود اليوم إلى البيوايطيقا (Bio-Ethique) فإنّها تثير في ذات الآن مشكلات حقوقية واقتصادية وعقدية وسياسية فضلاً عن المشروعية الإبيستيمولوجية، فالصعوبات التي يثيرها الإخصاب الاصطناعي واستهلاك الأدوية والانتفاع بالتقنيات الطبية وزرع الأعضاء والاتجار بالجسد البشري والتقصي الوراثي والمحاكمات المبنية على رفع البصمات وحتى على تحليل الحامض النووي منقوص الأكسجين، وبرامج التدخّل في الموروث الجيني الإنساني، كلّ هذه المشكلات تفترض مسؤولية إيظيقية وتتطلب تساؤلاً فلسفياً يتجاوز الإيظيقيات القطاعية ولا يلغياها".<sup>90</sup> والحاصل من هذا التحليل أنّ المجال الطبي ليس مجالاً تقنياً جافاً ولا هو علم تجريبي تطبيقي فحسب بل إنّّه يتحوّل إلى مجال من مجالات البحث البيئي الدال على تعقّد ثقافة المجتمع الحديث وتضارب مصالح الناس واختلافهم في مفهوم الحقّ. لقد كان مفهوم الحقّ والباطل زوجاً من الأزواج الأخلاقية التي تنهض عليها المطارحات الفلسفية في المدينة اليونانية، وكان الحقّ عند أفلاطون القيمة المحدّدة للجمال وللنفع في عامّة مناحي الحياة. وليس حبّ الحكمة سوى بحث دائم عن الحقّ الذي يختلف الناس في تعريفه وفي تحديد مواطنه وفي تمييزه من الباطل، وكانت الخطابة القضائية عند تيزياس (Tisias) و جرجياس (Gorgias) وبروتاقوراس (Protagoras) وأفلاطون وأرسطو الشكل التواصلي المعبر عن قدرة اللغة على الدفاع عن الحقّ أو عن الباطل، ولكن الحقّ والباطل كانا موضع خلاف بين السفسطائيين وأفلاطون، فإذا كانوا يرون أنّ الحقّ هو كلّ ما يحقّق اللذة فإنّ أفلاطون لا يرى ذلك بل يرى أنّ الحقّ هو كلّ ما يحقق الفضيلة والعلم وأنّه لا يخضع للنسبية وللظن. وينبغي ألاّ نفهم عبارة الخطابة القضائية في دلالتها

<sup>90</sup> إيظيقا الموت والسعادة، دار صامد للنشر والتوزيع تونس 2005 ص22-23.

الضيقة أي خطابة المنابر والمحاكم بل تعني الخطابة القضائية مختلف أشكال التواصل بين الناس لطرح المسائل النسبية الخلافية التي لا يمكن أن تخضع للاستدلال البرهاني. ولما كانت قضايا الخطأ الطبي والسرّ الطبي وأنواع الأمراض المانعة من الصوم مثلاً وغيرها من المسائل الخلافية قضايا غير قابلة للاستدلال العلمي البرهاني بل كانت قضايا تحليل بلاغي وقياس خطابي وتقدير فكري ووجداني فإنّ الثقافة الطبية تصبح ثقافة معقّدة متعددة التخصصات أي ثقافة بينية.

#### 4- بين الخطاب الأدبي والخطاب القانوني :

رأينا في الفقرة السابقة كيف أنّ الخطابة القضائية كانت في الثقافة اليونانية خطابة تدافع عن الحقّ إزاء الباطل، وعن العدل إزاء الظلم وتبحث عن طرق الدفاع عن الحق وكيفية اختيار المواضع التي تقنع القاضي بموقع الحقّ من الباطل. والواقع أنّ هذه الخطابة قد عرفت تاريخاً طويلاً من أعراف التعليم الخطابي الذي يسعى إلى تدريب الخطباء على إظهار الحقّ في صورة باطل والباطل في صورة حقّ بواسطة نوع من الأقيسة المغالطية التي سمّيت بعد ذلك القياس السفسطائي أو السفسطة . ويتمثل هذا القياس في بناء مقدّمات ضعيفة من ناحية صدق المواضع التي يختارها الخطيب واستخلاص نتائج غير سليمة من ناحية العلاقات المنطقية التي تشدّها إلى مقدّماتها. وقد أثّرت هذه المسألة في الأدب العربي من خلال كتاب كليله ودمنة لعبد الله بن المقفع، ولئن كان هذا الكتاب هندي الأصل، فارسي المعبر عربي المآل فإنّ ذلك لا ينقص من فضل اللسان العربي والثقافة العربية في التعبير عن هذه القضية الشائكة المؤرّقة للحكمة القديمة وللعقل البشري عموماً. لقد صيغت مسألة الدفاع عن الحقّ في شكل استعاري مثلي من خلال القصص الحيواني في كليله ودمنة، وهو لون من ألوان الأدب التمثيلي، ولا يخفى على القارئ كفاية الأدب التمثيلي في التعبير عن تقاطع المعارف والعلوم والحقول الفكرية، سواء في الجنس المسرحي أو في الحكاية المثلية ، لذلك يمكن أن نعدّ كتاب كليله ودمنة شكلاً من أشكال تقاطع الأدب والخطاب القضائي الإجرائي والتنظيري. لقد خصص ابن المقفع باباً من أبواب الكتاب لمحاكمة دمنة وهو شخصية تمثل الرذيلة والباطل والفساد. ويذهب مؤرّخو الأدب إلى أنّ هذا الباب لم يكن في الأصل من فصول القصة، وأنّه من إضافات ابن المقفع. والذي يطلع على بنية الحكاية في هذا الباب يدرك أنّها إطار سردي لكتابة محاكمة وللكشف عن نوع من أنواع الخطاب القضائي أي خطابة الدفاع عن الحقّ إزاء الباطل. لقد مثل دمنة أمام القاضي بتهمة التآمر على الأسد والإيقاع ظلماً بالنور شترية الذي قتله الأسد بوشاية كاذبة من دمنة، وانعقدت محاورة بين القاضي

ودمنة، عرض من خلالها المتهم وهو دمنة حجج براءته في خطاب سفسطائي. والمتأمل في معجم هذا الخطاب وأسلوبه يدرك أن المحاورة تدور حول زوج العدل والظلم، وأن أسلوب المتحاورين في الحجاج ينزع إلى التلفظ العلمي التنظيري يقول دمنة: "أراك أيها القاضي لم تتعود العدل في القضاء، وليس في عدل الملوك دفع المظلومين ومن لا ذنب له إلى قاض غير عادل بل المخاصمة عنهم والذود، فكيف ترى أن أقتل ولم أخاصم، وتعجل ذلك موافقة لهواك؟"<sup>91</sup>. لقد ذكر دمنة في مخاطبته القاضي بأصول فن المحاكمة وآليات إجراء التحقيق وفي صدارتها الاستماع إلى المتهم. إن كتاب كليلة دمنة نموذج جيد للآثار الأدبية التي ينبغي أن تتضافر التخصصات المختلفة في قراءتها، فهو كتاب أدب ولكنه في الآن نفسه كتاب في الأخلاق المدنية والسياسة الاجتماعية، لذلك يمثل شكلا من أشكال التقاطع بين الأدب والخطاب الأخلاقي في دلالاته الحكيمة القديمة، وما ترجمته إلى لغات العالم القديم كلها إلا دليل على عالمية الفكر الأخلاقي الذي يتضمنه هذا الكتاب. ومن القضايا الأخلاقية التي يطرحها هذا الكتاب ما يتصل بموضوع الطب الذي كنا أثناه في الفقرات السابقة، وخاصة قصة المتطبب الذي ادعى التطبيب حتى طلب منه الملك مداواة ابنته التي استعصى مرضها على أمهر أطباء القصر، فكره أن يقول الحقيقة، وخط لها من عقاقير مختلفة دون أدنى دراية بها فماتت المريضة لتوها، وقتل المتطبب فكانت دلالة الحكاية محور تقاطع إيطيقي بين الطب والأخلاق، وبين الأدب والقانون الطبي.

## 5- بين علوم الاقتصاد والفن الحديث :

إن المجال الاقتصادي مجال علمي مستحدث في منظومة المعارف الحديثة، فقبل الثورة الصناعية التي شملت العالم الغربي كله منذ أواخر القرن السابع عشر والعالم الشرقي منذ النصف الأول من القرن العشرين لم يكن الاقتصاد مجالا من مجالات العلم، ولم تتبلور النظريات الاقتصادية أو ما يسمّى بالفكر الاقتصادي في العالم إلا بظهور أولى نظريات الاقتصاد التحرري في إنجلترا مع آدام سميث (A.Smith) وديفيد ريكاردو (D.Ricardo)، ويتطور علم الإحصاء الكمي الذي مكّن رجال الاقتصاد من السيطرة على المعارف الاقتصادية وعدد السكان والموارد المادية وتطور الأسعار والعملية والأجور. وعرف المجال العلمي تطورا لافتا للانتباه بعد الحرب العالمية الثانية إذ انقسم هذا المجال أولا

<sup>91</sup> كليلة ودمنة منشورات دار بوسلامة للنشر والتوزيع سوسة تونس 1877 ص 168.

إلى دائرتين كبيرتين : المجال المادي والمجال الافتراضي، وقسم الاقتصاد المادي إلى ثلاثة فروع معرفية كبيرة، يهتم الفرع الأول بما قبل الإنتاج وهو اقتصاد التخطيط والتنمية وتنظيم فضاءات الإنتاج واكتشاف الأسواق، واقتصاد الإنتاج ويعتني بمختلف القطاعات وهي في حالة إنتاج للموارد المادية والسلع أو للخدمات، واقتصاد ما بعد الإنتاج وهو اقتصاد التسويق والترويج والإشهار. وإذا كانت صلة الاقتصاد بالفن في ظاهر الأمور صلة ضعيفة أو واهية، فإن المتأمل في مجالات التمهين الاقتصادي (Professionalisation) في كثير من القطاعات وخاصة قطاعات الخدمات يلحظ أن المناهج الجامعية تنفطن أكثر فأكثر إلى أن تسويق المنتجات الاقتصادية سواء في الاقتصاد التقليدي المادي القائم على بيع السلع الاستهلاكية الحقيقية أو الاقتصاد اللامادي القائم على بيع الخدمات يحتاج إلى استعمال آليات تواصل تقوم على إتيان فن الإشهار والاستمالة والإقناع بقيمة المادة المعروضة للبيع. ومن هذه الجهة يكون التسويق مجالاً بينياً جامعاً بين الاقتصاد والفن في محور الإشهار، وهو أولاً صناعة لغوية، وبصرية تعتمد بلاغة المكتوب والمرئي والمسموع. والعلامة التجارية هي موطن التقاء الفعل الاقتصادي بالفعل الفني يحدّد خارطتها حاتم عبيد بقوله: "نحن نعيش في غمرة العلامات التجارية، تعترض سبيلنا في كل خطوة نخطوها، وتكتسح حياتنا العامة والخاصة، وتفتح بيوتنا فارضة وعارضة نفسها علينا من خلال اللقطات الإشهارية"<sup>92</sup>. ولا يعنينا من هذا الخطاب الإشهاري سواء التقاطع المعرفي البيني بين الاقتصاد والفن. وهذا التقاطع يتم بوجه خاص في مستوى ما يسمّى بشعار العلامة التجارية (Logotype) وهو يتضمّن العنصر اللغوي والعناصر الشكلية كالألوان والأرقام والرسوم. لقد كان لعلم الاجتماع أثر بعيد في تحديد أطر دراسة المجتمع الحديث أي مجتمع الاستهلاك والإشهار، ونجد في دراسات المفكر الاجتماعي جون بودريار (J. Baudrillard) ما يكفي لتوضيح التقاطع بين علوم الاقتصاد وفنون الخطاب الإشهاري في المجتمع الحديث. وقد فسّر بودريار التقاطع بين الفن والاستهلاك من خلال أحد وجوه الاستهلاك الأساس وهو الرغبة، أي رغبة الفرد في أن ينتمي إلى طبقة اجتماعية بعينها ورغبته في أن يسلك نمط عيش تلك الطبقة، ومن ثمة تصبح العلامة التجارية رمزا من الرموز، فتحويل قيمة البضائع إلى قيمة رمزية هو المدخل الذي يمكن أن نفهم منه صلة الاقتصاد بالفن في العصر الحديث لأنّ التسويق الإشهاري يتحوّل إلى عمل لغوي وإلى نشاط تشكيلي عبر العلامة الإشهارية، "فالشيء لا يصبح موضوع استهلاك إلا إذا تحوّل إلى علامة دالة

<sup>92</sup> في تحليل الخطاب، منشورات كلية الآداب صفاقس، تونس، 2005، ص 147.

تدخل في نظام وتلتحق بسلسلة العلامات، وتتحدّد قيمتها بمدى اختلافها مع غيرها من العلامات. تتحوّل الأشياء إذن إلى علامات وتصبح قرائن دالّة على الانتماء الاجتماعي للأفراد<sup>93</sup>. ويمكن أن ننظر إلى القيمة البينية في الخطاب الإشهاري والعلامة التجارية من جهة أخرى وهي أنّ العلامة جنس من أجناس الخطاب. وقد اهتمّ بزاوية النظر هذه باحثون من قبيل أندريا سامبريني (A. Semprini)، وهي ترى أنّ العلامة التجارية تتضمّن قيمة سيميائية عالية، فهي نقطة تقاطع حزمة هائلة من الدلالات<sup>94</sup>، فالعلامة كائن خطابي تساهم في تشكيله مجموعة من العلامات تعبّر عن طائفة من المدلولات<sup>95</sup>، ومما يدعم القيمة البينية في دراسة هذه العلامة أنّها "تكون ذات طبيعة لغوية (اسم العلامة-الإعلان- الإشهاري) أو تصويرية (الصور- الألوان) أو موسيقية (الموسيقى الإشهارية)"<sup>96</sup>. وهذا التعدّد في التواصل هو الذي يكتف من المداخل إلى دراستها ويجعلها ذات قيمة بينية عالية. وقد تفتّن حاتم عبيد في بحثه عن العلامة الإشهارية إلى هذا التعدّد في مجالات تخصّص دارس العلامة الإشهارية فقال: "لذلك فمن رام أن يدرس العلامة دراسة تستوفي سائر أبعادها، وتكشف عمّا تبطنه من غايات، وما تحمله من مشاريع، عليه ألاّ يعتدّ بدراسة مكوّن من مكوّناتها، وألاّ يحصرها في بعد من أبعادها"<sup>97</sup>.

إنّ التسويق اللغوي الإشهاري في مجتمع الاستهلاك الحديث - وهو تسويق يعتمد اللغة أساسا - يفتح لدارسي اللغة العربية مجالات ثرة في تحليل الخطاب، وفي دراسة بلاغة الكتابة الإشهارية الحديثة، بلاغة العلامة المركّبة من الحرف والصوت والرسم واللون، صحيح أننا سنظلّ بمقتضى التخصص الدقيق أو الضيق بحاجة إلى دراسة الجملة الأدبية، والخطاب الأدبي في الشعر والقصة والمقامة والخطابة والرواية وغيرها من الأجناس الأدبية العالمية لكنّ حرصنا على حياة اللغة العربية وربطها

<sup>93</sup> م.ن ص 164.

<sup>94</sup> Le Marketing de la marque; éd Liaisons Paris 1992.

<sup>95</sup> حاتم عبيد: في تحليل الخطاب ص 172.

<sup>96</sup> م.ن ص 172.

<sup>97</sup> م.ن ص 172.

بمحيطها الاقتصادي والثقافي والاجتماعي، وبالتواصل الحيّ يفرض علينا -إن كنّا فعلا نفكّر في رقيّ اللغة العربية ودعم عزّها ومجدها وتألّفها بين سائر اللغات، وبناء شخصيتها الثقافية - أن نفكّر في دراستها من خلال العلوم التواصلية البيئية في خطابات من قبيل خطاب الإشهار، والخطاب الاقتصادي وعالم الصورة عموما .

وأخيرا يمكن أن نشير إلى أن تحليل الخطاب الإشهاري في اللغة العربية يمكن أن يستفيد من أعمال مختبر تحليل الخطاب لباتريك شارودو (P.Charaudeau)، فقد اهتمّ بالخطاب الإشهاري بما هو جنس من أجناس الخطاب<sup>98</sup>، ولم يقتصر على الجانب الاستهلاكي الذي يدفع صناعة العلامة التجارية، بل انفتح على دراسة بلاغة العلامة الإشهارية بما فيها من فنون السخرية والهزل. ولقد بيّن شارودو - وهو الأمر الذي يعنينا في هذا السياق - أنّ الخطاب الإشهاري يصنع قيما ورموزا وعوالم جديدة على المستهلك، فيحمل على الاعتقاد فيها والتحفّز لدخولها ولاكتساب السلوك المناسب لها. وهو خطاب تنافسي يقتضي خططا إقناعية تزاخم بها العلامة التجارية العلامات الأخرى التي تعرض البضاعة نفسها، بل تزاخم العلامة التي سبقتها في الإشهار للبضاعة نفسها، أي تزاخم القديم بالجديد، لذلك تحتاج صناعتها أن تتفاعل المعارف المختلفة ضمن بلاغة العلامة الإشهارية، وأن تكون على درجة عالية من الكفاءة التواصلية.

وبعد فإنّ منظومة العلوم والمعارف في المجتمعات ما قبل الصناعية لم تكن تهتمّ لا من قريب ولا من بعيد بعلاقة الفنّ بالتجارة والمعمار والتسويق والإشهار، صحيح أنّ لنا في الأخبار الطريفة المنسوبة إلى الجاهليين قصة تعبر عن دور الشعر في إشهار البضائع، وفي ترويج الراكد منها ، فمن ممّا يجهل قصّة بنات المحلق الذي بارت تجارة خمره السود حتى قال الشاعر وهو في ما يرى المؤرخون مسكين الدارمي في التغزل ( من الكامل) :

قل للمليحة في الخمار الأسود \*\*\* ماذا فعلت بناسك متعبّد

فتسارعت النساء لشرائها ونفدت البضاعة في حينها.

---

<sup>98</sup> ينظر مثلا في بحثه القيم : Le discours publicitaire;Revue scope 8 Versailles 1994.

إلا أنّ هذا النوع من الأخبار النادرة لا يمكن أن يدرج في تاريخ الفكر الاقتصادي وفي صلة الاقتصاد بالفنّ كما نراها اليوم في تقاطع المعارف والفنون. إنّ المناهج التعليمية في الجامعات تقدّم للطلاب مقررات ذات قيمة بينية عالية، سواء في تخصصات الاتصالية كعلوم الصحافة والأخبار، أو التخصصات الهندسية التي لم تنفك تتسع وتنمو بفضل ما تبتكره فنون العمارة والتزييق فتؤثر بالغ التأثير في سوق الترويج للبضائع والعقار، وبفنون التسويق الذي يقوم على استغلال الثقافة البصرية والسمعية في مختلف الفضاءات التجارية والثقافية والخدمية، وفي المؤسسات وبمختلف القطاعات .

وبعد لقد كان لعلم اجتماع المعيش اليومي وخاصة في كتابات بيار بورديو أثر بالغ في التنبيه على أنّ الفكر الاقتصادي لا يمكن أن ينجح لوحده في إسعاد الإنسان، وأنّ تضافر عالم الاجتماع وعالم التقنية ( المهندس - الماقل - التقني السامي) في عامة المجالات يمكن أن يفضي إلى إبداع بيني أكثر إسعادا للبشر، وفي هذا السياق يقول جان ميشيل ليجي (J.M.Léger) في مقال له شيق عن الهندسة المعمارية بين المقتضيات الاقتصادية والمتطلبات الاجتماعية عنوانه : "معماريون وعلماء اجتماع والعزيمة الطيبة" : "الشيء في الحقيقة يمنع المعماري وعالم الاجتماع من أن ينجزا معا عملا بينيا خاصا بالعمارة نفسها"<sup>99</sup>.

## 6-الأدب وعلم الإناسة :

إنّ علم الإناسة هو مجال الدراسات الأنثروبولوجية والنقد الأسطوري وهو من أهمّ المجالات التي شكّل فيها البحث العلمي " تقاطعا وحقولا معرفية متعدّدة ومتشابكة و متباينة "<sup>100</sup>.

ويسعى المنهج الأسطوري إلى قراءة الأشكال السردية الأسطورية التي تنتسج حولها التجارب الإبداعية كأسطورة العنقاء، وطائر الفينيق، وحورية البحر. ويعمل هذا المنهج على فهم آليات توظيف الرمز الأسطوري في الشعرية الحديثة، فالأسطورة بما هي نصّ سردي رمزي يفسّر بدايات ظهور الأشياء

---

<sup>99</sup> Architectes et sociologues:des hommes de bonne volonté ; in Communications 73  
;2003p142.

<sup>100</sup> عبد الحليم منصورى :النقد الأسطوري من التحليل النفسي إلى الدراسة المقارنة، مجلة تواصل العدد 11 ديسمبر 2003 منشورات جامعة باجي مختار عنابة- الجزائر ص9.

وأصولها ويمنحها منطقاً خاصاً بها كانت تفتح للخطاب الأدبي إمكانات الترميز والتأويل، فيصيرها هذا الخطاب ظاهرة جمالية، وتستمدّ من ثمة قيمتها البينية. وقد كان لأندري يوليس دور حاسم في تطوير هذا المنهج وفي إحكام صلته باللسانيات وذلك من خلال مفهوم الشكل البسيط وقد عدّ الأسطورة شكلاً من الأشكال البسيطة إلى جانب النادرة والمثل والحكمة... وأسهم بيار برونال (P. Brunel) في وضع الأسس الأولى للدراسة الأدبية وفق المرجعيات النقدية الأسطورية. ويرى برونال أنّ الخطاب الأدبي هو شكل من أشكال الإجابة عن السؤال الذي يطرحه الإنسان القديم، والذي لا يجد له في ما وصل إليه من العلم إجابة مقنعة. فكتابة الأسطورة في الأدب تخضع لمعايير ثلاثة وهي التجلي أي ظهور العنصر الأسطوري في النصّ والمطاوعة وهي قدرة العنصر الأسطوري على التشكل وفق رؤية المبدع والإشعاع أي إلقاء العنصر الأسطوري بظلاله على سائر عناصر النص، فإذا توقّرت هذه القوانين في النص الأدبي فإنّ الأسطورة تصبح مكوّناً من مكونات الشعرية<sup>101</sup>. وحاول نورترروب فراي (N. Frye) أن يمدّ جسور التواصل بين الأسطورة والرمز فقال في التتويه بالعلاقة بين الشعر بالأسطورة: "إنّ من القصائد قصائد أسطورية الشكل، وكان عليّ أن أتعلم شيئاً من الأسطورة لكي أكتب عنها، وهكذا اكتشفت بعد أن نشر الكتاب أنني من مدرسة النقد الأسطوري التي لم أكن قد سمعت بها من قبل"<sup>102</sup>.

وقد صدرت منذ سنوات في بعض الجامعات العربية ومختبرات البحث المتخصصة في الدراسات الأنثروبولوجية وفي النقد الأسطوري عدّة أبحاث ذات صبغة بينية مادتها الأساس نصوص أدبية ولكنها لا تتناول بالدرس موضوعات أدبية في المعنى الضيق، بل تهتمّ بالمعيش اليومي في العالم العربي الإسلامي كالطعام واللباس والمركوب والعادات والأعراف الاجتماعية وشعرية الاحتفال بالصيد والموت والحرب والسلام وبقضايا الهامشيين. وقد كان لأصحاب هذه الأبحاث ثقافة بينية مركبة مزدوجة تجمع بين الأدب العربي في معناه الضيق أي معرفة النصوص وفنون الأدب وتاريخه العام والمادة البلاغية والخصائص الفنية العامة، ومعرفة المرجعيات الأنثروبولوجية التي تشترك فيها مختلف الحضارات. ويدرس بها الأدب بصفته منتوجاً من منتوجات المخيال الإنساني في مختلف الحضارات ومعيشها اليومي. وقد كان علي البطل وكمال أبوديب ومحمد عجيبة وجمال الدين بالشيخ وياروزلاف ستتكيفيتش

---

<sup>101</sup> Pierre Brunel: Mythocritique ;p72.

<sup>102</sup> الأسطورة والرمز، ترجمة جبرا إبراهيم جبرا، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ط2 1980 ص 9.



(J.Stetkevych) وآدم ماتز (A.Metz) وأندري ميكال (A.Miquel) من رواد هذا الاتجاه البيني الذي يفهم الأشكال الأدبية بما هي أصوات ثقافية وأعراف قولية معبرة عن جملة من الطقوس كطقوس العبور في رحلة الشاعر الجاهلي. ونحلل فيما يلي نماذج من هذه الأبحاث المتصلة بالنقد الأسطوري، وهي أبحاث بينية جمع أصحابها فيها بين التخصص في الأدب العربي والتخصص في الأنثروبولوجيا البنيوية فكانت أعمالهم استكشافا لآفاق بينية واعدة :

### أ- القصيدة العربية و طقوس العبور:

يضمّ هذا الحقل البيني الأعمال التي أنجزها المستشرق ياروسلاف سيسكيفيتش وعلي البطل وكمال أبو ديب، وقد طبّقت نظرية طقوس العبور على القصيدة الجاهلية في أعمال أندراس هامري وسوزان إستكيفيتش<sup>103</sup>.

وقد استعمل علي البطل مصطلح القصيدة الطقوسية لمحاولة تأويل البنية الشعرية للقصيدة البدوية بالاستفادة من علم الإناسة فانطلق من العلاقة المعرفية بين اللغة والإنساني، وعدّ تأويل النص الشعري عملية حفر معرفي مقتبسا من علم طبقات الأرض فكرة دراسة ترسّبات الثقافة في اللغة الطبيعية: "إنّ دراسة طبيعة العلاقة بين اللغة والفكر الإنساني بعمامة هي أقرب إلى أن تكون دراسة في "جيولوجيا" العقل البشري من حيث إنّ اللغة هي "الورقة الحساسة" التي تنطبع عليها تكوينات الفكر: تصورات العقل الإنساني في مراحل تطوره، وتغيّر إجراءات عمله أمام التجارب التي تعدل مواجهاتها هذه الإجراءات دائما"<sup>104</sup>. وتتقاطع في عمل علي البطل ثلاثة حقول علمية مختلفة حقل أركيولوجي تجريبي ، وحقل تنظيري وحقل تأويلي، يقول في تعريف هذا التقاطع المعرفي ومنزلة الشعر منه: "إنّ دراسة الشعر أقرب إلى أن تكون دراسة "أركيولوجية" للروح البشرية من حيث إنّ الشعر إنجاز يشير بوضوح إلى استخدام مادة طبيعية هي أصوات لغة التصوير التي يرتجلها في مقابل لغة التجريد، في ظلّ ظروف اقتصادية

<sup>103</sup> انظر خاصة : Stetkevych Susane: Pre-islamic Panegyric and the poetics of redemption , Indiana university Press 1994 .

<sup>104</sup> القصيدة الطقوسية، مجموعة ميرانا للترجمة والتأليف والبحث العلمي، مصر 1991 ص21.

/سياسية اجتماعية/ عقدية لمرحلة حضارية محددة<sup>105</sup>. وقد كان هذا الباحث واعيا تمام الوعي بما بين مجال العلوم الجيومورفولوجية ومجال العلوم الأدبية من فروق في المادة التي يشتغل عليها البحث في الحفريات فقال: " فإذا كانت هاتان الفرضيتان صحيحتين فإن منظومة الأدوات المنهجية التي تستخدم في دراسة كل من المجالين يجب أن تكون متميزة وواعية بطبيعة تمايز المجالين<sup>106</sup> ".

لقد كان عمل علي البطل امتدادا نقديا ومحاورة بينية للمنهج البنيوي المتصلّب الذي طبّقه كمال أبو ديب على القصيد القديم في كتابه الشعرية والذي نعته البطل بأنّه منهج أصحابه " يتغاضون عن الجمالي بوصفه أحد أركان القصيدة<sup>107</sup> ". وقد وجد الباحث في الحقل البيني المسلك الذي يخلصه من صلاية النقد اللساني البنيوي المغلق. وجاء تحليل البطل لمعلقة امرئ القيس على أنقاض تحليل كمال أبو ديب للقصيدة نفسها في ما سماه بالقصيدة الشبقية.

## ب . المجال النثري وأسطورية الكتابة في الفضاء العربي القديم :

يمكن أن نذكر من الدراسات التي اهتمّت بالنقاط بين الأدب والأسطورة كتاب مجموعة أساطير العرب لمحمد عجينة. وقد تناول الباحث في هذا الكتاب فضاء الأدب العربي الجاهلي بما هو شكل من أشكال كتابة الثقافة الرمزية التي كان يعيشها العرب في جاهليتهم، والأسطورة في هذا التناول شكل بيني لأنها في الآن نفسه من القطاع الأدبي أوالتخييلي ومن إنتاج القصاصين والشعراء والخطباء، ولكنها نمط من أنماط تفسير الوجود، وشكل من أشكال تأويل الظواهر الطبيعية تسبق مرحلة التفسير العلمي. ويقدم لموضوع الكتاب تقديمًا بينيًا إذ يربط بين الأسطورة وتاريخ الأدب " : ولما كانت الأسطورة تنتزّل منزلة تجعلها ذات صلة بأوجه عديدة من نشاط الفكر البشري كان لموضوعنا هذا بالضرورة صلة مباشرة بمواضيع أخرى، فهو يتصل بتاريخ العرب القدامى كما أنّ له صلة لا شكّ فيها بعقائد الشعوب ولاسيما بالأديان الشرقية القديمة التي نشأت في تلك البقعة من العالم. وله علاقة أيضا بتاريخ الأدب العربي بالمعنى العام لكلمة أدب. وقد أثرى الباحث الدرس الأدبي بمنهج من مناهج حفريات المعرفة

<sup>105</sup> م.،، ص22.

<sup>106</sup> م.ن ص22.

<sup>107</sup> م.ن ص23.

وهو النقد الأسطوري (Mythocritic) الذي يحاول الكشف عن الترسّبات الأسطورية التي تراكمت عبر التاريخ اللغوي وأنتجت القصص الأسطوري ورموز الحيوان وصلتها بالمعتقدات الخرافية، والترسّبات اللسانية المرتبطة بالمعتقدات التي لا تختلف كثيرا عن الترسّبات الترابية والنباتية والحيوانية التي كوّنت طبقات الأرض عبر العصور السحيقة، ويمكن فحصها ومعالجتها لفهم طرائق تكوّنها وأصولها وصلاتها بالمعيش اليومي . فالتاريخ المادي للأرض يمكن أن يتقاطع في مستوى التحليل الأسطوري والتاريخ الثقافي واللساني .

### ج - اللغة وأسطورة العنقاء :

اهتمّ الدكتور نذير العظمة بالتفاعل الإبداعي بين الأسطورة واللغة الشعرية يقول : " وأسطورة واحدة كافية لاستكشاف روح الميثولوجيا لجماعة من الجماعات أو أمة من الأمم، شريطة أن نكون قادرين على استخراج نحو الأسطورة، لا نحتاج إلى كلّ الأساطير لنقوم بذلك"<sup>108</sup>. ثم يترسّم الباحث الصلة بين اللسانيات وعلم الإناسة : " وما من ريب أنّ تطبيق العلم الألسني (Linguistics) على علم الإنسان (Anthropology) أدّى إلى اكتشاف آفاق معرفية جديدة، فالفكر الإنساني يتمثل في أنساق تنعكس في السلوك العام للجماعات والسلوك الجزئي للأفراد، كما تتراءى هذه الأنساق من خلال اللغة والكلام والجملة فالكشف الكلّ من خلال الجزء أو الأجزاء هو الذي يقودنا إلى بناء الفكر من خلال اللغة وبناء اللغة من خلال الفكر"<sup>109</sup>. وقد حلل الباحث معجم العنقاء في الرواسب اللسانية، وقارن أسطورة العنقاء بأسطورة الفينيقي في مختلف الحضارات الشرقية القديمة فانتهى إلى عدة نتائج من أهمّها أولاً أنّ العنقاء هي التسمية العربية للفينيقي وأنها حسب قراءة كتاب عجائب المخلوقات للقزويني الصورة العربية لأسطورة التداول بين الحياة والموت. ويهمّنا من هذا الكتاب اتجاهه إلى استغلال المفاهيم الأسطورية لفهم الخفايا الاستعارية التي تؤثر في تخلق التشاكلات التمثيلية في الأجناس الشعرية القديمة.

### 7- التاريخ الأدبي والعلوم الإنسانية :

<sup>108</sup> مجلة علامات، منشورات النادي الأدبي بجدة الجزء 9 المجلد 3 لسنة 1414 ص 110

<sup>109</sup> م.ن ص 111.

التاريخ الأدبي هو مكوّن من مكوّنات التاريخ الإنساني أو تاريخ حياة الإنسان، أو هو بعبارة أدقّ تاريخ الكلمة في حياة الإنسان. ولقد تأسّس علم التاريخ الأدبي بفضل منهج العلوم الإنسانية التي وضع لبناتها الأولى المفكر التاريخي فيلهلم ديلتاي، وجاءت أبحاث ديلتاي التاريخية تأليفا صارما بين مناهج العلوم الوضعية ومناهج الفكر المثالي المنتشر آنذاك في ألمانيا، وقد سعى بهذا التوفيق بين الوضعية والمثالية إلى فهم خصائص التعبير الداخلي في حياة الإنسان الروحية أو التاريخ الثقافي والنفسي للإنسان في المجتمع. وقد ذهب هذا المفكر إلى أنّ علم التاريخ هو الجدير بأن يوصلنا إلى استنتاج الذات البشرية وفهم معالمها وخصائصها الروحية والفكرية، ويرى كذلك أن التأويل هو العمود الفقري الذي ينبغي أن تنهض عليه مختلف مجالات المعرفة الإنسانية في أبعادها الفكرية والثقافية والروحية لأنّ التأويل هو الخطاب المفهومي الوحيد القادر على نظم المعارف في سلك تاريخ الأفكار، ولا يمكننا مثلا أن نفهم موقع كتابة السيرة الذاتية من تاريخ ترجمة النفس في العصور القديمة منذ عصر القديس سانت أوغويستان ما لم نقرأ الكتابات الروحية قراءة تأويلية. إنّ المعنى في تاريخ الإنسان عمل معقّد لا يمكن أن نبسّطه بالاستناد إلى المقولات الوضعية التي تتعامل والأحداث الاجتماعية كما لو أنّها حوادث مادية مجردة من المعنى. يقول عادل مصطفى: " إنّ موضوع العلوم الإنسانية هو الحياة الإنسانية، وفهم الحياة الإنسانية ينبغي ألاّ يقوم على مقولات خارجة عن الحياة بل على مقولات من صميم الحياة، ومستقاة من الحياة، فهم الحياة يجب أن يتمّ من خبرة الحياة ذاتها، يقول دلتاي: (إنّ الذات العارفة التي شيّدها لوك وهيوم وكانت لا يجري في عروقها دم حقيقي ذلك أنّ هؤلاء يضيّقون نطاق المعرفة ويقصرونها على ملكة الإدراك بانفصال عن الشعور والإرادة، وفضلا عن ذلك فإنّهم كثيرا ما يتحدثون عن الإدراك كما لو أنّ بالإمكان عزله عن السياق التاريخي الصميم لحياة الإنسان الباطنة، في حين أننا في حقيقة الأمر ندرك ونفكر ونفهم في ضوء الماضي والحاضر والمستقبل)" <sup>110</sup>.

## 8- الأدب وعلوم التواصل أو النظرية الوصائية :

من النظريات التي استندت إلى علوم التواصل وأفادت دراسة الأدب بشكل بيني واضح نذكر النظرية الوصائية التي بنى أسسها المعرفية ريجيس دي براي (R. Debray) في كتابه النظرية

<sup>110</sup> فهم الفهم ص 121-122.

الوسائطية. ويمكن أن نجد في مفهوم الترميز العلمي (Symbolisation) مدخلا مهماً جداً لفهم العلاقة بين العلم والعالم (بفتح اللام) وما ينجر عنها من متصورات مثالية أحياناً وواقعية أحياناً، وهي متصورات تخص علاقة العلوم بعضها ببعض ودرجات الوساطة التي يتمتع بها كل علم بالنسبة إلى النسق الثقافي العام الذي ينتمي إليه . ففي العصور التي سبقت الثورة الصناعية في القرن الثامن عشر كان السحر يحتلّ جانبا هاما من فضاء العلاج في أوروبا القروسطية، بشقيهِ المادي والروحي، وكان ينافس العلوم الطبيّة (علم التشخيص - الصيدلة - الجراحة )، إذ يوكل إلى الساحر مداواة الأمراض التي تستعصي على الأطباء وخاصة الأمراض العصبية والنفسية، ويوكل إلى الساحر والكاهن طرد الأرواح الشريرة. فقد كان السحر الوسيط الرمزي بين الإنسان والمعرفة الطبية ، وكانت اللغة السحرية الشبيهة في استعاراتها بلغة الشعر المعبر الرمزي عن هذه الوساطة، وكان لمعنى العلم غير الملموس أو العلم الخفي (Science Occulte) أثر في الواقع الاجتماعي والثقافي بما يتمتع به من رمزية. ولكننا نلاحظ أنه بقدر ما تقلص فضاء الجهل في مجال الطب بفضل المكتشفات الحديثة في مجال الأشعة والمسح الضوئي تقلصت رمزية السحر وأثره غير الملموس. ومع هذه النظرية أصبح الخطاب الأدبي خطابا وسيطا بين خطابات متنوعة، فالأدب الخطابي وسيط بين السياسي والجمهور، والخطاب التربوي وسيط بين المعرفة العالمية والممارسة الاجتماعية للنشاط العلمي. وترى هذه النظرية أنه على البرنامج التعليمي في أي حقل من حقول العلم أن يسهر على نقل المعرفة العالمية بالاستناد إلى المتصورات الثقافية للمتعلمين، وبذلك تصبح المدرسة بمختلف مستوياتها التعليمية وسيطا بين المؤسسة العلمية والمجتمع . وتقترح هذه النظرية على القارئ ألا يصنّف الخطابات تصنيفا ما قبلها إلى خطابات أدبية وأخرى اقتصادية وأخرى قضائية وغيرها بل أن يصنّفها بحسب المؤسسة التي ينتمي إليها الخطاب لأن كل خطاب إنّما هو في الأصل وسيط موضوعي بين جملة من الخطابات، ومن ثمة جاءت القيمة البيئية لهذه النظرية. إنّ الأدب في التصور الوسيط هو الشكل الأمثل للتعبير عن النظام الثقافي في رمزيته، وعن كيفية اتصال ذلك النظام الثقافي بأنظمتها التواصلية المختلفة: التواصل العاطفي، والجماهيري، والمؤسساتي، والأسري، والرسمي، وغيرها من أنظمة الإبلاغ<sup>111</sup>. فالأدب هو وسيلة من وسائل الإبلاغ يعرفه ابن خلدون بقوله : " هذا العلم لا موضوع له ينظر في إثبات عوارضه أو نفيها وإنّما المقصود

منه عند أهل اللسان ثمرته، وهي الإجابة في فني المنظوم والمنثور... ثم إنهم إذا أرادوا حدّ هذا الفن قالوا : الأدب هو حفظ أشعار العرب وأخبارها والأخذ من كلّ علم بطرف، يريدون من علوم اللسان أو العلوم الشرعية من حيث متونها فقط<sup>112</sup>. وهذه الوسيلة ليس لها كما قال ابن خلدون موضوع لأنها واسطة بين كلّ الموضوعات، ومن هذه الناحية يلتقي عبد الرحمن بن خلدون والنظرية الواسطية في فهمه لوظيفة الأدب.

## 8-1 - الأدب وفائض الذكاء :

كنّا منذ ماض بعيد نتساءل عن الأسباب العميقة التي تكمن وراء كلف الأجيال الأدبية التي عاشت في المدن الشرقية القديمة بالمحسنات البديعية، وكنّا في نطاق سعينا إلى فهم الظواهر الأدبية في صلتها بالتاريخ الثقافي العام والتاريخ الجمالي بوجه خاص نعمل على تفسير هذه الظاهرة التي لم يختصّ بها الأدب العربي وإنّما نجدها في سائر الآداب الكبرى التي عرفت عصور المدنية والتحضّر والتعقد الجمالي والذوقي . ولكن جميع جهود التفسير باءت بالفشل، فالمبالغة في الاشتغال بالمحسنات البديعية منحى فني عرف ازدهارا كبيرا في أوروبا من أواسط القرن السادس عشر إلى أواسط القرن الثامن عشر وخاصة في مدن إيطاليا وبأخصّ روما والبندقية وفلورنسا. إلّا أن الأجوبة التي اجتهد مؤرخو الأدب في تقديمها ظلت في تقديرنا جزئية وسطحية في عامتها، ولم تتناول الظاهرة في عالميتها أي بما هي مكوّن من مكوّنات التاريخ الثقافي الذي تشارك فيه جميع الأمم. ونظنّ أننا وجدنا في المقاربة البيئية نواة للإجابة عن هذا السؤال. ونشير بادئ ذي بدء إلى أنّ الإجابة عن تساؤل من هذا القبيل لا يمكن في نظرنا أن نجدها في كتب تاريخ الأدب العامة أو المصنّفات التي اهتمّت بالحضارة العربية الإسلامية ، وإن كانت بعض المؤلّفات العامة حاولت تقديم إجابات محدودة من قبيل ما نجد في كتاب الحضارة في القرن الرابع لأدم ماتر، فهو يذهب إلى أن التقنّ في استعمال المحسنات البديعية مظهر من مظاهر عقلية الزخرف المادي التي شملت عامة مناحي الفنّ الإسلامي في تلك العصور،

<sup>112</sup> المقدمة ص 169.

وأنّ زخرف الأدب ليس سوى شكل من أشكال هذا الرقي الحضاري الذي شمل النقش على الخشب والجبس والحجارة والبلور وغيرها من الحوامل المادية .

ولا يمكن أن نفهم صلة هذا المبحث بمسألة البينية ما لم نتحدّث مرّة أخرى عن صلة الأدب بالمدينة، ويمكن أن نحيل القارئ الكريم في هذا الباب على مصادر كثيرة اهتمت بالكتابة الأدبية وفضاء المدينة بما هي كتابة بينية منها كتاب الأدب عند العرب للعادل خضر، فقد خصّص فصلا لهذا الموضوع وسمه بالأدب والمدينة وحاول فيه أن يربط الصلة بين الجانب الاقتصادي ووظائف الأديب في فضاء المدينة ولكنه حوّم ولم يرد وأطنب ولم يقنع. فالأدب في المدينة بعيد كل البعد عن تلك التنظيرات والتهويمات التي وقع فيها هذا الباحث الغامض في أسلوبه وفي أفكاره. وقد زعم في تحليله لصلة الأدب بالمدينة أنّ دور المثقف الأول هو الاستيلاء على فائض الثروات التي تتكدّس في المدينة<sup>113</sup> ولا ندري بالتحديد من أين جاء الباحث بهذه الملحوظات غير المستندة إلى تحليل نصوص أو إلى قرائن من تاريخ الأفكار، أو إلى مراجع موثوق بها؟ وإنما هي مجرد إسقاطات للفكر الاجتماعي الذي تأثّر به الباحث في مجمل عمله. إنّ الأدب والمدينة موضوع يستحقّ من التحليل والتدبّر أكثر مما فعله العادل خضر في كتابه الزاخر بضروب التخرّص والإسقاط الأيديولوجي، فالأدب في المدينة يمكن أن ينظر إليه الباحث من زاويتي نظر مختلفتين، أما الزاوية الأولى فهي جغرافية / إثنوغرافية إذ الأدب لا ينشأ في المدينة بالضرورة ، وإذا كان المسرح اليوناني مدني النشأة بطبيعة فنّ الصراع الدرامي الذي يرتبط بالركح والشخصية فإنّ الأدب العربي الذي ازدهر في المدينة بعد مجيء الإسلام وتغيّرت وظائفه نشأ في البادية، واصطبغ بلون البداوة في عامة مستوياته أغراضا وأشكالا وموضوعات، وقد تفاعل في المدينة مع التطور الإثنوغرافي الذي عرفه المجتمع العربي الإسلامي المولّد وذلك منذ القرن الثالث الهجري. وأما زاوية النظر الثانية فهي إدراكية معرفية، فقد كان فائض الذكاء الاجتماعي والتواصل الأدبي المتّسم بالظرف عاملين مهمّين بل حاسمين في تطور الأدب من أدب غير ذي قيمة بينية إلى أدب ذي صبغة بينية واضحة المعالم . وفعلًا فإنّ فائض الذكاء الصناعي في كلّ حضارة يثمر ضروباً من التّفنّن في تطوير معاش الأمم وعاداتها المادية وتقاليدها وأدواتها وصناعاتها المحلية في مختلف المجالات سواء منها ما كان يحتاج إليه في المعاش المباشر كالتّفنّن في الأطعمة وفي صناعة الأثاث

<sup>113</sup> الأدب عند العرب منشورات كلية الآداب منوبة تونس 2004 ص198.

والملابس والمفروشات والمعمار، أو ما ترتقي به الأمم في مجال الفنون كالرسم والخطّ والنحت والتزيين على الجدران والأقمشة والستائر<sup>114</sup>، وقد كانت الكتابة على المحمولات الجلدية والزجاجية والخشبية نقطة الالتقاء بين الخطاب الأدبي وسائر الأنظمة العلامية ذات الطابع الفني، وكان أدب المقامات والرسائل بداية من القرن الرابع الهجري مجال تصريف فائض الذكاء الذي يتمتع به المثقّف في تلك العصور، هذا الفائض من الذكاء الذي تفنّن المجتمع القديم في استعماله من خلال الأشكال اللغوية ذات القيمة الترفيهية كالملاحن والأحاجي والألغاز، وإن لم تكن تخلو من قيمة ثقافية، ليس متاحا لعامة الناس بل إنه متصل وثيق الاتصال بما نسمّيه اليوم بالذكاء الصناعي. فالنظريات التربوية تعيش اليوم مرحلة مجاوزة للنظريات المثالية التي كانت تنتظر إلى الذكاء نظرة مركزية وتصله بالمهارات النظرية وبالكفايات العلمية، وهي نظريات أشاعت بين الناس أنّ الاكتساب المعرفي النظري في مجالات الرياضيات والعلوم والآداب والإنسانيات علامة على ارتفاع درجة الذكاء العام عند المتعلم، وبعبارة أخرى إنّ الذكاء قدرة عامة غير مرتبطة بنوع المعرفة التي يكتسبها المتعلم، بل إنّ هذه النظريات ربّبت درجات الذكاء وعدّت اكتساب المعارف النظرية أرقى درجات القدرة والذكاء. إلّا أنّ هذه النظريات تهافتت وذهب بريقها وقدرتها الإقناعية بإزاء ما وصل إليه علم النفس الإدراكي في العقود الأخيرة، وقد أثبت أن الذكاء الطبيعي عند الإنسان ليس ملكة عامة مشتركة بين جميع الناس في جميع مجالات التفاعل بين الإنسان والعالم الخارجي كلاً بل إنّ الذكاء طيف متعدّد المناطق في الدماغ البشري، فالقدرة على اكتساب المعرفة وعلى التفاعل مع العالم الخارجي مختلفة من إنسان إلى آخر، وما نسمّيه الموهبة أو المنزع أو الميل هو حقيقة علمية يمكن اختبارها وقيسها، وهي من ناحية المركزية العصبية كفاية من الكفايات الطبيعية في العقل البشري يمكن أن تصقل وتنمّي وتروّض بالتعلم والتربية والتكوين والتمهين، ولا فرق في هذا المستوى بين القدرة على تعلم الرياضيات أو الجغرافيا أو الفيزياء والقدرة على إنتاج الجملة الشعرية أو على تعلّم الأعمال الميكانيكية. إنّ فائض الذكاء الذي أنتج في العصور الوسطى التصنيع اللفظي وهندسة الحروف والكلمات والجمال هو الذكاء نفسه الذي ينتج في عصرنا هذا بفضل الثورة الصناعية والتكنولوجية الرقائق الإلكترونية والزخارف المعمارية وفنون الرسم في مجالات الهندسة وتصنيع العربات والآلات الميكانيكية وغيرها من المخترعات الصناعية.

<sup>114</sup> يمكن أن نعود في هذا الموضوع إلى كتاب الموشى أو الظرف والظرفاء للوشاء، فقد فصل وصف التطريز على الستائر والطنافس والأكواب والأبواب وغيرها من مظاهر الكتابة الزخرفية.



## 8-2- الأدب والفضاء الجغرافي :

كان أدب الرحلات والبلدان والمسالك والممالك في السرديات العربية القديمة من أهم الأجناس الكتابية التي تحققت فيها بينية الفكر القديم، فقد نشأ أدب البلدان مع اليعقوبي منذ القرن الثالث للهجرة في رحاب المنظومة الأدبية، وجاء أدب المسالك والممالك مع ابن حوقل في صورة الأرض والاصطخري في المسالك والممالك والمقدسي في كتابه أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ليحكم الصلة بين مختلف فروع الإنسانيات الإسلامية القديمة، وقد تقاطعت فيه معارف متنوعة منها أدب العجيب وصورة الأرض وعلم الأطوال والأعراض، ولم يكن علم الجغرافيا علما مستقلاً عن سائر الفنون القديمة التي تجمع في وظائف كتابتها بين خدمة الرحالة والمسافرين بين الأصقاع بتقديم مادة علمية تعرّفهم بتلك الأقاليم وخدمة الوظائف الأدبية الإمتاعية كالكتابة في أدب العجيب وخصائص الأمصار وعادات الناس. فوصف المدينة في كتب الجغرافيين هو شكل من أشكال إدراك الفضاء في البيئة المعرفية التي عاشها هؤلاء الكتاب والرحالة واتصلت حلقاتها إلى زمن ابن بطوطة والتيجاني والشريف الإدريسي. وقد اختلفت مؤلفات العرب في أدب الرحلات من حيث درجات التفاعل بين الخطابات الأدبية والعلمية، فجاء بعضها خلوا من السرد الأدبي على نحو كتاب أخبار الهند والصين وهو لكاتب مجهول<sup>115</sup>. وقد أسهم هذا النوع من الكتابة الأدبية البينية في توسيع آفاق مفهوم الأدب وتعميق صلة اللغة العربية بالثقافة الاجتماعية والتجارب الوجودية والأبعاد الفضائية التي كان يعيشها الإنسان القديم ، فكان الأدب بفضل هذه الثقافة أقرب ما يكون إلى المفهوم الإنساني للثقافة.

## 9- الأدب وعلوم التربية:

إنّ علوم التربية مجال من أهمّ المجالات الحيوية من ناحية التفكير في مستقبل الخارطة المعرفية، وحقل من أهم الحقول المعرفية استمعا إلى مشاكل النقل المعرفي، ولم ينفك علماء التربية منذ عدّة عقود وخاصة بعد ظهور الفكر البنائي (Constructivisme) يفكّرون في تطوير الأساليب الناجعة للتعليم، وذلك لإعطاء معنى أوضح لمنظومته كلّها بالبحث عن الكفايات الأفقية التي يمكن أن

<sup>115</sup> تحقيق جان سوفاجي (J.Sauvaget) باريس 1948.

تلتقي حولها موادّ التعليم فيتمّ بذلك تجنّب التكرار، ويحصل التكامل بين التخصصات بما يقنع المتعلّم بأنّ البرامج جميعها تخضع لمنطق تربوي ومعرفي واحد.

وتعدّ علوم التربية من أهم المجالات البينية لأنّ وظائف التعليم الكبرى وخاصة التعليم العام ليست تخريج متخصصين في حقول معرفية نظرية أو في تخصصات عملية فحسب بل إنّ غاية التعليم الأساس هي تخريج مواطن متعلّم قادر - في نطاق تخصصه - على القيام بعمله في كنف التفاعل الإيجابي مع مجتمعه، قادر على أداء واجباته الاجتماعية في مختلف مستوياتها، وقادر على تطوير كفاياته بحسب ما تحتاج إليه حياته العملية. ولتحقيق هذه الأهداف ينبغي أن تكون المقررات المدرسية ذات قيمة إدماجية أي أنّ المتعلّم يكتسب جميع المهارات والمعارف على نحو متكامل ومتناغم.

## 9-1 البينية والتكوين المدرسي:

في أحد أعداد مجلة علوم التربية خصّص إيف لونوار (Y.Lenoir) ولوسي صوفي (L.Sauvé) بحثاً مطوّلاً لمسألة التفاعل بين المواد في التعليم بعنوان "البينية والتكوين في الابتدائي والثانوي"، وقد أرّخا فيه لعلاقة البينية بالتعليم في العصر الحديث، واستعرضا مختلف المصطلحات المرادفة للبينية والمستعملة في الخطاب التعليم الحديث ومنها : الإدماج (L'Intégration) والتنسيق (La Coordination) وتعدّد التخصصات (La Polydisciplinarité). وذهبوا إلى أنّ البينية تنتزّل في قلب الإصلاحات التعليمية في المدرسة الحديثة<sup>116</sup>. وقد بيّن الباحثان كيف أنّ المصنّف الذي وضعه يونغ (M.F.D.Young) سنة 1971 بعنوان "الجديد في علم الاجتماع التربوي" (New directions for the sociology of education) كان منطلقاً للتفكير في إعادة بناء المقررات التعليمية وفق رؤية أو فلسفة تربوية تأخذ بالاعتبار البعد البيني في التعليم والعلاقات الإدماجية في المواد والمقرّرات والتخصصات. وتنطلق من أنّ تمثّل التلاميذ للمواد والمقرّرات يرجع إلى "حزم" من التمثيلات، ويخصّص

---

<sup>116</sup> Quelle L'interdisciplinarité et la formation à l'enseignement primaire et secondaire : Revue des sciences de l'éducation ;Vol XXIV;1pp3-29.

كلّ تمثّل موضوعا من الموضوعات الأفقية التي تخترق المواد المتشابهة في تصور المتعلم وضميره. فالزمن موضوع يخترق مقرّر التاريخ وهو مقرر إنساني ومقرّر السرديات وهو مقرر أدبي ومقرّر الفيزياء وهو مقرر علمي ، ويمكن إذن أن يكون موضوعا إدماجيا في التعليم تبنى عليه مقاطع تعليمية بينية محفّزة للمتعلم، تربيّه على الإحساس بالزمن وفهمه . والمكان موضوع أفقي في مقرّرات الجغرافيا وعلوم الأحياء (طبقات الأرض) والرواية والشعر الوصفي (الشعر الجاهلي). ويمكن أن ننظر إلى هذين الموضوعين من خلال العلاقة البينية فننحدّث عن مقولة الزمان/ المكان (Spatio-temporelle)، وإلى صلة كليهما بالإنسان بصفته فاعلا في الزمان والمكان، وهو فاعل على الحقيقة في موضوعات الجغرافيا البشرية والمجالية كقضايا التصحّر والتلوث والاكتظاظ العمراني والتزايد السكاني وأثره في المكان، وهو فاعل على المجاز في المكان الشعري والروائي. وفي هذا الإطار أعيد تنظيم المقرّرات وفق موضوعات أفقية تخترق التخصصات التقليدية ولكنها تحفّز المتعلّمين أكثر فأكثر إلى الانتباه والتفاعل مع القضايا التي تثيرها تلك الأجناس التواصلية التربوية، وتحكم الصلة بين القديم والجديد، بين العلم والأدب، بين الواقع والخيال، بين الجميل والنافع، وقد سمّيت هذه الموضوعات البينية موادّ بينية داخلية (Intradisciplinary). وتذهب أغلب الدراسات الراهنة في مجال التربية إلى أنّ النشاط الإدماجي للمعارف يمثل اليوم مطلبا أساسا من مطالب التعليم، وقد أثبتت الأبحاث التي أنجزت بالانطلاق من خطابات التلاميذ في مختلف المواد أنّ المزج بين العنصر التقني والأدبي والاجتماعي والنفسي وغيرها من المعارف أصبح سمة مميزة للخطاب التلميذي ، وعليه فإنّ فنّ التعليم بحاجة ماسة إلى إدراج العمليات الإدماجية في مختلف التخصصات. ويلخص جورج بالماد (G. Palmade) موضوع البينية في مجال التكوين المدرسي بقوله : " تضبط التحاليل التربوية للمقرّرات المدرسية منظومة من العلاقات المعرفية والتربوية والإبيستمولوجية والاجتماعية بين مختلف المواد، وهي علاقات تكامل وتقاطع وتداخل في مسار مخصوص، إذ يمكن لمقرّري مادّتي النحو والأدب أن يتعرّضا إلى وظيفة الحال في الخطاب أو إلى الفرق بين النعت والحال ولكن لتحقيق هدفين تربويين مختلفين ومرتبطين بأهداف كل مقرّر منهما. ويفضي استخراج هذه المنظومة من العلاقات إلى إعداد برامج تعليمية ذات صبغة إدماجية<sup>117</sup>. إلّا أنّه ينبغي أن نميّز البينية العلمية من البينية التعليمية : فإذا كانت

G.Palmade: Interdisciplinarité et idéologies;Paris Anthropos1977 p32.

البنية العلمية ترمي إلى إنتاج معارف جديدة وإلى الكشف عن سبل الاستفادة من مناهج علمية ذات فائدة أفقية، فإنّ البنية التعليمية تهدف أولاً إلى إنتاج معارف خاصة بالعملية التعليمية، وتسعى ثانياً إلى تكوين فاعلين اجتماعيين ذوي مهارات متنوّعة، وكفايات أفقية متعدّدة، وترمي ثالثاً إلى تمهين خريجين في تخصّصات إدماجية قادرين على الانتقال بين قطاعات مختلفة .

## 9- 2 التعلّمية في صدارة العلوم البينية أوالوجهات التعلّمية<sup>118</sup> :

ذكرنا في الفقرة السابقة أنّ البنية التعليمية تنتج معارف خاصة بالعملية التعليمية، ولكن هذا النوع من البنية ينتج كذلك علوماً تعليمية جديدة اصطلاحاً على تسميتها بتعليمية الموادّ ( Didactiques des disciplines). وننبّه في مستهلّ هذه الفقرة إلى أنّ إدراجنا للتعليمية تحت عنوان علوم التربية ليس سوى تبسيط للعلاقات بين العلوم، ذلك أنّ هذا المجال المعرفي ينزع منذ أكثر من ثلاثة عقود إلى الاستقلال عن منظومة علوم التربية بصفته علماً من علوم اللغة والتواصل (Didactologie) لا يهتمّ بالقضايا التربوية العامة ولا بمسائل الاكتساب والتقويم والنشاط المدرسي في أبعاده النفسية والاجتماعية - وهي موضوعات علوم التربية - بل يهتم بقضايا التخصّصات التعليمية وصعوباتها وطرائق التخطيط لها وإدماج معارفها في الكفايات التعليمية العامة<sup>119</sup> . وقد لحظ المسؤولون عن تدريس الرياضيات الحديثة وخاصة نظرية المجموعات منذ الخمسينات من القرن الميلادي الماضي أنّ الطلاب في المرحلة التي يتلقّون فيها ذلك التعليم لا يتمثّلون هذه النظرية على النحو المنشود، وظهرت داخل أسرة تعليم الرياضيات في فرنسا نزعة تجريبية تنطلق من الميدان التعليمي ويبحث أصحابها عن مصدر الصعوبات التي تعترض الطلاب وتحول دونهم ودون فهم رياضيات المجموعات، وقد تساءل بعض مدرّسي هذا العلم عن الأسباب التواصلية التي تعوق الطلاب دون تمثّل هذا النوع من الفكر الرياضي ، وحاولوا أن يجدوا الإجابة عنه في نظريات الاكتساب العامة وفي ما تقدّمه علوم التربية من تبريرات، ولكنهم لم

<sup>118</sup> أخذنا هذا المصطلح من دراسات مغربية عديدة، فهي ترجمة مقبولة في نظرنا لعبارة (Interface) ينظر مثلاً : محمد غاليم :السمات والوجهات وهندسة النحو ضمن اللسانيات وإعادة البناء، وقائع الندوة العلمية الدولية الثالثة للسانيات، 10-12 أفريل 2014 كلية الآداب والفنون والإنسانيات منوبة تونس .

<sup>119</sup> من المراجع المهمة في علم التعليم المجلة الفرنسية ( E.L.A ) Didactologie الصادرة عن دار Didier Edition وهي مجلة ثلاثية.

يعثروا على شيء مقنع، ولم يقفوا على تعليمات خاصة بالمادة التي يدرسون بل وجدوا أفكارا عامة حول الصعوبات التعليمية النفسية والاجتماعية والذهنية، وهي صعوبات غير تخصصية، ولا يمكن أن تحل الإشكال التواصلية المطروح، ثم سرعان ما توسّع التساؤل ليشمل الحقل العلمي كله، وأخذ هؤلاء المدرسون الباحثون يطرحون أسئلة من قبيل : كيف يمكن للخطاب التعليمي أن ينقل مادة علمية من مجال غير تعليمي إلى مجال تعليمي؟ كيف يمكن أن يبسط التعليم المفاهيم العلمية المعقدة دون أن يخلّ بالمضامين العلمية ؟ كيف يمكن أن يختار المشرّع التعليمي من المادة العلمية ما يستطيع المتعلمون إدراكه في مراحل التعليم ؟ ماهي المادة المناسبة لكل مرحلة ولكل مستوى ذهني ؟ كيف يمكن أن نفهم تمثّل المتعلم للمادة العلمية، وأن نشخص الصعوبات التي تعترضه؟. وسرعان ما اكتشف إيف شفلار (Y. Chevallard) أنّ الإجابة عن هذه الأسئلة لا يمكن أن نجدها في منظومة العلوم القائمة أي علوم التربية من جهة وعلم الرياضيات من جهة أخرى بل ينبغي أن نؤسس علما بينيا يسهر على الربط بين وجهة التخصص ووجهة نظريات الاكتساب، ويسعى إلى نقل المعرفة من مجال التخصص العلمي إلى مجال الخطاب التعليمي، ونبه على أنّه ينبغي أن يكون عمل أهل هذا التخصص في ملتقى الطرق بين علوم الاكتساب وعلوم التخصص، فكانت تعليمية المواد الابتكار الإيبستيمولوجي في أواسط القرن الماضي، وكانت علما جامعا بين علوم التخصص وعلوم الخطاب والتواصل. وقد عرّفها جان لويس شيس (J.L.Chiss) بقوله : " التعلّمية (Didactique) علم علاجي يتدخل لتنظيم العملية التعلّمية في تخصص بعينه، وهي علم ذو واجهتين اثنتين : واجهة علمية وواجهة تربوية، فهي علم من علوم التواصل في مجال التربية يسهر على اختيار اللغة العلمية الصالحة لتدريس مادة بعينها في مستوى تعليمي بعينه. وهي علم يسهر على تخطيط التعليم والكشف عن الصعوبات التي تعترض المتعلم في تخصص بعينه، وهي أخيرا علم يعتني بنقل المفاهيم والبرامج من فضاءها العلمي المحض إلى الفضاء التعليمي<sup>120</sup>. وقد أنتج هذا العلم البيني عدّة مفاهيم خاصة به، من أبرزها :

أ- النقل التعليمي : يعني النقل التعليمي تحويل مادة علمية من فضاءها العلمي الأصلي إلى فضاء تعليمي تربوي ، وتطويع تلك المادة بالتبسيط والتفكيك والتجزئة لتصبح قابلة لأن تتعلّم، فالنقل التعليمي

<sup>120</sup> دروس في تعليمية الإنتاج الكتابي، منشورات دار المعلمين العليا فوننتوني سان كلو باريس 1998.

هو المسار الذي تقطعه المعرفة العالمية وهي تنتقل من حقل إلى آخر عبر اللغة الوصفة لها ويعني إعادة كتابة اللغة العلمية بخطاب تعليمي تربوي تكويني .

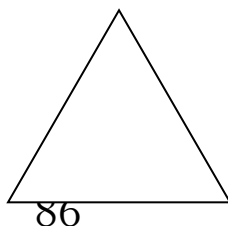
ويمرّ النقل التعليمي بخمس مراحل هي :

- انتقاء عناصر المعرفة العالمية من المادة العلمية .
- تحويل المفاهيم العلمية إلى مقرّرات عامّة بحسب مستوى التعليم وأهدافه .
- تنظيم المادة والتخطيط لتعليمها بحسب مستويات التدريس والتكوين .
- تحويل المعرفة العلمية إلى مفاهيم مدرسيّة موافقة لأنواع الأنشطة التعلّمية والتعليمية والكفايات المستهدفة.

- تحويل الحقل العلمي إلى مادّة تعليمية إدماجية أي قابلة للتسلسل وفق مستويات التعلّم والتعليم. فالنقل التعليمي إذن هو **حركة تحويل للمعرفة العلمية من خطاب مغلق، حامل لمعرفة علمية تنزع إلى الصرامة والشكلنة إلى خطاب تربوي موجّه إلى متعلّم متعدّد، مناسب لمرحلة من مراحل الاكتساب ذات خصائص نفسية وثقافية واجتماعية تتفاوت من متعلم إلى آخر، وذلك لبناء كفاية معرفية في ذلك المجال دون أن تكون الغاية إنتاج معرفة جديدة، لأنّ الفضاء المدرسي لا ينتج المعرفة الخالصة بل ينتج المعرفة التعليمية.**

ب- المثلث التعليمي: كل عملية تعليمية تقوم على ثلاثة أقطاب أو أطراف هي المعلم والمتعلم والمعرفة العالمية والممارسات الاجتماعية. أمّا صلة المعلم بالمتعلم فهي صلة التعليم بالاكتساب.

المعلّم



## المتعلم

## المعرفة العالمية والاجتماعية

يقول محمد صلاح الدين الشريف موضّحاً أثر الاهتمام بالعلاقات البينية في التربية على الابتكار والإبداع، وفي بناء العقل العلمي: "لم يفتأ المشرفون التربويون منذ دهر يلحّون على جدوى الترابط بين الموادّ، وكذلك المختصّون في تعلّمية الألسن. إنّ انتباه المتعلم إلى علاقات ولو غامضة بين مجالين متباعدين كالفيزياء والتاريخ مثلاً لهو حدث مهمّ في توسيع رؤيته ومنعها من انغلاق قد يؤدّي على مدى بعيد إلى تصلّب تصوري في اختصاصه يمنعه من قبول الابتكار"<sup>121</sup>.

إنّ التصور البنائي للمعرفة قد ساعد علماء التربية والتواصل التربوي على نقل العملية التعليمية من حقل النظريات السلوكية إلى الحقل الإدراكي، وهو **حقل بيئي** يركّز فيه الاهتمام والبحث على تكامل المفاهيم. وقد أصبح في تصوّر التعلّمين أنّ ذهن المتعلّم ليس صندوقاً خاوياً على المعلّم حشره بالمعارف التي يتلقّاها المتعلم تلقّياً سلبياً، بل أصبحوا يرون في ذهن هذا المتعلم مجالاً تتقاطع فيه المعارف السابقة والمعارف الحادثة، وتتزاحم فيه تمثيلات العالم والأشياء، فتكون العملية التعليمية جامعة بين التعديل والتكييف والإدماج: تعديل المعارف السابقة وتصحيحها وإعادة بنائها، وتكييف المعارف الجديدة بحسب قابلية المتعلم وذلك بإعداد المقاطع التعليمية وتخطيط مسار الاكتساب عبر الزمن، وإدماج المعرفة الجديدة في الأبنية المعرفية السابقة. وأصبح المجال **البيئي** الواصل بين التعلّم والاكتساب أهمّ مجال من مجالات العلوم التربوية في بعدها التعليمي. لقد توغل التعلّميون في وصف مسار النقل التعليمي وفي بيان تعقّد سلسلة الاكتساب والحلقات التي تمرّ بها العملية التعليمية. ووضع "إيف شفلار" الرسم البياني الذي يجسّد مراحل النقل التعليمي انطلاقاً من عملية اختيار العناصر العلمية أو المعرفية من المعرفة العالمية في التخصص، وهذا الاختيار يستوجب عملاً بيئياً يتضافر فيه علم النفس الإدراكي وعلم الخطاب المناسب للتخصّص ( لغة الرياضيات - لغة العلوم الإنسانية - لغة التفسير الأدبي - لغة التقنية ...) لضبط ملامح المادة العلمية الملائمة للمستوى التعليمي المستهدف، وفي هذا المستوى من سلسلة النقل التعليمي طرح السؤال: لماذا نختار هذه المادة في هذا المستوى؟ أو

<sup>121</sup> الدارة النحوية البلاغية: مقارنة لتعليمية الألسن، حوليات الجامعة التونسية، العدد 57 لسنة 2012 ص 84..

ما هي المادة المناسبة لهذا المستوى في هذا التخصص؟. ماهو الجنس الشعري الملائم لتلقي المتعلم في السنة الأولى من التعليم الثانوي ؟ ولا يمكن أن نجيب عن هذا السؤال إلاّ بدراسة بينية يتضافر فيها علم النفس الإدراكي في شقّه المهتمّ بالاستعارات اليومية وعلم اللغة الاجتماعي، ونحدّد من خلالها ملامح المتعلم النفسية والقدرات التخيلية وأثر الشعر في بنائه النفسي، وفي سلوكه، ومدى قدرته على استيعاب الأنظمة التمثيلية في تلك المرحلة العمرية. وتلي اختيار العناصر العلمية أو المعرفية في سلسلة النقل التعليمي عند "شفلار" مرحلة تحويل المعرفة العالمية إلى معرفة قابلة للتعلّم، وهي مرحلة إعداد المقاطع التعليمية وتوزيعها على المستويات المختلفة أفقيا وعموديا. فالمقطع التعليمي يصوغ المعرفة العالمية صياغة جديدة ويصنع منها مفردات وبرامج، ويخطط للدرس أو المقرّر، ويضع لها جدولا زمنيا لتصبح معرفة قابلة للتعليم من جهة المعلم وقابلة للاكتساب من جهة المتعلم.

ج-أما ثالثة المراحل في مخطط النقل التعليمي فهي إنجاز العملية التعليمية، وفي هذا المستوى تتعقّد الصلات البينية في تعليمية التخصص لأنّ طرفي التعلّم يشتركان كلاهما في الحاجة إلى تعدّد التخصصات، فالمعلم يحتاج إلى التكوين المستمرّ الذي يؤهّله لتدريس المعرفة العلمية المتجددة، ففي مجال السرديات لحظ الساهرون على التعليم العام في العالم العربي أنّ أجيالا من المدرّسين عاجزون اليوم تمام العجز عن تدريس الخطاب السردى بمنهج علمي صارم وبلاستناد إلى المرجعيات العالمية في هذا المجال نظرا إلى أنهم لم يحصلوا على تكوين أدنى في نظريات تحليل الخطاب السردى، ولم يحرصوا أو لم تمكّنهم ظروفهم الاجتماعية والمهنية من مواكبة التطور المعرفي في مجالات من النظريات السردية. ولحظوا كذلك أنّ الاستفادة من علم الإناسة ومن الشعرية الحديثة في مقررات النصوص الأدبية محدود جدا نظرا إلى أنّ تعدّد التخصصات مفقود في نظام التكوين الجامعي الذي خرّج أجيالا من المدرّسين. أما المتعلم فقد ذهب التعلّميون إلى أنه يواجه المعرفة الجديدة بمعرفة قبلية علمية أو اجتماعية ، وأنّ نوع التقاطع الذي يحدث بين تلك المعارف يحدّد مدى اكتسابه للمعرفة الجديدة. وأما المرحلة الرابعة فهي المعرفة الحاصلة للمتعلّم، ولا يمكن للمعلم أن يترسّم تلك المعرفة ويقومها إلاّ من خلال الكرّاس الذي يدوّن عليه المتعلّم مذكراته. وقد أنجزت دراسات عديدة انطلاقا من كرّاسات التلاميذ ومسودّات الاختبارات التي جمعها المعلمون من تلاميذهم، وذلك للوقوف على ملامح تمثّل المتعلمين للمقررات الدراسية، وتحتاج هذه الدراسات كذلك إلى تضافر علوم مختلفة من أهمها النظريات الحجاجية وهي تساعد الدارس على فهم استراتيجيات التفكير عند المتعلم، ونظام القيم وترتيبه



للموجودات ونظرتها إلى الأشياء وللعوالم الفكرية. ومن المعارف التي يحتاج إليها الدارسون لتحليل الخطاب الطلابي ما يتصل بعلم الاجتماع الأخلاقي وبالتصورات الجمالية، والمعاجم اللغوية الجديدة في عالم الشباب، وطرائق التواصل، والعبارات الجاهزة المستحدثة وغيرها مما يتطلب تضافرا بين العلوم والمعارف والمرجعيات.

إنّ هذه المراحل الأربع تفضي عند "شفلار" إلى مرحلة المعرفة الحاصلة أو المكتسبة، وهي بطبيعة الحال معرفية فارقية (Différencielle) أي أنّ كل متعلم من المجموعة التي يستهدفها درس واحد يحصل على معرفة مغايرة لما يحصل عليه زملاؤه من ذلك الفريق. ويعود الفرق بين الحواصل المعرفية إلى ستة عوامل، أولها علاقة كلّ متعلم بالمادة ومدى تفاعله والحقل المعرفي إذ ليس جميع المتعلمين في مراحل التكوين العام الأساسي متساوين في تقبّل المواد الدراسية، ويؤثر هذا الاختلاف في درجة التفاعل التعليمي، وثاني العوامل يعود إلى الاستعداد الثقافي القبلي، فالمتعلّمون ليسوا متساوين في المناخ الثقافي وفي ثقافة البيئة الأولى أي خارج المدرسة، وهو مناخ قد يساعد البعض على تمثّل مادة معينة وقد لا يشجع غيرهم على ذلك. فالمتعلم الذي يتعامل مع المعرفة الأدبية في بيئة أدبية خارجية قد يتفاعل بإيجابية أكبر مع مواد الأدب أو قد يتعامل بسلبية أكبر. إنّ تفاوت الحاصل القبلي (Prérecquis) سواء داخل المدرسة أو خارجها ينتج تفاوتاً بين المتعلمين ذا أثر في الحاصل الجديد كما ونوعاً لأنّ عملية الاكتساب لا تكون إلّا عملية إدماجية بحيث يسهم الحاصل المكتسب القديم في إدماج الحاصل الجديد في الذاكرة المعرفية.

### 9-3 تعليمية الحجاج موضوعاً بينياً :

يعدّ الحجاج في المدرسة أحد الموضوعات التعليمية الأفقية أي كفاية من الكفايات المستهدفة بالاكتساب في عامة المقررات والبرامج والمواد، إذ إنّ تعليم الحجاج والتدريب عليه هو بناء للذات المتعلمة وإكساب للقدرة على القراءة وعلى إنتاج الفكر وعلى الإقناع بالمعرفة العلمية وغير العلمية. فالحجاج ليس مادة تخصصية بل هو كفاية تواصلية في جميع الحقول المعرفية وهو بذلك موضوع بيني، يقول توبي لحسن: "لا يمكن الحديث عن القدرة الحجاجية للطفل في منأى عن قضية تعلّمه وتعليمه، على أساس هذا المنطلق تطرح مجموعة من الأسئلة المشروعة: ما معالم هذه المعرفة كما هي في المجال الأكاديمي؟ على أيّ أساس يمكن أن نرسي دعائم نظرية في تعليمية الحجاج؟ ما وضع

الحجاج في المنهاج أو البرامج الدراسية ؟ هل تهيئ المدرسة وضعيات تعليمية من شأنها تطوير هذه القدرة أو الكفاية؟<sup>122</sup>. لقد خصص هذا الباحث فقرة من كتابه الحجاج والمواطنة لتعليمية الحجاج ولكنه لم يستند إلى المرجعيات المتنوعة التي اهتمت بهذا الموضوع منذ أواخر الثمانينات من القرن الماضي. فقد كان لمدرسة التداولية التفاعلية في ليون الفرنسية أثر بعيد المدى في تطوير الأبحاث العلمية المتصلة بحاجية التعليم وقضاياها ، وأسهمت مجلة "تجريب" (Pratique) في متابعة هذا المسار التعليمي المهم فأصدرت بحوثاً متعددة في تعليم الحجاج الشفهي والمكتوب والتدريب على الخطاب الحجاجي في المقال الأدبي والعلمي. وأسست في بعض المعاهد الجامعية مسالك في الدراسات العليا تختص في تعليمية اللغات وتعدّ أبحاثاً في تعليمية الحجاج منها الأطروحة المتميزة للدكتور كمال السحباني وعنوانها "تعليمية الحجاج والإنتاج الكتابي" وقد أنجزها بالمعهد الأعلى للتربية والتكوين المستمر بجامعة تونس ومنها رسالة سعد برغل الحجاج المدرسي في السنة التاسعة من التعليم الأساسي بالمعهد نفسه، وقد أفضت هذه الدراسات إلى نتائج مهمة يمكن أن تفيد مقررات التعليم في مختلف التخصصات: كيف يبني الطالب حججه؟ كيف يختار الأطر الحجاجية ويصوغ الاستدلالات ؟ كيف يرتب المخاطبين في خطابه؟ كيف يتصرف في الشواهد والأمثلة ويديرها في خطابه؟ كيف يناقش زملاءه في الموضوعات العلمية المتصلة بالمقرر؟ كيف ينسب أفكاره ويعدلها ؟ لذلك يمكن أن نعدّها جزءاً من الفكر الأفقي البيني الحديث .

تمكّن النظرة البينية أو التفكير في التعليم من خلال تقاطع المواد والتخصصات المتجاورة أنظمة التعليم والتكوين من إعادة النظر في بناء المنظومات التعليمية باستحداث تصور جديد للمقررات التعليمية، تصور يجنبها هدر الطاقات التكوينية ومظاهر الإسراف والتبذير التي تعاني منها هذه المنظومات إذ تكرر المقررات بعضها بعضاً سواء في مناهج التكوين أو في مضامينها ومحتوياتها، وذلك لأنّ كلّ تخصص يصمّم مقاطعه التعليمية وكفاياته وأهدافه ويبني مجاله المعرفي بمعزل عن سائر المقررات والمجالات والتخصصات، ودون أن يأخذ في الاعتبار أنّ جانباً كبيراً من التكوين تتقاطع فيه التخصصات ضمن الكفايات التعليمية الأفقية أي كفاية التربية على الكتابة وكفاية التدريب على تجنّب التناقض في التعبير وكفاية التأليف، وإنتاج الرسوم والبيانات وكفاية الإحصاء والتعليق على الأرقام

---

<sup>122</sup> الحجاج والمواطنة، رؤية للنشر والتوزيع، مصر 2014 ص144.

والمعطيات ، وهي جميعها كفايات تعليمية إدماجية يمكن توزيعها على مقررات التعليم بشكل تقاطعي بيئي.

#### تعليمية المواد والحقول البيئية :

| التخصص    | المعرفة العالمية - التربوية                          | النشاط التعليمي                                                                                                            |
|-----------|------------------------------------------------------|----------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------|
| اللغات    | الإنتاج الكتابي – التعبير الشفهي<br>– القراءة ...    | تعليمية الحجاج الشفهي-<br>تعليمية كتابة التقرير –<br>كتابة المقال- خاتمة البحث .                                           |
| الرياضيات | رياضيات المجموعات- حساب<br>الاحتمالات – الخوارزميات. | التدريب على الجمع<br>والضم والتبادل .                                                                                      |
| الجغرافيا | الفضاء الطبيعي- مجال المدينة –<br>التساقطات المطرية. | التدريب على تصميم<br>الخارطة الجغرافية -                                                                                   |
| التاريخ   | التحولات الحضارية – الوقائع<br>والأحداث              | قراءة النص التاريخي –<br>الربط بين الأحداث<br>والوقائع والاجتماع<br>الإنساني.- بناء الموقف<br>من التاريخ- تنسيب<br>المواقف |

#### 10- الأدب والمنظومات الجمالية:

لا يمكن لباحث في عصرنا هذا أن ينجز موضوعا متصلا بالعتبات الروائية أو القصصية أو الدواوين الشعرية ( الصور والرسوم والخطوط ) أو غيرها من فنون القول دون أن يكون له إلمام أو معرفة دنيا بالجماليات أو بالأنظمة العلامية غير اللغوية، ونعني بها الرسم أو الغرافولوجيا (Graphologie/ Graphology) والنحت وعلم الألوان وتشكيل الأضواء، وعامة مكونات الفضاء التصويري، فالغلاف الحامل لعنوان الرواية أو ديوان الشعر كثيرا ما يوكل إعداده لرسم يزوده المبدع بخطاطة ذهنية حول الموضوع ويطلب منه نماذج ولوحات معبرة عن ذلك الموضوع، فيختار الرسم

تجسيم الموضوع ورؤية المبدع ووجهة نظره بالاستناد إلى المعايير والأبعاد الآتية : الأحجام - الألوان الأولى والمركبة - الظلال - زاوية النظر - علاقة القاع بالظاهر - تناسب الأشكال وتعبيرها عن مضمون الرواية- انعكاس الأضواء، ويختار نوعاً من الخطوط لإعداد الفضاء الخطي أو الدال الخطي<sup>123</sup>. وهذه العتبة النصية إن جاز القول فضاء بيني تشترك في إنجازه وفي قراءته رؤيتان مختلفتان: رؤية لغوية ورؤية بلاستيكية أو تشكيلية، وهي إن شئنا لون من ألوان التناص، ولكنه تناصّ مقلوب، ذلك أننا ألفنا من الشعراء القدامى والمحدثين والروائيين أن يلفظوا الأنظمة العلامية غير اللغوية (Verbalisation)<sup>124</sup>، ففي الشعر القديم لفظ أبو نواس صور مشاهد الصيد المرسومة على الكؤوس، فعّد مؤرخو الأدب ذلك ظاهرة من ظواهر التجديد، ومحرّكا من محركات التحوّل الجمالي في تاريخ الفنون . إنّ رسم مشاهد الصيد في القصائد لون من ألوان معارضة القصيدة الطردية البدوية بما عرفته حياة المجتمع العباسي من ألوان الظرف والبدخ والترف، وشكل من أشكال مدّ جسور التواصل بين الفنون الأدبية وغير الأدبية . إلا أن العتبات النصية التي تتداخل فيها الأنظمة العلامية لن تتطور إلاّ بظهور الفنّ الشعري التجريبي فيما يسمّى بالإيقاع البصري من جهة وبظهور الفنّ الروائي في العصر الحديث، وبظهور الرواية التجريبية أو الجديدة بشكل أدقّ من جهة ثانية . وقد تناول الباحثون العرب الفنّ الشعري التجريبي بالاستناد إلى النظرية الجشطاطية، وهي النظرية التي تسمح للناقد الأدبي بأنّ ينجز عملاً بينياً على نحو ما جاء في أطروحة محمد الماكري "الشكل والخطاب" إذ يقدّم عمله البياني حيث تتقاطع النظرية الشعرية والنظرية الجشطاطية والسيميوطيقا بقوله : " كيف ينتج النص الواحد عن تجاوز بنيتين من نسقين تعبيريّين متميّزين؟ ذلك ما حاولنا تبينه في هذا العمل بالبحث في صيغ امتزاج الشكل البصري بالخطاب اللغوي في الشعر"<sup>125</sup>. وقد بيّن الباحث أنّ الفكر البياني في مجال التقاطع بين اللغوي والبصري هو المنتج الجمالي والنقدي، وهو ردّ الفعل الناجم عن منافسة الأنظمة العلامية البصرية للوقوس وللعلامة اللغوية الطبيعية في هذا العصر نظراً إلى ما يشهده من ثورات

<sup>123</sup> يمكن العودة للتمييز بين الفضاء النصي والفضاء التصويري إلى: محمد الماكري: الشكل والخطاب:مدخل لتحليل ظاهراتي،المركز الثقافي العربي بيروت1991 ص104.

<sup>124</sup> هو شكل من أشكال التحوّل بين الأنظمة العلامية يتم بمقتضاه التعبير عن صورة أو نحت أو صوت موسيقي للفظ بواسطة اللغة الطبيعية ينظر في Laurent.Jenny: Stratégie de la Forme; Poétique1976.

<sup>125</sup> محمّد الماكري:الشكل والخطاب، مدخل لتحليل ظاهراتي، المركز الثقافي العربي 1991 ص5.

اتصالية شملت جميع الحوامل التقليدية بما في ذلك الأشكال الأدبية التي كانت قائمة على البلاغة الشفهية وفي صدارتها الشعر. وهذا التنافس هو الذي وجّه نقد جاك دريدا اللادع لنظرية الدال عند فردينان دي سوسير واقتراحه لنظرية الغراماتولوجيا (Grammatologie /Grammatology) .

إنّ ازدهار الدراسات البينية التي تحتضن التجارب الإبداعية البصرية في الشعر واللافتات الإشهارية والعتبات الروائية والقصصية عموماً والمعلقات التجارية والرسوم الكاريكاتورية المرئية في التلفزيون وغيرها من الخطابات البصرية، إنّ هذه الدراسات تستند في أصولها النظرية إلى مفهوم الغراماتولوجيا حيث وضع جاك دريدا وغيره مفهوم الأثر (Trace) وهو مفهوم من مفاهيم فضاء الكتابة المحفوظة في المكان والزمان . ولا يمكن أن نختم هذا المبحث دون أن نلقي الأضواء على واحدة من الدراسات المهمة في مجال التقاطع بين الشعر والفن المعماري في الثقافة العربية الإسلامية، فقد خصصت الباحثة حسناء الطرابلسي في كتابها حياة الشعر في نهاية الأندلس فصلاً كاملاً للتأريخ لأشعار النقوش في قصور بني الأحمر في غرناطة تستهله بملحوظة بينية دالة على وعي الباحثة بهذا المنحى في قراءة التراث المادي أي الوعي باشتراك الفنون في إنتاج الشكل الجامع لأنظمة تواصلية جمالية مختلفة، تقول: "من أهمّ خصائص أشعار النقوش أنّها تنظم خصيصاً لغاية النقش، فذلك يعني وجود علاقة ما بين الشعر والمبنى، بين البناء الشعري والبناء المعماري، وربّما أيضاً بين اللفظ والخط"<sup>126</sup>. والواقع أنّ هذه العلاقة لم تغب عن الخطاب النقدي العربي في كثير من الاستعارات والمعاجم التي شبّه فيه الشعر بالمبنى، بل إنّ البيت الشعري هو في الأصل استعارة من الفضاء المكاني للسكن . وقد حللت الباحثة هذه الأشعار المنقوشة على الجدران والأبواب والقباب والسقوف، وانّبتت منهاجاً يبرز التفاعل بين هذين الفئتين، ومن ذلك قولها في تحليل أحد الأبيات: "إنّ هذا البيت مهما كان الأمر يبرز متانة الصلة بين العمل الشعري والعمل التشبيدي، وبين عمل الشاعر وعمل المهندس الفنّان، إنّ الشعر ينزل مع هذه النقوش من عالم التصوير والتخييل إلى عالم التنفيذ والإنجاز... ومن هذا البيت كذلك نستنتج التماثل بين البناء الشعري والبناء المعماري، فكلاهما تحكمه قواعد محدّدة مقيّنة، فالشعر بناء تحكمه قواعد اللغة من نحو وصرف، والقصر بناء تحكمه قواعد الهندسة وفنّ المعمار والزخرفة"<sup>127</sup>. وختمت الباحثة هذا الفصل

<sup>126</sup> منشورات دار محمد علي الحامي صفاقس ومركز النشر الجامعي تونس 2001 ص424.

<sup>127</sup> م.ن ص434.

بقولها : "هذه الرقوم ليست مجرد نقوش وزخارف بل هي أشعار بليغة يحار فيها البلغاء، وقد جمعت جمال الخطّ إلى بلاغة المعنى والمبنى ممّا أحدث تفاعلا وتجاوبا بين الفئتين يتجلّى من خلال المصطلحات الموظّفة ، فالتناظر أسلوب من أساليب الشعر وخاصة من خصائص النقش، والتوشيح أو الموشح لون من ألوان الشعر ابتكره أهل الأندلس، وهو لغة من الوشاح ... وكلّ هذه الصفات تنطبق على الأشعار كما تنطبق على النقوش، فهو التجاذب والتجاوب بين المادة والكلمة أو بين الأشياء في ما بينها، والمتشابهات من طبيعتها التجاذب والتقارب"<sup>128</sup>. وبهذا المنهج البيئي تقارب الباحثة لونا من ألوان الأدب يتنزّل منزلة وسطى بين اللغة الطبيعية الشفهية واللغة المعمارية المدوّنة على الحوامل المادية من خشب وحجارة وزجاج ونسيج، ويدلّ هذا المنحى في البحث أنّ فضاء جمالية الأدب والفضاءات الجمالية الأخرى يمكن أن تمثل مسالك في الدراسة أفقية تصل المتخصصين في اللغة بسائر القطاعات الاجتماعية والاقتصادية وبسائر المنظومات أو الوسائط الثقافية .

## 11- علم الاجتماع المقارن والبيئية :

وبعد فإنّ تمثل المجتمعات للعلوم ظاهرة ثقافية اجتماعية تختلف باختلاف العصور الثقافية. ويجمع الدارسون على أنّ علم الاجتماع العام هو الحقل الأكثر إسهاما في إثراء الدراسات البيئية من الناحيتين النظرية والإجرائية<sup>129</sup>، وإنّ المقاربات البيئية في حقل العلوم الاجتماعية تتّجه منذ السّتينات من القرن الميلادي المنصرم إلى جعل موضوع التفاعل بين الأدب والعلوم الاجتماعية والإنسانية موضوعا ذا فوائد إبستمولوجية مخصصة، من ذلك أنّ البحث في التقارب بين علم الاجتماع والظاهرة أو الحدث الأدبي يتناول من زاوية أنّ كليهما خطاب عن المجتمع أو حدث أو عمل اجتماعي. وكان لأعمال روبرت إيسكاربيت (R.Escarpit) ومجلة "سياق ( Contexte )" أثر بعيد المدى في نشأة علم جديد سمّي بالموضوعاتية الاجتماعية أو علم الاجتماع الاختباري، وهو علم بيئي يفتح مجالات التفكير في موضوعات من قبيل من يستهلك الكتاب؟ الكتاب والمجتمع- السلوك القرائي، وقد ألّف في هذا

<sup>128</sup> م.ن ص 438.

<sup>129</sup> George Simmel: Sociologie et épistémologie, Paris, Presses Universitaires de France, 1981.

المجال آثارا من قبيل سوسيولوجيا الأدب الصادر سنة 1958 والحدث الأدبي والحدث الاجتماعي الصادر سنة 1970.

وقد تمكّن روبرت إيسكارييت من مدّ الجسور بين علم الاجتماع والأدب عبر علم الأدب المقارن، وقد عرّفه بكونه العلم الذي لا يفيدنا عن حياة مجتمع ما بقدر ما يفيدنا عما تحقّقه العلاقات بين الناس في ثقافات مختلفة من ثراء اجتماعي . لكن الموضوعات الاجتماعية أو علم الاجتماع الأدبي قد حقّق نتائج جاوز بها الأدب المقارن وذلك باهتمامه بمادّة أدبية غير عالمية. وقد مكّنت الدراسة البينية في هذا المجال من طرح أسئلة من قبيل : كيف يمكن أن يقرأ الخطاب الاجتماعي الظاهرة الأدبية ؟ كيف يمكن للخطاب الأدبي أن يقدّم معارف تفيد الحدث السوسيولوجي، كيف يتحوّل الاهتمام بالنسبة إلى العلوم الإنسانية من السؤال عن ماهية الأدب ؟ إلى السؤال عما نفعل بالأدب ؟ أو ماذا يمكن أن نفعل بالأدب.

وهكذا فإنه بإمكاننا أن نذهب إلى أنّ علم الاجتماع المقارن هو الجسر الرابط بين الأدب وعلم الاجتماع أو بين الفكر الاجتماعي والفكر الأدبي، وهو لون من ألوان مجاوزة القطيعة بين الأصنافيات المعرفية في العصر الحديث، قطيعة لم تحسن البنيوية التكوينية مع لوكاتش وقلدما وزيما مجاوزتها، ولكن الدراسات البينية ستمكّن من ذلك، وسيتوّج هذا المسار المعرفي بنشأة علم جديد يعرف اليوم بالشعرية الاجتماعية ( Sociolittérature (Literature).





## القسم الثاني

### البنية والمنظومات المعرفية الحديثة

## الفصل الأول

اللسانيات الحاسوبية وصدائها في الدراسات العربية:

## مقدّمة

لعله من المفيد أن نذكّر في مستهلّ هذا الفصل بأنّ التقاطع الذي يحدث اليوم بين اللسانيات والحاسوب أو علوم الحاسب، أو ما يعرف بالمعالجة الآلية للغة ليس من ناحية تاريخ الأفكار العلمية ابتكاراً نوعياً في ذاته، فمن ناحية التقاطع بين المعارف العلمية ترجع فكرة الاستفادة من الرياضيات في توسيع القدرة على تخزين المعلومات الرياضية وعلى العدّ والحساب إلى نظرية الخوارزمي، فصلة اللسانيات بالحاسب في العصر الحديث هي الصيغة الحديثة للإجابة عن السؤال الذي يؤرّق الإنسان منذ أقدم العصور أي منذ ابتكر الكتابة وتخزين المعرفة وهو كيف يمكن أن نجري أقصى ما يمكن من العمليات الرياضية في أسرع وقت وبأكبر حجم من العلميات؟. ويمكن من الناحية الفلسفية أن نقول إن اللسانيات الحاسوبية هي إنجاز عكسي في مجال الاختراع والمحاكاة، فإذا كان الإنسان يحاكي الطبيعة باختراع الشعر ليصنع كما قال أرسطو جمالاً محاكياً لجمال الطبيعة، وإذا كان يصنع الموسيقى فيحاكي أصوات الرياح والمياه وحفيف الأشجار وغناء الطيور، وإذا كان يصنع السكّين فيحاكي مخلب السبع، ويصنع الطائرة فيحاكي الطائر فإنه بصناعة الحاسوب يحاكي العقل البشري، فيصنع الذاكرة البعيدة لتخزين المعلومات أو قاعدة البيانات، والذاكرة القريبة للاشتغال في ما يراه مهما من الملفّات. ويمكن أن نعدّ اختراع جون فان نومان (J.V.Neuman) لأوّل حاسوب بداية التفكير في ربط العقل البشري بالبرمجيات وربط الدماغ بالمادة الحاسوبية، وهذه القاعدة الفلسفية هي التي بشّر بها ديكارت ولايبنيّتز (Leibnitz) تقول إنّ التفكير هو أوّل عملية حسابية. ويمكن أن نفيس هذه الفكرة الأصلية على الفكرة الأصلية التي وصل إليها علماء الأحياء والكيمياء الحيوية والتغذية ومؤدّاها أنّ جميع المخلوقات النباتية والحيوانية يمكن إرجاعها إلى أنظمة من المكوّنات البيولوجية والمعدنية الأساس وفي صدارتها الكربون، أو الفكرة التي وصل إليها علماء الفيزياء وهي أنّ جميع الأصوات يمكن إرجاعها إلى أنظمة من الذبذبات التي ينقلها الأثير عبر الأمواج. فعالم الكيمياء لا يرى في الكائنات الجامدة والنباتية

والحيوانية سوى أنظمة من الأجسام مكوّنة من العناصر الكيميائية، من معادن وحوامض وأملاح ووظائف، وكذلك عالم الفيزيا لا يرى في الأصوات سوى ذبذبات هرتزية، ولا يفرق الصوت الجميل من نهيق الحمار على مستوى التحليل الفيزيائي بطبيعة الحال، وعالم التغذية لا يقيم خطابه العلمي على تذوّق الأطعمة والأشربة وتحسّس أحلاها أو أغلاها ثمنا أو أجملها لونا، بل يصنّفها ويصفها ويميز بينها بحسب مكوّناتها المادية الأساس من زلاليات ودهنيات وسكريات وبروتينات وأملاح معدنية وغيرها. وكذلك اللغوي الحاسوبي يعامل اللغة على أساس أنها برمجيات رمزية وأنظمة رياضية وهي نظرة تحتاج إلى النقد والتمحيص كما يأتي في حديثنا عن اللسانيات الإدراكية.

إلا أنّ هذه المقارنة تظلّ قاصرة محدودة إذا نحن أهملنا أحد الأقطاب البيئيّة المهمة في كل عملية تلاقح وتزاوج بين أنشطة الإنسان والمنظومات المعرفية التي يبتكرها: لقد جاءت الجهود الكبرى التي يبذلها اللسانيون والحاسبون للإجابة عن أسئلة جديدة لم تكن فيما مضى من العصور محورا من محاور الفكر العلمي، ولم تشغل بال اللسانيين لأنّ علم اللغة لم يكن يطرح من القضايا ما يتصل بالقدرة على معالجة اللغات الطبيعية، وعلى إنتاج مناويل لتحليلها وفهم هندستها، وفي هذا السياق يقول أحمد المتوكل إن: "بناء الأنساق الحاسوبية هو أحد المسالك العلمية المؤدّية إلى معرفة خصائص اللغات الطبيعية، وقدرتها على معالجته، وبما أنّه يفترض في النماذج اللسانية المعاصرة الوظيفية وغير الوظيفية أنها تمثل قدرات المتكلم اللغوية فإنّ أهمّ المعايير المعتمدة في قياس درجة نجاحها يكمن في ما تقدّمه من إمكانات تسهم في إقامة نموذج حاسوبي صوري قابل للحوسبة ما أمكن ذلك، يرصد ويصف ويفسّر الواقع الذي نستهدفه"<sup>130</sup>.

لقد عملت اللسانيات الحاسوبية على تقليد الدماغ البشري بإنجاز برامج تفاعلية، وبمعالجة المعلومات التي تشكلها البرمجيات على أساس أنها أنظمة من المعلومات اللغوية .

## 1- شكلنة اللغة واللسانيات الحاسوبية :

<sup>130</sup> الخطاب الموسّط ، مقارنة وظيفية موحّدة لتحليل النصوص والترجمة وتعليم اللغات، دار الأمان الرباط 2001 ص

إنّ نظريات تحويل اللغة إلى أنظمة رمزية أو شكلتها رياضيا (Mathématisation) هي التي كانت وراء التقاطع المخصب الذي حدث بين اللسانيات بصفتها تهتم باللغة الطبيعية والحاسوب بما هو علم معالجة الرموز الرياضية. وتعود هذه الجهود في الشكلنة إلى أواسط القرن العشرين حين كتب نعوم تشومسكي مقاله التأسيسي "ثلاثة مناويل لوصف اللغة" سنة 1956. وقد اختطّ تشومسكي بهذه المناويل ما سيعرف بالنحو التوليدي أو التركيبي<sup>131</sup>، ولكن النموذج الذي سيلقى رواجاً لدى اللسانيين والحاسوبيين على السواء هو نموذج يشوشو بار هلال (Yeshoshua. Bar. Hillel) الذي سيعرف بالنحو المقولي، وقد أثمر أعمالاً مهمة في مجال شكلنة اللغة وخاصة أعمال جيم لمباك (J.Lambek). وقد حرص تشومسكي على إجراء تعديلات متكررة على النموذج التوليدي الذي اقترحه حتى استقام له في ما سمّاه بالبرنامج الأدنى، وقد رأى فيه علماء الرياضيات الحاسوبية نموذجاً شبيهاً بالمنوال المقولي.

## 2- الحاسوب وتعليم اللغات :

يضع التعليم الحاسوبي في هذه العقود الأخيرة بين أيدي المعلمين والمتعلمين على السواء أعداداً هائلة من التطبيقات وأدوات التعرّف على الكلام ومحلّلات التركيب والترجمات الآلية، ويؤرّخ سياستيان الحائر (S.L´Haïre) في كتابه التعليم بواسطة الحاسوب والمعالجة الآلية للغة الطبيعية لأجيال الحواسيب التي ظهرت في الثمانينات والتسعينات. وأثّرت في مسار التعليم والثقافة عامة، إنتاجاً واستهلاكاً، وقد مكّنت من تخزين المعلومات المسموعة والمرئية والمقروءة على القرص المضغوط وظهور الحاسوب متعدّد الوسائط من إنجاز تطبيقات تفاعلية عالية النجاعة والجودة، ومكّنت كذلك من التصرّف في التعالقات النصية للتحفيز في المطالعة والاكتساب أكثر فأكثر. ومن الفوائد العامة التي يجنيها التعليم بالحاسوب إنشاؤه لبرمجيات قادرة على توفير مقاطع تعليمية في التعليم التفاعلي وفي التقويم الذاتي.

## 3- اللسانيات الحاسوبية واللغة العربية:

<sup>131</sup> ينظر في : Ch.Retoré: Les Mathématiques de la linguistique computationnelle; La Gazette des mathématiques; Volume 115 Janvier 2008 pp 35-62 et 116 Avril 2008 pp 29-63.

يمكن أن نرجع اهتمام اللسانيين العرب باللسانيات الحاسوبية إلى بداية الثمانينات من القرن الماضي، وهو يطبيعة الحال موعد متأخر يضربه البحث العلمي العربي مع تاريخ جيل التكنولوجيا والاتصال في مجال العلوم إذا علمنا أن دخول الحوسبة إلى المجال الاقتصادي في العالم العربي قد تم منذ أواخر الستينات بنسب متفاوتة ، وظلّ تعليم اللغة العربية وخاصة اللغة الصناعية أي النحو والتصريف والعروض بمعزل عن الطفرة التكنولوجية التي عرفها العالم في بداية السبعينات. ويذهب الحاسبيون إلى أن المصطلح نفسه لم يكن محل اتفاق بين المتداولين لهذا العلم ، فبعضهم يستعمل مصطلح اللسانيات المعلوماتية ، ويسمّيها بعضهم اللسانيات الإعلامية، ويطلق عليها البعض الآخر علم اللغة الحاسوبي. ويرجع هذا الاختلاف في الحقيقة إلى ضبابية تمثل علماء اللغة العرب لصلة علوم الحاسب بما هي علوم تقنية بالعلوم اللغوية بما هي علوم إنسانية في نهاية المطاف أي علوم محورها نشاط من أنشطة الإنسان. ويرى عبد الواحد دكيكي أنّ هذا الإشكال يعود إلى المفهوم التصوري للسانيات الحاسوبية في العربية يقول : " حيث ذهب ثلّة من الباحثين إلى أنها نظام بيئي، بين اللسانيات وعلم الحاسوب المعني بحوسبة الملكة اللغوية أي أنها تعني معالجة اللغة بالحاسوب، وذهب آخرون إلى كونها تعتبر أداة مساعدة في التعامل مع اللغة بالحاسوب"<sup>132</sup>. ويتضح من هذا الاختلاف أنّ صلة العلوم اللغوية بالحاسوب تعدّ عند بعضهم صلة حقل علمي بآخر كصلة الأدب بالجغرافيا أو الرواية بالتاريخ ، ولكنها عند بعضهم صلة حقل علمي بمنهج تناول معطيات ذلك العلم ، وهذه النظرة هي أقرب إلى التصور التقليدي لأصنافية العلوم. ونحن في الواقع أقرب إلى تبني الموقف الأول لأننا نرى أنّ إدخال الحاسوب في تعليم اللغة بمختلف فروعها وموادها وعلومها وأنشطتها إنما هو انتقال من مجال علمي إلى مجال آخر: فتدريس العروض باستعمال الحاسوب يعيد بناء تمثّل المتعلم لمفهوم المقطع الصوتي في علم العروض، ومعالجة المعجم بالمعطيات الحاسوبية أو بالذكاء الصناعي يختلف من حيث خصائص المعرفة العلمية المستعملة عن معالجته باستعمال الدماغ البشري. وكذلك قراءة نظام الأصوات بواسطة الحاسوب يمكّن الباحثين في الصوتيات السمعية اليوم من تجديد تعريف الصوت، ومن فهم خصائص التفاعل بين الأصوات أو الفانولوجيا بأكثر دقّة .

---

<sup>132</sup> منظور إوليات المعجم في المستوى التركيبي نموذجاً ، ضمن وقائع ندوة اللسانيات وإعادة البناء ، منشورات مخبر نحو الخطاب وبلاغة التداول، كلية الآداب منوبة 2014 ص77.

وأشير في خاتمة هذا المبحث إلى عدة دراسات جادة في هذا المجال ، وهي أعمال نظرية وتطبيقية تسعى إلى إحكام الصلة بين الحقل اللساني والحقل الحاسوبي، وهي أعمال متفاوتة القيمة لذلك لن أذكر منها سوى الأبحاث التي أرى ويرى غيري من المهتمين بهذا المجال أنها بالفعل قد أسهمت في مدّ جسور التواصل والتفاعل المخصب بين الحقل الحاسوبي وعلوم اللغة العربية وخاصة النحو والصوتيات. فمن هذه الدراسات أشير إلى العمل الجامعي المتميز الذي أنجزه حسن عارف بعنوان توظيف اللسانيات الحاسوبية في خدمة اللغة العربية، وهو بحث عام تمهيدي أراد به صاحبه التنبيه على أهمية الانفتاح على الحاسوب في مجال معالجة اللغة العربية . وقد كان لمجلة التواصل اللساني دور رئيس في نشر الثقافة البينية في هذا المجال.

ومن الأبحاث الناجحة في توظيف العلاقة بين اللسانيات والحاسوب نذكر بعض الأعمال التي تجسّمت مجال حوسبة البنية النحوية في اللغة الداخلية (Internal language) وتبنّت المنوال الأدنى (Chomsky 1995-2005) إطارا نظريا للاستدلال على كلية اللغة، وقدرتها على التعبير عن الفكر. وقد انتهت إلى أنّ البنية النحوية تختزن شبكة من العلاقات المتشارطة تربط بين مكوناتها، ويكشف هذا التشارط قدرة فائقة على التأليف تدرك إجرائيا عند تحليل العلاقات الرابطة بين العناصر المعجمية في اللسان المدروس ومقاييس اشتقاقه<sup>133</sup>.

ويمكن أن نقف على أهم المجالات التي تقاطعت فيها اللغة العربية وعلم الحاسوب بالاطلاع على الندوة الهامة التي أنجزها مختبر المعالجة الآلية بكلية آداب والفنون والإنسانيات بجامعة منوبة سنة 2002 وحدّد فيه آفاق البحث البيني ومجالات التقاطع بين علوم العربية وتكنولوجيات الاتصال والمعلوماتية. ففي البحث الأول المدرج في هذه الندوة بيّن الباحثون المشتركون في إنجازه وهم من مختبر جزائري أنّ اللغة العربية لا تختلف عن سائر اللغات في الاهتمام بتصميم برمجيات قادرة على تمكين الناطقين المشتغلين باللغة العربية والمشتغلين بها من استعمالها في مختلف القطاعات العلمية والتقنية بالاستفادة من الوسائل التكنولوجية الحديثة التي تستخدم في معالجة اللغات الطبيعية معالجة

---

<sup>133</sup> ندوة اللسانيات وإعادة البناء ص286.

آلية<sup>134</sup>. وقد أسس أصحاب هذا المختبر أبحاثهم في إطار النظرية الخيلية الجديدة، وانصبت دراساتهم على الأنحاء الموحدة، ( H.P.S.G ) وعلى الأنظمة متعدّدة الأعوان. وقد ذكر أصحاب البحث أنّ أساليب الشكّنة الموحّدة قد أعطى تطبيقها على لغات مختلفة نتائج مهمّة . وهذه النتائج تساعد الدارسين في إنجاز البرمجيات التي يحتاجون إليها في المعالجة الآلية للغة.

#### 4- الحاسوب والترابط النصي :

الترابط النصي مفهوم من المفاهيم المتولدة عن التفاعل البيئي بين اللسانيات الحاسوبية وسائر قطاعات المعرفة المدوّنة رقمياً وعبر صفحات الواب. وهو من المفاهيم الإجرائية التي كان لها بعيد الأثر في تقويض العلاقات العمودية بين الحقول المعرفية وفي إنشاء مفهوم العلاقات الشبكية التي ستعرف بالشبكة العنكبوتية أو الرابط النصي الذي كان وراء التحولات الكبرى المعرفية البينية الحقيقية. والواقع أننا لم نفهم لماذا قارن سعيد يقطين هذا المفهوم بمفهوم التعالّي النصي عند الإنشائيين حين قال: " عندما اقترح جرار جينيت مفهوم (Hypertexte) سنة 1982 لم يكن على علم بأنّ هذا المصطلح كان يوظّف في الإعلاميات بمعنى مختلف عن المعنى الذي أراده لنوع العلاقة النصية التي حددها، وإن كان المعنى العام يومئ إلى ما سنحاول إعطائه لهذا المفهوم، ونحن نرمي نقله من مجال الإعلاميات بقصد توظيفه في تحليل النص"<sup>135</sup>. لقد كان ابتكار الترابط النصي في اللسانيات الحاسوبية نابعا من مفهوم لساني إدراكي لم ينتبه إليه سعيد يقطين حين ذهب إلى أنّ الفكرة التي حرّكت اختراع فانفار بوش (V.Bush) هي أنّ الدماغ البشري يشغل وفق نظام الترابطات<sup>136</sup>، وفعلاً فإنّ عامة الدراسات التي أنجزت في مجال الفكر الإدراكي إنّما منبعها الاهتمام بخصائص اشتغال الدماغ البشري في معالجة المعلومات اللغوية . كان السؤال الكبير الأول الذي طرحه جون فان نومان وتورينغ (Turing) منذ سنة 1946 هو كيف يمكن للجهاز الحاسوبي أن يخزّن أكبر عدد ممكن من المعلومات وأن يوظّفها

<sup>134</sup> ينتمي كتاب هذا البحث إلى مختبر المعالجة الآلية للمعلومات ، مركز البحث العلمي والتقني لتنمية اللغة العربية بالجزائر وهم عبد المجيد أشيط وسفيان فرفرة وكريم لحمر .

<sup>135</sup> التفاعل النصي والترابط النصي بين نظرية النص والإعلاميات، مجلة علامات، منشورات نادي جدة الأدبي المجلد 32، صفر 1430 ص 221.

<sup>136</sup> م.ن ص 22.



المستعمل وينتقل فيها من معلومة إلى أخرى كما يوظف الدماغ البشري تلك المعلومات وفي صدارتها الترابطات المعلوماتية وليست الترابطات النصية لأنّ المعلومة تنتقل من نصّ إلى نصّ وفق الممرّات التي تفتحها الذاكرة البعيدة. والفرق بين الترابط النصي الإلكتروني أو اللامادي والترابط النصي المادي هو أنّ الحامل التواصل المادي هو اللغة والقناة الشفهية أو الخطية- وهي خطية في الحالتين - لا يمكن أن ينهض فيها الترابط إلّا بين نص سابق ونص لاحق، أمّا الترابط الإلكتروني فهو غير مادي لذلك تكون الوسائط فيه متعدّدة. ولهذا نضيف إلى ما ذكره سعيد يقطين في حديثه عن الفرق بين الرابطين أنّ التفاعل النصي في الترابط الإلكتروني هو ضرب من ضروب الانتصار يسجّله الإنسان على خطية اللغة، ولكنه أيضا انتصار لإيقاع التلقي البصري في القراءة الأدبية والعلمية على السواء . إلّا أنّ تحليل سعيد يقطين لدور التفاعل النصي في إثراء القراءة لا يخلو من إشكاليات بعضها معرفي والآخر منهجي، ففي خصوص الإشكاليات المعرفية حاول يقطين تفسير مقولة التفاعل النصي من خلال آليات التناص كما حدّدها لوران جيني (L.Jenny) ومنها مفهوم التلفيظ، فذهب إلى أنّ "المقصود بالتلفيظ أنّ النص وهو يتفاعل مع نص آخر ينقله من نظام العلامات الذي ينتمي إليه، ولا سيما إذا كان من غير نظام العلامات اللغوية ويمنحه بعدا لفظيا" <sup>137</sup>. وهذا التعريف سليم جدا من الناحية النظرية، غير أنّ المثال الذي ساقه يقطين لا يخلو من تحريف للمفهوم إذ يضيف: "فالروائي مثلا قد يصف منظرا أو فضاء ما لكنه لا يقدّمه من خلال بعده البصري كما يفعل المصور أو الرسام، ولكنه بواسطة اللغة ينقل إلينا أشياء غير لغوية" <sup>138</sup>. لقد فات يقطين أن التلفيظ في نظرية التناص عند لوران جيني ينبغي أن يكون تحويلا من نص غير لغوي إلى نص لغوي ، فينبغي كي نعدّ التفاعل نصيا في الرواية أن يمرّ الروائي من لوحة زيتية أو من مشهد مصور أي من نظام علامي غير لغوي إلى نظام اللغة لا أن يكتب مشهدا طبيعيا حقيقيا كما قال يقطين، وهذا التفسير يلائم مفهوم الترابط النصي. ففي المقطع الأول من رواية الشّاذ لنجيب محفوظ يطالعنا الراوي بتلفيظ مشهد من لوحة معلقة في قاعة الانتظار بعيادة طبيب نفساني، وهذه اللوحة نقرأها بعين شخصية عمر الحمزاوي القصصية الجالسة بانتظار دورها في تلك العيادة ، هي مشهد مرعى شديد الخضرة متسع الأرجاء، ترعى فيه بقرات

<sup>137</sup> م.ن ص 228.

<sup>138</sup> م،ن ص 228.

وتلوك العشب في هدوء وأمان مناقضين لحال بطل الرواية الذي يعيش قلقا وجوديا قاتلا. وقد حلّ سعيد يقطين مفهوم التضمنين في الترابط النصي، وهو فعلا مفهوم إجرائي وبيني مهم، وبين الباحث أنه عملية تساعد على بناء النص وهو يتفاعل مع غيره من النصوص إلا أنه لم يضع يده على الأهم من ذلك كله وهو أنّ الترابط يحقق إلكترونيا مقولة النص المنجم (Texte étoilé) التي جاء بها رولان بارت (R.Barthes) في نظرية النص، إذ كلّ رابط من الروابط التفاعلية في النص الإلكتروني الأدبي وغير الأدبي هو في الحقيقة فجوة نصية بلغة أمبارتو إيكو أو بياض يمكن أن نملاه بقراءة من نص آخر، فيصبح النص الترابطي غير منته، أو يصبح صيرورة نصية وشبكة غير متناهية من الإمكانيات القرائية، لأنّ التناص كما سبق أن بيّنا ليس نصا ملموسا كلا بل ليس التناص نصا محسوسا وليس منتوجا أدبيا حاصلًا من التفاعل بين الأجناس والخطابات والنصوص كلا بل هو صيرورة قرائية بين جملة من النصوص، وهو حركة رحيل بين الموضوعات والصور والمعاني والأشكال . وكذلك الأمر بالنسبة إلى النص الإلكتروني. لقد أصاب يقطين حين قال إنه: "يمكن لنظريات النص أن تستفيد بدورها مما يتحقق في الإعلاميات بصفة عامة والإعلاميات اللسانية خصوصا. إنّ تضافر اختصاصات شتى في مقارنة النص واستثمارها في معالجته مثل نظرية الذكاء الصناعي والنظريات المعرفية والإدراكية والنفسية ساهمت في تقارب التصورات المشكلة حول النص، وجعلت من الممكن بل من الضروري استفادة بعضها من البعض الآخر، ونظرية التفاعل النصي واحدة من المنجزات المهمة في هذا"<sup>139</sup>.

إلا أن هذا الباحث لم يستثمر هذه الأفكار المهمة وهي في الحقيقة مبذولة في عامة الدراسات البينية في اللغتين الفرنسية والانجليزية، وتكرر بصفة مملّة أحيانا!، قلنا إن الباحث لم يستثمر هذه الأفكار لبناء مقطع إجرائي في نص من نصوص الأدب أو الصحافة أو الخطاب الاقتصادي أو غيرها من نصوص اللغة العربية وأنظمة خطاباتها، وذلك لبيان جدواها ولتحفيز القارئ على استغلالها واستخدامها في الحياة اليومية بما ينشط مجالات استعمال اللغة العربية استعمالا بينيا. إنّ جميع الأفكار التي جاء بها سعيد يقطين وغيره ممن اهتم بهذه المسألة لم تفتح لنا أمام الحاسوب المعرّب إمكانيات تطوير المخيال الصناعي الإلكتروني بواسطة تغيير الترابطات النصية والإمكانيات القرائية التفاعلية، فقراء المجالات العلمية لم يعودوا بحاجة إلى نصوص تنظيرية عامة مهما تكن درجة إتقانها للغة الخطاب العالم التقليدي أي لغة السرديين والإنشائيين والموضوعاتيين والبنويين والتفكيكيين، نعم إنّنا لسنا بحاجة في

<sup>139</sup> التفاعل النصي ص 234.

محيطنا العلمي والتعليمي اليوم إلى اللغة الواصفة المتعالية على حاجات الطالب والأستاذ في ميدان التكوين والتعليم الواقعي، بل نحن بحاجة إلى معرفة عملية حقيقية ، إلى أن تقدم لنا تجارب ميدانية في كتابة النصوص التفاعلية والبرمجيات والمقررات التي يستطيع المتعلم اكتسابها عن بعد واستغلالها في الحياة العملية خارج المؤسسة التربوية .

وإننا بحاجة أكثر إلى برمجيات ذات قيمة أدبية تبني شبكات من الروابط النصية والتناصية التي تحفز المتعلم على الإبحار في فضاء الأدب العربي خاصة وثقافة اللغة العربية عامة، ويمكن أن أقدم في هذا المضمار نماذج من هذه الترابطات التي يتحدث عنها سعيد يقطين بشكل نظري، يمكن أن يتابعه فيه الأستاذ المفكر والمنظر المثالي لا محالة ولكنه يظل بعيدا كل البعد، غريبا كل الغربة عن القارئ العربي الشاب المتعلم أو الطبيب أو المهندس أو الموظف ، بعيدا كل البعد عن رغائب المجتمع العربي وهمومه وأشواقه ومنازعه. إن الطالب غير الراغب في التخصص في اللغة العربية الأدبية بحاجة إلى برمجيات تفاعلية ترغبه في مطالعة الثقافة العربية القديمة والحديثة، وهي برمجيات تحتاج إلى تضافر نوعين من التخصصات : التخصص العملي الأدبي والتخصص التكميلي .

ونأخذ مثلا لهذا النص المفترض ترابطه مع نسيج الثقافة العربية قصيدة أراك عصي الدمع لأبي فراس:

أراك عصي الدمع شيمتك الصبر \*\*\* أما للهوى نهى عليك ولا أمر

بلى أنا مشتاق وعندي لوعة \*\*\* ولكن مثلي لا يذاع له سر

إذا الليل أضواني بسطت يد الهوى \*\*\* وأذلت دما من خلانقه الكبر

تكاد تضيء النار بين جوانحي \*\*\* إذا هي أذكتها الصبابة والفكر

معلّتي بالوصل والموت دونه \*\*\* إذا متّ ظمّانا فلا نزل القطر

يمكن أن نعدّ هذا النص نصا جامعا (Architexte) فهو قصيدة رائية من البحر الطويل، وهي تتناص وعدة قصائد أنشئت على البحر وبالقافية عينها ومنها قصيدة مالك بن حذيفة:

وما كثرة الشكوى بأمر حزامه \*\*\* ولا بدّ من شكوى إذا لم يكن صبر .

وقصيدة أبي صخر الهذلي المعروفة بمطلعها :

للبللى بذات الجيش دار عرفتها \*\*\* وأخرى بذات البين آيتها سطر .

وكذلك قصيدة معاصره أبي الطيب المتنبي :

أطاعن خيلا من فوارسها الدهر \*\*\* وحيدا وما قلبي كذا ومعني الصبر .

فهني إذن من القصائد التي تدخل في عرف من أعراف الشعرية العربية وهي المعارضات ، والمعارضات يمكن أن تكون في الترابط النصي نافذة مفتوحة على ما لا يحصى من النماذج المتقاطعة، ويمكن أن تكون كذلك نافذة للقراءة البينية. فالقصيدة تثير عدّة قضايا تتقاطع فيها المرجعيات الجمالية والفكرية وتحتاج إلى جملة من الروابط التي تؤسّس لقراءة مفتوحة. ومن المرجعيات التي تتأسّس فيها شعرية هذا النوع من النصوص وتتكوّن منها القراءة المفتوحة مسألة السرّ والكتمان،

ويمكن لواضع الترابط النصي في هذه القصيدة أن ينشئ رابطا أوّل مع رسالة الجاحظ في كتمان السرّ وحفظ اللسان ليبين كيف أنّ الجاحظ لم يحسن تعريف السرّ بل انحرف بالموضوع إلى مسالك غير حاسمة من الناحية المعرفية وهو لم يعرف السرّ تعريفا بينيا بل عدّه كلاما لا يقال ولا يجاوز صاحبه : "والسرّ -أبقاك الله -إذا تجاوز صدر صاحبه وأفلت من لسانه إلى أذن واحدة فليس حينئذ بسرّ بل ذاك أولى بالإذاعة، ومفتاح النشر والشهرة، وإنّما بينه وبين أن يشيع ويستطير أن يدفع إلى أذن ثانية"<sup>140</sup>. ولكن الجاحظ ينقض خطابه الأول بقول يثبت به أنّ السرّ لا يكون سراّ إلاّ بالتلفّظ إلى مستودع السرّ، فهو كلام يودع في أذن لكي يكتسب دلالة لفظ السرّ: "وقال سليمان بن داود في حكمته "ليكن أصدقاؤك كثيرا وصاحب سرّك واحدا من ألف"<sup>141</sup>. إنّ السرّ هو القول الذي يجمع بين الداخل والخارج أو بين الكتمان والبوح، وإذا لم ينجح الرابط الأول في تعريفه وهو رابط أدبي فيمكن أن نبحت عن رابط ثان، وفعلا فإننا نجد في الفكر الحكمي في عصر التوحيدي تعريفا للسرّ جاء على لسان أبي سليمان

<sup>140</sup> رسائل الجاحظ ، تحقيق عبد السلام هارون 146/1.

<sup>141</sup> م.ن ص 151.

المنطقي في مقابسات التوحيدي إذ يقول: "السرّ رسم موجود قد ضرب دونه حجاب وأغلق عليه باب، فعليه بالكتمان والطّي والخفاء والستر مسحة من العدم، وهو مع ذلك موجود العين ثابت الذات محصل الجواهر فباتصال الزمان وامتداد حركة الفلك يتوجّه نحو غاية في كماله فلا بدّ إذن من النموّ والظهور لأنّ انتهاءه إليهما أبداً ولو بقي مكتوماً خافياً لكان والمعدوم سواء، وهذا غير سائغ أعني أن يكون الموجود معدوماً"<sup>142</sup>. فالسرّ لا يستوي سرّاً ما لم يحفظ في صدر المروي له، فهو إذن عمل قولي تواصل، وما إنكار أبي فراس إذاعة السرّ في قوله "ولكن مثلي لا يذاع له سرّ" إلّا إنجاز لتلك اللعبة الشعرية التي تقع بين الداخل والخارج وبين الغياب والحضور. ويمكن أن نضع رابطاً ثانياً مع تعريف المفكر هيدجبر للسرّ في قوله: "إنّ ما يخفى ويحفظ بمقتضى ماهيته، وما تدعوه ماهيته إلى أن يبقى لذاته، وأن يبقى مخفياً بصفة مطلقة وما يظهر مع ذلك بشكل من الأشكال هو ما نسميه سرّاً".

نلاحظ إذن أنّ رسم خارطة الترابط النصي في تحليل الخطاب الشعري يساعد على فهم آليات اشتغال النص أو المسار الذي يقطعه وهو يتخلّق في إدراك صاحبه أو في مسودته الكبرى عبر التناصّ، وهو ما لم يتقطّن إليه سعيد يقطين في دراسته للترابط النصي في الأدب. لقد تخلّق قول أبي فراس في شعرية "المباح والممنوع" وهي الشعرية نفسها التي تخلّق فيها قول جرير في رثاء زوجته :

لولا الحياء لعادني استعبار \*\*\* ولزرت قبرك والحبیب یزار .

فقول الشاعر بالتمني إنجاز في الشعر لعالم ممكن وهو زيارة الحبيب، وهو عالم غير ممكن في الواقع، وقد حرّم على النفس إسقاط قناع التجلّد ولكن خارج الشعر، أمّا في عالم المتخيّل الشعري فقد أباح لها الاعتراف بالضعف والتداعي، وكأنّما الضعف والبكاء مباحان في عالم الشعر أي كأنّهما من العوالم الممكنة في الشعر، يكفي أن يتعاقد المتخاطبون على أنّه شعر حتّى يسقط الأنا الأعلى أي الضمير الجمعي حقّه في المطالبة برجولة الرجل، أي أنّ القيمة التداولية التخيلية هي التي تشفع للشاعر في نطاق المعاني التخيلية طبعاً قول ما يقول . إلّا أنّ رواسب الخوف من الرقابة الاجتماعية سرعان ما تدفع بالذات الاجتماعية إلى استدراك الأمر وإلى محاولة ارتداء القناع، فيحتمي الشاعر بالمثل أو بالأنموذج، ويدخل تحت جناح الجماعة "ولكنّ مثلي لا يذاع له سرّ". وهو جهد بذله للتضحية بالأنا الغنائي والتماهي مع المثل الاجتماعي، فهل نجح في ذلك؟ كلاً لم ينجح الشاعر في هذه اللعبة بل إنّه

<sup>142</sup> أبو حيان التوحيدي: المقابسات ، تحقيق حسن السندوبي، المطبعة الرحمانية، القاهرة 1929 ص 145-146.

هناك حجاب الكتمان أو السرّ إلى أقصى مراتب البيان في قول العشق : من عشق لا يقال "أراك عصي الدمع " إلى عشق يقال بالأحوال ( انظر ابن حزم ( باب علامات الحبّ ) أي بعلامة الدمع " وأدلت دمعا "، فعشق يقال بالأقوال بل بأعلى مراتب التصريح أي بالحكمة " إذا متّ ظمأنا فلا نزل القطر ". والحكمة - كما نعلم - هي في مراتب الخطاب أعلى درجات البوح لأنها تخترق التخاطب الذاتي الثنائي إلى التخاطب الكوني السائر على الألسنة المرشّح إلى الاستعمال الجماعي .

## 5- التوثيق الإلكتروني وآفاق الأرشفة والتخزين المكتبي :

يقول الدكتور أحمد الكبيسي : " إنّ أهمّ خاصيات المكتبات الرقمية (Digital libraries D.L) هو إتاحة مجموعاتها وأرصدها المحوسبة لفضاءات سيبرانية (Cyber Space) باستعمال شبكات معلومات تقحم في مساحات فوقية موازية للعلام الواقعي، وتفرض منطقاً غير مألوف ومضامين مجرّدة تتّصف بثلاث خصائص: اللامادية (La Dématérialisation) واللاتموقع (La délocalisation) واللاتزامن (La désynchronisation) التي لا تمتّ بصلة للواقع"<sup>143</sup>. فعلا لقد تأسّس علم المكتبية الإلكترونية بصفته علماً بينياً تتقاطع فيه ثقافة التوثيق المكتبي والفهرسة التقليدية وعلم الحوسبة الرقمية. فالمكتبة الرقمية تمكّن القارئ الافتراضي من الدخول إلى عالم الكتاب المخزن أفقياً وعمودياً في آن، فتصنع بذلك أعرافاً في القراءة جديدة. ولهذه الطريقة الحديثة في تخزين الوثائق والتعامل معها، وفي السلوك القرائي أو في التعامل مع الوثيقة عدّة نتائج اجتماعية واقتصادية وثقافية وعلمية يمكن أن نجعلها في ما يلي :

من الناحية الاقتصادية والخدمية تسهم المكتبية الإلكترونية في إعادة هيكلة قطاع الخدمات المكتبية، وتساعد على التخفيف من اليد العاملة في المكتبات فتشبه المكننة التي يعيشها قطاع الصناعات والزراعة والنقل وسائر المجالات الاقتصادية التي تستغني اليوم شيئاً فشيئاً عن اليد العاملة بواسطة الآلة وبفضل اليد الآلية أو الروبوهات. وفي هذا السياق يقول الدكتور الكبيسي : " تعتبر هذه النظم بلا شكّ أكبر خطر يهدّد مهنة الوسطاء والناقلين الذين يضطّعون بوظائف توصيل المعلومات، فهي قادمة للتشكيك لا محالة في جدوى خدماتهم، وهي تطرح رهانات ومشاكل أخلاقية متعدّدة (انعدام المسؤولية

---

<sup>143</sup> إشكالية نقل التكنولوجيا ضمن أعمال ندوة المكتبة الإلكترونية والنشر الإلكتروني، الاتحاد العربي للمكتبات والمعلومات، تونس 2001 ص 50.

والأمن - عدم احترام الخصوصية وحقوق التأليف والنشر) تتطلب لمواجهةها رؤى وسلوكيات تقطع مع عادات يغلب عليها التداعي والاسترخاء<sup>144</sup>. ويقول الدكتور أبو بكر محمود الهوش: "إنّ أهم تأثير للمنشورات الإلكترونية ولاسيما على قرائها هو تحسين الوصول إلى المعلومات واسترجاعها، وحتى يمكننا القول بأنّه على المدى البعيد فإنّ المنشورات الإلكترونية سوف تقلل من الحاجة إلى استخدام المكتبة أو الاستفادة من مهارات المكتبي لأنّ القارئ سوف يتمكّن من الوصول إلى المعلومات وهو قابع في بيته أو مكتبه أو مختبره عن طريق منفذه الخاص للحاسوب"<sup>145</sup>.

ومن الناحية العلمية يمكّن النشر الإلكتروني من تيسير الاتصال العلمي بين الأفراد والمؤسسات ومن تسريع نسق البحث العلمي .

إنّ حوسبة المكتبات تؤدّي لا محالة إلى إعادة النظر في الأدوار الاجتماعية التي تضطلع بها المكتبة في الفضاء العمومي الحديث، وهذه الوظائف والأدوار لا تخصّ المكتبة بل تجاوزها إلى جميع المؤسسات الوسيطة الساهرة على إنتاج المعرفة وترويجها، وفي صدارتها المدرسة. إنّ مركزية الدور الذي كان المعلم يضطلع به في الفضاء التربوي تتزحزح جزاء الوسائط الحاسوبية، وتفقد سلطتها على المتعلم ليصبح قادراً أكثر فأكثر على النفاذ الذاتي إلى المعلومة، وإلى التجوّل على الطرق السريعة للمعلومات، وعلى التفاعل مع الفضاء الافتراضي، وهو ما تسعى المدرسة إلى أخذه بعين الاعتبار في ما تنتج من مقرّرات جديدة.

## 6- اللغة العربية والفضاء الإلكتروني :

نقتصر في هذا المبحث على دراسة نماذج من الأبحاث التي نقدّر أنّها نجحت في وضع الإطار الحضاري والمعرفي الناظم لقضايا حوسبة النشر الإلكتروني في الفضاء العربي، وقد اخترناها نظراً إلى قيمتها البيئية .

---

<sup>144</sup> م.ن ص 51.

<sup>145</sup> التحول من النشر التقليدي إلى النشر الإلكتروني ، ضمن المكتبة الإلكترونية والنشر الإلكتروني ص 126.

**\*المكتبات الافتراضية والتحديات العربية لساورة لاية :** توضّح الباحثة في مستهلّ دراستها أنّ "المكتبة الافتراضية ليست فقط مكتبة رقمية أو إلكترونية تمكّن القارئ من الحصول على الوثائق دون مغادرة بيته أو مكتبه بل هي فوق ذلك مجموعة من القواعد المتوفرة في نقاط مختلفة يتمّ الوصول إليها عبر واجهة واحدة كما لو كانت جميع محتوياتها مجمعة في مكتبة مركزية واحدة"<sup>146</sup>. إنّ هذا التعريف يدلّ على أنّ نظرة الحاسوبي إلى التوثيق المكتبي نظرة بينية تنطلق في تبيين التوثيق الإلكتروني من نظرية التفاعل بين مصادر المعلومات. وقد كانت مشاريع تطوير حوسبة اللغة العربية في المؤسسة التي تنتمي إليها الباحثة -وهي المدرسة الوطنية لعلوم الإعلامية بتونس - ذات توجّه بيني واضح، تقول : " وفي نطاق التعاون القائم مع المؤسسات الجامعية والمخابر الأوروبية والعالمية تمتّ أخيراً الموافقة على مشروع بحث (...) حول المكتبات الافتراضية متعدّدة اللغات (...) هذا المشروع الجديد الذي يشترك فيه مخبر ريادي من تونس ومخبر لوريا من فرنسا يهدف إلى الاعتماد على نظام كاليوب، وتحسين خدماته بإدخال استعمال لغات أخرى للنظام والوثائق وخاصة اللغة العربية "<sup>147</sup>. إنّ وراء هذا البحث حرصاً واضحاً على أن يستفيد البحث العلمي الذي ينجز في مجالات اللغة العربية من منجزات النشر الافتراضي، و تتساءل الباحثة في خاتمة عملها بشيء من التحوّف على مستقبل الثقافة العربية وبنوع من المرارة والإحساس بالإحباط قائلة : "وإذا كانت القاعدة أن لا تاريخ بدون وثائق، وكانت الوثائق رقمية وإلكترونية فهل تفشل الأجيال التي تلينا في إبراز دور الحضارة العربية وما قدّمته للبشرية في شتّى المجالات يوم تنتهي الكتب والمخطوطات فلا تكون الوثائق إلاّ إلكترونية ولا الصور إلاّ رقمية"<sup>148</sup>.

#### **\* دخول اللغة العربية إلى الفضاء الإلكتروني لنزيهة بن الخياط :**

قدّمت الباحثة في مستهلّ عملها خلاصة بحث مسحي<sup>149</sup> عن نسب دخول اللغات الكبرى الفضاء الإلكتروني ونسب إنتاجه اللامادي مبيّنة منزلة اللغة العربية منها :

---

<sup>146</sup> ضمن المكتبة الإلكترونية والنشر الإلكتروني ص 448.

<sup>147</sup> م.ن ص 450.

<sup>148</sup> م.ن.

<sup>149</sup> م. ص 87.



| اللغة                    | أنجليزية  | فرنسية  | إسبانية  | عربية |
|--------------------------|-----------|---------|----------|-------|
| السكان/الإنتاج           | 630       | 130     | 475      | 300   |
| % سكان العالم            | 5,10      | 17,3    | 25,6     | 5     |
| % الإنتاج العلمي والتقني | 80 إلى 85 | 3 إلى 6 | 1 إلى 12 | 01,0  |
| % إنتاج قواعد المعطيات   | 80        | 6       | 2        | 0,01  |
| % مزوّد الخدمات          | 77        | –       | –        | –     |
| % صفحات الواب            | 3,86      | 5,1     | 1,1      | 6,1   |

واستخلصت الباحثة من عملها الاستقصائي أنّ اللغة العربية لا تزال تحتلّ مكانة هشة من حيث كونها لغة التعليم والإدارة والبحث والإنتاج العلمي والتقني، وتساءلت إثر ذلك عن إمكان مواجهة العالم العربي لخطر وحدة الثقافة؟ لقد تحوّل الفضاء الإلكتروني منذ التسعينات إلى "أداة في يد العولمة والشمولية الاقتصادية وذلك أساسا بفضل التجارة الإلكترونية، ذلك أنّ السلطة المتاحة للشمولية عبر استعمال التكنولوجيا الحديثة لا حدود لها. فهذه السلطة تتجاوز المجالات البيداغوجية والتواصلية المتاحة عبر الوسائل المتعدّدة الوسائط لتشمل تحويل الحدود الجغرافية والعلاقة مع الزمن والمكان والآخر<sup>150</sup>. وفي هذا الفضاء الإلكتروني تجد اللغة العربية نفسها مطالبة بأن تنافس اللغات العالمية التي تصنع وسائل التواصل والتبادل التجاري والإداري وخطاب التسويق والتجارة". ويظهر هذا الوضع المفارقة الواضحة والانفصام القائم بين المرجعية الثقافية العربية وبين السلطة التي يخولها التقدّم التكنولوجي، وهو أمر يحتمّ على الثقافة العربية أن تتساءل عن إمكانات إدماج الثقافات المختلفة في بوتقة واحدة<sup>151</sup>. وفي خاتمة هذا التحليل تحدّد الباحثة شروط نجاح الثقافة العربية في كسب رهان الثقافة الإلكترونية البيئية، وهذه الشروط هي:

– **التنوع الثقافي**: وهو انفتاح الثقافة الإلكترونية بل والتقليدية أيضا على حركية إدماج العناصر الثقافية المتباينة، ومن ثمة انفتاحها على السلوك البيئي، وقد استشهدت الباحثة بأعلام الفكر الاقتصادي

<sup>150</sup> م.ن ص 96.

<sup>151</sup> م.ص 97.

والاجتماعي المعاصرين مثل فوكوهاما صاحب النظرية الشهيرة عن نهاية التاريخ، وهو الذي يؤكد أيضا أنّ من خصائص إنسان هذا العصر هي نزعته إلى حماية هويته من آثار العولمة .

**-التغلب على القصور الفكري:** ويتمّ ذلك بتثمين العناصر البيئية التي تتقاطع فيها مختلف الثقافات ،وهي عناصر يفرضها واقع المجتمع الإنساني الحديث وتتزاحم اللغات الكبرى في الاهتمام بها ومعالجتها في خطاباتها الإلكترونية، وفي نشرها في أوسع شريحة ممكنة من الجماهير المتعاطية لوسائل التواصل الحديثة . ومن هذه القضايا البيئية ما يهتمّ بالبيئة كالتلوث المادي والأخلاقي ومنها ما يتناول الاختراعات وقضايا التغذية والوقاية من حوادث المرور والرياضة النافعة. وهي قضايا يمكن أن يستفيد منها تعليم اللغة العربية في مناهجه ومقرراته الرسمية فتتوطّد الصلة بين اللغة والواقع المعيش .

**- ربط الثقافة اللغوية بالمستقبل:** إنّ مستقبل اللغة العربية في الفضاء الإلكتروني هو مستقبل المجتمع بأسره لأنّ عدد الذين ينهلون من الثقافة الافتراضية يتنامى يوما بعد يوم، وهو مستقبل التأسيس للأجيال الجديدة القادرة على وضع البرامج والمخططات التربوية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية، وفي هذا السياق تقول الباحثة : " وهذا التجدد يحدث عن طريق مؤسسات متعدّدة : الأسرة، المدرسة، الوسائط الإعلامية والشارع، إذن حماية الثقافة من الأخطار المحتملة يمرّ عبر الدفاع عن مواكبة هذه المؤسسات وتكييفها الإيجابي مع المعطيات الثقافية الكونية"<sup>152</sup> . وتقتراح الباحثة تجديد تعليم اللغة العربية عن طريق حلّ إشكاليات الحركات والشكل والتنقيط إلخ...حتى نتمكّن من مسايرة الإبداعات والابتكارات التكنولوجية بالسرعة المطلوبة في إعداد الرسائل والمعلومات ونقلها. وتقتراح من جهة أخرى إنشاء تقنيات للترجمة والتعريب جديدة وذلك عبر إنشاء علم للحواسيب معرّب وتحيينه لخدمة قضايا اللغة العربية من حوسبة للعمل المصطلحي والذخيرة العربية والمعاجم اللغوية القديمة والحديثة، ومن خلق قواعد معطيات واحدة أو متعدّدة اللغات قادرة على خدمة الأبحاث اللسانية ومن جملتها التعريب الأتوماتيكي<sup>153</sup> .

---

<sup>152</sup> م.ن ص104.

<sup>153</sup> م.ن ص109.

## الفصل الثاني

### البينية وعلوم الخطاب

## 1- تحليل الخطاب وآفاق الدراسات البينية:

يندرج إنشاء أي حقل من حقول البحث العلمي في مجال تحليل الخطاب في إطار التطور الذي تشهده علوم اللغة والتواصل. وعندما نستعمل مصطلح علوم اللغة والتواصل فإننا - بطبيعة الحال - لا نعني العلوم المألوفة في الأصنافية أو المنظومة المدرسية والجامعية والبحثية التي عرفها القرن الماضي والتي خرجت بواسطتها المؤسسات التعليمية أجيال الموظفين والمدرّسين والكتبة الذين استجابوا في تكوينهم لحاجات المجتمع في القرن الماضي،

وإنما نعني بعلوم اللغة والتواصل هذه العلوم الناشئة التي تحتاج إليها المهن والأعمال والصناعات الحديثة، كمهن التسويق والاتصال والإشهار والصحافة والخطاب القانوني الحديث والخطاب الطبي والصيدلي، والأنشطة الإدارية التواصلية ككتابة المحاضر والتقارير والاستبيانات وكتابة أدب الأطفال وغيرها من الأشكال التواصلية التي تحتاج إلى علوم لغوية مستحدثة. وفي هذه النقطة بالتحديد يقول جاك موشليير (J.Moeshler) وآلان أوشلان (A.Auchlin) في كتابهما مدخل إلى اللسانيات المعاصرة :

" لم تبق اللسانيات وحدها العلم الذي يتحدث عن اللغة الطبيعية لغة البشر بل إنّ علم النفس والفلسفة والحاسوب والذكاء الصناعي وعلم الأعصاب هي بدورها علوم أصبحت تصوغ نظريات عن اللغة تتصل

بالاكتساب والدلالة ومعالجة الكلام والتواصل المرضي(نسبة إلى المرض أي لغة ذوي الإشكال النفسي والعصبي ) لذا لا نتحدث اليوم عن اللغة بل نتحدث عن علوم اللغة<sup>154</sup>. فعلم الخطاب بهذا التعريف حقل بيني لا يهتم بتحليل الجمل التي تترابط في الخطاب بل يهتم بالنصوص التي أنتجت تلك الجمل، ولما كان النص هو الفضاء الذي تلتقي فيه جميع اتجاهات التفكير والتعبير والمقاصد والأغراض القولية والموضوعات فإنّ تحليل الخطاب لا يمكن أن يكون إلّا حقلاً بينياً يشقّ لعلوم اللغة طريقاً جديدة بين اللسانيات البنوية أو لسانيات الكلمة عند دي سوسير واللسانيات التوليدية أو لسانيات الجملة عند نعوم تشومسكي ليؤسّس لللسانيات الخطاب .

وقد ذهب كاترين كيربات أوريكيوني(C. k.Orecchioni ) في كتابها الشهير التلفظ (L'Enonciation) الصادر سنة 1980 إلى " أنّ تطور اللسانيات لا يمكن أن يكون له مستقبل ذو بال دون أخذ المجال البيني بعين الاعتبار"<sup>155</sup>. وقد عوّلت في بناء فكرتها على آراء أخذتها من حفريات المعرفة لميشيل فوكو ومن أدبيات علم النفس التحليلي عند سقمان فرويد .

ويمكن أن نستنتج من التعريفات التي تخصّ بها معاجم اللسانيات تحليل الخطاب أنّ هذا الحقل النظري ذا الامتداد الإجرائي يهتمّ بدراسة العادات والأعراف والممارسات التواصلية، أو الأنشطة القولية وضروب التقاطع بينها وبين اختيارات المتلفظ بالخطاب، فأصحاب نظريات التلفظ يعدّون الخطاب سلسلة من الملفوظات ذات أبعاد تفاعلية، وهي ملفوظات تتخرط في سياق تلفظي تنجزه أطراف اجتماعية تبحث لذواتها عن موقع من الخطاب. ويذهب دومينيك منغينو (D.[ Mangueneau) إلى أنّ كلّ خطاب هو جملة من الخطط القولية أو الإستراتيجيات الكلامية التي تنتج أبنية وأشكالا من الملفوظات يشترك فيها المتخاطبون في موقف محدد.

ويمكن أن نستنتج مما سبق أن مفهوم الخطاب مفهوم غير ثابت، ويعود تنوّع تعريفاته واختلاف المفاهيم التي تحده إلى تنوّع الحقول المعرفية التي تستعمل هذا المصطلح.

---

<sup>154</sup> Introduction à La linguistique contemporaine; Paris Armand Colin 2000 p 7

L'Enonciation; Paris Armand Colin 2002 p7.

155

ويذهب دومنيك منغينو في مقاله الشهير عن تحليل الخطاب وحدوده إلى أن التقاطع المعرفي الذي حصل في أواسط القرن الميلادي العشرين بين التاريخ واللسانيات والفلسفة وعلم الاجتماع هو الذي أثمر ما أصبح يعرف بالمدرسة الفرنسية في تحليل الخطاب<sup>156</sup>، ولكن هذه المدرسة سرعان ما سقطت في أحادية الرؤية وسرعان ما انصب اهتمامها على الجانب الإيديولوجي من الخطاب ففقدت طاقاتها البينية التي نشأ تحليل الخطاب من أجل تطويرها في الدراسات اللسانية للتخلص من ريقه اللسانيات البنيوية. وقد استفاد التقاطع بين اللسانيات وعلم النفس التحليلي أول ما استفاد من أعمال لويس ألتوسار (L.Althusser) وتلاميذه الذين ساروا على خطى جاك لاكان (J.Lacan)، وبرز منهم على وجه الخصوص ميشال باشي، وهو أول من عارض النظرة الوضعية للخطاب زاعماً أنّ أي شكل من أشكال الخطاب في اللغة الطبيعية إنما هو تشكّل ملموس للفكر البشري المتشبع بالمواقف الأيديولوجية، فالمتكلم في نظرية باشي لا يصنع الملفوظات والأقوال وفق ما يراه من المعاني أو ما يتمثله من التصورات، ولا يصوغ الخطاب من اللغة بل ينخرط داخل منوال خطابي معروف من قبل. وهذا المنوال يتمتع بقيمة اجتماعية، وبسلطة ثقافية تختلف باختلاف المسؤولين عن ذلك التلفظ بذلك الخطاب، فالفضاء الخطابي هو فضاء جماعي يبحث فيه الفرد عن موقع لذاته التي تتكيف بحسب مقتضيات مراسم الخطاب وإكراهاته النفسية والاجتماعية والاقتصادية والأيديولوجية ونحوها.

ويمكن أن نذكر كذلك من المدارس التي أسهمت في تأسيس النظرة البينية لتحليل الخطاب مدرسة تحليل المحادثة (Conversationnel Analysis) وهي مدرسة بينية تصل البحث العلمي في مجال تحليل الخطاب بعلم الاجتماع المهني، وقد اهتمت غاية الاهتمام بالصعوبات التي تعترض المجموعات المنتمية إلى نشاط من الأنشطة أو مهنة من المهن، وتحول دون إنجاز ما يوكل إليها من الأعمال اليومية، فهي مدرسة تحليل الخطاب التفاعلي أو الخطاب الاجتماعي القائم على المحادثة وشروطها وآدابها وعوائقها. وقد تطور هذا المفهوم واستبدل مصطلح المحادثة بمصطلح التفاعلات اللغوية (Interaction) وهو منحى في الدرس اللساني يستثمر مختلف العلوم الإنسانية لفهم القوى المتخاطبة ولتحليل الأدوار الاجتماعية ولبيان أثرها في تنظيم أعراف التخاطب. وقد لاحظنا أن الباحثين الذين لم ينطلقوا من الفكر البيني أو الذين بقوا أسرى مفهوم التخصص بدلالته التقليدية قد خشوا -وهم يعرفون

D.Mangueneau: L'analyse du discours et ses frontières; Marge Linguistiques; 9; Mai 156 2006p2.

حقل تحليل الخطاب وبيّنون انفتاحه على لسانيات النص وعلم الاجتماع اللغوي وعلم النفس -أن تضييع هوية تحليل الخطاب بين أيديهم وهم يريدون له موقعا من شجرة العلوم شبيها بموقع أي علم آخر من الشجرة القديمة، فراحوا ينافحون عن استقلاله وتميزه، في أسلوب لا يبتعد كثيرا عن أسلوب المفاضلات القديمة الذي يعمل على ضمان الحدود الفاصلة بين الفنون والمعارف والحقول والتخصصات. وفي هذا السياق يقول حاتم عبيد في مقدمة كتابه في تحليل الخطاب: "وانفراد تحليل الخطاب بوجهة نظر خاصة هو الذي يحول دون ذوبانه في اختصاصات أخرى تشركه في الاهتمام بعدد من المدونات، ويجعل عمل محلّل الخطاب مختلفا عن عمل نظرائه في اختصاصات أخرى، مثل ذلك النقاش السياسي الذي تتقله التلفزة يمكن أن يتعاور على دراسته كلّ من محلل المحادثة والمتخصّص في الدرس الحجاجي، ومحلل الخطاب دون أن يفضي ذلك إلى تطابق في وجهات النظر، أو تماثل في وجهات النظر المطروقة والنتائج المستخلصة"<sup>157</sup>. والمتأمل في أمثلة الحقول التحليلية التي ذكرها الباحث يلحظ أنّ محلّل الخطاب ومحلّل المحادثة والدرس الحجاجي جميعها مستويات في الحقل نفسه وهو تحليل الخطاب، فهي إذن ليست بتخصصات متباينة متميزة من الناحية المعرفية، وكان يمكن للباحث أن يختار حقولا معرفية حقيقية كالحقل الاجتماعي والنفسي والاقتصادي والسياسي، فتلك هي فعلا حقول تخصصية. وقد حاول الباحث أن يفسّر الفروق بين ما عدّه تخصصات فقال: " فإذا كان مدار اهتمام محلل المحادثة على كيفية تعاقب أطراف اللقاء على الأدوار ونصيب كل منهم من النقاش وطريقته في حفظ ماء الوجه وحجم ما يعضد به خطابه من حركات وإشارات، وإذا كانت بؤرة اهتمام التخصّص في الحجاج هي الحجج وكيفية تسلسلها وترتيبها والجمهور ووجوه التأثير... فإنّ منطلق محلل الخطاب جنس هذه المحادثة وطرائق انتظامها وما تتضمنه من أدوار يحددها جنس الخطاب"<sup>158</sup>. ولا يخفى على القارئ التكلف البين في التمييز بين هذه الحقول التي لا تمثل في الحقيقة سوى أبواب متنوعة من تحليل الخطاب، ولا يخفى علينا كذلك أن تحليل الخطاب ليس تخصصا معرفيا محددا بل هو مجال بيّني، وهو مفهوم أو مقولة نظرية لم يدركها -الحقّ يقال- صاحب هذا الكتاب.

---

<sup>157</sup> في تحليل الخطاب ص28.

<sup>158</sup> م.ن ص21.

ومن المصنّفات اللافتة للانتباه في صلة تحليل الخطاب بالبينية المصنّف الموسوم بـ"الكلام والسلطة وجوه التفاعل"، وهو كتاب باللغة الفرنسية صادر عن دار المعلمين العليا بباريس ويضمّ مجموعة من المقالات التي تتناول نماذج من الخطابات تظهر فيها خصائص التفاعل بين القوى الاجتماعية والثقافية والسلط الممثّلة لها : سلطة الخطاب القانوني وسلطة الخطاب الصحفي، وسلطة الخطاب التعليمي وغيرها من مكوّنات الخطاب الذي يضطلع بدور اجتماعي من خلال آليات محدّدة. وتبيّن القيمة البينية في هذا العمل الأكاديمي الهامّ من خلال المصادر المتنوّعة المعرفية التي يستعملها الدارسون لمقاربة الموضوعات الاجتماعية التي تظهر فيها سلطة الخطاب. ويعبّر بيار أشار (P.Achart) عن هذا التنوّع والنقاط المعرفية بقوله في مقدّمة الكتاب : "لم يعد بإمكاننا اليوم أن نعدّ الكلام مجرد آلة للتواصل، آلة محايدة وغير منحازة، يشترك فيها جميع المتخاطبين بلغة من اللغات بالقدر نفسه وبالوسائل نفسها، ولم نعد نفتتح بأنّ اللغة إنّما هي مجرد وسيلة للتعبير عن العالم ولتفسيره ولتمثيله، ينبغي أن نستعين اليوم بمفهوم التلقّظ وبدلالاته المزروجة التي اكتسبها في العقود الأخيرة، وهي أنّه في الآن نفسه فعل اجتماعي نفسي ثقافي، وهو عملية مظلّوة في الزمان والمكان، ويتحمّل مسؤوليته متخاطبان حقيقيان يتموقعان في اللغة ويصنعان منها صوتا ثقافيا أو مهنيا أو اجتماعيا. ولما كان الكلام تلقّظا اجتماعيا فإنّ دراسته لا يمكن أن تكون إلّا دراسة متعدّدة التخصصات. وكلّ من ينتج خطابا ما في سياق اجتماعي أو ثقافي يكتسب بذلك الخطاب سلطة ما، سلطة قد تكون معنوية وقد تكون مادية، وهي سلطة يختلف وزنها وأثرها وقيمتها باختلاف التخصص أو الدور الذي يضطلع به المتخاطبون في ذلك السياق"<sup>159</sup>. وفي المقال الأوّل الذي افتتح به هذا الكتاب وعنوانه : "صعوبة مهنة الموسيقار الألماني في قصر الساكس (Saxe) خلال القرن السابع عشر قارنت الباحثة إيليزابيت روتماند (E.Rothmund) القوانين التي تتحكّم في الظاهرة الموسيقية بالقوانين التي تتحكّم في الظاهرة الشعرية الكلاسيكية، فأبرزت من خلال هذا التحليل البيني أنّ تأليف الجمل الموسيقية يخضع للقواعد العروضية التي يخضع لها تأليف القصيد، وهذه القواعد تمثّل سلطة جمالية. وتتوسّع الباحثة في تحليل الفروق بين استعمال اللغة اللاتينية القديمة واللغة الألمانية الحديثة في بناء الجمل الموسيقية، ودلالات هذا الاستعمال على منزلة القوى الاجتماعية المتصارعة في الثقافة الألمانية الحديثة. واللافت للانتباه في

Langage et Pouvoir en interaction ; Centre de recherche sur le discours et la domination <sup>159</sup>  
E.N.S Fontenay-St Cloud 1995 ; p9-10.



بحوث من هذا القبيل هو قدرة أصحابها على استخلاص الصلة العميقة بين الخطابات الفنية ومظاهر التقاطع الجمالي بينها كتقاطع الخطاب الموسيقي والظواهر التاريخية والوقائع والأحداث، فقد تمكّنت الباحثة من تفسير تاريخ الموسيقى الألمانية في القرن السابع عشر وظروف كتابة المقطوعات المتنوعة في ترابط وثيق والوقائع الحربية التي دارت في الأمبراطورية آنذاك. وبيّنت من جهة أخرى أن القطع الموسيقية التي ألفها هنريش شولدر ( H.Schütz ) باللغة الألمانية الناشئة هي التي ساهمت في تأسيس الجمالية الجديدة، جمالية تقبل اللغة الجديدة ومنحها مكانتها من خارطة الذوق العام الألماني، بل لقد بيّنت الباحثة من خلال شواهد من رسائل شولدر معاتبته لشعراء عصره، ودعوتهم إلى تجديد الشعر بما يتماشى وإيقاع العصر وبما يمكنه هو من تجديد النفس الموسيقي<sup>160</sup> . وقد مكّنت المقاربة البيئية الباحثة إيليزابيث روتماند في خاتمة مقالها من أن تبين كيف كان البحث الموسيقي متفاعلا ومختلف أشكال الثقافة الألمانية الحديثة، وما التفاعل بين التخصصات في هذه الثقافة سوى دليل على رغبة جامعة عند هنريش شولدر في إنشاء ثقافة ألمانية وطنية متفاعلة والتيارات الوافدة عليها لا محالة ولكن مستقلة عنها.

إنّ النظرة البيئية في تحليل الخطاب والدخول إلى الخطاب من زاوية تقاطع التخصصات هما اللذان ساعدا هذه الباحثة على الوصول إلى هذه النتائج التأليفية، ونقدّر أنّ مقالا من هذا الطراز يمكن أن يكون منوالا لإعادة قراءة تاريخ الأدب قراءة ثقافية تفاعلية تأخذ بالاعتبار مسار التحوار بين التخصصات من خلال الأشكال الخطابية المختلفة لأنّ تاريخ الأدب ليس في النهاية سوى تاريخ الخطابات المتفاعلة في صلب الثقافة والمجتمع . وبعد فقد أردنا بهذه المقدمة المختصرة في صلة تحليل الخطاب بالتفكير البيئي أن نمهّد لفقرات وجيزة أيضا ولكنها تلامس هذا الموضوع وأبعاده في الثقافة العربية الإسلامية، وفي العلوم المساعدة على فهم الأسس البيئية فيها ، وقد اخترنا أولا تقاطع العلوم الشرعية أو الإسلامية والعلوم اللغوية، ثم تناولنا في مرحلة ثانية تقاطع اللسانيات والأسلوبية في الدراسات الجمالية الراجعة بالنفع على الدرس الأدبي العربي، واخترنا في مرحلة ثالثة أفق الدراسة البيئية في مجال السرديات التأويلية فاللسانيات الإدراكية، ثم ختمنا الفصل بوقفة قصيرة عند الخطاب الأدبي والتحليل النفسي .

---

<sup>160</sup> م.ن ص 23.

## 2- الفكر البيني وتقاطع العلوم اللغوية والعلوم الشرعية:

يندرج الاهتمام بالفكر البيني في العلوم الشرعية ضمن اتجاه في البحث لا ينفكّ يتنامى منذ عقود ويثمر دراسات ببنية عديدة منها ما كان الاهتمام فيه منصبا على الصلة بين علوم اللغة وعلم التفسير. ويمكن بالعودة إلى التراث الإسلامي في مختلف علومه أن نستعين ببعض الآراء التي تساعدنا على عقد الصلة بين جذور الفكر البيني والدراسات الحديثة، ونذكر على سبيل التمثيل بعض الآراء التي تؤسس للفكر البيني في تناولها لعلوم القرآن خاصة والعلوم الدينية عموما وعلاقتها بعلم النحو، ففي سياق تعريف التصور والتصديق والتمييز بينهما تمهيدا لتعريف علم أصول الفقه يشير الإمام أبو حامد الغزالي إلى أثر التعريفات المقولية في علم النحو في تبلور هذين المفهومين : مفهوم التصور بصفته خاصا بالألفاظ أو المفردات ومفهوم العلم أو التصديق بصفته خاصا بالعلاقات الإسنادية الخبرية يقول: "وقد سمى المنطقيون معرفة المفردات تصورا ومعرفة النسبة الخبرية تصديقا فقالوا العلم إما تصور وإما تصديق، وسمى بعض علمائنا الأول معرفة والثاني علما تأسيا بقول النحاة في قولهم المعرفة تتعدى إلى مفعول واحد إذ تقول عرفت زيدا والظنّ يتعدى إلى مفعولين إذ تقول ظننت زيدا عالما ولا تقول ظننت زيدا ولا ظننت عالما"<sup>161</sup>. ويمكن أن نعد كتاب التحرير والتنوير للشيخ محمد الطاهر ابن عاشور وهو في تفسير القرآن من أهم مصادر التفكير البيني المتصل بعلوم القرآن في العصر الحديث فقد نبّه الشيخ ابن عاشور إلى الصلة الوثيقة بين علم تفسير القرآن الكريم وعلوم تحليل الخطاب حين ألمع في مقدمة كتابه إلى أنّ التفسير يستند إلى بلاغة اللغة العربية في حال استعمال يقول: "وقد اهتمت في تفسيري هذا ببيان وجوه الإعجاز ونكت بلاغة اللغة العربية وأساليب الاستعمال، واهتمت أيضا بتناسب اتصال الآي بعضها ببعض والقصص وفي مواقعها"<sup>162</sup>. واستخدم الشيخ ابن عاشور المصطلح الذي سيصبح محورا من محاور لسانيات الخطاب والنص وإطارا من الأطر النازمة للدراسات اللسانية في مختلف التخصصات التي تهتم بنحو الخطاب وهو مصطلح الانسجام يقول: "ولم أغادر سورة إلا بيّنت ما أحيط به من أغراضها لئلا يكون الناظر في تفسير القرآن مقصورا على بيان مفرداته ومعاني جملة

<sup>161</sup> المستصفي في علم الأصول، دار الكتب العلمية بيروت 1983، 11/1.

<sup>162</sup> التحرير والتنوير، منشورات الدار التونسية للنشر الجزء الأول، الكتاب الأول ص 8.

كأنها فقر متفرقة تصرفه عن روعة انسجامه، وتحجب عنه روائع جماله<sup>163</sup>. وقد لخص الشيخ بابين عاشور بشكل تأليفي دقيق صلة علوم القرآن بسائر العلوم وذلك بعد أن استعرض تاريخ الأفكار المتصلة بهذه المسألة في الفكر الإسلامي فقال: "وأنا أقول إنَّ علاقة العلوم بالقرآن على أربع مراتب:

الأولى: علوم تضمّنها القرآن كأخبار الأنبياء والأمم وتهذيب الأخلاق والفقه والتشريع والاعتقاد والأصول والعربية والبلاغة.

الثانية: علوم تزيد المفسر علما كالحكمة والهيئة وخواص المخلوقات .

الثالثة: علوم أشار إليها أوجاع مؤيدة له كعلم طبقات الأرض والطب والمنطق.

الرابعة: علوم لاعلاقة لها به لبطلانها كالزجر والعيافة والميثولوجيا، وإما لأنها لاتعين على خدمته كعلم العروض والقوافي<sup>164</sup>.

ومن المؤلفات الحديثة التي اهتمت بصلة علوم القرآن بالنحو العربي كتاب النحو العربي والدرس الحديث للدكتور عبده الراجحي فهو يقول: " إنَّ النحو العربي نشأ وتطور في مناخ إسلامي عام وظلَّ يتنقَّس جوّه حتى استوت له وسائله ومناهجه... وإنَّ هذا المناخ الإسلامي العام هو الذي أنتج علوما إسلامية تشاركت في النشأة وتساهمت في أسباب التطور وفي وجوه التأثير والتأثر<sup>165</sup>. ويبيّن الباحث أنّ علم القراءات كان أوّل علم تراشح معرفيا مع علم النحو: " وأوّل ما يلقانا من هذه العلوم القراءات القرآنية... ومنذ البداية اشتهر النحاة بالقراءة، فقد كان أبو الأسود قارئاً، وكان عيسى بن عمر الثقفي (ت 149هـ) أحد قراء البصريين<sup>166</sup>. ومن الدراسات التي اهتمت بصلة علوم القرآن بعلوم البلاغة نذكر كتاب البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري لمحمد أبو موسى، وعلوم اللسان ككتاب مساعد الطيار التفسير اللغوي للقرآن الكريم، ومؤلف الهادي الجطلاوي " قضايا اللغة في كتب التفسير: المنهج،

<sup>163</sup> م.ن.

<sup>164</sup> م.ن ص 45.

<sup>165</sup> النحو العربي والدرس الحديث، دار النهضة العربية للطباعة والنشر بيروت 1979 ص12.

<sup>166</sup> م.ن ص13.

التأويل"، ومن هذه الأبحاث ما انصب الاهتمام فيه على العلاقات البينية بين العلوم الشرعية نفسها وفي هذا السياق يمكن أن نذكر دراسة محمد ابياط لعلاقة التفسير بأصول الفقه في كتابه أصول الفقه ومنهج إعماله في التفسير في كتاب ابن فارس. ولعله من نافلة القول أن نذكر بأن عامة الجهود التي بذلت في نطاق الإعجاز البلاغي للقرآن الكريم في التراث وفي العصر الحديث هي جهود ذات قيمة بينية، وهي في صلب تحليل الخطاب إذ تتقاطع فيها جملة من العلوم المساعدة على فهم كل علم من علوم القرآن الكريم بالانطلاق من المفاهيم اللسانية ذات القيمة الخطابية (بكسر الخاء). كما نذكر بأن علم أصول الفقه كان إخصاباً معرفياً مهماً بين الفقه والمنطق، وقد تناولته دراسات كثيرة، ولم يقتصر اهتمام المحدثين على صلة العلوم الشرعية بالعلوم اللغوية بل جاوزه إلى جميع المنظومات العلمية والمجالات المعرفية ومنها على سبيل المثال علم الفلك فقد أنتج مجالا من مجالات التقاطع بين العلوم الشرعية والعلوم الفلكية، وهذا المجال هو علم إسلامي محض يعرف منذ القديم بعلم الميقات أو القياس الفلكي لأوقات الصلاة، وقد نشأ في القرن الثالث الهجري، وكان من أوائل من صنفوا فيه أبو عبد الله محمد بن موسى الخوارزمي وعلي بن أماجور. إلا أننا لا نريد مجاوزة علوم الخطاب نظرا إلى عدم تخصصنا في المسائل المتصلة بسائر العلوم، فعلم الخطاب هي المحور الذي عليه تدور عامة العلوم الشرعية من الوجهة البينية، يقول محمد بن عمر: "وبمقتضى هذه المرجعية التي نالها النص في فضاء الثقافة العربية الإسلامية، فإن كثيرا من الدارسين والمشتغلين بمناهج تحليل الخطاب اختاروا وصف الثقافة العربية الإسلامية بأنها ثقافة نص، وهذا الوصف يعود إلى كون الثقافة الإسلامية قامت في أصولها الأولى على النص المؤسس الذي هو القرآن الكريم"<sup>167</sup>. وفعلًا فإن الدراسة البينية المنصبة على علوم القرآن الكريم لا يمكن أن تكون إلا دراسة بين خطابية<sup>168</sup> لأن محورها ليس اللغة بل الخطاب، وقد أفضى اهتمام البلاغيين الكبار بالقرآن الكريم إلى أن يرتقوا إلى مصاف محلي الخطاب البيني، وهو ما يمكن أن ننعت به عبد القاهر الجرجاني<sup>169</sup>.

<sup>167</sup> تداخل العلوم في التراث العربي الإسلامي : علم أصول الفقه وعلم التفسير، مقال على الشبكة العنكبوتية دون تاريخ.

<sup>168</sup> انظر تعريف البينخطابية ضمن الفصل الأخير من هذا الكتاب .

<sup>169</sup> انظر الفصل الخاص بأعلام البينية في التراث العربي الإسلامي.

إنَّ علوم القرآن الكريم هي جملة العلوم التي تؤسّس خطابات ماورالغوية ذات أبعاد معرفية لفهم كلام الله تعالى المنزل على رسوله  $\rho$  والعمل به، وذلك في ناسخه ومنسوخه وأسباب نزوله مناسبات آياته وسوره، وجمعه وترتيبه وعدد سوره ومحكمه ومتشابهه وقراءاته والمكي منه والمدني والخاص والعالم. ويمكن أن نعدّ علوم القرآن الكريم العامة والخاصة على السواء في صدارة العلوم التي أسهمت في إرساء التفكير البيني في العقل العربي الإسلامي وتوطيد أسس تحليل الخطاب في الثقافة اللغوية القديمة والحديثة على السواء، ذلك لأنّ القرآن الكريم خطاب لا يمكن فهمه إلّا في كليته، وإلّا إذا أخذ العالم بالاعتبار ترابط آياته وسوره وأسباب نزوله، وإذا آمن بأنّ الملفوظات القرآنية تتماسك وتتسجم في وحدة خطابية عليا في غاية البلاغة من الجهتين التداولية والأسلوبية، وهذه القيم التداولية تتطلب من علماء القرآن أن يتناولوا النص المعجز بصفته نصا واحدا ، ولأنّ القرآن الكريم من جهة ثانية خطاب معجز في نظمه وفي ترتيب آيه الكريم. وقد احتاج مفسّروه إلى إنشاء منظومة من العلوم المساعدة للتمكّن من قراءته وفهم معانيه، ولمساعدة سائر العلوم على الاستفادة منه، في التشريع لما يهّم المعاش والمعاد على السواء. وقد كانت علوم القرآن المتصلة بالخطاب ومكوّناته وخصائص نظمه وسبكه وخاصة علم المناسبات<sup>170</sup> وأسباب النزول بحاجة إلى جملة من المعارف اللغوية والاجتماعية والنفسية والجغرافية والتاريخية لتفسير مقتضيات نزوله، وأنواع المخاطبات، وقصص الأنبياء الذين ذكرهم القرآن وتواريخهم ومواطنهم، وأسماء الأعلام الذين عاصروهم من الملوك والأقوام والطوائف وغيرهم. وإنّ المتأمل في كتب تفسير القرآن الكريم على اختلاف مذاهبها يلحظ بيسر أنّ جميع المفسّرين يستعينون في كتبهم بمنظومة من العلوم وفي هذا السياق يقول كمال عمران في تفسير صلة علم أسباب النزول بالعلوم الإنسانية: "وإذا قبلنا النظر في البعد الثاني وهو طائفة العلوم الإنسانية فإننا نجد علم أسباب النزول ذروة السنام لأنها تحمل تجربة بشرية جليّة لم نر لها صدى في التفاسير...وبذلك يصبح هذا العلم مطية اختبار، وهو لا يكتفي بالسرد والرواية بل يستوجب دراسات خاضعة للعلوم الإنسانية كعلم

<sup>170</sup> من أهمّ الدراسات التي أرخت لكتب أسباب النزول والمناسبات يمكن أن نذكر "أضواء على ظهور علم المناسبة القرآنية" لعبد الحكيم الأنيس، مجلة الأحمديّة، دار البحوث للدراسات الإسلامية وإحياء التراث، دبي العدد 11 لسنة 1423هـ وعلم المناسبات وأهميته في تفسير القرآن الكريم وكشف إعجازه لنور الدين عتر، دار العوثاني للدراسات القرآنية، سورية 2011.

التاريخ وعلم الاجتماع وعلم النفس وعلم الإناسة وهي دراسات آنية<sup>171</sup>. ويذهب محمد بن عمر إلى أن "من أبرز الأسباب التي ساهمت في هذا التداخل هو أن العلوم الشرعية لم تكن بمعزل عما تعرفه العلوم الأخرى من إشكالات نظرية وتحولات معرفية وتساولات منهجية خاصة في تبادل الوظائف واستعارة المفاهيم. أوفي ما تطرح هذه العلوم من أسئلة نظرية وإشكالات معرفية ومنهجية خاصة ما كان من قبيل الأسئلة المؤسسة لبنائها المعرفي وجهازها المفاهيمي، أو ما تعلق كذلك بمرجعيتها المؤسسة لها . وإنما كانت هذه العلوم منفتحة فيما بينها ومتداخلة في مفاهيمها ومتواصلة ومتفاعلة حتى مع العلوم العقلية الدخيلة على الثقافة العربية الإسلامية"<sup>172</sup>.

ولا نتفق مع محمد بن عمر في قوله إنَّ مفاهيم علماء الأصول اكتسبت دلالات جديدة عند علماء اللغة فهذا أمر طبيعي لأنَّ العلمين غير متقاربين من حيث الموضوع والمنهج، ذلك أنَّ موضوع علم أصول هو الاستدلال على الأحكام وضبط النص في فهمه، أما موضوع علم اللغة فهو وضع معايير لضبط قوانين التواصل ومعايير التخاطب بين المتحدثين باللسان نفسه . ولا نتفق مع هذا الباحث في ما ذهب إليه لأنَّ التقارب في هذا الباب لم يكن بين علم الأصول وعلم اللغة بل كان بين علم أصول الفقه وعلم أصول النحو، وينبغي أن ننبه في هذا السياق على تلك الحيرة المعرفية التي كانت تتتاب علماء العربية إزاء التنازع الذي كانوا يشهدونه بين المفاهيم، وفي هذا السياق نفهم الباب الذي خصَّصه ابن جنِّي في كتاب الخصائص لمصادر علل العربية أو الأدلة النحوية أو الأصول المبدئية في النحو العربي أفقية هي أم كلامية ؟.

وبعد فإنَّ العلوم اللغوية منذ القرن الثاني للهجرة لم تكن بمعزل عن المناخ الفكري الذي نشأت فيه مسائل التفكير في العقيدة، ولا يمكن أن نعود بالتفصيل إلى ما أطنب المؤرخون في بيانه من علاقات بين اللغويين والأصوليين، فقد كان اللغويون الأوائل في أغلبهم قراء مثل الكسائي النحوي، وثعلب والقراء، وكان الهدف الأول من جمع اللغة العربية إنما هو تفسير القرآن الكريم وفهم آيه، وإثبات قراءاته، ولذلك ظهرت كتب معاني القرآن وغريب القرآن. وقد عاد المحدثون إلى هذه المسائل، وسعوا

<sup>171</sup> الإنسان ومصيره في الفكر العربي الإسلامي ص 119.

<sup>172</sup> تداخل العلوم في التراث العربي الإسلامي :

إلى فهم وجوه التقاطع بين هذه العلوم أي المجالات البينية التي تتفاعل فيها هذه الحقول العلمية من خلال تبادل المفاهيم ومناهج الإجراء .

ويمكن أن نرتقي درجة في تحليل التفكير البيني من خلال تقاطع المعرفة المتصلة بالعلوم الشرعية بالإشارة إلى بعض المصنفات التي اهتمت بالمنتج البلاغي للفكر البيني في التراث العربي ومنها نذكر الرسائل الجامعية التي خصّصها أصحابها للبحث عن الصلات المعرفية بين مختلف العلوم ، وقد كان التقاطع بين علوم اللغة والعلوم الدينية والشرعية مجالا مهما من مجالات البحث عن التأثير والتأثر، وقد ذهب عامة المهتمين بهذا المجال البيني إلى القول بأثر علوم الدين في علوم البلاغة، ويرى مهدي صالح السامرائي أنّ البلاغة العربية تخضع من حيث المؤثرات المعرفية ومن جهة تبلور المصطلحات والمنهج لمكوّنين اثنين: المكون الديني والمكون الأدبي يقول : " إنّ الظاهرة العلمية في البلاغة العربية إنما كانت بفعل باعث ديني عميق، وإنّ الظاهرة الأدبية تشترك مع الظاهرة الأولى في وحدة الباعث وتختلف عنها في اللون والاتجاه "173. وقد بيّن الباحث بأسلوب علمي دقيق كيف كان لخطاب الإمام أحمد بن حنبل في مسألة الأفعال والصفات أثر بعيد المدى في إثراء الدرس البلاغي من خلال مباحث علم الكلام 174. ومن الدراسات اللافتة للانتباه في خصوص العلاقة بين العلوم الدينية والعلوم البلاغية الفصل الثالث من كتاب الدكتور مصطفى ناصف الصورة الأدبية وقد وسمه بالمؤثرات الروحية في بحث الاستعارة. وقد انتبهت جلّ الدراسات التي تعرّضت إلى المسألة البلاغية من قريب أو من بعيد إلى أهمية الدور الذي كان لعلم الكلام في نشأة النظرية البلاغية في الحضارة العربية الإسلامية، فهي جميعا تصرّح بأنّ هذه النظرية مدينة في ظهورها وتبلور مفاهيمها واستقامة مصطلحاتها إلى علم الكلام ، في مهد المتكلمين نشأت وبينهم ترعرعت.

### 3- اللسانيات والأسلوبية

إذا أردنا أن نعرّف الأسلوبية بصفقتها علما من علوم النص فيمكن بالاستناد إلى أصول الفكر البيني أن نقول إنّها الحاصل المعرفي الذي نتج عن تزواج اللسانيات بما هي علم وصفي والبلاغة

<sup>173</sup> تأثير الفكر الديني في البلاغة العربية، المكتب الإسلامي دمشق 1977 ص 190.

<sup>174</sup> ينظر المرجع نفسه ص 61.

القديمة الضيقة (Rhétorique Restreinte)<sup>175</sup> بما هي علم جمالي معياري يحدّد قوانين الكلام الجميل في أفق ثقافي محدّد . وقد عرّف معجم تحليل الخطاب الأسلوبية بهذا المعنى فقال إنها : " فنّ تكوّن تدريجيا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر في نقطة التقاء البلاغة واللسانيات"<sup>176</sup>. ولا يبتعد تعريف رينه يليك وأوستين وارن عن هذا التعريف البيني لعلم الأسلوب وقد جاء فيه : " وبديهي أنّه لا يمكن متابعة علم الأساليب بنجاح دون أساس عميق في علم اللغة العامّ، إذ إنّ أحد الاهتمامات الرئيسة لعلم الأساليب هو -على وجه الدقّة - المقارنة بين النظام اللغوي للعمل الأدبي واستخدام اللغة الدارج في العصر، إذ أنّه دون معرفة لغة الكلام العامّ وحتّى الكلام غير الأدبي وإدراك اللغات الاجتماعية المختلفة للعصر فإنّ علم الأساليب لن يرتفع عن الانطباعية، والافتراض بأننا ندرك الفارق بين لغة الكلام العامّ وبين الاستخدام الفنّي للغة هو مع الأسف افتراض لا أساس له وخاصّة في ما يتعلّق بالعصور الماضية إذ ينبغي أن تدرس طبقات الاستخدام اللغوي المتباينة في العصور الغابرة عن كُتب حتّى تكون لدينا الخلفية اللازمة للحكم على أسلوب كاتب معيّن أو حركة أدبية معيّنة، ونحن في الواقع نطبّق المعايير التي استتبطنّاها من استخدامنا للغة في عصرنا الحالي " <sup>177</sup>. فمن هذه التعريفات وغيرها كثير نستنتج أن الدرس البلاغي قد تخلّص بفضل التقاطع الذي حصل بينه وبين اللسانيات البنيوية من صبغته المعيارية والارتسامية فأنّج علم الأسلوب أو الأسلوبية، فهي إذن نتيجة من نتائج التفكير البيني في العصر الحديث. وقد استفادت الأسلوبية من المبادئ العامة لعلم الإحصاء فأصبحت دراسة الظاهرة الجمالية تخضع للقياس الكمي في الأصوات والمعاجم ومظاهر العدول الكمي والسمات الأسلوبية المميزة للحدث الأدبي، وقد أمدت اللسانيات الوصفية علم الأصوات بالمنهج العلمي الذي مكّن الباحثين من مجاوزة المعايير العصبية والارتسامية والطبقية والعنصرية في تحديد مفهوم الحرف وعلاقة الأصوات بعضها ببعض . وقد تمكّن العلماء من إعادة النظر في أنظمة الحروف فاستغنوا عن الأصناف غير العلمية كالتقسيم الذي يقوم على تصنيف

<sup>175</sup> نميّر بين البلاغة في دلالتها الواسعة وهي ترادف الخطابة عند أرسطو، والقدرة على الإقناع، والبلاغة في دلالتها الضيقة أي بلاغة الوجوه والأساليب .

<sup>176</sup> معجم تحليل الخطاب بإشراف باتريك شارودو ودومينيك منغينو ، تعريب عبد القادر المهيري وحمادي صمود ، المركز الوطني للترجمة، تونس 2008 ص 534.

<sup>177</sup> نظرية الأدب تعريب عادل سلامة مذكور أعلاه ص 231



الحروف إلى حروف مستهجنة وأخرى مستقبحة، وتخلصوا من كثير من الأوهام التي كانت تعدّ حقائق علمية وما هي بالعلم، فقد كانت النظريات الصوتية القديمة تنطلق من نظام مركزي وتعدّ سائر الأصوات التي تخرج عن ذلك النظام تشويهاً له، وتسمّيها حروفاً مستهجنة .

إنّ الأسلوبية علم لساني ببنى يأخذ من البلاغة القديمة أهمّ الأطر الخطابية والمقولات الجمالية التي تتحقّق فيها جمالية النص الأدبي ولا يرفضها : فالمحسنات البديعية كالجناس والطباق والمقابلة والسجع وأشكال الالتفات ونحوها تظل أدوات تحليلية وإجرائية يستخدمها عالم الأسلوب في تفكيك النص وفي دراسة أهمّ مكوّناته، وفي استخلاص آليات اشتغاله. ولكنه يأخذ من المفاهيم اللسانية المقولات العلمية التي تفسّر هذه الظواهر الفنية في إطار النظام اللساني، من ذلك أنّ مفهوم العدول أو الانزياح لم يكن في البلاغة القديمة من المفاهيم الواصفة للأدب، ولم يكن البلاغيون يهتمّون بالنسق النصي أو بالبنية النازمة للخطاب الأدبي في ما فوق الجملة، وقد عاد الدرس الأسلوبي إلى مفهوم النسق أو الانسجام متأثراً بطبيعة الحال باللسانيات البنيوية، وأدرج الظواهر المتشابهة من حيث القيمة النسقية في المقولة نفسها، وكان العدول الكمّي المقولة التي يدخل تحتها الجناس والسجع والتكرار وغيرها من السمات اللسانية المميّزة للنص من حيث كمية استعمال الظواهر اللغوية.

ولا يمكن أن نختم هذا المبحث دون أن نشير إلى التقاطع المهمّ الذي حدث في العقود الأخيرة بين الأسلوبية وعلوم الإحصاء في ما يصطلح عليه بالأسلوبية الإحصائية، وهذا التقاطع هو في الحقيقة تزواج بين اللسانيات الاحتمالية<sup>178</sup> القائمة على الاعتراف بتتوّع المدوّنات اللسانية وتعدّدها وعلم الإحصاء الذي يقتضي حداً أدنى من التجانس، فقد تقاسمت اللسانيات والأسلوبية وجوه الاستفادة من العلوم الإحصائية فاستغلّتها اللسانيات لوصف الظواهر اللغوية المشتركة في الاستعمال واختصّت الأسلوبية الإحصائية بوصف الظواهر الخاصة التي ينفرد بها خطاب من الخطابات أو كاتب من الكتاب أو أثر من الآثار. وتهتم الأسلوبية الإحصائية بالمتغيّرات التي تحدّد خصائص أسلوب من الأساليب كالمتغيّرات الصوتية في أنواع الأصوات والمقاطع والأوزان الشعرية وسائر ضروب الإيقاع، والمتغيّرات الصرفية والتركيبية والمعاجم ، والخصائص المتصلة بما فوق الجملة من مكوّنات الخطاب .

---

<sup>178</sup> ينظر في خصوص هذا المفهوم : سعد مصلوح : في النص الأدبي، دراسة أسلوبية إحصائية، النادي الأدبي الثقافي جدة 1411 ص ص 29-30.

إلا أن التطور الذي يشهده التفكير البيني في مجال الدراسات الأدبية اليوم يمكن أن يثري البحث الأسلوبي بآفاق بحثية مهمة من ذلك مثلاً أن جانباً كبيراً من الظواهر الأسلوبية يجاوز الإطار البنيوي للخطاب ولا مندوحة في دراسته من الاستئناس بالنظرة البينية، فالقافية في القصيد العربي وخاصة في جنس المعارضة الشعرية مكوّن فني بيني، وحلقة واصله بين الأثر والجنس الأدبي: فهي من جهة أولى مكوّن من مكوّنات الإيقاع الخارجي للخطاب لأنها عنصر مشترك بين قصائد عديدة ومظهر من مظاهر استمرار التلقّي الجمالي للجنس الشعري عبر التاريخ وعبر العصور الأدبية المتباعدة ناهيك أن سينية البحتري قد عارضها في العصر الحديث شعراء الإحياء والبعث مثل أحمد شوقي وشعراء الرومنسية مثل أبي القاسم الشابي. ولكن القافية من جهة ثانية مكوّن من مكوّنات البنية الإيقاعية الداخلية إذ كثيراً ما يؤثر المكوّن الصوتي المميّز للقصيد في سائر عناصر الإيقاع، فدالية أبي الطيب المتنبي "عيد بأية حال عدت يا عيد" ينتشر صوت قافيتها الدال في أغلب الأبيات والمقاطع، وهو في البيت الأول يتردّد خمس مرات :

عيد بأية حال عدت يا عيد \*\*\* بما مضى أم لأمر فيك تجديد ،

وفي البيت الثاني يتردّد الصوت ستّ مرات:

أما الأحبة فالبيداء دونهم \*\*\* فليت دونك بيداً دونها بيداً .

ويمكن للقافية أن تجرّ الشاعر إلى إنجاز عمليات تناصية بينية مختلفة ، فينشأ حوار بين نصوص المعارضات على نحو ما سنرى في المبحث الخاص بالحوار الشعري والتناص. وهكذا نرى أن التفكير البيني في الظواهر الأسلوبية يمكن أن يفتح للدارس آفاقاً ثرة ومسالك جديدة تكشف بمزيد من العمق حركة التفاعل بين النصوص والعصور والآفاق الجمالية المتنوعة.

#### 4- اللسانيات الإدراكية والفكر البيني:

يمكن أن ننطلق في هذا المبحث من فكرة أساس ذكرها الدكتور عبد السلام المسدي وهو يتطلع إلى قراءة مستقبل اللسانيات العربية قراءة بينية إذ يقول مفصّلاً المجالات البينية في المعرفة اللسانية الإدراكية : " إنّ البحوث اللغوية الحديثة في أرقى مجالات العلوم اللسانية - كما أسلفنا- تتّجه صوب مجال بالغ الدقة هو مجال الإدراك. ويأمل اللسانيون أن يصلوا من خلاله إلى مزيد الكشف عن

أسرار تعامل العقل البشري مع الظاهرة اللغوية وذلك بالجمع بين حقائق ثلاث كثيرا ما كانت تعتبر فرضيات متنافرة لا يجوز لصاحب نظرية أن يصادر عليها مجتمعة : الحقيقة العضوية المتصلة بالتركيب البيولوجي والفزيولوجي والعصبي الذي يتألف منه الدماغ البشري، والحقيقة النفسية من حيث إن الإنسان أيّا كان جنسه وتاريخه، وأيّا كانت لغته وثقافته، لا يهّم بإنجاز الكلام إلّا وتحركت معه كلّ مكوّناته الوجدانية والشعورية وتضافرت لنجدته سائر مركّباته الروحية المضمرّة، والحقيقة النحوية التي هي الصورة المثلى لائتلاف العناصر التكوينية المتضافرة داخل نسيج الكلام والتي تبدأ من الحرف بكل مميّزاته الصوتية ثم الكلمة ثم الجملة التامة المفيدة<sup>179</sup>.

وتبحث اللسانيات الإدراكية عمّا يجمع بين اللغات الطبيعية من الكليات النحوية والدلالية، ولا تهتمّ باللغات البشرية الحقيقية ولا بتاريخها ولا بدراستها دراسة آنية بما هي مؤسسة اجتماعية ونظام من العلامات الاعتبارية، بل تعتني بالظواهر اللسانية القارة في كل اللغات بصفتها ملكة ذهنية .

إنّ هذا التعريف يأخذ بالاعتبار الحقيقة البينية للسانيات الإدراكية الحديثة وهي الجمع بين العلوم العصبية والعلوم النفسية والعلوم اللغوية . وفعلا فعلم البيولوجيا كما قال تشومسكي (1977) حاضن للسانيات أوهي فرع منه، بل إنّ اللسانيات في تصوره علم من علوم الطبيعة بما هي العلم الذي يدرس أحد أعضاء الذهن البشري وهو مركز اللغة. وقد أسس هذا النحوي هذا التصور الذي يرى في النحو إرثا يكتسبه الإنسان بالوراثة، وبذلك فإنّ علم الدلالة الإدراكي منغرس هو الآخر في علم البيولوجيا لأنّه يبحث في العمليات الذهنية التي يشترك فيها جميع البشر. وكان لعلم النفس أثر بعيد في نشأة الفكر اللساني في مختلف مراحلها بما في ذلك المرحلة الإدراكية، وقد أمده بفكرة أنّ اللغة الطبيعية ليست نظاما من العلامات التعاقدية الاجتماعية بل هي أولا ظاهرة نفسية فردية.

ويستعمل مصطلح الإدراك في الدراسات اللسانية الإدراكية لوصف العمليات الذهنية التي ينجزها العقل البشري لمعالجة المعلومات بشكل واع أو غير واع<sup>180</sup>، وبذلك فإنّ اللسانيات الإدراكية تهتم بخصائص

<sup>179</sup> العربية و الإعراب، مركز النشر الجامعي تونس 2003 ص62.

<sup>180</sup> ينظر في محمد صلاح الدين الشريف: الدارة النحوية البلاغية: مقارنة لتعليمية الألسن، حويلات الجامعة التونسية

العدد 57 لسنة 2012 ص57

اشتغال الدماغ البشري في معالجة المعلومات اللغوية . وتنهض هذه اللسانيات على مبدأ عام وهو أن اللغة الطبيعية نشاط من الأنشطة الإدراكية، وهي ذات أساس بيولوجي، وقد ذهب تشومسكي نفسه كما ذكرنا إلى أن اللسانيات جزء من علم البيولوجيا لأنها تهتم بأحد منتجات أعضاء الدماغ البشري وهو اللغة .

ولفهم هذه العمليات الذهنية وجب على علماء اللسانيات الإدراكية تجديد النظر إلى العلاقة بين مستويات الدرس اللساني المختلفة، فقد أعاد رونالد لنفاكير (R.W.Langacker) النظر في علاقة المعجم بالنحو ضمن تأسيس أطروحات النحو الإدراكي، وسعى إلى إثبات الاسترسال بينهما (Continium). وكان من النتائج المعرفية الهامة التي حققتها اللسانيات الإدراكية التخفيف من حدة المحورية التي هيمن بها التركيب النحوي على سائر المستويات الدلالية في تاريخ النحو. ومن المبادئ الأساس التي سيكون لها بعيد الأثر في إثراء الفكر اللساني البيئي مبدأ الاسترسال الدلالي، فقد قامت اللسانيات الإدراكية لنقض فكرة أساس من أفكار النحو التوليدي وهي استقلال التركيب النحوي (Autonomous Syntax Hypothesis). وتفرعت اللسانيات الإدراكية فرعين كبيرين : فرعا أول مثلته اللسانيات التوليدية أو الإبداعية، وقد جاءت نقیضا للسانيات البنوية والسلوكية، واهتمت بالتركيب أساسا لأن اللغات تخضع - في تقديرها - لأنحاء فطرية غير واعية، وفرعا جاء نقیضا للمدرسة التوليدية، وظهر في نهاية السبعينات، وهي لسانیات رمزية ينصبّ اهتمامها على الدلالة، وترى أن اللغة من إنتاج متكلم واع، وقد تضافرت على تأسيس هذا الحقل المعرفي جهود كل من رونالد لانكاير وجيل فوكونييه (G.Fauconnier) وجورج لاكوف (G.Lakoff) وليونالد تالمي (L.Talmy) ووليام كروف (W.Croff).

ويمكن أن نختم هذه المبحث الموجز بفقرة أخذناها من مقال مهمّ للباحثة سندس كرونة تخص القيمة البيئية، وتحلّل فيه النتائج المثمرة التي أفضى إليها التقاطع بين اللسانيات والعلوم الإدراكية نقول: " تبدو علاقة التضافر التي حاولنا تتبّعها بين اللسانيات والعلوم العرفانية ( الإدراكية ) بمختلف أنساقها علاقة مثمرة، وقد كان لها أثر إيجابي في تطور العلوم التي تدرس الدماغ البشري، وتسعى إلى تبیین كيفية اشتغاله، فهي من جهة تفتح مجال البحث اللساني على جملة من الأسئلة كانت تعدّ لدى السلوكيين خاصة وفي تصور التوليديين بصفة أقلّ، مسائل مقصاة من المجال اللساني إذ لا سبيل إلى دراستها

دراسة علمية دقيقة، ومن هذه المسائل تلك المتعلقة بمفاهيم من قبيل المعنى والسياق والمرجع، فقد كان اللسانيون تارة يجعلونها تدرس في إطار علوم أخرى مثل علم الاجتماع وعلم النفس، وتعتبر تارة أخرى مواضيع المجالات تكاد تكون في تصوّر البعض اختصاصات منفصلة عن البحث اللساني<sup>181</sup>. واستطاعت هذه الباحثة بشيء من الحدس المعرفي الذكي ودون وعي بالمفهوم البيني الذي نحن بصده أن تتبّه على الثمار المعرفية للتفاعل بين العلوم فقالت: "وقد مكنت علاقة المتصاف والتفاعل المستمر بين اللسانيات والعلوم العرفانية من توسيع مجال النظرية النحوية لتصبح مفسّرة لكل القضايا، ووقع التخلي في التوجه اللساني العرفاني الجديد نهائياً عن فكرة الفصل الجذري بين أقسام الدراسة الثلاثة: الإعراب والدلالة والتداولية إذ بيّن أصحاب هذا التوجّه أنّ هذا التقسيم قد أخذ اللسانيون عن المناطق دون تفتّن إلى أنه مسقط على اللغة لا يتماشى وطبيعته"<sup>182</sup>. ولئن كان هذا الاعتراف بأثر التفاعل بين التخصصات مهمّ من الناحية الإجرائية فإنّ الباحثة وقعت في المحذور نفسه، ذلك الذي يتمثل في منطق المفاضلة والدفاع عن التخصص والرغبة في التموّج داخله. فهي تتغلّى باسترجاع اللسانيات لمجالات معرفية كانت من تخصص علم الاجتماع وعلم النفس، والحال أنّ البينية تجاوز هذه النظرة الضيقة التي يتّسم بها العقل التقني.

وفضلاً عن هذا المأخذ المهمّ يمكن أن نضيف إلى ما قالته هذه الباحثة أنّ صلة اللسانيات الإدراكية بالعلوم الطبية والبيولوجية وبعلم النفس الإدراكي يفتّص الهوة ويجسر الفجوة بين أنظمة العلوم الإنسانية والعلوم الأساسية من جهة، ويسير شوطاً لا بأس به في اتجاه التخفيف من غلواء المنزع الوضعي الذي طالما اشتكى منه تاريخ العلوم من جهة ثانية، شريطة ألاّ يقع الباحث كما وقعت هذه الباحثة وغيرها كثر في المأزق الذي تردّت فيه مناويل تشومسكي وكانت بذلك موضوع انتقاد واسع.

وفعلاً فإننا نريد أن نختم القسم الأول من هذا المبحث ببعض الملحوظات النقدية التي تجمع بين باب اللسانيات الإدراكية واللسانيات الحاسوبية وهذا النقد يبيّن ضرباً من ضروب فشل الفكر البيني في اللسانيات الإدراكية، وهو فشل نبّه عليه بعض النقاد كما سنرى. إنّ هذه اللسانيات تعيش في أيّامنا هذه ردود فعل صارمة من لدن جيل من المفكرين اللسانيين الراضين لتوجّه تشومسكي وتلاميذه، وقد

<sup>181</sup> اللسانيات وتطور العلوم العرفانية، حوليات الجامعة التونسية، العدد 47 لسنة 2003 ص 292-293.

<sup>182</sup> م.، ص 293.

تضافرت نظريات عديدة منذ عقد وأكثر بقليل للطعن في نظرية استعارة الحاسوب للدماغ البشري، وهي النظرية التي كان وراءها فكر نعوم تشومسكي سواء في مرحلته التوليدية أو في مرحلة النموذج الأدنى. ونذكر من الأعمال المهمة التي تطعن في تصور تشومسكي للغة من خلال اللسانيات الإدراكية والحاسوبية الأطروحة الشهيرة لكرستيان نوتاري (Ch.Notari) والموسومة باستعارة الحاسوب واللسانيات الإدراكية، فهي ترى في هذا العمل النقدي- بعد أن استعرضت جهود تشومسكي في تأسيس اللسانيات الإدراكية- أنّ الكفايات الإدراكية للإنسان منغرس في فضاءه الثقافي، وفي قدرته على بناء الأنظمة الرمزية، وهي ليست كما يرى تشومسكي وتلاميذه مجرد ميكانيزمات غير واعية ، فالوعي في رأي هذه الباحثة وغيرها من أبناء جيلها الإدراكيين الجدد هو الجسر الواصل بين الحيوي أو البيولوجي والنفسي. وبهذه الفكرة تصبح الباحثة أرهف استماعا للمقولة البيئية التي تجمع العلوم اللغوية إلى علوم الحاسب والشكلنة التقنية أو الرياضيات الحاسوبية. وترى هذه الباحثة من جهة أخرى أنّ نعوم تشومسكي لم يحسن ربط علم النفس وعلم البيولوجيا باللغة ، وهو يدعي أنّها فرع منهما. وترى أخيرا أنّ هذه الاستعارة استعارة الحاسوب للدماغ البشري رديئة جدا لأنها تهمل الوعي، وهو أهمّ عنصر في نظرية المعرفة<sup>183</sup>.

وبعد فقد كان للنقاط الذي عرفته اللسانيات والعلوم النفسية الإدراكية أثر مهمّ في الدرس النحوي العربي الحديث. ويتمثل هذا الأثر في حركة الأبحاث النحوية التي تثمر منذ أكثر من عقدين أبحاثا قيّمة تتناول قضايا نحوية قديمة من زاوية نظر إدراكية، وتسعى إلى تأصيل البعد الإدراكي في النظرية النحوية والبلاغية. وقد ساعدت هذه اللسانيات الإدراكية علماء النحو المحدثين على الانطلاق في التأريخ للسانيات العربية بتحليل طرائق انتظام التصورات النحوية في المصنّفات القديمة انطلاقا من الصوت وانتهاء بعلم الاستدلال وهو أعلى مراتب شكلنة المعنى . ونذكر من هذه القضايا ما يتصل بمفاهيم في تحليل الخطاب من زاوية إدراكية أو من زاوية تداولية جذرية كمفهوم الإحالة وما تفرّع عنه من مفاهيم نحوية تطرح إشكاليات منهجية عديدة. فقد أسعفت اللسانيات الإدراكية الدرس النحوي الحديث بمنهج جديد في تناول قضايا العلاقات التخاطبية وتحليل الإشكاليات التي أثارها القدامى حول كثير من المؤشرات المقامية.

---

<sup>183</sup> Ch.Notari Métaphore de l'ordinateur et Linguistique cognitive ;Toulouse 2 ;Janvier : 2002.

## 5- السرديات التأويلية ومفهوم البينية:

لئن مهّد جون سيرل بنظرية العمل السردى لنشأة السرديات التأويلية ولتقاطع التداولية والسرديات فإنه يبدو لنا أنّ هذا الحقل الجامع بين التداولية والأدبية عند بول ريكور وأمبرتو إيكو هو أهمّ حقول السرديات ما بعد البنيوية التي استند أصحابها في فهم العوالم الممكنة إلى الفكر البيني، فقد كان بول ريكور في أعماله المتصلة بالسرد وخاصة كتابه الزمن والقص (**Temps et récit**) ينتقد مدرسة باريس السردية ويسمّيها العقلانية السردية، وقد سمّيتها في كتابي " التواصل الأدبي من التداولية إلى الإدراكية " سرديات العقل التقني<sup>184</sup>. كان ريكور ينتقد هذه السرديات التي تضرب صفحا عمّا هو خارج المعطى اللساني وعمّا يربط المعنى بالمرجع، وهو يذهب إلى أنّ المعنى في الخطاب السردى يستمدّ مكوّناته من العالم الخارجى، ومن السياق الاجتماعى والتاريخى، فالعمل السردى في أي جنس من الأجناس السردية هو أولاً تعبير عن عقلنة الموجودات في عالم الخطاب البشرى في تلك اللغة التي يتكلم بها المتكلم في الخطاب السردى<sup>185</sup>، وبهذا التفسير تظهر الصلة المتينة والرابطة المكيّنة بين السرديات التأويلية وعلم الاجتماع اللغوى، ومن المزوجة بينهما أنشأ روبرت لافون (R.Lafont) ما اصطلح على تسميته بالبراكسيماطيقا (Praxématique)<sup>186</sup>. لقد عدّ الخطاب السردى في حد ذاته عملاً ملموساً أو حدثاً حاصلًا في التاريخ الثقافى الذي أنتجه، ويخضع إنتاجه ذاته لمعنى ملموس فهو إخبار عن الوجود وقول له وحكم من أحكامه، وفي هذا المستوى تتفاعل السرديات التأويلية ونظرية أفعال الكلام. وفي هذا السياق أيضا يذهب جون سيرل إلى أنّ العمل القولى في القصص التخيلى كالقصص المثلى أو الخرافى ليس بالضرورة عمل إثبات مقصود، من ذلك أنّ كتابة رسالة في العالم المرجعى الحقيقى عمل قولى يستوفى شروط الإثبات ومقتضيات التداول الذى يثبت القضية ويستطيع البرهنة على صحتها بالدلائل والقرائن. إلّا أنّ كتابة رسالة في رواية لا تلزم المتلفّظ بإثبات صحتها أو المروى له بالاعتقاد في صحتها، فكانت الرواية هو الذى حقّق عملاً رسائلياً مقصوداً بالقول وإن كان الروائى نفسه هو الشخص القصصى الذى كتب تلك الرسالة. فالذى يكتب اعتذاراً حقيقياً في رسالة

<sup>184</sup> يصدر قريباً عن النادي الأدبى بالرياض.

<sup>185</sup> ينظر في بول ريكور: الاستعارة الحية ص 121

<sup>186</sup> انظر أسفله فهرس المفاهيم البينية.

حقيقية ينجز عملا قوليا مقصودا به إثبات الاعتذار ولذلك يربط المروي له في الرسالة حقيقة الأعمال بالواقع أو بالعالم " لم أتأخر عن زيارتك إلاّ لأنني كنت فعلا مريضا، وقد زارني فلان ووجدني على فراش المرض، وأنت تعرف صدق فلان فيمكن لك أن تسأله". وكذلك يفعل كاتب الرسالة في السياق التخيلي الروائي، ولكن بتصنّع (Feintisme) وينبغي أن يحاكي الراوي أعمال العالم الخارجي ليتمكّن من إنجاح التصنّع في الرواية أو في التخيل القصصي.

وعندما أحرق أبو حيان التوحيدي كتبه ضنّا منه بها على من سيأتي بعده فإنما كان يعلم علم اليقين أنّه لا يحرق كتبه على الحقيقة وكان يعلم علم اليقين أنّ نسخا منها كثيرة كانت موزّعة بين الناس، وأنه يستحيل جمعها كلها وإحراقها جميعها رغم قلة عددها في ذلك الزمن زمن الوراقة اليدوية، ولكن لماذا كتب هذا الكلام ؟ لقد أحرق أبو حيان التوحيدي كتبه فعلا ولكنها ليست سوى نسخ من آثاره أنجز بإحراقها عملا رمزيا في التاريخ، عملا مقصودا به إعدام التواصل بينه وبين القراء، وقد سبق أن بيّنا هذا المقصد في كتابنا الرسائل الأدبية حين قلنا : " لقد سرد التوحيدي قصّة الإحراق هذه في عمل سردي جاء رسالة جوابية عن عتاب وجهه إليه أحد أصدقائه من معاصريه فأنجز عملا لغويا في تاريخ شخصيته، عملا يضاف إلى عمل الإحراق فتصبح الجملة السردية كما قال أرتير دانتو جملة تستند إلى حدثين على الأقل، حدثين منفصلين ومختلفين في الزمن، وتتخذ هذه الجملة في الحدث الثاني الحدث الأول مرجعا <sup>187</sup>. إنّ هذه القراءة التأويلية هي التي تفتح مجال التقاطع بين السرديات وعامة العلوم الإنسانية ذات الطاقة التأويلية .

## 6- علم النفس والمقاربات البينية :

لئن كانت لأعمال جاك لاكان (J.Lacan) وخاصة كتابه "كتابات " دور حاسم في فهم نظرية اللاوعي اللغوي وأثرها في تعميق الفضاءات غير المنطقية في الإبداع الأدبي والابتعاد أكثر فأكثر عن التفسير البياني لوظائف الأدب فإنّ اهتمام الدرس الأدبي العربي بهذا المسلك البيني لا يزال متواضعا. إنّ التطوّر الهائل الذي عرفته الدراسات الأدبية المستفيدة من علوم النفس الآخذة بأسباب الدراسة البنائية

---

<sup>187</sup> Danto.C.Arthur: Analytical Philosophy of History; Cambridge University Press 1965,p152. وانظر الرسائل الأدبية المبحث الخاص بالتحدث عن النفس ضمن الفصل الخاص

بالأجناس السردية في الرسائل .



قد جاوز مرحلة التأثير التبسيطي الذي عرفته هذه الشعبة من مناهج البحث مع دراسات من قبيل التفسير النفسي للأدب لعز الدين إسماعيل، وهي مقارنة تحتل بتحليل مقولات سيقمان فرويد عن اللاشعور والكبت والتحصيد الفني والرغائب والهذيان ، وتفسّر الأدب بكونه شكلا من أشكال التعبير عن هذه الأعراض المرضيّة والعقد النرجسيّة وغيرها ممّا يتّصل باللاوعي الفردي أو الجماعي ( عند يونغ خاصّة ) . وإنّا إذ نقرّ بقيمة ما في هذه الدراسات من نقل معرفي ذي صبغة نظرية وما لبعض الدراسات من فضل الريادة كتّاحليل العقّاد لنفسية ابن الرومي، أو دراسة الأبعاد النفسيّة لرواية السراب لنجيب محفوظ، نلحظ تواضع الدراسات العربيّة التنظيريّة والتطبيقيّة على السواء بالقياس إلى ما عرفه هذا المجال المنهجي من اتّساع وتعمّد . ونلحظ كذلك بعض الخلط بين منهج التحليل النفسي في صيغته الأولى عند سيقمان فرويد والمنهج التعبيري الذي يهتمّ بعالم المؤلّف وهو منهج معارض تمام المعارضة المنهج الكلاسيكي .

وغير بعيد عن المجال النفسي ما حصل من تفاعل بين دراسة الأجناس الأدبية القديمة والعلوم الأنثروبولوجية، وفي صدارتها الأنثروبولوجيا البنيوية، فقد انبرى جيل من الدارسين لتطبيق المفاهيم الأنثروبولوجية على الشعر الجاهلي والفضاء البدوي عامة في أعمال من قبيل القصيدة الطقوسية لعلي البطل وموسوعة الأساطير العربية لمحمد عجيبة كما سبق أن بيّنا ، وحين نقارن الدراسات الأدبية التي تنتزّل منزلة وسطى بين الدرس الحفري والدرس الأسلوبي والدرس الاجتماعي بالدرس الأدبي المنغلق على المعارف البلاغية المبسطة نستخلص مدى ما تضيفه الدراسات البينية من ثراء معرفي تتحول بمقتضاه العلامات الأدبية إلى معالم حضارية ناطقة .

إنّ التعامل البيني في دراسة اللغة الأدبية ينطلق من أنّها خطاب تتكون علاماته من طبقات تترسّب فيها المعارف المختلفة بأشكال معقّدة ورمزية.

ويمكن أن نعود لعرض تاريخ هذا المنهج في مراحل المختلفة إلى المقال المتميّز الذي كتبه مارسال ماريني ( M. Marini ) واستعرضت فيه التداخل المعرفي بين الموضوعاتية عند باشلار وروسي وجان بيار ريشار<sup>188</sup>، ومن المعلوم أنّ أعمال باشلار تمثل في تاريخ الفكر العلمي الحديث أهم

<sup>188</sup> مدخل إلى مناهج النقد الأدبي ، تعريب رضوان ظاظا ومراجعة المنصف الشنوفي، سلسلة عالم المعرفة الكويتية العدد 221 ص ص 49-94.

مورد من موارد الدراسات البينية ، وفي مقدمتها كتابه الشهير تكوين العقل العلمي . فقد استعرضت الباحثة مراحل تطوّر علم النفس التحليلي خلال قرن من الزمن بدءا بجهود سيقمان فرويد في قراءته لمسرحية سوفوكليس ومسرحية هاملت لشكسبير والإخوة كارمازوف لدوستوفسكي ، وتحديدده لملاح عقدة أوديب . وبيّنت تأثير هذه اللبّات الأولى في تاريخ نظرية والتحليل النفسي ، ودورها في فتح المجال أمام الباحثين في علاقة هذا الضرب من التحليل بالأساطير بما هي أعمال لغويّة رمزيّة وبالمختلّ الفردي والجماعي في مختلف الأعمال الأدبيّة .

إنّ العودة إلى قراءة الأدب من وجهة النظر النفسانيّة ترمي إلى التنبيه على إهمال الدارسين المتخصّصين في الأدب القديم بعامة وفي النظريات المقصديّة بخاصّة إلى مسلك مهمّ من مسالك دراسة هذا الجنس من النصوص، وهو ذلك الذي يرى في اللغة الأدبيّة على اختلاف فنون القول والكتابة مصدرا مناسباً لكلّ عمل تأويلي يهدف إلى استبطان الذات البشريّة في أعماقها النفسيّة، في وعيها وفي لاوعيها، في أحلامها التي تبنيها من خلال الأنظمة الرمزيّة في الشعر والأسطورة والخرافة وغيرها من وسائل التعبير .

وقد وجدنا في بعض الدراسات العربيّة التي سعت إلى الاستفادة من المنهج النفساني في صيغته الأولى مع فرويد أوفي صيغته المتأخّرة وخاصّة صيغة كارل يونغ ما يمكن أن نعدّه نماذج ناجحة في نقل الأصول النظرية وفي تطبيقها على النصوص الأدبيّة العربيّة ، ويمكن أن نذكر في هذا السياق على سبيل التمثيل لا الحصر تحليل مصطفى ناصف للصورة الأدبيّة في الشعر العربي، فقد ميّز الباحث ببراعة نادرة الخيال البياني أو التركيبي أو الصناعي من الخيال الشعري أو الإبداعي، بين الأدبين القديم والحديث في الاتجاه الإحيائي والرومانسي ، وسعى إلى النظر في نماذج من الشعر القديم والحديث من خلال استغلال الطراز النفساني على وجه لا يخلو من نفس تأصيلي لافت للانتباه ، وفي الفصل السادس من كتابه الصورة الأدبيّة تحليل تألّفي رصين لإحدى قصائد إلياس أبو شبكة وازن فيه الباحث بين نظام الصور في القصيد ونظام الرموز التي تحيل عليها ومنها على وجه التخصيص إحالة هروب الفتاة التي يتحدّث عنها الشاعر إلى البحر على رغبة الشاعر في العودة إلى الرحم باعتباره حلما من أحلام الفرد بإزاء قيم الجماعة<sup>189</sup>، وقد كان الشيخ ناصف على وعي حادّ بحدود هذا المنهج فختم

<sup>189</sup> مصطفى ناصف : الصورة الأدبيّة، منشورات دار الأندلس دت ص ص 177 - 180 .

تحليله بقوله : " وأنا حريص على ألاّ يحيل تطبيق النصّ الأدبي إلى وثيقة تخضع طائعة أو كارهة لنظريات معيّنة فإنّ النصّ دائماً ذو كيان فردي وإضافة جديدة، وكثيراً ما لا ينتهي إلى نقطة حاسمة في أمر التطبيق ولن يؤدّي إلى زعزعة طائفة من المثل الأولى للتجربة " <sup>190</sup>.

إلاّ أنّ الدراسات اللغويّة النفسيّة تتّجه اليوم أكثر فأكثر إلى إعادة النظر إلى الخطاب الأدبي بالاستناد إلى المقولات النفسيّة اللغوية التي انصرفت عن الاهتمام باللاوعي إلى النظر في مقاصد التكلّم ونوايا المتلقّظ في الخطاب الأدبي. وإذا أنعمنا النظر في التراث البلاغي واللغوي والأدبي فإنّنا نصل إلى نتيجة مؤدّاها أنّ علماء الشعر القدامى قد تفتّنوا إلى دور العامل النفسي والسلوكي في توجيه العملية البنائيّة للقول الشعري ، وقد ترجموا هذا الوعي في مستويات من التفكير مختلفة نذكر منها في سياقنا هذا ما يخصّ النظرية الأدبيّة عامّة ونظرية الشعر خاصّة، وما يخصّ فهمهم لصلة جنس القصيد بأحوال النفس في مرحلة تخلّق النصّ الشعري على وجه أخصّ ، وفي هذا المعنى تأسّس تصوّر القدامى لدور الغرض في إنشاء مبنى القصيد.

---

<sup>190</sup> م ن ص 180.

### الفصل الثالث

الموضوعاتية بين علوم الاجتماع والمرجعيات النفسية

لقد اخترنا أن نقدّم في هذا المبحث أسس التفكير الموضوعاتي لأنه من المقاربات النصية البينية التي تقيم علاقات جديدة بين مجالات معرفية كانت من قبل متميزة. لقد تمكّنت الدراسات الموضوعاتية أو الجذرية أو المدارية من إحكام الصلة بين العلوم الأدبية وتاريخ الأفكار، بين العلم والشعر، بين الفلسفة والشعرية ، أو بين النص الأدبي والنص الثقافي العام. وهو مقارنة أو لون من ألوان النقد يتّجه منذ عقدين تقريبا إلى الانفتاح على مختلف العلوم الإنسانية وفي صدارتها علوم الدلالة النفسية والاجتماعية التي يلغى فيها إلغاء تاما ذلك التمييز المتكلف بين المضمون والشكل وليصبح إنتاج الصورة هو في ذاته إنتاجا للدلالة في إطار نظام من نظم التمثيل .

إنّ النقد الموضوعاتي هو المجال المعرفي الذي تتلاقح فيه مختلف المعارف في بؤرة واحدة وخاصة المعارف النفسية والاجتماعية. ويعسر في هذا السياق أن نلّم بدقائق هذا النقد نظرا إلى ما عرفه هذا الحقل من تراكم معرفي ومن تنوّع في المشارب والرؤى على امتداد قرن من الزمن إذا عددنا نظريات الشكلايين الروس أولى لبنات هذا النقد بذلك المقال الشهير الذي كتبه توماشفسكي (Tomashevsky) ووسمه بالموضوعاتية (Thematic) ، وحاول فيه تعريف الموضوع قصد تفسير بنية الحكاية. ويلحظ الباحث العربي في بعض الأبحاث التباسا بين مفهوم الموضوع في دلالاته الإنشائية (البويطيقا) وهو ما يطلق عليه باللغات ذات الأصول اللاتينية التيمة أو الثيمة (Theme-Thème) والموضوع في دلالاته اللغوية العامة (Sujet). فعبارة الموضوع في دلالاته العامة ليست من المصطلحات الإجرائية أو النظرية المستخدمة في الدراسات الإنشائية المتصلة بالموضوعاتية. ويمكن أن نعود في

عرض تاريخ مفاهيم هذا المرجع النقدي في مراحلها المختلفة إلى المقال المتميز الذي كتبه مارييل ماريني، واستعرضت فيه التداخل المعرفي بين الموضوعاتية عند قاستون باشلار وعند جون روسي (J. Rousset) وعند جان بيار ريشار (J.P.Richard) <sup>191</sup>، وهو مقال ذو قيمة إنشائية. ومن المعلوم أن أعمال باشلار تمثل في تاريخ الفكر العلمي الحديث أهم مورد من موارد الدراسات الموضوعاتية، وفي مقدمتها كتابه الشهير تكوين العقل العلمي. فقد استعرضت الباحثة مراحل تطوّر علم النفس التحليلي خلال قرن من الزمن بداية بجهود سيقمان فرويد في قراءته لمسرحية سوفوكليس ومسرحية هاملت لشكسبير والإخوة كارامازوف لدوستوفسكي، كما سبق أن ذكرنا وتحديده لملاح عقد أوديب. وبينت تأثير هذه اللبّات الأولى في تاريخ نظرية التحليل النفسي، ودورها في فتح المجال أمام الباحثين في علاقة هذا الضرب من التحليل بالأساطير بما هي أعمال لغويّة رمزيّة وبالمختلّ الفردي والجماعي في مختلف الأعمال الأدبيّة. وهذا المتخيل هو آلة إنتاج الموضوعات الأدبية في مختلف الأجناس.

إلا أنّ الدراسات الموضوعاتية النفسية والاجتماعية تتّجه اليوم أكثر فأكثر إلى إعادة النظر في الخطاب الأدبي بالاستناد إلى المقولات النفسية اللغوية التي انصرفت إلى الاهتمام باللاوعي في التلقّظ في الأدبي. وإنّ المقاربات الموضوعاتية تتّجه منذ السّتينات من القرن الميلادي المنصرم إلى جعل موضوع التفاعل بين الأدب والعلوم الاجتماعية والإنسانية موضوعاً ذا فوائد إبستمولوجية من ذلك أنّ البحث في التقارب بين علم الاجتماع والظاهرة أو الحدث الأدبي يتناول من زاوية أنّ كليهما خطاب عن المجتمع أو حدث أو عمل اجتماعي، وقد ذكرنا في فصل سابق أن أعمال روبرت إيسكاربيت (R. Escarpit) ومجلة "سياق" أسهمت في نشأة علم جديد سمّي بالموضوعاتية الاجتماعية أو عالم الاجتماع الاختباري، وقد فتح مجالات التفكير في موضوعات من قبيل: سوسولوجيا الأدب الصادر سنة 1958 والحدث الأدبي والحدث الاجتماعي الصادر سنة 1970. وقد تمكن من مدّ الجسور بين علم الاجتماع والأدب عبر علم الأدب المقارن، وقد عرّفه بكونه العلم الذي لا يفيدنا عن حياة مجتمع ما بقدر ما يفيدنا عمّا تحقّقه العلاقات بين الناس في ثقافات مختلفة من ثراء اجتماعي. لكن الموضوعات الاجتماعية أو علم الاجتماع الأدبي قد حقق نتائج جاوز بها الأدب المقارن وذلك باهتمامه بمادة أدبية غير عالمة. وقد مكّنت الدراسة البينية في هذا المجال من طرح أسئلة من قبيل: كيف يمكن أن يقرأ

<sup>191</sup> مدخل إلى مناهج النقد الأدبي، ص ص 49-94.

الخطاب الاجتماعي الظاهرة الأدبية ؟ كيف يمكن للخطاب الأدبي أن يقدم معارف تفيد الحدث السوسيولوجي. كيف يتحول الاهتمام بالنسبة إلى العلوم الإنسانية من السؤال عن ماهية الأدب إلى السؤال عما نفعل بالأدب ؟ أو ماذا يمكن أن نفعل بالأدب .

وتعود النشأة الأولى للفكر الموضوعاتي إلى الخمسينات من القرن العشرين<sup>192</sup> وذلك في سياق النقد الجديد، وقد تأثر أصحابه بعلم النفس التحليلي، وبفلسفة الفكر الظاهراتي، ولكنهم سعوا إلى الاستقلال عنه. وتأسس النقد الموضوعاتي في النظريات الإنشائية الحديثة ليعالج إحدى الإشكاليات الكبرى في قراءة مضامين الأدب وتقطيع العالم الأدبي الذي يقوم عليه النص، وفهم الطيف الدلالي في المنجز الأدبي، ولجيب عن السؤال المعرفي الكبير الذي طرحته الدراسات النصية وهو الآتي : هل يمكن أن يكون الموضوع الأدبي ابتكاراً من المبدع يلفت من خلاله نظر القارئ إلى ظاهرة من الظواهر الثقافية أو الاجتماعية؟ وبعبارة أخرى إنَّ في العالم موضوعات خفية لا تدركها العين المجردة وإنما يتفطن إليها المبدع فيكتبها ويظهرها على سطح الوعي. هل مضمون الخطاب الذي نقرؤه في نص من النصوص هو من إنتاج المبدع وهو من الفكر المميز له أم هو نظام رمزي، وبذلك يمكن للناقد وللقارئ عامة أن ينتج دلالة النص وأن يبنى موضوعاً من خلال النص بصرف النظر عن مقاصد المبدع مهما يكن الجنس الأدبي الذي ينتمي إليه النص . ويمكن أن نرى في الفكر الرومنسي الألماني وفي امتداده عند هيديجر أصلاً من الأصول التنظيمية للفكر الموضوعاتي، فقد ذهبوا إلى أنَّ الموضوع الأدبي هو وعي بالنص وإحساس روحي بالكتابة على نحو ما نجد عند جان جاك روسو ومارسيل بروست . وقد كان للمفكر الفرنسي قاستون باشلار الفضل في وضع الأسس الأولى لهذه المقاربات بصفته أول من وضع للتفكير الموضوعاتي أطراً منهجية عامة تتناوله لقضايا الفضاء والزمان والعناصر الأربعة : النار والهواء والتراب والماء، وهي العناصر المكونة للثقافة الموضوعاتية في مختلف التجارب الكتابية الكلاسيكية والحديثة .

- الماء = الحركة والخصوبة ومصدر الحياة الشفافة .

---

<sup>192</sup> وإن كنا نرى أن مفهوم الوظيفة في السرديات الشكلانية الروسية يمكن أن يكون رافداً من روافد النقد الموضوعاتي لأن الوظيفة هي أصغر وحدة دلالية في الحكاية مثل الأخذ بالتأثر في قصص الأيام أو التعرف على الضحية في الرواية البوليسية أو الهجر في قصص العشاق.

- النار = الحرارة والخصوبة والضياء (النور).

- الهواء = الاتساع والحركة والارتفاع والأحلام.

- التراب = الخصوبة والأصالة والفضاء الحاضن للتجربة والواقع، والمعبر عن أفق الكتابة ( تشبيه القلم بالمحراث والورق بالأرض والكتابة بالحرث ).

وقد ذهب قاستون باشلار إلى أن الموضوع في أي نوع من أنواع الأدب هو أولاً تجربة قرائية أكثر مما هو معرفة علمية، ولذلك يمكن لنص واحد أن يكون فيه أكثر من موضوع بحسب التجربة القرائية كأن نقرأ معلقة إمرئ القيس من موضوع الخصوبة وطقوس العبور من القحط إلى الخصوبة من منظور أنثروبولوجي، أو موضوع المرأة ومغامرة الوصل الغنائي من منظور اجتماعي ذاتي، أو موضوع الفتوة الجاهلية من منظور اجتماعي قبلي. ولعل أهم فكرة جاء بها هذا المفكر العالم هي إعادة تعريف الخيال بالاستناد إلى مفهوم الإدراك الحسي عند إدمون هيسرل، فالخيال هو القوة الرابطة بين العقل والحس، واكتشاف الكهرباء مثلاً هو النتيجة العقلية لتعامل الإنسان مع النار والماء وهما عنصران من العناصر الأربعة المكونة للمادة.

والموضوع أو الجذر أو المدار ليس معطى قبلياً مثل الغرض الأدبي بل هو صيرورة قرائية وإنتاج خاص بثقافة القارئ وبخصائص تلقّيه للأثر ، فالغرض في القصيد نظام معنوي مقصود لذاته في نية الشاعر أو الكاتب كالمدح والغزل والرثاء والهجاء وغيرها من مقاصد الشعر والنثر التي لا تكون بالضرورة موضوعات، أو من تيماته، ولكن يمكن لنا أن نقطع الخطاب من خلال موضوعات يشي بها مخيال الشاعر. إنّ الموضوع هو أولاً إدراك متميّز للعالم، ومن هنا جاءت نظرة باشلار إلى الموضوعات نظرة جمالية. فالموضوعاتية تقسم العالم وفق ثمانية أسس للإدراك الجمالي:

1- العالم في أبعاده المكانية والزمانية : الماضي والحاضر والمستقبل والخلف والأمام ، وفوق وتحت وبين وبين ، والاتساع والانغلاق.

2- العالم ظواهر وعلامات : القوة والضعف، العدد والفرد والعزلة والاجتماع ، والصخب والصمت ،النور والظلام .

3- العالم والأبعاد الأربعة : الماء والنار والتراب والهواء



4- الحلم والحقيقة والحياة والموت .

5- الواقع والخيال.

6- المادة والروح .

7- العقل والعاطفة.

8- الذاتي والموضوعي .

وقد عرّف جان بيار ريشار في مصنفه " إحدى عشرة دراسة في الشعر الحديث" الموضوع بأنه إحدى الوحدات الدلالية التي يمكن استخلاصها من النص وفق مبدأ تنظيمي يتشكّل حوله العالم الأدبي للمبدع، وإحدى البؤر التي ينظر منها المبدع إلى الوجود ، وهو كذلك إحدى الوحدات الدلالية ذات الفاعلية الدلالية التخيلية المتميّزة، والنافذة التي منها ينظر المبدع إلى الكلمة الأدبية وما تتضمنه من وحدات معنوية جزئية<sup>193</sup>. إلا أن إدراج دور القارئ في إنتاج المعنى دفع بريشار إلى تمييز الموضوعات الوصفية من الموضوعات التأويلية، فالأولى تحصر دور القارئ في تحديد المعنى وضبطه في حين تعمل الثانية -عكس ذلك -على تكثير المعنى والتوسّع في الموضوع : فموضوع الجسد في شعر ستيفان مالرميه (S.Malarmé) مثلاً معجم متوالد في قصائده وهو يتكاثر بالتأويل وبما يتضمنه من استعارات تستعمل في موضوعات أخرى.

## 1- الموضوعاتية والنقد الاجتماعي:

تلتقي المقاربة الموضوعاتية ومنهج النقد الاجتماعي في ثلاثة مستويات :

### 1-1 الظاهرة الاجتماعية والظاهرة الموضوعاتية: تتناول الدراسة الاجتماعية موضوعات الأدب

بما هي ظواهر ثقافية أو جمالية أو تيمات اجتماعية كتيمة الصداقة أو الغربة أو الحنين إلى الأوطان أو تيمة الحب في الغزل أو تيمة الشعبوية في الهجاء أو الحرب في شعر الحماسة أو الطفولة في الشعر الغنائي الرومنسي وفي الترجمة الذاتية. ولكن الدراسة الموضوعاتية تبني أسسها المفهومية للظواهر الجمالية على تتبّع ما سمّاه بشلار بالخيال أو المخيال الموضوعاتي، فالنص الأدبي يتضمّن متتاليات موضوعاتية أو تيمات ينتجها خيال المبدع، وينثرها في النص ويعيد القارئ بحسّه الاستعاري

<sup>193</sup> عالم مالارمي الشعري ص 110.

جمعها وبناءها في خطاب نقدي تحليلي. وفي ضوء هذه الظواهر تبني الدراسة الموضوعاتية على مفاهيم اجتماعية مستمدة من الظاهرة نفسها فتقسمها إلى وظائف صغرى ، منها في ظاهرة الحب أو تيمة الحب :

- الوصل والهجر: ( موضوعان فرعيان أو "موتيفان" من موتيفات الشعر وقصص العشاق النثرية ) وتتمّ دراستهما بإحصاء الأبيات أو المقاطع والأخبار التي تصور هاتين الظاهرتين: المحبّ - الرقيب - الوصل - الهجر وما بينهما من صراع مع المجتمع وأثره في هذه الظواهر، ومن هذه الموضوعات كذلك موضوع الحرب أو تيمتها :

- البواعث على الحرب - الفضاء الحربي - المعركة - الانتصار والانهزام .

- موضوع الصداقة (تيمة) :يمكن دراسته باستخدام مفهوم الحساسية التخيلية عند جان بيار ريشار:

أ- الصداقة والموضوعات المجاورة لها: الأخوة - العصبية - الرابطة الاجتماعية .

ب- الصديق والمجتمع.

ج- الصداقة والقيم.

د- الصداقة وكتابة الأدب.

- الصداقة بين الواقع والمثال

## 1-2 الوعي بالعالم : يركز جان بيار ريشار كتابته الموضوعاتية على مسألة الوعي بالعالم

بصفته محرّكاً لبناء الموضوعات في مختلف أجناس الكتابة الأدبية، وهذا الوعي يغذّي الخيال وقدرة المبدع على تنظيم مكوّنات العالم من خلال ذلك الموضوع. وتلتقي نظرة جان بيار ريشار وقاستون باشلار في الوعي التخيلي بالعالم من خلال خصائص العناصر المكوّنة للصفات المادية للأشياء من ذلك مثلاً أنّ الوعي بصورة المكان في الرواية أو في الشعر ينظم من خلال الفضاءات السائلة كالماء الجاري أو المياه الجامدة أو الأمكنة المظلمة أي التي ينقصها النور أو الأمكنة المضاءة أو المرتفعة ( تحليل مارسيل بروست لرواية التربية العاطفية لستندال Stendhal ) أو الكائنات الطائرة أو الفضاءات

المنفتحة. ويمكن للوعي بالعالم أن يظهر في متتاليات من الأفعال والأسماء المتقاطبة والمتشاكلة في النصّ الأدبي ، أمثلة:

موضوع الخوف: الأفعال:خاف-اعتذر-قلق-فرّ-اختبأ-استعطف-الأسماء: الخوف-القلق-الليل-الوحشة-الندم-التوجس-الهروب-الاعتذار... ويمكن من خلال هذه المعاجم المكوّنة للأفعال وللأسماء أن نبني الموضوعات الأدبية .

### 1-3 مجاوزة ثنائية المضمون والأسلوب:

إنّ تجربة الكتابة في موضوع أدبي هي تجربة جمالية ذاتية يلتزم فيه "الأنا"<sup>194</sup> المبدع بالشكل والمضمون معا لذا تبطل الدراسة الموضوعاتية الفصل بين الشكل والمضمون، وقد دحض مارسيل بروسست مقولة "سانت بوف" (S. Beuve) الأسلوب هو الإنسان لوضع مقولة جديدة أكثر تعبيراً عن الفكر الموضوعاتي وهي الأسلوب هو الموضوع نفسه أو هو نظرة المبدع إلى الموضوع نفسه . ويرى أنّ الاستعارة أو التشبيه أو غيرهما من الأساليب التصويرية ونظم التمثيل إنّما هي جهات ينظر منها المبدعون إلى الموضوعات، فالموضوع في أي أثر من الآثار الأدبية هو المعدّل العام للاستعارات والتشبيهات المستعملة في ذلك الموضوع .

ونلاحظ في المجال السردى مثلاً أنّ انتظام الموضوعات يمكن أن يكون من خلال التجربة النفسية الملموسة كتجربة الخوف في عالم البخلاء، فالخوف في قصص الجاحظ موضوع أو تيمة من التيمات التي تنتظم فيها أوصاف شخصيات البخلاء ونظرتهم إلى العالم، ويمكن أن يكون هذا الموضوع مصدراً لصناعة الاستعارات، والعفة في قصص العشاق وفي طوق الحمامة لابن حزم فرع موضوعي من موضوعات التجربة في موضوع الحبّ .

### 2-الموضوعاتية وعلم النفس الأدبي:

---

<sup>194</sup> لا صلة لعبارة الأنا في التحليل النفسي بضمير المتكلم المفرد ، فالضمير المفرد كسائر الضمائر معرفة وهو لا يحتاج إلى تعريف أما الأنا في التحليل النفسي فهو وحدة شعورية ومنطقة من مناطق الوعي الثلاث وهي الأنا الأعلى وهو الضمير الاجتماعي الخارجي والهو وهو اللاوعي والأنا وهو الوعي الفردي أو الضمير الذاتي .

يمكن أن ننطلق في تعريف النقد الموضوعاتي في صلتها بالنقد النفسي من تعريف داناييل برجيز فهو يقول : " وفي الحقيقة فإنّ نقاط الالتقاء بينهما مهمّة، فهناك الاهتمام المميّز ذاته بالصور والرغبة ذاتها بتجاوز المعنى الظاهر للنصوص واعتماد القراءة العرضانية للأعمال الأدبيّة ( أي قراءة العمل قراءة أفقيّة ) وهي قراءة بينية تسمح بعقد المقارنات وإظهار التشكيلات التصويريّة والترسيمات الغالبة.... لكنّ هاتين المقاربتين تتعارضان جذريًا في مسألة العلاقة بين الذات المبدعة وعملها الأدبي، إذ يميل التحليل النفسي إلى النظر إلى العمل الأدبي بما هو جملة معقّدة تحيل على وضع نفسي سابق وتلعب دورا تصعيديًا، فالفنّ عن طريق الإيهام يدفع بالرغبة المكبوتة إلى التعبير عن ذاتها، وعلى العكس من ذلك يرى قاستون باشلار وهو أحد مؤسّسي الفكر الموضوعاتي ذي المنحى النفسي أنّه لا يجب ردّ الصورة إلى تكوّنها وربطها بما يسبقها بل التقاطها عند ولادتها ومعاشتها في صيرورتها " <sup>195</sup>.

إنّ هذه المقولات تعارض النظرة النصّانية أو الشكلانية للأدب، وقد استند أصحابها مثل جورج بولي (G. Poulet) وجان روسي وجان ستاروبنسكي إلى أعمال قاستون باشلار، وتذهب هذه الرؤية الموضوعاتية إلى أنّ الكتابة الأدبيّة ليست بصناعة لفظيّة أو أسلوبيّة على نحو ما يرى الشكلانيون وأصحاب النقد الجديد وعامة البنيويين من إنشائيين ونصّانيين وإنّما الكتابة الأدبيّة أو القول الأدبي عموما هي أولاً تجربة نفسيّة أو روحية وثقافية <sup>196</sup>.

### 3- علاقة الموضوع بالعالم :

لا تخلو نظرة قاستون باشلار إلى إنشائية الكتابة من الناحية الموضوعاتية من بعد بيني فهو يذهب في تحليل جمالية الفضاء <sup>197</sup> إلى أنّ العلاقة بين اللغة والكتابة والتجربة هي التي تحدّد زاوية نظر المتكلم إلى الفضاء، وبذلك يكون المكان موضوعا أدبيا أي ظاهرة جمالية في إدراك الأشياء، لا بما هو

<sup>195</sup> النقد الموضوعاتي ضمن مدخل إلى مناهج النقد الأدبي، ص 105 .

<sup>196</sup> المصدر نفسه.

<sup>197</sup> نذكر بأنّ كتاب باشلار هذا يندرج في مشروع تحليلي جمالي متكامل العناصر ضمن ما يعرف بالفكر الموضوعاتي، وفي هذا المشروع ألف باشلار مجموعة من المصنفات الجمالية تناول في كلّ واحد منها عنصرا من العناصر الأربعة المعروفة وهي الماء والهواء والتراب والنار .

مكان محايد، بل بما هو زاوية نظر (مكان الطفولة- الباب الموارب- السقف- الركن المنسي - الغرفة عند الاستيقاظ من النوم- المحطة قبل انطلاق القطار - المطار ولحظة الوداع- الحديقة المقفرة- ظلال الشجرة وحكايات الصيف - انعكاس النور تحت الفانوس العمومي ). وهي زوايا نظر تتناول ما يمكن أن نسميه **بالجغرافيا العاطفية والجمالية** كالفضاء المدني، وكالأطلال في القصيد البدوي والفضاء المجلسي في نوادر القصور والبلاطات وأدب المنادمة والمطارحات والمفاكهات، وكالمجالس الأدبية في المقامات، وفضاء الذكريات في أدب السيرة الذاتية والمذكرات واليوميات والفضاءات في الرواية الحديثة، وهي موضوعات أدبية أو تيمات تصور الشوارع والأحياء والأرباض والمقاهي والأمطار التي تنزل على المباني وألوان الفوانيس المعلقة في الشوارع ، وسائر ألوان المعمار في المدينة، وحركة الإنسان في فضاء المدينة، وضياع الفرد وغريته في الأماكن العامة.

وإنَّ المبدع يسعى بخطابه عن المكان أو الفضاء إلى تأثيث المكان بالتجربة الروحية التي يعيشها مع أفكاره وأحاسيسه في ذلك الفضاء فيؤثثها بالنسيب في المكان الطللي وبالتفكّل والكدية والتطرّح في الفضاء المجلسي الحضري (المقامات) وبأدب المفاضلات والمناظرات في المجلس الجادّ ( الإمتاع والمؤانسة للتوحيدي )...

إنَّ الموضوع الأدبي في النقد الموضوعاتي هو وعي بالعالم على نحو من الأنحاء، وهو كما يرى قاستون باشلار علاقة ذاتية واعية بالعالم فاللغة تتضمّن معطيات متعددة يمكن أن ننظر إليها من زوايا مختلفة ، أي يمكن أن ينظر المبدع إلى القطب الدلالي الواحد من خلال علاقات أي تيمات أو موضوعات مختلفة، وفي هذا السياق يقول جون بوليه في كتابه "بيني وبين نفسي" : " قل لي كيف تتصور الزمان والمكان أو قل لي أيضا كيف تقيم الصلات مع العالم الخارجي وسأقول لك من أنت". ويذهب عامّة الموضوعاتيين إلى أنّ الحواسّ التي نصوغها في متخيّل هي التي تدفعنا إلى تنظيم العالم في موضوعات بعينها .

أمثلة :

**\*الرحلة في القصيد القديم :**

-استكشاف للمكان وللفضاء ( موضوع/ تيمة1) . فكلمة رحلة تتضمن معنيين متشاكلين هما المعنى الزمني أو الحركة في الزمن والمعنى المكاني أو الحركة في المكان .

- رمز للرحلة في الزمان (موضوع/ تيمة2).

- الهروب من المكان والزمان (موضوع/ تيمة3).

**\* الحبّ في الغزل القديم :**

- علاقة اللغة بالجسد ( موضوع / تيمة1: الغزل الإباحي).

- علاقة اللغة بالروح ( موضوع / تيمة 2: الغزل العفيف).

**\* السعادة في الشعر الرومنسي:**

- الطفولة: التعبير عن الحركة الحسية في السعادة أي تصوير العالم وهو يتحرك حسيا ويستعمل الاستعارات الطفولية أو الرمزية.

(موضوع إحساس بالسعادة والحرية / تيمة1).

-الحلم (موضوع / تيمة2).

- الطيران: تجربة استعارية في التعبير عن السعادة (موضوع / تيمة3).

**\* الغربة في النثر العربي القديم:**

هي علاقة تجربة انقطاع تقابل موضوع الصداقة وهي علاقة تجربة اتصال :

- الغربة الاجتماعية : التعبير عن الحالة الحسية في الغربة أي تصوير العالم وهو ينفصل حسيا عن الذات أو العكس (موضوع/ تيمة 1) .ويكون موضوع الجسد الفعلي والجسد الرمزي مادة من موادّ قراءة هذه الغربة .

- الغربة الفكرية (موضوع/ تيمة2).

-الغربة الروحية:التعبير عن الحالة الروحية في الغربة أي تصوير العالم وهو ينفصل روحيا عن الذات أو العكس (موضوع/تيمة3).

وبعد فإنّ النقد الموضوعاتي مقارنة قرائية بينية للخطاب الأدبي، هو مقارنة بينية لأنه يتناول الظاهرة الأدبية بما هي موضوع معقّد متعدّد الجوانب لأنه موضوع تجربة إنسانية ذات قيمة نفسية واجتماعية وجمالية ولأنه ينظر إلى العالم من خلال موضوع يختاره القارئ ليصل منه إلى تجربة المبدع الاجتماعية أو النفسية أو الثقافية . والموضوع الأدبي أو التيمة إذن ليس بالضرورة اختيارا من اختيارات المبدع بل يمكن أن يكون **تقطيعا قرائيا** للنص الأدبي، فهو أكثر التصاقا بالذات القارئة منه بالذات المنتجة للأدب.

إنّ الموضوع حيّز بيني لأنه خلاصة الروافد الثقافية والاجتماعية والنفسية، ولأنه حركة الفكر المتجهة إلى قراءة أثر من الآثار، وهو أخيرا عنوان من عناوين الرغبات القرائية، ونظرة المتلقّي للنص من زاوية نوع الخطاب وجنس الكتابة. ويمكن للنص نفسه أن تتراكب مستويات تقطيعه الموضوعاتي، فيكون ذلك مظهرا من مظاهر ثرائه الثقافي والجمالي.

القسم الثالث  
البينية والإبداع الأدبي



## الفصل الأول

### البينية والشعرية

#### 1- البينية والمخيال الشعري:

نهتمّ بالبينية والمخيال الشعري لأنّ المخيال الشعري أو الآلة الشعرية هي القالب الذي تتجذب إليه جميع مكونات الحدث الإبداعي، ولأنّ أغلب الاتجاهات الإنشائية وخاصة إنشائية النقد الموضوعاتي عند قاستون باشلار وجورج بولي (G.Poulet) وجلبار ديران (G.Durand) تتفق على أنّ المناطق الحدودية التخومية بين الألوان الأدبية وفنون التعبير المختلفة هي الفضاءات التي ينشط فيها المخيال الأدبي وتحتكّ فيها الشرارات المولدة للحدث الإبداعي. فالتخييل هو حركة تساؤل دائبة عن إمكان إحداث علاقات بين الأشياء والموجودات، ولا يمكن أن ينشأ تخييل ما خارج الحركة التي تقرب بين الأشياء والموجودات، فالتخييل هو فضاء الحدود الذي تتحرّك فيه المدركات لتأخذ معناها الماصدقي أو التأويلي في المعجم السياقي. أما المعنى الماصدقي فهو معنى غير بيني لأنه لا يحتاج إلى تضافر التخصّصات لاستنباطه، فقولك زيد أسد يعني أنه شجاع ومقدام وأما المعنى التأويلي فهو المعنى البيني لأنه يفتح مجالا تتضافر علوم إنسانية مختلفة لقراءته : فقولك زيد شجاع يمكن أن يعني من وجهة النظر النفسية أنه صلب لا يخاف غيره أو أنه متهور لا يقرأ حسابا لمآله وهو ما نقرؤه من قصة الأسد والأرنب في باب الأسد والثور من كليلة دمنة ، ويمكن أن نقرأه من وجهة نظر اجتماعية فيكون زيد رأس قومه أو مدبر شؤونهم أو حامي حماهم وتكون هذه المعاني جميعها استرسالا دلاليا في قولك زيد شجاع.

وإذا انطلقنا من فهم قاستون باشلار لشعرية الفضاء البيني التي يمثلها الداخل والخارج أو فوق والتحت أو الأمام والخلف أو الباب الموارب (Entr-ouvert) أو المناطق الظليلة التي تجمع بين النور والظلام وأثرها في بناء شعرية الموضوع الأدبي انتهينا بعد تحليل عميق للموضوعات الشعرية في القصيد الحديث إلى أن الشعراء فوق واقعيين (Surrealist) خاصة يميلون إلى بناء شعرية الفضاء على البينية في الصور المرئية والمسموعة والملموسة والمشمومة والمذوقة . وقبل التوسّع في تحليل شعرية "البين بين" نلاحظ أنّ المكان البيني عرف تطورا لافتا للانتباه في الموضوعات الشعرية الحديثة، وقد استفاد استفادة كبرى من السرديات ومن المخيال الروائي. فالأمكنة التي انفتح عليها الشعر العربي والعالمي عموما هي أمكنة مرتبطة بوسائل الحضارة والمدنية الحديثة ونذكر منها وسائل النقل وفضاءاتها، وفي هذا السياق تشترك محطة القطار والمطار والميناء في الانفتاح على الخارج، فهي جميعها أمكنة تخومية أو حدودية تلتبس فيها الجهات وتتداخل فيها الأصوات وتتنوع فيها الشخصيات والاتجاهات إذ يمكن أن يتّجه إلى نفس القطار بنفس الحركة قادم من رحلة ومنطلق إلى رحلة ، مهاجر

يدخل عالم الغربة وعائد إلى هويته وأرضه. وتشارك هذه الفضاءات الثلاثة كذلك في حياديتها التاريخية واللغوية والعرفية فهي ليست أمكنة حميمية رغم ما تزرع به من مشاهد التوديع والاستقبال، وليس لهذه الأماكن تاريخ في حياة الشخصية القصصية وذاكرتها الخاصة، وإن كان من الممكن أن تصنع فيها أحلام اليقظة، ذلك أنّ انعدام الذاتية العامة الاجتماعية أو القبلية أو الوطنية أو الأسرية يفرض على الذات الفردية انكفاء على نفسها وإحساسا بتضخم الذات في دلالتها العميقة (Subjectum) . ولا يمكن للروائي أو للشاعر أو المبدع عموماً أن يصنع لهذه الأمكنة البينية في كتابته تاريخاً يناظر أو يوازي تاريخ البيت والمكتب والمصنع والحديقة الخاصة أو العمومية التي يتردد عليها الشخص . وهي - في نظرنا - بعكس ما يراه حسن البحراوي من الأمكنة التي لا تشكلها الأحداث والشخصيات<sup>198</sup> بل إنّها مفارقة لحركة المكان في البناء الروائي، ولكنّ هذه الخصيصة نفسها هي التي تشجّع الشخصية على البحث في هذه الأماكن عن التواصل في عالم تسوده القطيعة والتدابير .

إنّ المجتمع الكلاسيكي فيما يرى علماء الاجتماع يلفظ الشخصية الهامشية ويطردها فتلقاً إلى الفضاء البيني أو فضاء الهروب والوحدة والعزلة واللاشخص، تفرّ إلى المحطّة أو إلى المطار أو إلى الميناء للارتقاء في أحضان المبهم أو للبحث عن لون من ألوان التواصل أو لمجاوزة الحدود. والمحطّة في هذا الفضاء البيني هي ملجأ الفارين من الملاحقة، وفي هذا المعنى يقول يوسف الساقى "نعلم أنّ المحطات كانت دوماً الأمكنة الفضلة عند كتاب السيناريوهات السينمائية لتصوير مشاهد الملاحقة، ففي الأشرطة الحديثة تكون المحطة المكان الذي يهرع إليه الهارب أملاً في التخلص ممن يلاحقه، وفي التسترّ بين المارة"<sup>199</sup>. وفي قصّة مجرم رغم أنفه للكاتب التونسي علي الدوعاجي<sup>200</sup> لجأ البطل الشاب

<sup>198</sup> بنية الشكل الروائي ، المركز الثقافي العربي ببيروت ، لبنان / الدار البيضاء 199 المغرب 0 ص 29 .

<sup>199</sup> ; Le nomade; La gare et la maison vue de toute part; Communications 73 ;2002 p150.

<sup>200</sup> من جماعة تحت السور وهي جماعة أدبية عاشت بتونس في الأربعينات من القرن الميلادي الماضي ، ومن أشهر أعلامها مصطفى خريف والهادي العبيدي وعبد الرزاق كركاكة وعبد العزيز العروي . والدوعاجي من الزجاليين ومن رواد الأقصوصة الواقعية في تونس وفي العالم العربي عامّة ، كتب مجموعته الموسومة بسهرت منه الليالي واختار أن يعبرّ فيها عن واقع الفئات الاجتماعية البسيطة، وأن يهتمّ بالتفاصيل البسيطة العميقة في دلالاتها الإنسانية في أسلوب تغلب عليه السخرية السوداء ، واستعمال تقنية سوء التفاهم في لحظة التتوير . وقد طبعت هذه المجموعة مرّات عديدة .

إلى المحطة- وهي مكان يبني يجمع إلى الرمز الزمني دلالة الغربة في المكان- ووفق بيث شكواه إلى شيخ ظنّه يسمع ويتكلّم ولكنه يصدّم بأنّه أخرس أبكم فتكرّس القطيعة ولا يغنم الشاب من الفضاء شيئاً، ولا تحقّق البينية التي تتميّز بها المحطة وظيفة سردية مفيدة في القصة . وتشترك أماكن السفر( محطات السكك الحديدية والمطارات خاصّة ) كذلك في صوت المضخّم الذي يذكّر بمواعيد الرحلات فهي فضاءات الوعي بتسرّب الزمن. ولكنّ محطة السكك الحديدية تختلف عن المطار والميناء من جهات عدّة إذ كثيراً ما تحتضن قاعة الانتظار في محطات السكك الحديدية مقاطع وصف الفراق وعجلة القطار تتحرك لتغادر المحطة، ومقاطع وصف اللقاء بعد الغياب، فهي أماكن التعبير عن الأحاسيس والمواقف المتناقضة المضطربة وعن انصرام الزمن ، فالمحطة في المدينة تناظر في دلالاتها النفسية غروب الشمس في البحيرة في الفضاء الرومانسي ، وكذلك حركة القطار وصوت العجلات الحديدية تتحرّك ببطء على القضبان ثم تتسارع حركتها في إيقاع يذكّر الشخصية القصصية بإيقاع الزمن . لذلك تجد بين صوت القطار يدخل المحطة أو يغادرها والشخصية صلة تراسل نفسي يتداعى بمقتضاه صوتها الداخلي وتتضاءل المقاطع الحوارية .

ففي رواية سمر الليالي لنبيل سليمان مثلاً ينظر الراوي إلى الشخصية القصصية من خلال وصف الفضاء البيني بما فيه من عناصر مكانية معبّرة عن عالم التكنولوجيا والاتصال وما أدخلته على حياة الشخصية من تطور جذري في رسم المكان بعين الشخصية القصصية وهي رؤية يقوم التبئير فيها على البينية (Inter-focalization): " من اللوحة التي تحمل اسم المقدّم "زاهر حمدو" تسلّلت عينا رياً إلى قفا الكمبيوتر ، ثم إلى وجه المقدّم الذي كانت عيناه تغازلان الشاشة ، وأصابعه على الكمبيوتر تارة وتلهو بالفارة تارة"<sup>201</sup>.

ويضيف الراوي في سياق آخر: "وبعد أن تطفئ الكهرباء والتلفزيون وتوقد نشوى شمعتها ويلعب الشمعة ما ينسرب في شقوق الباب والنافذتين من لسع الريح وصفيها ستحسب "شهد" أنّ ما ترويه "رياً" الآن هو ما تعيشان أو ما تعيش الأخريات، فالغرفة صارت حقاً قارباً والطابق الأسفل يصير<sup>202</sup> سفينة

<sup>201</sup> سمر الليالي ط 1 دار الحوار للنشر والتوزيع سورية اللاذقية 2000 ص 11 .

<sup>202</sup> نلاحظ أنّ الروائي نبيل سليمان لا يحفل بدقائق الفروق بين الأزمنة و دلالاتها فيستعمل الماضي عوضاً عن المضارع ويدخل على المضارع أدوات الشرط في ضروب من الاستعمال غير معروفة ( وحين ستنفرد ) وقد اجتهدنا لفهم وجوه تلك الاستعمالات وفي البحث عمّا يبرزها من ناحية الدلالة والإبداع في الكتابة فلم نتمكن من ذلك ؟ .

بعلوها الطابق الأعلى رويدا ، ثم تبحر السفينة بالمجنونات المنبذات إلى جزيرة بعيدة خلت من الأمّ وزوج الأب وقبر الأمّ ومن الأخوة والجدة والذكريات ، وغدت مرساة لسفينة نوح لكنّ النعاس يغلب ريًا " بهذا المقطع يفتح باب السجن على حلم اليقظة فتحرّر الذات من ضيق المكان إلى الفضاء المتخيّل الرحب ومن المنزلة الدون التي تعيشها والقيّد الاجتماعي والثقافي والنفسي الذي يكبلها ، لتبحر في عالم من الحرية ويكون البحر والسفينة والجزيرة البعيدة الرموز المعبّرة عن المغامرة والخلاص وكسر القيود.

## 2- التناصّ والفكر البيني :

يمكن أن ننطلق من مفهوم التناص لفهم قضايا التفاعل بين أضرب الأجناس الأدبية في الثقافة العربية القديمة، وهو المرجع الإنشائي الوحيد الذي يمكننا بآليات البحث في البينية والإبداع الأدبي. ويتنزل مفهوم العلاقة أو البين (L'Inter) منزلة حجر زاوية من الفكر الأدبي الحديث، ويستعمل هذا العنصر اللغوي سابقة (Préfixe) لعدد كبير من المصطلحات . وقد استلهمه النقد الفرنسي الجديد من الفكر البنيوي في شقّه التفسيري دون التأويلي<sup>203</sup> . فالعلاقة أو "البين" مفهوم إنشائي مولّد لأغلب الأفكار البينية التي تبنتها العلوم الإنسانية الحديثة وفي صدارتها علوم الخطاب. ويعود مفهوم "البين" إلى مبدأ الحوارية الذي بنى عليه ميخائيل باختين مفهوم تعدّد القيم والكلمة الغيرية في تحليله الإنشائي لشعرية دوستوفسكي.

ولم يستطع كثير من الباحثين أن يتمثّلوا مفهوم التناص وهو مفهوم إنشائي بيني لأنهم لم يضعوه في إطاره الثقافي والجمالي البيني. وقد ألّف الدارسون العرب عدّة أبحاث في مفهوم التناص وسعوا إلى تعريب أصوله النظرية. ومن المراجع التي العربية التي حظيت بالسبق في نقل هذا المفهوم كتاب محمد مفتاح " تحليل الخطاب الشعري " الصادر منذ سنة 1985.

ولكنّ المرجعيات النظرية التي استند إليها محمد مفتاح لا تراعي في تسلسلها التاريخ المسار التطويري الذي مرّ به هذا المفهوم منذ نشأته كمفهوم إنشائي مع باختين مروراً بنظرية النص عند بارت وثورة اللغة الشعرية عند جوليا كريستيفا، فلوران جيني، ووصولاً إلى أدبيات التعالي النصي عند جرار جينيت.

<sup>203</sup> راجع في خصوص التمييز بين السرديات التفسيرية والتأويلية : العادل خضر : يحكى أن منشورات دار المعرفة للنشر تونس 2006 ص ص22- 284.

إنَّ القارئ لا يصل بعد قراءة الكتاب إلى فهم منزلة التناص من الكتاب كلاً، فالتناص في أصوله النظرية الإنشائية لا صلة له بما جاء في هذا الكتاب من تحاليل للأصوات وللدلالات ومفاهيم التشاكل والإيقاع ؟ ، فهذه التحاليل هي أقرب إلى دلالية قريماس وهلمسلاف منها إلى الحوارية وتعدّد القيم أو البوليفونيا التي تنهض عليها مقولة التناص. والغريب أنَّ بعض الباحثين يطرحون جانباً المصادر الرئيسية التي تنظر للتناص ويعولون على هذا المرجع كتعويل عبد السلام الموساوي عليه في تحليل التناص أو الذات المحتملة بذاكرتها في شعر محمود درويش. فقد ابتكر هذا الباحث مفهوماً يتناقض تماماً ومحتوى مصطلح التناص كما صاغه رفاتير وبارت وكريستيفا وغيرهم وهو التناص الاعتباري وعرفه بقوله: "فالتناص الاعتباري يتحقق عادة في النص الجديد انطلاقاً ممّا ترسّخ في ذاكرة المبدع على امتداد فترة قد تطول وقد تقصر، وفيه تحضر المناصّات بإرادتها المفروضة على وعي المبدع أي أنّ المبدع نفسه قد لا ينتبه إلى حضورها تبعاً لمستوى تخفيها بين مكونات النص"<sup>204</sup>. لقد فات الباحث أنّ هذا التعريف يتناقض تماماً ومفهوم التناص الإنشائي عند النقاد الإنشائيين الجدد، بل إنهم يعدّون التناص عملية حوارية واعية وجزءاً من الكتابة الجديدة التي يرمي من ورائها المبدع إلى إنجاز تحويل فني في النص الأصلي، وإنّ ما سماه هذا الباحث التناص الاعتباري إنما هو مفهوم الروافد والمؤثرات وهو من مفاهيم تاريخ الأدب، وليس من مفاهيم الدراسة الإنشائية. وكان بإمكان الباحث أن يقدّم مفهوم التناص كما جاء في أصوله وأن ينقده ويضيف إليه مفهوماً جديداً أو تقرّيعاً آخر فنعدّ نحن القراء ذلك من باب التراكم المعرفي. بل يذهب بعضهم إلى تأصيل هذا المفهوم في التراث العربي<sup>205</sup> وهم في هذا يقعون في إسقاط تاريخي.

إنّ التناص مصدر من فعل قولني كتابي هو فعل تناصّ، وهو فعل دال على المشاركة والتفاعل ، ولا يمكن أن نفهم دلالة هذا المصدر في بعدها الإنشائي إلّا ونحن آخذون بالاعتبار الحركة التي تتمّ بين نصين اثنين على الأقل، فالتناص ليس منتوجاً نصياً جاهزاً جامداً بل هو حركة تحول وانتقال وحوار من نص إلى آخر، أو من جنس أدبي إلى سواه، فالتناص هو حدث نصّي بيني، ومسار إنشائي وقرائ

<sup>204</sup> جماليات الموت في شعر محمود درويش، دار الساقي، بيروت 2009 ص68.

<sup>205</sup> ينظر مثلاً في : محمد عبد المطلب: التناص عند عبد القاهر الجرجاني ،علامات في النقد، منشورات النادي الأدبي بجدة ج3، مج1 ، 1412 .

ولذلك كنّا نلحّ في أغلب ما كتبنا عن هذا المصطلح أنّ ظاهرة التناص ليست ظاهرة نصية بل هي ظاهرة نصوصية أي إنها تنتزّل من حركة الأدب منزلة الطاقة المحركة للإبداع . وهو المنطقة الواقعة بين نصين. وقد ألحّ الإنشائيون على الفرق بين التناصّ والمؤثرات الأدبية في الخطاب الأدبي فقال مايكل رفاتير " إنّ المؤثرات والروافد الأدبية ظاهرة تاريخية من ظواهر تاريخ الأدب تختلف كل الاختلاف عن التناص لأنها لا تقوم على تفاعل بين النصوص وفق ميكانيزمات التناص ولكنها عمليات غير واعية وآثار طبيعية تنتج عن ثقافة الأديب، أما التناص فهو حركة كتابة واعية، وهو تحويل فني مقصود ومحدّد داخل منظومة من الميكانيزمات النصية مثل التعرية والقلب والتضخيم والمحاكاة الساخرة وحلّ المنظوم ونظم المنثور. وهذه العمليات جميعها لا يمكن أن تحدّد إلّا ونحن ننظر إلى المسار كله، أي إلى المسار من نص إلى آخر، من نصّ المنطلق إلى نصّ المآل<sup>206</sup>. إنّ مفهوم الإنتاجية عند جوليا كريستيفا ورولان بارت يسلمنا إلى أنّ عملية التناص هي في الآن نفسه عملية كتابة وقراءة، لأنّ كل نص هو تناص أو هو نسيج من الخطابات السابقة تهدم ويعاد بناؤها، وهذه السمة هي جوهر البينية في إنشائية التناصّ.

---

<sup>206</sup> يمكن أن نراجع التعريف المفصل للتناص في : معجم السرديات ص113- 117 ومعجم تحليل الخطاب ص318.

الفصل الثاني  
أدب الأمثال والدراسة البينية



## 1-دراسة المجال المثلي بين علم الإناسة والتداولية :

لا يخفى على القارئ الكريم أنّ قطاع الأمثال والحكم والعبارات الاستعارية النائمة والأعراف اللسانية في جميع اللغات هو من أهمّ القطاعات التواصلية انفتاحا على المناهج العلمية المتخصصة في تحليل الظواهر الخطابية ( بفتح الخاء) وهو القطاع الذي يمكن أن نختبر فيه كأحسن ما يكون الاختبار نجاعة تضافر المعارف والتخصّصات في دراسة الأدب، فقطاع الأمثال مجال لساني يمنحنا فكرة عن اللسنيات التي تتميز بها لغة أمة من الأمم في مرحلة من مراحل تاريخها وما ينجرّ عنها من نتائج في مستوى دراسة الخصائص الاجتماعية والاقتصادية والثقافية لتلك الأمة أو تلك المجموعة اللغوية. ويمكن لعالم الاجتماع أن يدرس الواقع الاجتماعي وسلّم القيم والصراعات الأيديولوجية بين المجموعات من خلال القطاع المثلي. ويمكن لعالم الأنثروبولوجيا أن يجد فيها مصدرا خصبا لأنماط العيش والأعراف والمعتقدات، والعلاقة بين الإنسان والمكان والزمان والموت .

وقد حظي أدب الأمثال منذ القرن الثاني الهجري باهتمام علماء اللغة، ويدخل هذا الاهتمام ضمن حركة جمع اللغة العربية من خلال النقاط الشواهد التي تدوّن لغات القبائل ولهجاتها، وقد استعمل الكوفيون العبارات المثلية حجة لتبرير كثير من الجوازات النحوية التي اختلفوا فيها مع البصريين، كجواز تقديم الضمير على الاسم العائد عليه في قولهم " في بيته يؤتى الحكم". ولم تكن للأمثال في

البداية صلة بالحياة الأدبية والاجتماعية بل كانت الغاية الأساس جمع اللغة وغريبها. وبهذا نفسّر تأليف المفضل الضبيّ الكوفي كتابه أمثال العرب وقد وصل إلينا كاملاً.

وقد تواصل التأليف في هذا المجال إلى أن وضع الميداني النيسابوري مصنّفه الجامع لأكثر من ستّة آلاف عبارة مثلية وهو مجمع الأمثال، ولم يكن للجنس المثلي موضع من نظرية الأدب القديمة يذكر، بل كان مصنّفو الكتب يقتصرون على مقدّمات عامة يعرفون فيها بالمثل ويركّزون على سمة الإيجاز وبلاغة الصورة، ولم يكن الفضاء المثلي مجالاً من مجالات الدراسة الإنسانية البينية . ولم يكن جهد المحدثين الأوائل يختلف كبير اختلاف عن جهد القدامى، فقد اقتصرت الدراسات التي ظهرت في السبعينات والثمانينات من القرن العشرين على النظر إلى هذا الفضاء نظرة تاريخية، وظلّ كثير منها أسير الدراسة البلاغية الضيقة، ولم يتح لهذا التراث الهامّ أن ينفّث على العلوم الإنسانية التي يمكن أن توفرّ للدارسين أدوات قرائية أكثر نجاعة من الأدوات التي توفرّها البلاغة الضيقة. إنّ حشر المجال المثلي في فضاء الأدب بمعناه بالضيق هو الذي حرم هذا القطاع لزمن طويل أن يعالج بأدوات الفكر الاجتماعي والأنثروبولوجي، فمفهوم الدارسين العرب للأدب لم يكن يسمح بتصور مقاييس أدبية ومعايير تحليلية غير تلك التي تنطبق على الشعر وعلى الأجناس الأدبية الحاملة لبلاغة العبارة حتى أنّ رجلاً كشوقي ضيف يعرف بلاغة الأمثال بمعايير تنطبق أساساً على الشعر وعلى الأجناس الأدبية العالمية أي تلك التي تقوم على بلاغة العبارة: "من ينعم النظر في الأمثال الجاهلية يجد طائفة منها توفرّ لها ضروب من القيم التصويرية والموسيقية، ففيها أحياناً تشبيه واستعارة وكناية وتمثيل"<sup>207</sup>. ثم يضيف إلى هذا التعريف تعريفاً آخر بالسلب أي بغياب عناصر بلاغة الرسائل أو المقامات أو الشعر ويذهب إلى أنّ الأمثال القديمة "مغسولة من الفن"<sup>208</sup> ومعلوم أنّ التعريف بالسلب شكل من أشكال رفض الاعتراف بهوية الشيء المعرّف، ولون من ألوان الامتناع عن البحث عن خصوصياته أي عن عناصره التعريفية الخاصة به .

ولكن الاهتمام بالفضاء المثلي يشهد منذ أكثر من ثلاثة عقود تطوراً لافتاً للانتباه من حيث تنوّع التخصصات التي تولي هذا القطاع عناية قصوى، وما كان لهذا الاهتمام أن يتمّ تمامه لولا تغيّر النظرة

<sup>207</sup> الفن ومذاهبه في النثر العربي، ط دار المعارف مصر ط 10، 1983 ص 24.

<sup>208</sup> م.ن.

الأنطولوجية إلى الأمثال، وفعلا فالأمثال في البحث الحديث لم تبق رهينة الدرس الأدبي في دلالاته الضيقة بل أصبحت قطاعا بينيا من قطاعات التواصل الاجتماعي والثقافي، ومادة من مواد دراسة اللغة في حركتها وفي استعمالها في فضاءاتها المختلفة ، وموضوعا تحتفل به الدراسات اللسانية بعد طول إهمال بصفته كما يقول جان كلود أنسكومبر (J.C.Anscombe) نظاما فرعيا من أنظمة اللغة<sup>209</sup> ومن ثمة جاء اهتمام علماء اللسان بالعبارة المثلية، ومن ثمة أيضا جاء اهتمام علماء الاجتماع بالعبارة المثلية بما هي صنف من أصناف التعبير عن الأعراف الاجتماعية، وعن حياة المجموعات البشرية في أنماط عيشها وقيمها وطرائق تفكيرها. لم تعد دراسة الأمثال في البحث العلمي الحديث حكرًا على التخصصات اللغوية والأدبية الضيقة بل أصبحت مدونة تتنازعها التخصصات الإنسانية المختلفة. وهي عند علماء تاريخ اللغات مصدر من مصادر الحفريات التي تساعد على إعادة بناء الذاكرة الثقافية للشعوب . أما المجالات التخصصية التي انفتحت على العبارة المثلية فيمكن أن نذكر منها علم الدلالة التداولي، وقد انتهى البحث في هذا التخصص بعد اختلاف كبير بين التداوليين الدلالين إلى ترجيح أن تكون للعبارات المثلية قيم دلالية خاصة بها بصفتها طبقة لسانية متميزة بخصائص متجانسة، وقد تمكنت الأبحاث اللسانية في هذا المجال من تحديد الخصائص التركيبية والدلالية التي يمكن من خلالها أن تتخرط عبارة من العبارات في طبقة الأمثال<sup>210</sup>.

## 2- الأمثال العربية والدراسة الأنثروبولوجية :

يمكن أن يمثل فضاء العبارات المثلية حقلا بحثيا تختبر فيه المفاهيم الأنثروبولوجية المتصلة بأنماط العيش والتفكير وإدراك الواقع في المجتمع البدوي الذي صدرت عنه الأقوال المثلية. ومن الأشكال المثلية التي تظهر فيها نظرة المتخاطبين في الفضاء المثلي للعالم التشبيه التمثيلي، وهو أسلوب من أساليب إنشاء التناظر بين المركبات التصويرية، ولا يمكن أن نتعامل مع مركبات تصويرية متناظرة خارج عالم اعتقادي مرتبط بنمط العيش والمكان والزمان والعلاقات مع الطبيعة والمجتمع . والتشبيه التمثيلي أسلوب مركوز في اللغة وفي مختلف مقامات التواصل الاجتماعي التي ترمي إلى تقريب الآراء والمواقف والأفكار من المتلقي، وهو أسلوب دال على طرائق تصرف المتكلمين في الأنظمة

---

<sup>209</sup> La Parole proverbiale; Langage 139; 2000 p3 .

<sup>210</sup> Georges.Kleiber: Sur le sens des proverbes; in Langage 139; 2000 p39

العلائقية بين الموجودات، وقد اعتنى القدامى بهذا الأسلوب ضمن النظرية البلاغية، ولم يهتموا به بصفته قالبا دلاليا من قوالب التعبير عن الوجود في عالم التخاطب ، ومن هذه التشبيهات قولهم "كالمستجير من الرمضاء بالنار"، وهو بوجه عام أسلوب يستعمل لتقريب المعنى من الإدراك الحسي لأنه يقوم على تشبيه علاقة بعلاقة أو صورة بصورة أو مركب بمركب، أو هو تناظر بين مركبين تصويريين . إنّ التشبيه التمثيلي يصور حياة الشعوب وتجاربها في معيشها اليومي وتصورها للعلاقات بين الأشياء، فقول العرب "كالمستجير من الرمضاء بالنار" يحمل طابع البداوة وينبع من المحيط الحار الذي يعيش فيه الإنسان العربي. وإنّ الكمّ الهائل من الخطابات المتدافعة والمتدفقة عبر وسائل الإعلام المرئي والمسموع والمكتوب يوميا جعل عروض العبارات الجاهزة شبيها بالبضائع الإلكترونية التي يتسارع تجديدها وتحديثها وترقيتها والتفنن في تطوير كفاياتها العملية . لقد كانت العبارة الجاهزة في التواصل الاجتماعي ما قبل عصر الصناعات الاتصالية الإلكترونية ذات قدرة على العيش لمدة مديدة نسبيا لأنّ الاستعمال اليومي لا يتجدد بنسق سريع ولأنّ الانغلاق الثقافي يجعل التفاعل بين المتخاطبين محدودا من حيث العدد والسياقات وموضوعات التواصل. وكانت الوظائف التعليمية غالبية على الخطاب المثلي، وكان هذا الخطاب يستعمل مصدرا للمعرفة وسلطة تربوية وحجاجية . أما العبارة الجاهزة في هذا العصر فقد فقدت نسبيا وظيفة التربية والتعليم واكتسبت وظائف أبعد تعبيرا عن الاختلاف والصراع والسخرية والنقد والكاريكاتور وغيرها من أشكال التعبير المتحرر من سلطة المنوال القديم. لقد أخذت العبارة الجاهزة القديمة في الريف والمدينة على السواء تفقد كفاياتها التواصلية وقيمتها السوسيوثقافية في الاستعمال اليومي نظرا إلى جهل الأجيال الجديدة بالرواق الذي يوصل إلى حقيقة أسرار استعمالها ومجاهل مضاربها الأولى. فكثير من العبارات المثلية المرتبطة بأسماء الأعلام والأماكن والأحداث التاريخية الكبرى أو الصغرى تغادر الذاكرة الجماعية دون رجعة....

### 3- القيمة التداولية للعبارة الحكمية:

الحكمة جنس من أجناس العبارة المثلية تتميز بصبغتها التعميمية وينزوعها إلى مقولة<sup>211</sup> الأشياء والموجودات والتجارب وإفراغها في قوالب عامة تنزع إلى الكونية. وإذا كان المثل السردى ينزع إلى المحلية "الصيف ضيعت اللبن- ما يوم حليلة بسر" فإن الحكمة تسعى إلى مجاوزة الإطار المحلى وإلى عقلنة الظواهر وإرجاعها إلى قوانين كونية "الصبر مفتاح الفرج- من يزرع يحصد- إذا كان الكلام من فضة فالصمت من ذهب". وتمكّنا الدراسة التداولية لجنس الحكمة من أن نستنتج أنّ العبارات الحكمية في التواصل الاجتماعي تنتظم في أزواج قولية متصارعة ، وفي أصوات ثقافية متناقضة، وهي تعبّر عن تعلّق المجتمع بالقيمة وبضديديتها بحسب القوى الاجتماعية وأنماط الشخصيات الاجتماعية وأخلاقها ومواقفها وقدراتها ومصالحتها ، فنرى في البيئة نفسها قولين في الأخوة متناقضين يستعمل كلّ قول منهما في مقام خاصّ به، ففي المقام الذي يحتاج إلى مدح الأخوة وترسيخ صلة الرحم نجد قولهم: "أخاك أخاك إنّ من لا أخ له كساع إلى الهيجاء بغير سلاح" ... فهو مقام ترتيبي فيه مفاضلة صريحة بين قيمة الأخوة وقيمة الصداقة وتفضيل للأخوة، ولكننا نجد في مقام آخر ترجيحاً للأخوة غير الدموية، وقد يحتاج إليه المتكلم في مواقف مناقضة تماماً للمواقف الأولى فيقول: "ربّ أخ لك لم تلده أمك" .

والمثل بما هو ظاهرة تواصلية إنسانية بعامة شكل تعبيرى يتغلغل في مجاهل اللسان وفي دروب الاستعمال اليومي، كما أنّ القالب الدلالي للمثل الواحد متغيّر بتغير الأوساط الاجتماعية والطبقات السوسيو مهنية وأوضاع المتخاطبين. وقد رأينا كيف إنّ القدامى فشلوا فشلاً ذريعاً في جمع الأمثال لأنهم توخّوا طرقاً بسيطة فكان أقصى ما استطاعوا إنجازه جمع ستة آلاف مثل في كتاب الميداني تسلّط الأضواء على هذا النوع من الإنتاج اللساني الاجتماعي دون غيره، ولعلّهم غير ملومين في ذلك نظراً إلى افتقارهم إلى الوسائل الإحصائية والآلات التقنية التي تساعد أجيال هذا العصر على إنجاز دواوين جمع الذاكرة، ولدراستها بأساليب مشتقة من العلوم الإنسانية الحديثة سواء منها علوم الخطاب أو علوم الأنثروبولوجيا والمعيش اليومي والفضاء العام .

---

<sup>211</sup> نعني بالمقولة تنظيم الموجودات في قوالب لغوية معبّرة عن القوانين المتحركة في تلك الموجودات فالتكلم في أي مقام من مقامات الكلام لا يمكنه أن يستحضر الشيء المتحدّث عنه بذاته بل يحتاج إلى أن يستحضره من خلال المقولة المجردة كمقولة الجنس أو المكان أو الزمان والمضاف أو غيرها .

وهذا الفشل نرصده كذلك في المصنّفات الحديثة التي جمع أصحابها نماذج من الأمثال، فهي مصنّفات تمثيلية غير استقصائية، ولعلّ افتقار أصحابها إلى المناهج البينية وإلى المرجعيات السوسولوجية والجمالية الضرورية قد جعل قيمتها العامة متواضعة، فلا هي تستقصي لتوثيق الذاكرة ولا هي تدرس النماذج لاستخلاص القيم الاجتماعية وصورة الإنسان وصلة العبارة المثلية بأنماط العيش والتواصل. وقد خالصنا من هذا المصنّف المتواضع إلى أنّ التنوّع البيئي/ اللغوي وتنوع الأعراف اللغوية والممارسات اللغوية في الفضاء العربي يمكننا من رسم "خرائط مثلية" أربع : خريطة حضرية تمثلها المدن الكبرى وهي أكثر نشاطا في الأوساط المهنية وخارطة بحرية أو ساحلية وتمثلها الفئات الريفية الزراعية التي تعيش على الصيد البحري ، وخارطة زراعية جبلية تمثلها القرى والأرياف المنتشرة في الأرياف الخصبة وخارطة صحراوية يمثلها أهل الواحات والمناطق شبه البدوية أو أهل حضارة الصحراء.

واستنتجنا من النماذج المثلية التي جمعناها من مختلف الأوساط الثقافية والاجتماعية والمهنية ومن فئات عمرية متنوعة أنّ من عوامل انقراض استعمال العبارة المثلية واندحار هذه الثقافة في الأوساط الشبابية تربية الأجيال الجديدة على عدم استتساخ المنوال في جميع مناحي الحياة، وأنّ حجة السلطة وأقوال الماضين وثقافة النقل عن الأولين لم تعد ناجعة في الإقناع بل أصبحت من العبارات التي يسخر منها الشباب ويناقشونها بحماسة. إنّ هذه النظرة إلى الأمثال نظرة بينية تعدّ المثل بنية لغوية مولدة للمعرفة. ولا يمكن أن نصل إلى فهم هذا القطاع الواسع من الثقافة الشعبية ما لم تتضافر جهود علماء اللسان التداوليين وعلماء الإثنولوجيا والاجتماع وعلم النفس الجماعي لدراساتها وفهم الذاكرة الاجتماعية المنتجة لها.

## الفصل الثالث

### كتابة الأدب والتاريخ

لتاريخ الأدب مفهومان مختلفان من جهة صلتها بالنظرية المعرفية : مفهوم إنشائي في المعنى السلبي لعبارة إنشاء، به يكون التاريخ الأدبي العلم الذي يعتني بدراسة صلة الأدب بالتاريخ ويتطور الاتجاهات والظواهر الأدبية على مرّ التاريخ، هذا مفهوم أول، وهو تقريباً المفهوم الذي ساد تاريخ العلوم قبل ابن خلدون، وتدخل تحت هذا المفهوم الأجناس التاريخية القديمة ككتب الطبقات وكتب الأدب العامة والخاصة كالبيان والتبيين وهو لون من ألوان التأريخ للخطابة العربية وأعرافها، والعقد الفريد، وعيون الأخبار، وكتاب المراثي لليزيدي، ويكون المنهج المعرفي المتوخى في هذا التأريخ في جملته "المنهج الوضعي" الذي تزعمه أعلام تاريخ الأدب في القرن 19، وهو الأصل في جميع الفروع التي جاءت بعده، وهو المنهج الذي يعتبر أنّ الأدب جزء من التاريخ، ينمو ويتطور ويتلاشى مثل سائر الكائنات الحية ، وتزعم هذا المنهج الثالث المعروف: هيولييت تين، وبرونتيير، ولانسون. والعرب عالة عليهم في هذا كله ، وليس لنا -مع الأسف- في تاريخ الأدب العربي مؤرخ ابتكر تاريخاً خاصاً به هو



أبدًا إلى اليوم، ولم يكتب تاريخ الأدب العربي بأيدي العرب، إنما نقلوا كما ترى منذ زمن مناهج المستشرقين في كتابة التاريخ، ومن هؤلاء المؤرخين محمد كرد علي في بداية القرن العشرين، ثم جاء طه حسين ومصطفى صادق لرافعي وأحمد الزيات وحسن توفيق العدل ومحمد مندور، وعمر فروخ وشوقي ضيف. أما ثاني المفهومين فهو مفهوم معرفي، وبه يكون التاريخ الأدبي نشاطًا ذهنيًا تأويليًا لغويًا غير منفصل عن سائر قطاعات التدوين المعرفي. وإذا كانت كتابة تاريخ الأدب العربي من أكثر ألوان الكتابات التاريخية مقالات وكتبا، فردية وجماعية عامة وخاصة بعصر من العصور فإن كتابة فلسفة التاريخ العربي تكاد تنعدم، ونحن لا نملك في المكتبة العربية من الآثار ما يسمح لنا بأن ندعي أنّ لنا فكريا تاريخيا حول الأدب العربي القديم أو الحديث، فقد ظلت موضوعات تاريخ الأدب في ثقافتنا الحديثة تدور في فلك قضايا فرضها علينا المستشرقون فرضا، وبدت لنا كما لو أنّها ضربة لازب، أو كأنها المجال الأوح الذي ينبغي أن يدور فيه فكرنا الأدبي، وكأنما ينبغي أن نبصر أدبنا وتاريخه بعيونهم، وهذه القضايا هي الانتحال وقضايا الرواة والروايات، ونظرية العصور الأدبية، وصلة الشعر بالنثر وظاهرة الشعوبية في جيل بشار بن برد وأبي نواس وظاهرة الغموض عند أبي تمام وسرقات المتنبي، والصراع من أجل الخلافة في القرن الأول، وعصر التصنيع والتكلف، وعصور الانحطاط أو أدب الذكرى. لقد عاملنا الأدب العربي في مختلف المدارس التاريخية التي اهتمت به بصفته مكونًا من مكونات التاريخ فحسب، ولم ننظر إليه بما هو كتابة رمزية داخل التاريخ. فالأدب وسيط أساس من وسائط الاجتماع البشري يتأثر بالتاريخ لا محالة ولكنه يؤثر فيه أيضا، وهو ما سنحاول التطرق إليه في الفقرات الآتية.

ولكن يحسن قبل الولوج إلى هذا الموضوع الدقيق أن نشير إلى أنّ موضوع فلسفة تاريخ الأدب ليس ببعيد عن موضوع فلسفة التاريخ العام كما حدّدها ابن خلدون من حيث الإشكاليات وطرائق النظر إلى الزمن الموضوعي وإلى الوقائع وأسبابها ونتائجها وإلى علاقة الأبنية الثقافية بالأبنية الاجتماعية. ولعلّ الموضوعات الأساس التي تقترحها فلسفة تاريخ الأدب تدور حول ثلاثة محاور هي علاقة الأدب بالزمان وبالمكان أو بالفضاء، وهو موضوع متداول بين الدارسين، وعلاقة الأدب بالمخيال الاجتماعي ولكنه موضوع بكر لم يهتم به الدارسون نظرا إلى تعقده وحاجته إلى جملة من المعارف البينية، وأما ثالث المحاور فهو تأصيل الأجناس الأدبية في التاريخ الثقافي والجمالي، أو البحث عن علل كونها، وعن أسباب نشأتها وعن علاقاتها بعضها ببعض، وذلك أنه لما كانت فلسفة التاريخ تبحث في علل

الأحداث وأسباب وقوع الوقائع، وتعمل على تفسير أطوار حياة الأمم ونواميس تداول الممالك وتعاقب الظواهر والوقائع فإنّ فلسفة تاريخ الأدب تبحث عن تلك العلل ولكن في الحياة الأدبية وفي الظواهر الإبداعية . إنّ فلسفة تاريخ الأدب مكوّن من مكونات نظرية الأدب، وهي منتج معرفي حول تاريخ الأدب أو هي تفكير في تاريخ الأدب، وليست دراسة للأدب نفسه، فدراسة التداخل بين الأجناس عبر تاريخ الأدب العربي يمكن أن تكون دراسة إنشائية فنية تهتمّ بالحركة بين النصوص وبالحوار بين الأشكال وبالتطيريس والمحاكاة والمعارضة وغيرها من أشكال الحوارية الأجناسية، ولكنها ليست من فلسفة تاريخ الأدب، بل تصبح كذلك إذا اهتم الباحث بالرؤية الثقافية والجمالية التي تحرّك عملية التداخل بين الأجناس الأدبية، وإذ مدّ جسر التواصل بين قضية المفاضلة بين الأجناس، ونظرة الثقافة إلى كل جنس من الأجناس وآثارها في الإبداع، وهي قضية معرفية تتجاوز الأدب إلى سائر التصورات الأجناسية .

## 1-الأدب القديم والتاريخ :

تعود صلة التاريخ بالأدب في العصور العربية القديمة إلى المرويات الشفهية التي كان الرواة في الأسواق يتناقلونها بصفقتها الحامل الوسيط الوحيد تقريبا الذي يدوّن الهوية العربية الإسلامية والأصول الثقافية والجمالية التي انبنت عليها الحضارة العربية الحاملة لقيم الإسلام في مدنيته الناشئة.ويمكن أن نعدّ التقاء الأدب بالتاريخ شكلا من أشكال التقاء الذاكرة الحيّة بالذاكرة المدوّنة أو الأرشيفية، فالشعر والأمثال وقصص الأيام والعشاق وسير الجاهليين كانت تتناقل بين الرواة في الأسواق والمساجد ومجالس الخلفاء والوزراء وكبراء القوم ولكنها كانت تحتاج إلى إطار ناظم لها كي تصبح جزءا من الأرشيف، فالأرشيف هو الإطار الذي يوثق الذاكرة الحيّة ويحوّلها إلى معمار ثابت ومعلم دائم كما يقول جاك دريدا<sup>212</sup>. ويتمثل الإطار الناظم للمادة الأرشيفية في عناصر التاريخ المروي عبر الأجيال والمتناقل بين القبائل، وقد استغلّه جامعو الشعر الأوائل كحمّاد الراوية والمفضل الضبي والأصمعي وأبي عبيدة فظهرت أجناس المختارات والطبقات والجمهرات، وهي من المرويات المدوّنة في إطار تاريخي . إنّ الأسواق الأدبية في المريد وكناسة وغيرها من أسواق الأدب كانت فضاءات تواصلية تعبّر عن تحسّس

الرواة لقنونات التواصل لأرشفة التاريخ الأدبي المتراكم إذاك منذ أكثر من ثلاثة قرون قبل ظهور صناعة الورق ودور الوراقين. ولقد كان لزاما على المدوّنين الأوائل أن يضعوا معالم الطريق لمن سيأتي بعدهم، فلا يكفي أن يدوّنوا المعلّقة التي عدّت من عيون الشعر أو المراثية التي رويت على أساس أنها أفضل ما قيل في ذلك الغرض بل كان عليهم أن يسهموا في بناء صورة الشاعر الذي قال تلك القصيدة، ومعرفة الأعلام أو التراجم هي أول معلم من معالم الطريق في الثقافة القديمة لأنّ هذا العلم يتحول إلى سلطة قولية وإلى مرجع جمالي وأخلاقي وقيمي، والشاعر على وجه الخصوص مرجع معياري لأنّ الشعر -وهو ديوان العرب- مؤسسة اجتماعية وسلطة ثقافية يقول عنها العادل خضر: "فهو أيضا مؤسسة اجتماعية، وقد كان لها في المجتمع العربي في الجاهلية الأخيرة وعصر الإسلام الأول علاقات مع المؤسسة القبلية، وقد تجسّمت هذه العلاقات في الدور الذي اضطلع به الشاعر"<sup>213</sup>. وبذلك تحوّلت حياة كل شاعر من شعراء الجاهلية إلى تأويل سردي مستمدّ من موضوعات شعره، فقصة امرئ القيس ابن ملك كندة تتخذ شكلا سياسيا وهو الصراع من أجل استرداد الملك، وقصة عنتره تتخذ شكلا غنائيا إنسانيا وهو إثبات التفوق الجسدي في الحرب بما هو معادل موضوعي للون الجسد المنبوذ في القبيلة، وقد كان هذا التأويل السردى مستمدّا من أجمل القطع الشعرية التي دوّنها الرواة، فلا يمكن إذن أن تدوّن قطعة شعرية دون أن يصاحبها بناء لصورة قائلها ولرمزيته. فالتاريخ هو الإضاءة التي يقدّمها الناقل للقارئ وينير بها سبيل المستهلك للأدب.

ونلاحظ من جهة ثانية أنّ التاريخ هو الذي يفسّر موقع كل قيمة من القيم التي يدافع عنها الشعر من المجتمع البدوي الذي نشأ فيه الشعر الجاهلي، ففي غياب المؤسسة الضامنة لحماية الأخلاق وللعدل بين الناس في المجتمع القبلي كالقضاء والوعظ يكون الشعر إحدى المؤسسات المروّجة للقيم والداعية إلى الأخذ بها وإجرائها في الحياة العامة .

ومن أبرز الأجناس السردية التي تفاعل فيها الأدب والسرد التاريخي قصص أيام العرب في الجاهلية، وقد استمدّ منها مؤرّخو الأدب ما كتبوا به تاريخ العرب في الجاهلية، فرأوا أنّ أسباب الحرب وأكثرها ورودا على ألسنة الرواة هي أسباب تتصل بالنزاع من أجل موارد العيش، ولكن هذه القصص تظلّ ثمرة المخيال الشعري الجماعي الذي اشترك الشعراء من خلاله في بناء صورة عن ماضي الاجتماع القبلي

---

<sup>213</sup> الأدب عند العرب ص 248.

في أعماق الجزيرة العربية قبيل ظهور الإسلام . وقد جمع هذه القصص أبو عبيدة معمر بن المثنى في أوائل القرن الثالث على هامش شرحه لنقائض جرير والفرزدق، وقد كان هذا اللغوي واعيا تمام الوعي بأنه ينجز عملا بينيا، وأنه يؤرخ لما تصوره الشعراء عن قبائلهم ومناقبها، وأن أيام العرب في نقائض جرير والفرزدق هي الشفرة الثقافية التي تضمن التواصل الأدبي بين الشاعرين ومعاصريهما من العرب ومن غير العرب. وقد استمد أبو عبيدة وقائع الأيام من الشعر العربي نفسه، من شعر مهلهل ربيعة وعنترة وعمر بن كلثوم، ومن القصص المصاحبة للأمثال كقولهم "وقعت بينهم داحس وغبراء" أو "أشأم من البسوس" أو "ما يوم حليلة بسر". وكان يدون هذه الوقائع وهو يؤسس لتصور مبدئي سيصبح ركنا من أركان فهم العرب لوظائف الشعر، وقد بين الدكتور محمد اليعلاوي في مقالته الموسومة بأدب أيام العرب هذه الصلة بين الأيام والتاريخ وبين الشعر والتاريخ فقال في خصوص السمة الأولى تحت عنوان الأيام والتاريخ: "فهو نصوص شبه تاريخية تقع وسطا بين التاريخ الأسطوري والتاريخ الحقيقي، ولا يمكن انتقادها كما تنتقد النصوص التاريخية، بمقابلة الروايات بعضها ببعض، فالرواية هنا تكاد تكون واحدة، ونعني رواية أبي عبيدة في كتابيه المفقودين وفي النقائض، وعنها تفرعت الروايات اللاحقة"<sup>214</sup>، وفي خصوص الصلة بين الأيام والشعر أو بين التاريخ والشعر يقول الدكتور محمد اليعلاوي أيضا: "وصلت إلينا روايات الأيام بفضل النواة الشعرية التي احتفظت بها ذاكرة القبائل، فكان هذا الشعر هو الأثر الباقي من الواقعة والصدى البعيد للقتال. ونعني به بالخصوص الشعر الذي نطق به أثناء الواقعة - وكثيرا ما يكون مرتجلا- أو بعدها بقليل فيكون بمثابة الأداة المذكرة التي يستمد منها الراوي عناصر خبره أي الأطراف المتنازعة والدوافع إلى القتال، وتفاصيل القتال ونتائجه، ومواقع اللقاء إلخ..."<sup>215</sup>.

فوظيفة الشعر المرجعية بالمعنى الياكسوني (نسبة إلى ياكوبسون) للمرجع ستصبح إحدى الوظائف القارة في الشعر العربي، فهو الشعر الذي يعرفنا بالأمكنة والأزمنة التي كانت تدور فيها الوقائع، وهو شعر المناقب والمثالب، ومن خلاله تتحدّد شجرة الأنساب وماضي الرجال وأعمالهم ومآثرهم. وهو الشعر الذي لا تصاغ فيه معاني الأغراض الكبرى الرفيعة إلا من خلال سرد حكايات البطولات الفردية والجماعية، وهي جزء من التاريخ ومكوّن من مكوّنات الحياة الاجتماعية التي تدونها القبائل في مناقبها

<sup>214</sup> حوليات الجامعة التونسية مجلة كلية الآداب، العدد 20 لسنة 1980 ص 61.

<sup>215</sup> م.ن ص 65.

ومآثرها. فالفخر في الشعر الجاهلي غرض بيني تتقاطع فيه شعرية البطولة الملحمية وقصة الفارس الذي ينتصر لقبيلته في نغمة تمجيدية. ولما جاء الإسلام واستقرت المدنية كانت كتب الطبقات جنسا تاريخيا يدون أدب الأمة وتراثها ومخيلاتها. وقد نشأ عن هذا الشعر الفخري علم قائم بذاته سيظل إلى زمن غير بعيد من أشرف علوم التاريخ في تصور القدامى ألا وهو علم الأنساب ، يقول الدكتور اليعلاوي في السياق نفسه: " كل هذه الغايات الإيجابية منها والسلبية ساعدت على ازدهار علم الأنساب فألفت فيه الكتب مبكرا مثل كتابي قريش وثقيف لحماذ الراوية وبيوتات قريش وجمهرة النسب لابن الكلبي...<sup>216</sup> .

ويمكن أن نعدّ جنس المغازي ثاني الأجناس السردية العتيقة ذات الصلة بالتاريخ، وتعني المغازي الغزوات التي قادها الرسول p ، وهي عند جمهور المحدثين والمؤرخين خمس عشرة<sup>217</sup> ، ويعرّف مصطفى السقا أصول المغازي وبدايات تشكّل السيرة النبوية بقوله : " نشأت السيرة الأولى أوّل ما نشأت أحاديث في مجالس الخاصة كانت تدور حول مغازي الرسول p فيسأل بعض الولاة أو الأعيان في الأمصار الكبرى الإسلامية كالمدينة ودمشق عالما ممّن اشتهر بالحفظ والرواية كيف كانت غزوة بدر أو من الذين شهدوا هذه الغزوة أو ما عددهم فيحدثّ القوم بما يعلم من ذلك مسندا الحديث إلى من أفاده إيّاه من الصحابة. وكانت تلك الأحداث أحيانا تفسيرا لبعض الآيات التي تضمّنت شيئا من تاريخ الوقائع وغزوات النبي مثل يوم بدر ويوم أحد<sup>218</sup> . ففي هذا التأريخ لمسار الأجناس السردية نلحظ الترابط بين نشأة الأجناس السردية وعلوم القرآن الكريم وخاصة علم التفسير، فقد دونت المغازي والسيرة النبوية لخدمة علم التفسير وأسباب النزول، ولكنها في الآن نفسه أسهمت في توطيد أسس الخطاب السردى في عامة الأجناس السردية القديمة، وفي هذا المضمار يقول الدكتور محمد مختار العبيدي : "السيرة قد سايرت في نشأتها كلاً من علمي الحديث والتفسير، ولكنها تميّزت منهما شيئا فشيئا فيما بعد"<sup>219</sup> . وتطور هذا الجنس القديم لينتج جنسا آخر أكثر دلّوا في مجال الأدب لكنه لم يتخلّ عن صلته بالسرد التاريخي ألا وهو جنس التراجم، وكان كتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة الدينوري الصيغة الأولى لهذا

<sup>216</sup> م.ن .

<sup>217</sup> يمكن أن نعود إلى كتاب المغازي للواقدي، وإلى الطبقات الكبرى لابن سعد، والسيرة الحلبية للحلي.

<sup>218</sup> تصدير كتاب المغازي الأولى ومؤلفوها ليوسف هوروفيتس ط مصر 1369 .

<sup>219</sup> علاقة المغازي بالسيرة ، حوليات الجامعة التونسية العدد 17 لسنة 1979 ص187.

الجنس البيني، فقد أورد فيه المؤلف سلسلة تراجم شعراء العربية من الجاهلية إلى أواسط القرن الثالث الهجري، وبنى أسلوبه في الترجمة على التمسك بحرفية المعطيات التاريخية التي توقرت له فيما بين يديه من المرويات ، ونزع ابن قتيبة إلى التوثيق والمكتبية فكانت التراجم جميعها مقتضبة لا تجاوز نصف صفحة، ولم يحرص المؤلف على الاستقصاء والتوسع . لقد كانت الترجمة عند ابن قتيبة تأسيساً أول للتاريخ الأدبي أو لأدب التاريخ، ولكنّ الروح الأدبية العميقة التي تميّز بها أبو الفرج الأصفهاني جعلته يجاوزه في حسن استغلال هذا التقاطع بين التاريخ والأدب أو بين موضوعية المرجع التاريخي وجنوح الأدب للتخييل والإيهام بمشاكله الواقعية. وكان كتاب الأغاني أفضل صورة لتقاطع الأدب والتاريخ في جنس الترجمة قبل ظهور جنس السيرة الغيرية، وهو إيدان بانصهار التاريخي والتخييلي في منظومة الأدب العربي القديم. وقد اكتملت السيرة الغيرية في التاريخ الثقافي العربي بمصنّف سيرة أحمد بن طولون لأبي محمد عبد الله بن محمد المعروف بالبلوي، وقد حوّل كاتب السيرة الغيرية الأحداث التاريخية التي بدت جزئية وتفصيل هاشمية إلى وظائف سردية كبرى في حياة صاحب السيرة. وتقتضي خطة كتابة السيرة تضخيم هذه الأحداث والنظر إليها من زاوية التسريد الفني بنوع من التبئير لا يتحملة التاريخ العام ، وبذلك تكون السيرة الغيرية جنساً وسطاً بين التاريخ والتخييل<sup>220</sup> .

## 2- الرواية والتاريخ :

لئن كان اهتمام الروائيين العرب بالسرد التاريخي واشتغالهم عليه بصفته متخيلاً شكلاً من أشكال المثاقفة بين الغرب والشرق أي شكلاً من أشكال تأثر الروائي العربي بالغرب فقد عرفت مرحلة الرواية التجريبية منذ العقد السابع من القرن العشرين منعطفاً فكرياً حاداً ( إثر هزيمة 1967) أعادت فيه السرديات العربية الحديثة وخاصة الجنس الروائي والخطاب الشعري النظر إلى الموروث السردية في كافّة ألوانه المشاكلة للتاريخ كالأخبار والسير وأدب التاريخ<sup>221</sup> أو الخرافية والعجائبية والأسطورية. وقد راجع الفكر الأدبي التاريخ العلمي لينظر إليه بما هو ذاكرة أو حركة سردية يمكن

<sup>220</sup> راجع بحثنا الموسوم بالسيرة في النثر القديم ومعالم اكتمال الجنس الأدبي ،ضمن حوليات الجامعة التونسية العدد 47 لسنة 2003 ص ص 145-163.

<sup>221</sup> نحيل في هذا السياق على آثار من قبيل حدّث أبو هريرة قال لمحمود المسعدي والأسد والتمثال لعمر بن سالم وبلارة للبشير خريف والزيني بركات لجمال الغيطاني.

التفكير فيها وإعادة كتابتها بما يقتضيه الجنس الروائي ، أي إعادة كتابة الزمان التاريخي<sup>222</sup> كتابية تخيلية. وقد استلهمت الرواية التجريبية أو الجديدة موضوعاتها وإشكالياتها من هذا الزمان التاريخي وطرحت بشكل غير مباشر سؤالاً أنطولوجياً مهماً وهو كيف نستطيع أن نكتب الخطاب التاريخي في الرواية لنحاور التاريخ أو لنكتب ذاكرتنا؟. وقد نشأت حركة النقد الروائي التي تهتمّ بقضايا توظيف التراث في الخطاب السردى للدفاع عن الأطروحة التي ترى أنّ أصول الرواية ضاربة جذورها في التراث العربي وفي الشعر التمثيلي<sup>223</sup>، فضلاً عن الملحمة<sup>224</sup> . وهي حركة مضادة للفكر الاستشراقي الغربي لأنها تسعى إلى الدفاع عما تعدّه قراءة سليمة لتاريخ الأدب العربي، وأنّ المروي له في التراث هو عينه المروي له في فضاء التواصل الثقافي الذي نشأت فيه الرواية الحديثة. وقد تزعم هذه الأطروحة عدداً لا بأس به من المهتمين بالسرد الشعبي والقصص القديم في السبعينيات وخاصة عبد المجيد يونس في كتابه: الظاهر ببيرس في القصص الشعبي الصادر سنة 1969. وليس هذا الدفاع في الحقيقة مسألة أدبية وفنية ونقدية ومعرفية بقدر ما يعبر عن أزمة نفسية وحضارية تتدرج في صلب البحث عن مكونات الشخصية العربية في مختلف أبعادها ودلالاتها. وقد اهتمّ الدارسون قبلنا بقضايا تحويل الجنس التاريخي إلى جنس روائي أو المرجعي إلى تخيلي. وكان اهتمامهم متفاوتاً من حيث القيمة الفكرية والفلسفية والحضارية ، فبعض الدارسين كان سطحياً في معالجة قضايا كتابة الخطاب التاريخي على نحو ما جاء مثلاً في تساؤل سامية أسعد وهي تقارن أحداث رواية جمال الغيطاني الزيني بركات بما جاء في كتاب ابن إياس الموسوم ببدايع الزهور في وقائع الدهور والتي استمدّت منها الغيطاني خطابه السردى فتقول : " أول سؤال يطرح بلا شكّ هو هل التزم جمال الغيطاني بالتاريخ وإلى أي مدى ؟ والقارئ العربي بعامة والمصري بخاصة لا يسعه إلا أن يرد بالإيجاب .<sup>225</sup> ويدرك القارئ بيسر أنّ هذا الأسلوب في طرح الإشكاليات يفرض

<sup>222</sup> ينظر في خصوص الزمان التاريخي : بول ريكور : الذاكرة ، التاريخ ، النسيان ، ترجمة و تقديم و تعليق جورج زيناتي، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت 2000 ص 234 و ما بعدها .

<sup>223</sup> هو الشعر الدرامي بفرعيه المأساة والملهاة أو شعر الصراع بين الشخصيات الممثّلة للعالم الإنساني

<sup>224</sup> في خصوص صلة الرواية بالملحمة ينظر خاصة في بيير شارتييه : مدخل إلى نظريات الرواية ، ترجمة عبد الكبير الشرقاوي ، دار توفيق للنشر، الدار البيضاء 2001 ص 37-39.

<sup>225</sup> عندما يكتب الروائي التاريخ ضمن محلة فصول المجلد الثاني العدد الثاني يناير فبراير 1982 ص 69 .

على الناقد وجهة نظر ليست بالضرورة الوجهة التي تهّمه وتشغله، وفعلا فإنّ مفهوم الالتزام بالتاريخ في إعادة كتابة الخطاب التاريخي في خطاب تخيلي مفهوم خلافي لأنّ التاريخ نفسه ليس وقائع حقيقية موثقة ومسجلة باللغة المرجعية المتفق عليها بل هو نفسه قراءة للتاريخ ولما فيه من أحداث ، وهو كتابة للإحساس بالوقائع ووجهة نظر إلى تلك الوقائع . ومنذ عرّف ابن خلدون التاريخ بأنه : " تعليل للكائنات ومبانيها دقيق وعلم بكيفيات الوقائع وأسبابها عميق " <sup>226</sup> اندحرت فكرة التسجيل الوفي للوقائع والتوثيق له، وصار الخطاب التاريخي عند علماء الاجتماع والإناسة ضربا من الكتابة السردية والقراءة الخاصة للأحداث. فاهتمام المؤرخ بالتاريخ العام قد يتعارض واهتمام المبدع بتاريخ الفئات الاجتماعية أو تاريخ الصراع بين الحضارات أو بين الهويات. وقد تمكّن بعض النقاد من الذين مدّوا جسور التواصل بين مفهوم تأصيل الرواية ومفهوم التناص من نقل هذا المفهوم نقلا إشكاليا يساعد على تطوير الدرس النقدي في علاقته بالمرجع. ولقد استغلّ الجيل الجديد من النقاد الذين تشبّعوا بتاريخ الدراسات الإنشائية وترسّموا تطورها في النصف الثاني من القرن العشرين، من المرحلة البنيوية المغلقة إلى مرحلة الدراسات التناصية، قلت لقد تمكّن هذا الجيل من طرح مسألة توظيف الخطاب التاريخي في الرواية أو استعمال المتناص التراثي، ووجدوا في أدبيات جيران جينيت (G.Genette) حول النصية الجامعة (L'Architextualité) ما يفتح مسالك البحث المتّصل بقضايا تأصيل الرواية، وانكبّوا على فهم التطور الذي أحدثه في الدراسات السردية الإنشائية بوضع مفهوم النصّ الجامع وبالانصراف عن النصّ إلى النصّية ، وبتحويل موضوع الشعرية من النصّ إلى التعالي النصّي (La Transtextualité)، أي بانفتاح النصّ على جميع الصلات التي ينسجها مع سائر النصوص ، ومع عتباته هو نفسه أي العنوان والإهداء والرسوم والمقدّمات ...ومن أبرز الأعلام الذين فتحوا هذه المسالك سعيد يقطين فقد مارس هذه التجربة النقدية في بحوث محدودة خصّصها لدراسة التفاعل الأجناسي بين السيرة والرواية في نوار اللوز لواسيني الأعرج <sup>227</sup> ثمّ وضع كتابه المرجعي في دراسة التأصيل وهو الرواية والتراث السردية. وقد

<sup>226</sup> المقدّمة، دار الكتاب اللبناني بيروت 1979 ص 2.

<sup>227</sup> سعيد يقطين : السيرة و الرواية :نوار اللوز لواسيني الأعرج نموذجا، الفكر العربي المعاصر، العدد 76-77، ماي- جوان 1990،، و انظر أيضا فتحي بوخالفة : النصّ التراثي و إشكالية القراءة : دراسة تأويلية لرواية نوار اللوز



سعى بعض الدارسين إلى طرح مسألة العلاقة بين الرواية والهوية، ونذكر من الجهود التنظيرية المهمة في هذا الباب الأطروحة الموسومة بالرواية التاريخية : التجديد الأدبي والهوية الثقافية لميّة بوتافو<sup>228</sup>، كما نذكر من الأعمال التي اهتمت بهذا الموضوع البحث الموسوم بالرواية والهوية لمحمد القاضي وهو يقول في مقدّمته : "قبين الرواية والهوية اختلاف من حيث الطبيعة إذ الهوية مفهوم في حين أنّ الرواية إبداع ، ولكنّ بينهما على ذلك اتّحادا في الصفة إذ أنّ كلّ منهما ظاهرة تاريخية متحوّلة، ومن شأن هذا أن ينشئ بينهما علاقة احتوائية متبادلة: فالهوية تحوي الرواية بما هي مظهر من مظاهر التعبير الجمالي ، والرواية تحوي الهوية من حيث هي خلفية ورصيد يؤمّنان للرواية انتماءها إلى مجال اجتماعي وحضاري معيّن"<sup>229</sup>. ويمكن أن نضيف إلى هذا التوصيف الجدلي أنّ الرواية هي المؤسّسة الأدبية أو الثقافية التي تضطلع من بداية ظهور الرواية التاريخية بتجذير مسألة الهوية في الفكر العربي الحديث . وقد ذهب محمد كاين في مقاله الموسوم بموضوع الهوية الثقافية ومتغيراته في الرواية الإفريقية الفرنكوفونية إلى أنّ الهوية الثقافية في الرواية هي المحرك الإنشائي لكتابة الرواية التاريخية<sup>230</sup>

وسنحاول في عملنا هذا - وهو عمل بيني تأويلي يندرج في باب الدراسات الشعرية الاجتماعية<sup>231</sup> (Sociopoétique) - التوسّع في هذا التساؤل المتصل بعلاقة الرواية بالهوية ومجاوزة الجنس الروائي التاريخي إلى عامّة الخطاب التاريخي لنطرح سؤالا ذا صبغة أنطولوجية تطرحه الدراسات

---

لواسيني الأعرج ، ضمن كتابه شعرية القراءة والتأويل في الرواية الحديثة ، عالم الكتب الحديث، الأردن 2010 ص 134-144.

<sup>228</sup> أصل الكتاب بالفرنسية و عنوانه : Roman Historique novation littéraire et identité culturelle à l'aube du xx siècle ;Université Limoges 2006;537P

<sup>229</sup> في حوارية الرواية، دار سحر للنشر، تونس، 2005 ص 191.

<sup>230</sup> Ethiopiques n 42 ;1985;volume 111 n 3

<sup>231</sup> ينظر في خصوص الدراسات الشعرية الاجتماعية : Pierre Bourdieu ; Les règles de l'art;Ed Seuil 1992 .Sihem Sidaoui;Pour une approche sociopoétique du roman contemporain;in revue de littérature générale et comparée ,n 13 ;2012:

الشعرية الاجتماعية حول الصراع بين الحتمية والصدفة في كتابة الرواية التاريخية، وقد خصّصت له الجمعية العالمية للأدب المقارن ملتقى انتظم يومي 23 و 24 جوان 2006 و حاولت فيه الإجابة عن السؤال المتصل بسيطرة الإنسان في التاريخ على مستقبله من خلال نوع الحكمة الروائية وأنواع التأثير: لقد حاول الخطاب الروائي التاريخي أن يطرح على الوعي الروائي العربي مسألة الهوية الثقافية منذ كتب سليم البستاني قصّته التاريخية التي ظهرت سنة 1871 إلى نجيب محفوظ ورواياته التاريخية الثلاث وهي رادوبيس وكفاح طيبة وعبث الأقدار وصولاً إلى تجارب من قبيل كتاب الأمير مسالك أبواب الحديد لواسيني الأعرج<sup>232</sup>. وسيكون هذا العمل مجاوزاً لمنجزات السرديات البنيوية إلى النظر في الرواية بما هي عمل ثقافي تواصلية كما يقول فيليب داروس<sup>233</sup>، وقد استفاد علم النقد الروائي المقارن من هذا الاتجاه في قراءة الرواية التاريخية لفهم الصلة بين الهوية الثقافية والتلفّظ الروائي، فبيّنت بعض الدراسات في مقارنتها بين تمثّل الماضي في الرواية العربية وتمثّله في الرواية الفرنسية المكتوبة في العقد الأخير أنّ السرد العربي لا يتمثّل الماضي إلّا في إطار التواصل، بينما تتمثّله الرواية الفرنسية في إطار السخرية والقطيعة.<sup>234</sup>

ولن يتناول هذا البحث إلّا إشكاليات إعادة كتابة الأجناس السردية التاريخية ذات القيمة الرمزية وصلتها بمسألة الصراع الثقافي بين الشرق و الغرب أو المثاقفة وخاصّة مشكلة "استيراد" الأجناس الروائية الجاهزة وتجذير الهوية . وقد استندت في هذا العمل البيني إلى نصين روائيين لكاتبين من تونس عنوان الرواية الأولى هو مصرع الكاهنة وهي لكوثر خليل والثانية هي باب الفلّة لحسين بن عمّو .وتندرج الروايتان في اتجاه روائي تجذّر في الكتابة القصصية التونسية منذ السبعينات من القرن الميلادي الماضي ، يمكن أن نذكر من نماذجه مسرحية مراد الثالث للحبيب بولعراس، وهي مستلهمة من تاريخ الملوك الحسينيين، وبرق الليل للبشير خريف، وهي تروي جانباً من تاريخ الأقليات الزنجية إبان صراع

<sup>232</sup> يمكن أن نذكر كذلك من علامات الرواية التاريخية في النصف الأوّل من القرن العشرين مؤلفات جرجي زيدان المعروفة بسلسلة روايات الإسلام وأورشليم الجديدة لفرح أنطون و أمير لبنان ليعقوب صروف .

<sup>233</sup> Philippe Daros: Anthropologie Littéraire Générale et comparée ;in Perspectives comparatistes;Paris;Honoré;ChampionEditeur;1999 .

<sup>234</sup> سهام سيداوي : نحو مقارنة سوسيو شعرية للرواية المعاصرة مذكور أعلاه .

العثمانيين مع الإسبان<sup>235</sup>. ويجمع بين الروائيتين أنّهما تستخدمان الخطاب التاريخي لمساءلة الواقع الاجتماعي الحديث، و لفهم مدى وعي الإنسان المعاصر بمسألة الهوية الثقافية، ويجمع بينهما كذلك أنّهما تحاولان الإجابة عن السؤال الذي تطرحه الشعرية الاجتماعية في قراءتها للرواية التاريخية وهو : كيف يمكن للروائي أن يعطي معنى لحياة الإنسان وللتاريخ كلّ في الحقبة التاريخية التي يرويها وذلك من خلال الوجهة التي يمنحها للسرد التخيلي ولبناء الشخصيات ؟. ويجمع بين الروائيتين كذلك أنّهما تستلهمان الأحداث الروائية من عصرين من عصور تاريخ تونس مهمّين هما العصر الروماني الذي تضطلع فيه الحضارة الرومانية بدور الحضارة العالمية المهيمنة على المتوسط كلّ، وقد امتدت هيمنتها على القرون السبعة السابقة للفتح الإسلامي، والعصر العثماني من القرن السابع عشر إلى انتصاب الحماية الفرنسية أواخر القرن التاسع عشر. وقد جاء عنوان إحداهما حاملا لاسم علم تاريخي رمزي هو الكاهنة والثاني حاملا لاسم مكان يعبق بتاريخ الصراع بين القوى العظمى في البحر المتوسط كما سنرى. ويفرّق بين الروائيتين أنّ إحداهما وهي رواية مصرع الكاهنة تمزج مزجا واضحا بين الخطاب التاريخي والخطاب الأسطوري وتساؤل هوية المرأة بين الأصالة العربية الإسلامية أو الهوية الشرقية والانفتاح على القيم الغربية، في حين تنزع الثانية إلى سرد تفاصيل الحياة اليومية في المجتمع الحضري التونسي القديم وتساؤل هوية الإنسان العربي بوجه عامّ فهما بهذا التساؤل تفتحان مجال البحث البيئي الذي يتقاطع فيه منهج علم التاريخ الثقافي ومنهج الحفريات الاجتماعية ومنهج الأنثروبولوجيا الثقافية .

وقد انتخبنا في دراسة الخطاب التاريخي ومسألة الهوية إشكاليتين إثنين بدتا لنا أبرز من غيرهما في هذين الأثرين وهما الخطاب التاريخي والزمن الثقافي والخطاب التاريخي والمكان الثقافي .

## أ-الخطاب التاريخي والزمن الثقافي :

من أهم محاور البينية في التفاعل بين الرواية والتاريخ نذكر خرق العامل الثقافي في الفكر الروائي التجريبي للحقب التاريخية المحددة بأطر سياسية أو حضارية معينة، ليعبر عن الهوية الثقافية في صيرورتها الوجودية حيث يتماهى الماضي والحاضر والمستقبل في الوعي الروائي أي في الوجود الذي

<sup>235</sup> انظر نصّ الرواية ضمن سلسلة عيون المعاصرة، دار الجنوب للنشر، تونس 2000 .

يعيشه الكاتب رغم كون التلّفظ السردى هو الحاضر أساساً<sup>236</sup>. وكتابة التاريخ في الجنس الروائي الذي يبحث في مسألة الهوية هو كتابة الذاكرة الراهنة للماضي، وفي هذا المضمار يقول بول ريكور: "يتذكّر المرء هو نفسه أمراً معيّناً يعني مباشرة أن يتذكّر المرء نفسه".<sup>237</sup> ويفسّر ناصيف نصّار هذا القول بقوله: "إنّ علاقة الكائن الذاتى بالماضي علاقة حيّة، أو بالأحرى علاقة حياة، وذلك بمعنى أنّه لو لم يكن سؤال الماضي جزءاً لا يتجزأ من حضور الكائن الذاتى إلى ذاته وإلى الآخرين لما كان للماضي أيّة وظيفة وجودية في حياة الكائن الذاتى ومصيره، الكائن الذاتى يسأل عن الماضي ماضيه الخاص، وماضي الآخرين الأقربين والأبعدين لأنّه لا يستطيع أن يتصوّر حاضره تصوراً كاملاً من دون ما قبله".<sup>238</sup> إنّ محاولة التذكّر في الكتابة الروائية هي سؤال عن أصل الماضى، ومحاولة للاندرج في خطّ الزمن أو الوعي التاريخي، وهو تجربة خاصّة بالقطاع السيرداتى ولا صلة له بالأدب الواقعي. ويمكن أن تكون كتابة الماضى تلفظاً حوارياً نقدياً، كما يمكن أن تكون عملاً بنائياً بالمفهوم التداولي للبناء أي أنّ كتابة الخطاب التاريخي في الجنس الروائي التخيلي هي محاسبة للذات و لآخر، محاسبة للذات لتجذير الهوية وفهمها، ومحاسبة للآخر ضمن حوار الحضارات أو حوار الشرق والغرب.

وإنّ رواية باب الفلّة لحسنين بن عمّو من الروايات التي تحاول أن تكتب الماضى بذاكرة المثقف في الزمن الراهن فيتجمع الماضى والحاضر والمستقبل في لحظة كتابة واحدة، ويحاول الخطاب الروائي أن يعبر بالقارئ الزمن المحلي إلى الزمن الثقافي فيزواج بين كتابة التاريخ بما هو واقع قد مضى وكتابة الحاضر بما هو تاريخ تجري أحداثه وأحوال أهله في الراهن: فهي تروي جانباً ممّا حدث أيام الصراع بين الإسبان والأتراك على احتلال البلاد التونسية. وهي حقبة ألهمت أكثر من روائي وقال عنها محمد القاضي في تقديم الرواية التاريخية "بلّارة" للروائي البشير خريف: "وهي فترة تميّزت باضطراب سياسي واجتماعي وعسكري تجلّى في وقوع الإيالة التونسية بين قوتين عظميين هما الإمبراطورية الإسبانية

Claude Dubar: Temporalité : Philosophie et sciences sociales: 2008 p 9

236

<sup>237</sup> الذاكرة، التاريخ، النسيان، ترجمة و تقديم و تعليق جورج زيناتي، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت 2009 ص 31 ..

<sup>238</sup> الذات و الحضور: بحث في مبادئ الوجود التاريخي، دار الطليعة، بيروت 2008 ص 480.

والسلطنة العثمانية<sup>239</sup>. وقد صاغ هذا الإطار التاريخي صاحب رواية باب الفلّة في حوار بين شخصيتين من شخصيات الرواية بقوله: "ألا تعرف أنّ الدولة الحفصية كانت مترامية الأطراف من طرابلس إلى تونس كلّها مروراً بالجزائر حتّى تلمسان أين هي هذه الدولة الآن؟ وماذا بقي منها في عهد أحمد سلطان؟ إنّ الأتراك يحتلّون اليوم القيروان وسوسة والمنستير، بعدما تركزوا بالجزائر، وأصبحت عيونهم على البقية الباقية من المملكة الحفصية، أمّا الإسبان فلم يبق اليوم حلق الوادي والمهدية وقليبية وغيرها من المدن الساحلية...إنّ الضياع...إنّ النهاية القريبة لبني حفص<sup>240</sup>".

إنّ رواية باب الفلّة تدوّن تاريخ الصراع بين الحفصيين والعثمانيين على الحكم، واستجداد أحمد الحفصي بالإسبان واحتلالهم حاضرة تونس. فمن جهة الإطار الزمني تراوح الرواية بين ترسم الأحداث السياسية العامّة التي تحتفل بها كتب تاريخ تونس الوسيط والحديث، وبين تتبّع التاريخ الاجتماعي والنفسي للفئات الهشّة والهامشية، والتاريخ الاقتصادي الذي عاشته المجموعات البشرية الضعيفة حين خرب الإسبان حاضرة تونس، فدفع الخوف والحاجة بمجموعات هائلة من متساكني الحاضرة إلى النزوح منها والتحصّن بالجبّال والحقول المجاورة لها. ويتّضح حرص الكاتب على دعوة القراء إلى التفكير في مسألة الهوية من خلال هذه المراوحة في جميع فصول الرواية بين الزمن السياسي والزمن الاجتماعي والعاطفي، وهو زمن كلّ أسرة لها أصول في ذلك المجتمع، وكلّ عائلة لها ذاكرة في حدث من أحداثه. فبطل الرواية "عبد العزيز ولد فطيمة" شابّ عاش حياة ممزّقة بين واجب الدفاع عن الوطن وواجب الدفاع عن الذات الفردية والأسرية والعاطفية، أي إنّ كان ممزّقاً بين هويتين متكاملتين: هوية رمزية وهوية اجتماعية. وفعلاً فإنّ بطل هذه الرواية هو شاب فقير معدّم من حاضرة تونس تورط في جريمة قتل شيخ متصاب في بيت أرملة من أهل السوء وقبض عليه وزجّ به في سجن قصبة تونس حيث يسجن كبار القوم عادة ثمّ دعاه السلطان واتهمه بقتل الحاج مبروك ذلك الشيخ المتصابي لكنّ الشاب أخبره الحقيقة وأعلمه أنّه وجدته ميتة وأنّه أخذ ماله من حزامته فخيّره السلطان بين أن يأتيه بتلك الحزامه وأن يقتله، فأسرع إلى بيت المرأة المعشوقة وجاء بتلك الحزامه.

---

<sup>239</sup> الرواية و التاريخ ص 90 .

<sup>240</sup> باب الفلّة ، منشورات المطبعة الموحّدة ، تونس 2005 ص 39.

وتتواصل أحداث القصة لتتسج خيوط مغامرة سياسية وعاطفية يعيشها ذلك الشاب. وقد بنى الروائي هذا التواشج بين الهويتين من خلال مغامرة حب جمعت عبد العزيز بفتاة من عائلة أصيلة ومحافظة ، ولكن هجوم جيش الإسبان على الحاضرة قد عصف بأسرتها وأوقعها سبية بين أيديهم وماتت بين يدي حبيبها متأثرة بما لقيته من تعذيب في غياهب السجون . وبهذه النهاية الفاجعة تكون القصتان المتوازيتان قصة احتلال تونس وسبي "نفسية" حبيبة عبد العزيز قد تظاهرتا للتعبير الرمزي عن الهوية المهددة باعتبار حب المرأة وحب الأرض شكلين متكاملين في التعبير عن المعنى . فاغتصاب المرأة في الرواية هو الوجه الآخر لاغتصاب الأرض، وهو يصدر من مشكاة معنوية واحدة هي الكرامة والحرمة : "فأسرع أحدهم إلى الصندوق وضربه بمقبض سيفه ضربة قصمت غطاءه إلى نصفين ، وكانت هذه الضربة بمثابة بداية لانفتاح كنزهم المنتظر ... فصاحت "حبيبة كائناتها ترى أمها تموت أمام عينيها : ذهبي...ذهبي...ثروتي...ياكلاب اتركوها ...<sup>241</sup> .

وقد اخترنا دراسة صلة الخطاب التاريخي بالزمن الثقافي في رواية مصرع الكاهنة لكوشر خليل ، ولئن كان في الرواية تدوين لسيرة الكاهنة ، إلا أنها لا تشاكل التاريخ في خطيته وفي تسلسل عصوره وأحداثه ، وإنما تجعل منطلق الحكاية استعداد الكاهنة لدحر دابة خرافية، وتمهد الكاتبة لهذه الملحمة النثرية بغزو أسطوري تصفه بقولها : " كانت كلّ القصص تحاك حول جنيات البحر يأتين متسرلات بخناجر عليها نقوش قديمة لإيهام الغاوين أنها من موروثات أجدادهن، وقد كان أولى بها نساؤنا البدويات يحسن توقيع الخلخال وإخصاب الجذوع الخاوية في الصحاري القاحلة ، لا يسلمن نعوش آبائهن ، ولا يقطعن خصلاتهن " <sup>242</sup>. إن زمن الكاهنة في المتخيل الروائي عند كوشر خليل زمن معبر عن أصل من أصول الهوية الثقافية ، والرواية تحمل في عنوانها ذاته إشارة إلى حدث تاريخي نسجت حوله روايات كثيرة ، وهي روايات مستلّة من نسيج الكتابة التاريخية / الأسطورية التي ترمز إلى هوية البلاد التونسية بما أن الكاهنة زعيمة من زعماء إفريقية<sup>243</sup> قاومت الغزو الروماني وسعت إلى تثبيت حرية البربر على أرضهم .وقد بنت هذه الشخصية على نحو يجعلها رمزا للقيادة الحكيمة وللکفاية الثقافية والسياسية والاجتماعية

<sup>241</sup> باب الفلة ص 232 .

<sup>242</sup> مصرع الكاهنة ، منشورات الزرلي تونس 2009 ص 7 .

<sup>243</sup> هو الاسم البربري و البوني للبلاد التونسية .

:"وكانت الكاهنة من يدرّب الفرسان في قبيلتها، فقد كانت لها سطوة وحكمة يندر وجودهما، وكانت تعلّمهم إلى شراسة المحارب أخلاق الفارس ، فلا يقتلون الطفل والشيخ والمرأة والأعزل ، ولا يمثلون بشريف النسب في قومه ولا يعدّون الأسير ...<sup>244</sup> .

لقد أعادت الكاتبة صياغة أسطورة<sup>245</sup> الكاهنة البربرية فأفرغت الخطاب التاريخي من الحقائق التي اتفقت عليها جميع المصادر<sup>246</sup> وشحنتها بدلالات تخدم الزمن الثقافي الراهن ، وهو زمن مصارعة الاستعمار والتغريب، زمن البطولة الملحمية ، زمن تثبيت الإنسان في وطنه وفي لغته وفي تاريخه : " تقدّم المتكلّمون لخيمة الكاهنة يبتغون منها السفارة بينهم و بين الناس وبينهم وبين الأمير، وذكروها بالمجازر القديمة التي حدثت على أرض الصحراء والإبادات التي عرفتتها بعض السلالات القديمة وظلم أصحاب الجاه لبقية الناس، وخبط هؤلاء في ظلمات الجهل والفقر فلا تسعفهم الأرض من تحتهم ولا ترحمهم السماء من فوقهم ...وأعلموها بخبر الدابة وكيف برزت في أرض المشرق في ذات الوقت الذي برزت فيه في أرض المغرب، وخضوع أرض المشرق للمستعمر بعد شهر من ظهور الدابة ، وأنّ أرض المغرب ليست معصومة من الغزاة المغيرين يطلبون ثروة الأرض وكرامة الإنسان عبر البحر"<sup>247</sup>.

إنّ صوت الشخصية ( المتكلّمون ) في هذا المقطع التاريخي - بالمعنى الباختيني للصوت الثقافي - هو صوت الإنسان المعاصر الذي يرفض الاستعمار في كافة أشكاله السياسية والثقافية والاقتصادية .

---

<sup>244</sup> مصرع الكاهنة ، ص 32 .

<sup>245</sup> نستعمل عبارة الأسطورة في دلالتها الاصطلاحية ، وللأسطورة تعريفات مختلفة، فهي عند بعضهم مثل ميرسيا إلياد قصّة رمزية تروي بدايات ظهور الأشياء وتفسّر بشكل رمزي الظواهر الطبيعية والثقافية أوتروي حدثا وقع في بداية الزمن ، وهي عند البعض الآخر ضرب من التدبّر في العالم الطبيعي والاجتماعي والثقافي يختلف من حيث وسائله والشكل الذي من خلاله يتجلّى بحسب كلّ مجتمع من المجتمعات . وهي في جميع التعريفات لا تعدو أن تكون كتابة سردية رمزية تفسّر بدايات الحياة وتمنح الظواهر معنى يسبق المعنى الذي يمنحه لها التفسير العلمي . انظر محمد عجينة : موسوعة أساطير العرب عن الجاهلية ودلالاتها ، منشورات دار الفارابي، بيروت لبنان 1994 ص 63 و ما بعدها .

<sup>246</sup> من هذه الحقائق مثلا أنّ الكاهنة أحرقت قسما كبيرا من غابة الزيتون التونسية .

<sup>247</sup> مصرع الكاهنة ص 37 .

فالمجازر القديمة في أرض الصحراء والإبادات هي إشارة إلى الاستعمار الفرنسي في شمال إفريقيا خلال القرنين التاسع عشر والعشرين .

وقد اتخذت الكاتبة من الخطاب الأسطوري أداة للعبور من الكتابة التاريخية إلى الكتابة المعبرة عن الزمن الثقافي الراهن ، واتخذت من شخصية الدابة وهي شخصية متولدة من رحم المتخيل الروائي ولا صلة لها بتاريخ الكاهنة للدفاع عن الهوية العربية الإسلامية بإزاء الغزو الثقافي وظاهرة العولمة بوجه دقيق : " ولكن خبر الدابة التي تكلمت في أرض شقبنار وعرجت في تسع وتسعين من القوائم إلى السماء <sup>248</sup> كانت حديث كل الناس ، وقد اجتمعت الكاهنة بغيرها من رؤساء القبائل وأسيادها فلم يخلصوا إلا إلى أن الدابة تحذير من خطب جلل حتى جاءها طلب المتكلمين رؤيتها <sup>249</sup> .

لقد شكّلت الذاكرة التاريخية في الروايتين المذكورتين مرحلتين متطابقتين من مراحل تاريخ تونس وذلك من جهة التعبير عن الزمن الثقافي وهو زمن الدفاع عن الهوية ، هو زمن الصراع بين قوتين متجاذبتين متصارعتين حول توجيه الهوية الثقافية : قوة التغريب ممثلة في الغزو الروماني بالنسبة إلى رواية مصرع الكاهنة والغزو الإسباني بالنسبة إلى رواية باب الفلة ، وقوة التأصيل والتغريب ممثلة في الكاهنة أولا وفي الدولة الحفصية ثانيا بما هي أول دولة تعبّر عن الشخصية العربية الإسلامية في تونس العصر الوسيط .

## ب - المكان التاريخي والروائي:

يعدّ المكان أو الحيز كما يسمّيه بعض الباحثين <sup>250</sup> في الدراسات الأدبية عامّة والسرديات خاصّة ملفوظا حكاثيا من المفاهيم الإبداعية والإجرائية الأساس بالنسبة إلى الفضاء الروائي: فهو من

---

<sup>248</sup> عروج الدابة إلى السماء يعني الرحلات الفضائية التي أنجزها الغرب في العقود الأخيرة من القرن العشرين الميلادي .

<sup>249</sup> مصرع الكاهنة ص 32-33.

<sup>250</sup> انظر مثلا عبد الملك مرتاض : في نظرية الرواية فهو يستعمل هذا المصطلح لأنّه أوسع دلالة من المكان و أدقّ من الفضاء . و يعني بالحيز جملة التقنيات السردية المأثثة للمكان في قيمته الجمالية و مختلف أبعاده التخيلية غير المرجعية ، فللسرد فضاء خاص يتم فيه تقسيم العالم تقسيما لا يخضع بالضرورة للموضوعية الجغرافية في المرجع الحقيقي



المفاهيم الإبداعية لأنه عنصر من عناصر الحكاية أو الخبر في جميع أجناس الحكى القديم والحديث على السواء، وقد تطوّرت قيمته السردية في الرواية العربية بتطوّر القضايا التي عالجها هذا الجنس الأدبي، فكان فضاء المدينة أهمّ الفضاءات التي احتضنت أزمة الإنسان في المجتمع العربي الحديث وعبّرت عن التحوّلات الخطيرة في البنية المجتمعية ( الصراع بين الريف والمدينة - القيم الأخلاقية والمدنية - المكان والهوية ... المدينة والضياع ) بل إنّ عامّة دارسي روايات نجيب محفوظ وإحسان عبد القدوس ويوسف السباعي وغيرهم من الروائيين الواقعيين تختزل مضامين أعمالهم في عتبات مكانية لأنهم يرون أنّ المكان هو الشخصية الرئيسة في هذه الروايات سواء منها ما اختزل الرواية كلّها ( خان الخليلي - زقاق المدقّ - بين القصرين - قصر الشوق - السكرية ) أو ما اختزل الحكاية في حيّز زمني مكاني في آن ( القاهرة الجديدة ) أو في المكان الرمزي ( في بيتنا رجل ) ومنها ما كان فيها المكان مضافاً إلى الشخصيات القصصية ( أولاد حارتنا - خمارة القط الأسود ) .

وبعدّ المكان كذلك من المفاهيم الإبداعية لأنّ الرؤية الروائية منذ أكثر من عقدين أصبحت تستثمر المكان لبناء الرمز الروائي ( بيروت بيروت لصنع الله إبراهيم - الغرف الأخرى لجبرا إبراهيم جبرا ... ) .

وفي تلك الحقبة ( العقود الأخيرة من القرن العشرين ) يتحوّل المكان في الرواية التجريبية إلى بؤرة من بؤر التشظي السردية وإلى دافع من دوافع الكتابة خارج الحدود. ويتحوّل المكان التاريخي أو المرجعي إلى متخيّل رمزي في أغلب المنجزات الروائية . كما تحول المكان الواقعي المتشظي إلى رمز من رموز ضياع الهوية وتشظّيها ( عالم بلا خرائط لعبد الرحمن منيف وجبرا إبراهيم جبرا ) .

وبعدّ المكان أخيراً من المفاهيم النقدية الإجرائية لأنّه مدخل من المداخل التي تمكّن الناقد من إعادة تنظيم الفضاء وفهم العالم المتخيّل الذي ينزل فيه الروائي شخصياته وأعمالها القصصية وخصائصها النفسية ومواقفها، ومواقعها الاجتماعية<sup>251</sup>، وهو كذلك من الأدوات التي تسهم في إنارة نظام الأعمال والبرامج السردية.

---

251- بناء الرواية العربية السورية، سمر روجي الفيصل.

وفي سياق هذا التجريب الروائي في التعامل مع المكان التاريخي للكتابة الباحثة عن الهوية جاءت روايتنا باب الفلة ومصرع الكاهنة، فالإطار المكاني باب الفلة هو اسم تاريخي، وللغة معنى مباشر مرجعي ومعنى رمزي : وهو سوق ذو رمزية تاريخية لأنه من الأسواق العتيقة الواقعة في الجنوب الشرقي من حاضرة تونس، تنفتح على الطريق المؤدية إلى جزيرة أبي شريك . ويرجع تأسيسها إلى العصر الحفصي، وقد استعملها السكّان للفرار من الإسبان حين هاجموا تونس بدعوة من الحسن الحفصي سنة 1535: "آه باب الفلة !!! كلما جاء ذكره تخيلت ذلك اليوم الأخير الذي دخل فيه الإسبان إلى الحاضرة... ويوم دخل الإسبان تونس أحكموا غلق أبواب المدينة حتّى لا يهرب السكّان العزّل ، ولم يجد الناس يومها سوى هذا المكان الذي يسمّى اليوم باب الفلة" <sup>252</sup>. ويبدو أن اختيار الكاتب هذا المكان لكتابة أحداث الرواية إنّما يرسّخ فكرة استمرار الزمن الثقافي باستمرار أسماء الأماكن والبلدان والأشخاص والكنى والألقاب من جهة، ولأنّ هذا المكان هو رمز انفتاح الماضي على الحاضر ورمز التواصل بين الداخل والخارج من جهة أخرى . وهو من جهة ثالثة توظيف للخطاب التاريخي لتأصيل التعبير عن الهوية الاجتماعية والشخصية الشعبية في الأدب الروائي تفاعلا مع قول البشير خريف رائد الرواية التاريخية في تونس في تقديمه لروايته بلّارة : "بقيت أنصفح أوراقا بادت ولا تتبيّن كتابتها إلّا بمشقة غير أنّي لم أجن من هذا الجهد إلّا حنقا وسخطا على الأساليب القديمة التي كان يتبعها المؤرخون .... لا شيء عن الحياة العامة البسيطة .... هي أصل في الأحداث التي تقلب وجه التاريخ" <sup>253</sup>. وقد خلصنا من قراءتنا لرواية باب الفلة لحسن بن عمّو إلى أنّ هذا اللون من كتابة التاريخ هو معارضة لكتابة التاريخ الرسمي للعصر الحفصي بأحداث فضاءات واقعية داخل هذا التاريخ وابتكار شخصيات اجتماعية تعيش مغامرات مثيرة على هامش الأحداث السياسية التي دونها التاريخ الرسمي : فهي بهذه الشعرية كتابة بينيّة تتراوح بين الموقف الروائي والموقف التاريخي، فقد حرص حسنين بن عمّو غاية الحرص على ترسم الأمكنة الداخلية التي شهدت كتابة تاريخ تونس الحديث ، وعرفت صراعا مريرا في سبيل إنقاذ هويتها من الاستعمار الإسباني الذي أطاح بالوجود العربي الإسلامي في الأندلس وامتدّت مخالفه إلى شواطئ شمال إفريقيا، وقد أسهم المكان في حركة السرد

<sup>252</sup> المصدر نفسه ، ص 32 .

<sup>253</sup> البشير خريف : بلّارة، تحقيق و تقديم فوزي الزملي، بيت الحكمة تونس 1992 ص 29 .

إسهاما ذا بال لأنّ المدار الذي عليه الحكاية كلّها هو الصراع بين القوى المتوسطة في ذلك العصر على افتكاك الضفة الجنوبية للمتوسط . فالرواية من هذه الجهة تتحوّل إلى نص ثقافي متعدّد الوجهات، وكأنّها ترمّم قطعا من التاريخ الشاهد على ماجرى من أحداث في ذلك الزمن، وفي هذا الترميم تكمن قيمتها البينية أو يكمن تقاطع التخصصات التي يمكن أن تستفيد من هذه النصوص الإبداعية . ونقتصر في هذا السياق على ذكر نموذج من أحداث التاريخ السياسي التي تحملها الذاكرة الجماعية ويدونها الروائي بصفتها جزءا من هذه الذاكرة ، ويتمثّل هذا العنصر في تدنيس المقدّس ، فقد دوّن الروائي دخول الإسبان إلى حاضرة تونس وتدنيسهم الجامع الأعظم : " بينما كان دون خوان يتحدّث إلى الجنرال كابريو سيريليوني ، ويفسّر له رغبته في بناء قلعة كبيرة في حجم مدينة خارج باب البحر <sup>254</sup> كان جنده يعيث فسادا في الحاضرة ، وكانت البداية في سوق الفكة وسوق العطارين ، فقد توجّهوا في أعداد غفيرة نحو جامع الزيتونة رمز المدينة وروحها ... دخل جمع من الهمج إلى الصحن راكبين الجياد ، وكان معظم المهاجمين الآخرين من المشاة <sup>255</sup> . إلّا أنّ الجنس الروائي يختلف من حيث القيمة التوثيقية عن الكتابة التاريخية لأنّه يبحث في تلك اللحظات الدرامية عن البعد الإنساني في صلته بالمكان الذي هو الملجأ لإنقاذ الهوية ، ويجده في صور مثيرة منها وفي مشاهد معبرة وفي وصف أوضاع الأسر والأطفال والشيوخ وهم يحتمون بالمساجد ويتحصّنون بالجبال. إنّ كتابة المكان تتحوّل إلى مأساة جماعية تعمّق الذاكرة وتثري روح الاعتزاز بالهوية التي استطاع الناس في نهاية الأمر الدفاع عنها وإنفاذها : "تموّجت في الفضاء أصداء ضرب النواقيس معلنة عن انهزام المدينة بالضربة القاضية، وفي الصميم ، وكان أحد المؤذنين الشبان قد اختبأ في مدرج صومعة الجامع وقد سدّ أذنيه وترك العنان للدموع تعبّر عن القهر والعجز، لكنّه لم يتمالك طويلا فنطّ صاعدا المدارج حتّى وصل إلى المنذنة فأطلق الأذان في غير ميعاد وقد تقطّع صوته تأثرا وكأثما وصلته أصداء ضرب النواقيس، وأعاد الأذان مرارا حتّى سكت صوته فجأة ، فقد داهمه جندي وقطع رأسه في الحال <sup>256</sup> . إنّ هذا التاريخ مجهول أو كالمجهول لا تحتفل به الكتب والمصنفات الرسمية ، هو تاريخ تلك الأمكنة الرمزية من زوايا ومساجد

<sup>254</sup> باب البحر هو الحيّ الجديد في حاضرة تونس من الجهة الجنوبية الشرقية يطلّ على البحر .

<sup>255</sup> باب الفلة ص 241 .

<sup>256</sup> باب الفلة ص 242 .

وقصبة وأسواق، وكذلك هو تاريخ الفئات الاجتماعية الهامشية المتعلقة بالمكان ، وهي تسعى إلى الدفاع عن النفس بوسائل بسيطة ، وهو دفاع كما تراه العامة وكما يعيشه الأفراد ، كلّ من موقعه ، وقد عملت الرواية على كتابة هذا التاريخ في خطاب تخيلي لكنه مشاكل للواقع. ويطلع القارئ في هذه الرواية على لوحات ترسم الحوار المنكوبة والدور المسلوبة المنهوبة، لكن الشخصية المجتمعية لم تدمر بل بعثت من جديد لتعيد بناء ما دمره العثمانيون والإسبان ، ولتخطّ لذاتها مستقبلا أصيلا ، ولعلّ العنوان نفسه "باب القلة" هو رمز هذا كلّ : فهو باب النجاة والانتصار: " فقد عكف على تحويل أرض الدار إلى جنان، فغرس الأشجار وأثبت كلّ ما وقعت عليه يده في غرفة "حبيقة" من بذور ، وجعل يسقيها ويرعاها حتّى تحوّل المكان إلى جنة صغيرة وارفة الظلال لا تسكنها سوى نفيسة"<sup>257</sup>. وهكذا تختم الرواية بانبعث المكان من جديد مخصبا مورقا، وتختتم بعودة الإنسان إلى الأعمار والشجر إلى الإثمار .

أما المكان الثقافي في رواية مصرع الكاهنة فهو الفضاء الذي يتحرك فيه المجتمع البربري، وهو يصنع ملحمة الدفاع عن الصحراء، وهو الجذر الأنثروبولوجي الذي امتدّت فروعه لبناء الهوية الثقافية في العصر الحديث : " لاحقتني هلوسات الملجأ الجبلي"<sup>258</sup> وأنا أشاهد بخيالي رجال الصحراء الزرق<sup>259</sup> يعبرون الصحراء على جمالهم بقامات عالية زادت ظلالهم ارتفاعا وامتدادا على المحور المقابل للشمس... ذلك الملجأ الجبلي كان دائما ملتقى الحضارات تتلاقح فيه الأمكنة والأزمنة"<sup>260</sup>. لقد قرأت كوثر خليل الزمن الثقافي المعاصر قراءة منكسرة فأعادت كتابة مقطع من تاريخ تونس ، واختارت شخصية الكاهنة البربرية لأنها شخصية خلافة ورمزية في آن ، فالخطاب التاريخي الذي يروي تاريخ الكاهنة تتجاذبه قراءات ورؤى مختلفة، وهو على كلّ حال في عيون كثير من المؤرخين مصدر من مصادر ترميز الهوية الثقافية ضدّ الاستعمار الأوروبي في العصر الحديث لأنها رواية تحتفل بكتابة حكاية تعلق الإنسان بالصحراء ، وبرموزها وأساطيرها وروائعها ، وقد صاغت الروائية هذا التفاعل بين الإنسان والمكان صياغة خرافية أسطورية فامتزج فيها الزمن التاريخي بالزمن الأسطوري : " كان من

<sup>257</sup> المصدر نفسه ص 356 .

<sup>258</sup> تقصد الكاتبة بالملجأ الجبلي الانتماء الثقافي الصامد الشامخ الذي لا يزعه شيء .

<sup>259</sup> نعت أزرق في اللهجة التونسية يستعمل للدلالة على القوة و الفحولة .

<sup>260</sup> مصرع الكاهنة ص 104 .

حاشية الكاهنة فيما يقال جنّيات يحملن إليها أخبار المدن، وأسرار الغزاة ، فكانت تشتّم رائحة الإغارة قبل أيام تكفيها لإعداد العدة دون إعلام الوشاة حتّى لا يصل الخبر إلى عيون الأمير أو تجار البحار فيكيّدوا لها . وكانت تحفظ خرائط الصحراء على ظهر قلب ، ولم ترض توريثها إلّا لحفيد يأتي في عصر متأخّر ليحفظ ذكرى الأزمنة والأمكنة ، وتتفتح بصيرته بقدرة القدير على الماضي والقادم تلفظه كلّ الأمكنة فهو الغريب حتّى يبلغ الغاية أو يهلك دونها" <sup>261</sup>.

وقد لعب التبثير في هذه الرواية دورا حاسما في إحداث التماهي الحاصل بين شخصية الكاهنة والمكان الثقافي ، فرؤية المكان كانت في أغلب المقاطع الوصفية بعين الكاهنة البربرية ، وقد جاء في أحد المقاطع التي تصف فيها الكاهنة ظاهرة التغريب : " لقد تنبّأت القوافل بعلامات الانجراف <sup>262</sup> لمطر الغازي يجرف الأرض ومصانع البشر، وشهد الناس أنّهم رأوا في ليالي القوافل السائرة بالبضاعة والغلمان رموزا كتبت بضوء النجوم بربرية وعربية ورومانية وفارسية تنبىء بخبر أمة مبتورة النسب تحكم الأرض وليس لها من القوة إلّا شهوة الناس توجّهها حيث شاعت ...أمة في هيئة الأخطبوط تبلغ أذرعها شرق الأرض ومغربها حتّى تطوّقها ، تشيع في الخلف كراهية السلف وتملأ رؤوسهم بالأوهام حتّى يأنفوا الأرض التي طلّعوا منها ، ويحتقروا كبارهم ...<sup>263</sup>."

تقول كاتبة رواية مصرع الكاهنة : " أبواب الأمكنة هي أبواب اللغة ، وأبواب الروح ولا تستقيم عمارة الكيان إلّا بذكورة المكان دليلا على الاستقامة "<sup>264</sup>. وقد احتفلت هذه الرواية بسيرة الكاهنة البربرية التي قاومت أعداءها بمعرفة المكان وإدراكه والإحساس به وبالتحلي بالشيم والقيم المستمدة من وعورة ذلك المكان وأسراره، وتركت للقراء حرية أن يدخلوا إلى هذه الرواية من زوايا مختلفة: زاوية العالم الأنثروبولوجي، أو الباحث التاريخي، أو الناقد الأدبي .

---

<sup>261</sup> مصرع الكاهنة ص 19 . وانظر في هذا المعنى أي امتزاج الأسطوري بالتاريخي : : Maya Boutaghou Roman Historique ;novation littéraire et identité culturelle p 475

<sup>262</sup> المقصود بالانجراف في هذا السياق التصحّر الثقافي و التغريب الفكري .

<sup>263</sup> مصرع الكاهنة ص 37 .

<sup>264</sup> مصرع الكاهنة ص 61 .

إنّ الخطاب التاريخي في روايتي مصرع الكاهنة وباب الفلّة خطاب واحد، ولئن اختلفت الروايتان من حيث الجنس التخيلي فإنّهما اشتركتا في ترميز التاريخ وربطه بمسار الإنسان المعاصر الباحث عن هويته الثقافية في خضمّ الصراعات الأيديولوجية والثقافية وفي عباب العولمة وما تتعرّض له الشخصية الأساسية في المجتمعات العربية .

لقد اخترنا في الفقرات السابقة نماذج متنوعة من التفاعل بين التاريخ والأدب في الكتابة القديمة والحديثة . ورأينا في هذا المبحث أنّ مسألة كتابة الخطاب التاريخي في الخطاب الأدبي عامة مكوّن رئيس من مكونات الكتابة الأدبية منذ أقدم العصور، فأدب أيام العرب كان خطابا بينيا يسرد الوقائع التي دارت بين القبائل في لغة أدبية، تخيلية ويعيد بناء السياقات التي قيلت فيها الأشعار المعبرة عن تلك الوقائع أو المواقبة لها، وقد كانت أيام العرب كما دوّنها أبو عبيدة من خلال المرويات الشفهية والقطع الشعرية الذاكرة الثقافية لحياة العرب وعاداتهم وآدابهم في الحرب وفي السلم. ورأينا من جهة ثانية أنّ رسائل البشائر بالفتوحات في العصر العباسي الثاني بخاصة مع الصابي وابن الأثير والقاضي الفاضل كانت شكلا من أشكال التفاعل بين أدب التاريخ والنواة الملحمية في النثر العربي القديم. وبينّا كيف كان أدب التراجم شكلا من أشكال بناء الذاكرة، ورسم الشخصية النموذجية للإنسان المتمدّن في المجتمع العربي الإسلامي .وفي العصر الحديث كانت الرواية الشكل الأدبي العالم والحاضن للتاريخ في تجارب جرجي زيدان ونجيب محفوظ، وفي عصر ما بعد الحداثة الروائية كانت صلة التاريخ بالرواية لونا من ألوان التجريب، وقد اختار عدد من الروائيين الخطاب التاريخي لكتابة الذاكرة بماهي جزء رئيس من الهوية، وبما هي إحدى المسائل الخلافية والجدالية في الفكر العربي الحديث، وهي تضع بين أيدي التخصصات المختلفة مادة للقراءة والتأويل فتكون بذلك من أهم الأجناس الأدبية ذات القيمة البينية . ولحظنا كذلك أنّ إعادة كتابة الخطاب التاريخي تتّجه من جيل إلى آخر نحو تعميق مسألة الإحساس بالهوية الثقافية ، وهي في النموذجين الذين استندنا إليهما أي باب الفلّة ومصرع الكاهنة ليست مجردّ دفاع عن الماضي وتذكير به، أو مجردّ تحقيق لهدف نفسي على نحو ما ذهب إليه جيل سابق في قراءة الرواية والتراث<sup>265</sup>، بل ليست كتابة التاريخ في هاتين الروايتين مجردّ عمل تمجيدي فيه من التحسّر والبكائية ما يدلّ على ضعف حاضرنّا أكثر ممّا يدلّ على قوّة ماضينا ، وإنمّا كتابة

265 - انظر مثلاً صبري مسلم حمادي : أثر التراث الشعبي في الرواية العراقية الحديثة بيروت 1980.

السرديات التاريخية الرمزية والمشاكل للواقع على السواء هي اختبار لصلتنا بالتاريخ ولفهمنا لشخصيتنا ولثقافتنا ، وهي تفاعل مع الواقع بشكل غير مباشر، فقارئ الرواية المتفاعل مع الكتابة التاريخية في مختلف أجناسها إنما هو متقبل لامتداد ثقافي روحي متصل في التاريخ مستشرف للمستقبل .

وقد تمكّن بعض نقّاد الرواية من الوقوف على إنتاجية التفاعل النصّي أي على دور التراث في كتابة الواقع، بأشكال رمزية متنوّعة، وإذا كان الخطاب التاريخي حاملاً للوعي بالزمن الثقافي العامّ أي العناصر القارّة في تاريخ الإنسان، فإنّه يتفاعل مع الزمن الواقعي أي مع العناصر المتغيّرة في هذا التاريخ، وبعبارة أخرى إنّ الخطاب التاريخي هو خلاصة الهوية التاريخية المتجدّدة ،وهو يغذّي الزمن الواقعي في مختلف السجلات اللغوية<sup>266</sup>.

وبناء على هذا التصور يصبحُ الخطاب التاريخي في الكتابة الروائية تفاعلاً بين الزمن الواقعي الذي نعيشه وهو متغيّر بتغيّر الأجيال والأحوال والظروف السياسية والاقتصادية والثقافية، والزمن الثقافي الذي نعيشه كذلك، ولكنّه زمن عاشه أسلافنا من الذين شاركوا في الهوية الحضارية نفسها، وفي التعامل مع اللغة نفسها، وهو زمن ثابت أو حامل لعناصر وأبنية ثقافية متأصلة. ولعلّ دور الرواية الحضاري أو الثقافي إنما هو مدّ جسور التواصل بين هذين الزمنين عبر الحوار بين الخطابين التاريخي والروائي .

وإذا كان توظيف التراث مجرد حلية أو زينة أو استعراض ثقافي وتغنّ ساذج بالماضي ومجرد حنين عقيم لزمن ولّى، ولظروف ثقافية لم يبق لها ما يبرّرها في هذا العصر فإنّ هذا التوظيف لن يكون له أيّ بعد حضاري بل لن تكون له أية قيمة ثقافية في مسألة بناء الهوية .وإذا عدنا التراث جزءاً منّا وامتداداً حياً لشخصيتنا الثقافية أو رأس مال رمزي في واقعنا المعاصر نحاوره ونسائله فهذه القيم القرائية هي التي ينبغي - في تقديرنا - أن يسير في ضوء نبراسها كتاب الجنس الروائي ونقّاده على السواء ، وربما مكنتهم هذه الأطروحة -إذا ما تمّ تعميق النظر فيها وتوضيح إشكالياتها - من وضع اللبنة الأولى لمشروع الخطاب النقدي الروائي في الثقافة العربية الحديثة .

---

266 انظر: توظيف التراث لرياض وتّار ص ص56 - 58.

وينبغي كي نفهم دور الرواية التي تعيد كتابة المتن التاريخي في تعميق الوعي بالهوية الثقافية أن ننطلق من كون التراث "هوية لغوية أي نقطة تقاطع منظومة النصوص المنتمية إلى نفس الثقافة أو مجموعة الأصوات الثقافية المعبرة عنها"<sup>267</sup>. إنَّ التاريخ جزء من الهوية، إنَّه جزء نصِّي لغوي يظهر في اللغة والثقافة وفي رؤية العالم وفي النظر إليه، وإنَّه كذلك الحكاية المعبرة عن الأنظمة السيميائية في ثقافة المجتمع الذي نحن جزء منه. وإذا سلَّمنا بأنَّ الواقع المعيش متفاعل مع التاريخ في حياتنا اليومية، وأنَّ العناصر التراثية حيَّة في الشخصية المجتمعية أمس واليوم وغدا، وأنها تعمِّق هذه الشخصية وتثريها وتعينها على الوعي بذاتها وبخصوصيتها وتشدُّها إلى أصولها، فجملة هذا الكلام تعني أنَّ كتابة الخطاب التاريخي في الرواية تلبي أفق انتظار القارئ ويصبحُ هذا التوظيف جزءًا من جمالية الرواية.

268.

يمكن إذن بالاستناد إلى مفهوم الكتابة الواعية بالزمنية (Temporality) أي بحركة الزمن الواعية أو العاقلة كما يقول هيديجير في كتابه الحقيقة والمنهج ، يمكن إذن أن نقول إنَّ قارئ التراث الذي يتمَّ تسريده في الرواية وفي الأدب عموماً ينظر إلى الماضي ويتوقَّع المستقبل في آن ، يحاور الماضي بالحاضر استشرافاً للمستقبل، بل ينظر إليهما بطريقة تختلف جوهرياً عن الأسلوب الذي به ينظر القارئ التراثي في عصور كتابة ذلك التراث السردية ، أو قارئ النصِّ التاريخي ، فيوجِّه إلى ذلك التراث - بما هو جذور وأصل حضاري - من الأسئلة ما لم يوجِّهها إليه القارئ القديم. وفي هذا الصدد نرى أنَّ على الروائي أن يتمثَّل مرويًّا له متميِّزاً بهذه الملامح ، وهو مسلك في البحث لم نعثر له بعد على دراسة تتصرف إليه وتكبِّ عليه ؟.

إنَّ قراءة التاريخ في الرواية هي في الحقيقة موقف من الماضي ولكنها في الآن نفسه تطلع إلى المستقبل لأنَّ كتابة الخطاب التاريخي في هذا الجنس الأدبي شكل من أشكال التعبير عن الراهن الاجتماعي والحضاري عامَّة.

<sup>267</sup> تعرَّف جوليا كريستيفا هذا المفهوم بأنه تقاطع الأصوات الثقافية المكوِّنة لنسيج النصِّ الروائي و المعبرة عن الرؤية الجمالية لمجتمع ما في مرحلة من الزمن راجع كتابها Le texte du roman, Ed Mouton publishers, The Hague 1970 .

<sup>268</sup> نعني بعبارة جمالية ( إستيتيقا ) التجربة القرائية والقيمة الفنية المستمدتين من علاقة الأثر الأدبي بالمتقبل . .



وبعد فإنّ الجنس الروائي التاريخي من أهم الأجناس الأدبية المنشّطة لذاكرة القارئ العالم، فهي تضع بين يديه طيفا من المعارف الأنثروبولوجية حول المعيش اليومي ومن الرؤى السياسية والمنظومات الأخلاقية، وتفتّرح عليه مآدبة من ضروب التأويل ومن المشاريع القراءة الممكنة نظرا إلى تنوع العوالم التي تحيل عليها الرواية التاريخية، ولكلّ هذا توقّفنا عندها وعددناها من موضوعات التفكير البيني الأثيرة.

الفصل الرابع  
البينية والإبداع الشعري

تتعدّد النماذج الشعرية التي يمكن أن نختارها لدراسة أثر البيئية في الشعرية الحديثة، أو لإدراك العالم إدراكا بينيا، ويوفّر لنا الأدب العربي مدوّنة واسعة لإنجاز عمل من هذا القبيل، وقد اخترنا نموذجا من الشعرية الرومنسية وآخر من الشعرية الرمزية وفوق الواقعية من الأدب الفلسطيني لأننا لحظنا أن الإبداع البيئي في الشعر العربي الحديث يتجسّم كأحسن ما يكون التجسّم في المنجز الشعري الرومنسي أولا وفي الشعر المتغنّي بالغيرية في العقدين الأخيرين ثانيا، وذلك من خلال موضوع الحوار مع الآخر غير العربي.

## 1- الفكر الرومنسي والثقافة البيئية:

كنا أشرنا في مقدّمة هذا البحث إلى أنّ اللبّات الأولى لما عرفه الفكر البيئي من تطور في العصر الحديث كانت من وضع الرومنسيين. لكنّ الدراسات العربية التي اهتمت بالثقافة الرومنسية وبمختلف التيارات التي نشأت في صلب هذا الفكر المتّسع الأرجاء ظلت رغم ما بذل من جهود لفهم الروح الرومنسية قاصرة دون إدراك المنظومة الرومنسية في كليتها ، ودون الولوج إلى العالم الرومنسي كما نشأ في الخطاب الطبي والعلمي عموما وفي الخطاب الفلسفي ثم الخطاب الأدبي شعرا ونثرا. إنّ الفكر الرومنسي في الحضارة الحديثة شكل من أشكال إدراك الإنسان للعالم الحديث، ولما كان المصدر الأساس لهذا الإدراك الإحساس الفردي فقد تمرّد الإنسان الرومنسي أوّل ما تمرّد على مقولة الأجناس بصفتها مقولة تحيل على نشاط تصنيفي يرفضه الإنسان الرومنسي وتمرّد تبعا لذلك على الحدود بين الأجناس الأدبية، ونظر إلى العلاقات بين أصناف المخلوقات نظرة أخرى غير النظرة الكلاسيكية، ولا غرابة في أن نرى الإنسان الكلاسيكي يمجّد الطفولة ويعشقها ويتخذها

مثلا أعلى للإحساس بالأشياء لأنّ الطفولة لا تعترف بالحدود بين الأجناس ،وهي في عرف المفكر الرومنسي عالم الاستعارة الحرّة البريئة ، فالطفل يبتكر الصور ويصنع العلاقات بين الأشياء على غير مثال وعلى غير منوال، وقد أعجب به المفكر الرومنسي وعدّه النموذج الأمثل للتمرد على المناويل المسطّورة.

وقد جدّد الرومنسيون مفهوم طقوس العبور فلم يبق له ذلك المعنى الرمزي الذي نجد في الشعر الكلاسيكي الغنائي والملحمي، أي ذلك المعنى المرتبط بالأعراف الاجتماعية الاحتفالية مثل طقوس الزواج والموت ، بل أصبح طقس العبور في الفكر الرومنسي رمزا من رموز الفعل الشعري ومولدا للشعرية الفلسفية الحاملة بالعبور نحو الحرية والانعتاق، ولذا تكثر في الشعرية الرومنسية صور الفضاء بما هو لا مكان أو بما هو اتجاه نحو محو الحدود بين الأمكنة.

## 1-1 الشعر الرومنسي والثقافة البيئية:

يمكن أن ننطلق في هذا المبحث لفهم أثر البيئية في الشعرية الحديثة من فكرة رومنسية في غاية البساطة وهي أنّ إدراك العالم الشعري وما وراءه من أنظمة رمزية معقدة لا يكون على النحو المنشود ولا ينفذ إلى أعماق الكون وأسراره ولا يمكن الإنسان التعبير عن رغائبه وأحلامه وأشواقه، ولا يبلغ أقصى ما يمكن أن يتمثله من الرؤى والأفكار والمعاني ما لم يتعلق هذا الفكر بكلّ ما له صلة بالحدود والتخوم وما لم ينصب على الفضاءات الفاصلة الواصلة بين الأشياء، فالحدود في الفكر الرومنسي عند الشعراء والكتاب والرّسّامين والموسيقيين والمعماريين الشغوفين بإنشاء الحقائق والزخرفة مفهوم محوري ذو دلالة أنطولوجية عالية: فالإنسان الرومنسي مولع بالفضاءات الحدودية، ينظر إلى الأفق ويعشقه لأنّه الحيّز المكاني الحدودي الفاصل بين الأرض والسماء أو الواصل بينهما ، وهو الفاصل بين ما يرى وما لا يرى، بين ما تدرّكه العين وما يختفي عنها .

إنّ الأفق والساحل والشاطئ في الفكر الرومنسي هي الأحواز التي يتجسّم فيها التخيل والحلم كأحسن ما يكون التجسّم فيريك الأرض والسماء متلاصقتين، وبخيّل إليك زرقة البحر وزرقة السماء متجاورتين، فهذه المنطقة البيئية تغري الكتاب والشعراء بالكتابة، فالأفق هو الحياة التي ترفض ميت الأشياء في قول أبي القاسم الشابي

فلا الأفق يحضن ميت الطيور

ولا النحل يلثم ميت الزهر<sup>269</sup> .

لقد كان المكان والزمن البيّنات خطاطة ذهنية في الفكر الرومنسي العالمي وطرزا جماليا بارزا في تلك الشعرية، ويمكن أن ينطلق منها علماء الشعرية الإدراكية لاستخلاص الأطرزة المجازية في الشعر الرومنسي.

إنّ هذه البينية هي التي تصنع مكانا جديدا وزمنا جديدا فتمنح الوعي الذاتي للشاعر معنى جديدا وهو نقطة الانطلاق الوحيدة عند الرومنسيين كما يرى النقاد الموضوعاتيون<sup>270</sup>

ومن هذه الأمكنة والأزمنة البينية نذكر:

- ضفاف البحار والأنهار الواقعة بين الماء واليابسة، والسواحل والشواطئ والشوارع :
- الفجر والصباح والسحر والأصيل.
- الخريف والربيع.

وقد تطلّع الشاعر الرومنسي في صوره المختلفة إلى الزمن الأبدي من وراء الأزمنة التخومية التي ترمز إلى العود الأزلي، إلى حركة التحول من منزلة إلى أخرى. ونجد بقايا هذا الإحساس الرومنسي بعشق العبور من زمن إلى آخر والتغنّي بالغموض، وبحال "بين بين" عند شعراء ما بعد الحداثة أو الشعراء التجريبيين مثل محمود درويش وسميح القاسم وأيمن اللبدي، فقد تغنّوا بدلالات العبور والتخوم في صور مختلفة ، وفي الخريف مثلا يقول درويش:

أحبّ الخريف وظلّ المعاني، ويعجبني

في الخريف غموض خفيف شفيف المناديل

كالشعر غبّ ولادته<sup>271</sup>.

- المساء والشفق .

---

<sup>269</sup> ديوان أغاني الحياة، الدار التونسية للنشر، تونس 1983 ص 237.

<sup>270</sup> ينظر في النقد الموضوعاتي ضمن مدخل إلى مناهج النقد الأدبي سلسلة عالم المعرفة 221 ص 98.

<sup>271</sup> أحب الخريف وظل المعاني، الأعمال الكاملة الجديدة دار رياض الريس بيروت 2008 ص 207،

ولا تقتصر النظرة البيئية عند المفكر والشاعر والكاتب الرومنسي على المكان والزمان بل تجاوزهما إلى كل الموجودات والمدرجات، فالتعبير الرومنسي يختار من طيف الألوان تلك التي تمثل ألوانا بيئية كالرمادي وهو في الصورة الرومنسية لون بين البياض والسواد، واللازوردي وهو لون الأفق . وقد تجتمع في الشعر الرومنسي الأمكنة والأزمنة الحدودية الدالة على الرغبة في التطلع إلى ما وراء الحدود والشوق إلى المشي على التخوم كقول فدوى طوقان في قصيدة ذاك المساء :

"ذاك المساء والشارع الممدود تسحب فوقه شمس الخريف

حزما بقايا من ضياء.

والصمت يحتضن المكان سوى رفيف

أشجاره وخطى لبعض العابرين

ساروا هناك على الرصيف

ساروا بلا هدف بلا قصد

حيارى تائهين...<sup>272</sup>

فقد أنشأت الشاعرة عالما من الحدود المكانية والزمانية ، حدود العبور من الليل إلى النهار ( المساء ) ومن النور إلى الظلام ( بقايا من ضياء ) ومن الكلام إلى الصمت ( رفيف أشجار ) .

إنّ العبور بين الحدود يتحوّل في الشعر الرومنسي إلى موضوع شعري أو بؤرة شعرية نازمة لعامة الموضوعات. وقد خصّص بعض الباحثين في الشعر الرومنسي فصولا كاملة ومطوّلة للحديث عن رمزية السفر في هذا الشعر وفي هذا المضمار يقول محمد علي الموساوي: " ليس غريبا أن يرقى السفر إلى مستوى الرمز الكلّي في المدونة الشعرية الرومنطيقية لما له من وثيق علاقة بما يبديه الشاعر الرومنطقي من شعور بالغربة عن وطن يتجاوز دلالاته التاريخية التي تجعله محدودا بحدود الزمان والمكان، إلى دلالة ثانية تجعل منه عالما أثريا مثاليا منفلتا من قبضة المكان والزمان <sup>273</sup>. إنّ الغربة التي يعيشها الشاعر الرومنسي في حياته الاجتماعية والروحية والثقافية وفي إحساسه بالجمال وبالقيم هي التي لوّنت نظره إلى الأشياء والوجود فأصبحت نظرة بيئية ، لا يرى بها الأشياء إلّا من خلال موقع

---

<sup>272</sup> الأعمال الشعرية الكاملة، دار العودة بيروت 2005 ص342.

<sup>273</sup> الرمز في الشعر الفلسطيني المعاصر، منشورات كلية الآداب والفنون والإنسانيات، منوبة 2013.

وسطي. وقد ولدت هذه الرغبة الجامحة في الانعتاق وفي الحياة بين الكائنات وفي خضم الأثير نظاما من الاستعارات الاتجاهية نحو الأعلى، وصورا مستمدة من عالم الطيران ولوازمه<sup>274</sup> فأصبح للفجر وللمنى وللسعادة أجنحة على نحو قول نسيب عريضة :

"قم نتخذ للمنى جناحا \*\*\* يطير من عالم الحدود  
عسى نرى في السماء دريا \*\*\* نسير فيه ولا نعود " <sup>275</sup>.

## 1-2 الزمن الحدودي في الشعر الرومنسي: أبو القاسم الشابي نموذجا :

رأينا في الفقرات السابقة أنّ الشاعر الرومنسي العربي خاصة والرومنسي بوجه عام يعشق الأزمنة الحدودية وما يصاحبها من فضاءات تأمل ورغبة في الحرية والانعتاق من دنيا الناس، وهذه الأزمنة الحدودية تختلف من شاعر إلى آخر، وقد اخترنا أبا القاسم الشابي لأنّ الباحثين لم يعتنوا بشعره من هذا الجانب، بخلاف غيره من شعراء المهجر الشمالي وجماعة أبولو فقد درس الزمن في أشعارهم ولحظ كثير من الدارسين صفة الحدودية عندهم لكنهم لم يصلوها بمفهوم العبور والحلم الرومنسيين. فهؤلاء الشعراء تطلّعوا إلى الأزمنة الحدودية ورأوا فيها أزمنة الحرية والانعتاق، وبداية الحياة الحقيقية يقول جبران خليل جبران :

هو ذا الفجر فقومي ننصرف \*\*\* عن ديار ما لنا فيها صديق .

---

<sup>274</sup> راجع العمل الذي أنجزه طارق القرني بعنوان الاستعارات الاتجاهية في شعر الشابي الاتجاه إلى أعلى نموذجا في نطاق ماجستير الأدب العربي جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية كلية اللغة العربية 1434. فقد تظن الباحث إلى مدخل مهم من المداخل التي تثري قراءتنا لشعر الشابي فوجد في الاستعارة الاتجاهية كما عرّفها جورج لايفوف ومارك جونسن في كتابهما الاستعارات التي نحيا بها، قلت لقد وجد الباحث في هذا الفضاء الشعري موضوعا طريفا لم يسبق إليه فيما نعلم وهو دراسة شعرية الطيران في تجربة الشابي . وذهب الدارس في عمله هذا إلى ترسم لوازم الطيران ومكوناته الإنشائية في الصور الشعرية التي شكّلها الشابي، وكانت الكائنات الطائرة بما فيها من حيوان كالطير والنسر والفرش والنجل والبلابل موردا مهما لتشكيل الاستعارات العلوية، وكانت الكائنات الشفافة العلوية كالنور والأثير والقمم الشاهقة مكتملة لهذه السنفونية التي رسمت معالم العالم الشعري عند أبي القاسم الشابي . إنّ الكائنات الطائرة البسيطة هي العالم الذي استمدّ منه الشاعر رؤاه وتطلّعاته وقد أعاد الباحث بناء هذه الرؤى في لغة مفهومية واضحة .

<sup>275</sup> الأرواح الحائرة، دار صادر بيروت دت ص 179.

ما عسى يرجو نبات يختلف \*\*\* زهره عن كل ورد وشقيق.

وجديد القلب أنى يأتلف \*\*\* مع قلوب كل ما فيها عتيق .

هو ذا الصبح ينادي فاسمعي \*\*\* وهلمّي نقتفي خطواته

قد كفانا من مساء مدّعي \*\*\* أن نور الصبح من آياته<sup>276</sup>.

وأبو القاسم الشابي من الشعراء الرومنسيين العرب الذين ولعوا بالحدود بين الأشياء والذين تغنّوا  
بفضاءات العبور.

ويتواتر في معجم الشابي الشعري لفظ الصباح والصبح، وقد أحصينا منهما ثلاثين سياقاً استعملت  
فيه هذه العبارات متشاكلة في قطب دلالي بيني واحد: فالصباح زمن بيني طرازي أي أنّه يتصدر سائر  
الأزمنة البينية، ولا يزاحمه سوى لفظ الفجر ولكنه دونه استعمالاً من حيث نسبة تواتر اللفظة ومشتقاتها.  
والصبح في شعر الشابي يرد دائماً في سياق تقاطب مع الليل أو مع العبارات المجاورة له في الدلالة  
كالدجى والديجور والظلام، لذلك فإنّ دلالاته البينية مرتبطة في عامة السياقات بالتحول من الظلام إلى  
النور، ومن الموت إلى الحياة، ومن الجمود إلى الحركة، ومن الخوف إلى الأمل، ومن الجهل إلى العلم  
والمعرفة :

ولولا شقاء الحياة الأليم \*\*\* لما أدرك الناس معنى السعود.

فالصباح في شعر أبي القاسم الشابي هو لحظة البداية السعيدة للحياة، وكأنّ الليل في مخيال الشاعر  
يغسل العالم من أدرانته فيكون العالم في كل صباح تعبيراً زمنياً عن تجدد الحياة. وقد سمّى إحدى  
قصائده التي قالها في أخريات حياته الصباح الجديد وذلك لأنه كان متفائلاً بحياة جديدة يقبل عليها  
وهي الحياة الأبدية.

اسكني يا جراح \*\*\* واسكتي يا شجون .

مات عهد النواح \*\*\* وزمان الجنون.

---

<sup>276</sup> البلاد المحجوبة.



وأطل الصباح \*\*\* من وراء القرون<sup>277</sup>.

إنّ هذا الزمن هو الذي يسير بالشاعر في سبيل الحياة وفي هذا المجال بالتحديد يقول الدكتور محمد قوبعة: " فالسير في سبيل الحياة سير في اتجاه استرجاع "الزمن الأول" زمن الخيال المجنّح...زمن العلاقات الصافية التي لا يداخلها نفاق ولا يشوبها كدر...ذلك الزمن الذي عبّر عنه بعض الرومنطيين فقال {كأن طفولتنا حلم نسج فينا مثلما نسجت سحابة وردية قبل طلوع الشمس المحرقة }"<sup>278</sup>.

أما زمن الفجر في شعر أبي القاسم الشابي فهو الزمن البيئي الأكثر كثافة من الناحية الشعرية ومن جهة الاستعارات التشخيصية، فقد ارتبط الفجر عنده بالابتسام وانبثاق المعرفة وبداية الحياة وهو حال بيئي، بين الكلام والصمت، بين السكون والحركة لأنه يعبر عن بداية السعادة، عن بداية اللغة والتواصل، وهو موروث من الشعرية القديمة ومن المخيال المستعمل في شعر الطبيعة يقول ابن زيدون :

والروض عن مائه الفضي مبتسم \*\*\* كما شفتت عن اللبات أطواقا

وقد استعمل أبو القاسم الشابي هذه الصورة في قوله واصفا جمال الفجر المتطلع إلى نور السعادة :

والفجر يولد باسمه متهللا \*\*\* في الكون بين دجنة وضباب<sup>279</sup>.

وقد استعمل الشاعر الاستعارات الاتجاهية للتعبير عن رمزية البيئية في هذا الفضاء الزمني وخاصة الاستعارات إلى أعلى بما هي نمط تمثيلي مولد للدلالات الرومنسية في هذا الشعر، وبوجه أخص استعارة الأجنحة فقد استخدمها الشابي وجبران خليل جبران للتعبير عن حركة الارتفاع إلى الفضاءات السامية والتأقّة إلى العلو:

سرت في الروض وقد لاحت تباشير الصباح.

---

<sup>277</sup> م.ن ص 230.

<sup>278</sup> محمد قوبعة:الشاعر والتذكير بجوهر الوجود ،حوليات الجامعة التونسية،العدد 47 لسنة 2003 ص21 وقد أخذ الباحث الشاهد من الشاعر الفرنسي Louis Claude De Saint من كتابه L'Homme du désir Paris;U.G.E 1973 p299 .

<sup>279</sup> م.ن ص225.

وجناح الفجر يومي \*\*\* نحو ربات الجناح<sup>280</sup> .

ويقول : والليل والفجر المجنح والعواصف والسحاب<sup>281</sup>

فالزمن البيني في الفجر هو زمن العاطفة السامية والوجدان المثالي

إنّ للحب على الناس يدا تقصّر الأعمار

وله فجر على طول المدى ساطع الأنوار<sup>282</sup>

والفجر عند الشابي هو بؤرة الزمن المعبر عن الأمل بالحياة وبالنهوض من الركود والسبات في معانيه  
كافة:

الفجر يسطع بعد الدجى ويأتي الضياء

ويرقد الليل قسرا \*\*\* على مهاد العفاء<sup>283</sup> .

وقد اختار الشابي من معجم المكان البيني الأصيل والأفق والشفق، والأصيل والشفق هما حيّز جامع  
إلى المكان الزمان وإلى النور بداية الدخول في الظلام، وقد ارتبط المكان البيني بالتأمل والسؤال  
وبالبحث عما وراء الأفق :

يا أيها الطفل الذي \*\*\* قد كان كاللحن الجميل.

والوردة البيضاء تعبق في غيابات الأصيل<sup>284</sup> .

ويقول كذلك:

---

<sup>280</sup> أغاني الحياة ص32

<sup>281</sup> م.ن ص 194.

<sup>282</sup> م.ن ص31

<sup>283</sup> م.ن ص36

<sup>284</sup> م.ن ص 190.

انظر إلى شفق السما \*\*\*ء يفيض عن تلك الجبال.

بشعاعه الخلاب يغمرها ببسمات الجمال<sup>285</sup>.

ويقول في وصف تفاعل الإنسان والشفق وهو مكان رمزي :

فلمن كنت تتشدين فقالت للضياء البنفسجي الحزين .

للمساء المطل للشفق الساجي لسحر الأسى وسحر السكون<sup>286</sup>.

ويقول مشبها الإنسان السعيد بالأزمنة و الأمكنة البيئية :

كأغاني الطيور كالشفق السا \*\*\*حر كالموج في الخضم البعيد<sup>287</sup>.

وربما كنّف الشاعر هذه الأمكنة والأزمنة البيئية فكان للشفق ضفاف، والصفة أو الساحل كما رأينا مكان

بيني في الشعر الرومنسي :

فاذرفي يا مقلة الليل الدرامي عبرات.

بدموع الفجر من أكواب زهر الزنبق

وادفنيه بجلال في ضفاف الشفق<sup>288</sup>.

ومن المعجم الحدودي استعمل الشابي عبارة الغروب جامعا كذلك بين النور ومكانه، قال مخاطبا زنبقة

ذاوية :

أزنبقة السفح مالي أراك \*\*\* تعانقك اللوعة القاسية .

---

<sup>285</sup> م.ن ص 61.

<sup>286</sup> م.ن ص 142.

<sup>287</sup> م.ن ص 220.

<sup>288</sup> م.ن ص 45.

أصَبَ عليك شعاع الغروب \*\*\*نجيع الحياة ودمع الأسى؟<sup>289</sup> .

إنَّ الفضاء البيني مكانا وزمانا هو الفضاء الشعري الذي دفع بالشعراء الرومنسيين إلى بناء الاستعارات ذات القيمة التسالئية، يقول الشابي :

خبريني ما الذي خلف الغيوم ؟

هل عروس الأمل العذب الشرود.

تتهادى بين لألاء الصباح؟<sup>290</sup>.

وقد اقترن الفضاء البيني بالأفعال الدالة على التفكير والتأمل والنظر والتدبّر في أحوال الكون، فعبارة الأفق كثيرا ما تقترن عند أبي القاسم الشابي بفعل رنا كما في قوله:

وأشواق الورى ترنو إلى الأفق البعيد<sup>291</sup>.

## 2- الآخر وآفاق البينية في الشعرية الحديثة:

نبين في هذا المبحث كيف تحوّلت الرؤية الشعرية في الخطاب الشعري الفلسطيني من مخاطبة الذات والداخل أو الخارج والآخر الثقافي إلى مخاطبة الفضاء البيني باستعارة الرموز الثقافية العالمية ومنجزات الفكر العالمي البيني. ويلحظ القارئ لشعر أيمن اللبدي والمتوكّل طه وعزّ الدين المناصرة وسميح القاسم وغيرهم من الشعراء الفلسطينيين كيف اتجهت الشعرية الفلسطينية في العقود الأخيرة إلى محاولة وضع الشعرية الوطنية في إطار بيني وفهم الآخر ومساءلته للتعريف بالقضية الفلسطينية من وجهة نظر إنسانية كونية تخاطب ضمائر الشعوب وموروثهم الفكري والشعوري .

وقد استمدّ الشعراء موضوعاتهم الشعرية من المحكي الإنساني المؤمن بقيمة الإنسان وحقّه في الحياة، وتساءلت هذه الموضوعات وخاصة من خلال استعارات الداخل والخارج عن مفهوم الأرض التي

---

<sup>289</sup> م،ن ص 51.

<sup>290</sup> مزن.ص 70.

<sup>291</sup> م،ن ص 195.

هي رمز الهوية . ولما كان الموضوع في محاوره النص الذي أنجزه الآخر فإنّ المنهج المتوخّى في هذا البحث هو منهج التناصّ في دلالاته الفكرية.

وتتجسّم البينية في هذا الإبداع من خلال مفهوم **الغيرية والاختلاف**، وهو محرّك ثقافي مميّز لكتابة الشعر الحديث على المستويين العربي والعالمي، وقد ابتكر الشعراء - كلّ حسب تجربته - نظاما من التمثيل الشعري معبّرا عن هذه الشعرية الحديثة التي تحاور الآخر بمنطق جديد يختلف تمام الاختلاف من حيث اللغة والصور والمعاني والرؤية الشعرية عامة عن المنطق الذي حاور به جيل شعراء مقاومة الاستعمار في النصف الأول من القرن العشرين.

ويُتّجه الفكر العالمي منذ خمسة عقود تقريبا إلى الاهتمام بأدبيات الغيرية والحوار مع الآخر ، في إطار ما تعيشه مفاهيم الثقافة الكونية من انتشار في الأوساط الاجتماعية والثقافية، وما تعرفه الثقافات المحلية من مراجعات وتنسيب لمتصوراتها ولتمثلها للآخر . وقد مثلت هذه الثقافة الجديدة شكلا من أشكال العبور من عصر الحداثة الذي هيمنت فيه صورة الآخر الجاهزة أو النمطية على الفكر الإنساني عموما <sup>292</sup> إلى عصر ما بعد الحداثة، وكانت مواكبة لما عرفه العالم من تحولات سياسية وثقافية إثر الحرب العالمية الثانية، ومن بداية إحساس الأجيال الجديدة في رجال الفكر والثقافة في العالم الغربي نفسه بضرورة التخلّي عن الأفكار الأنانية المحورية التي كانت الحداثة تتبنّاها في نظرتها إلى الآخر، وقد ترجمتها في الحملات الاستعمارية الممتدة على القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين ، وفي تجاهل الثقافات القديمة وما أسهمت به في تاريخ الإنسانية. وقد كان الإعلان العالمي لحقوق الإنسان الصادر سنة 1948 وما تضمّنه من قيم كونية منطلقا لإعادة التفكير في صياغة العلاقات الإنسانية بين مختلف الشعوب والحضارات والأقليات العرقية. وكان لهذه التحولات الكبرى انعكاس جدّ إيجابي على الحياة الثقافية والأدبية في عامّة أصقاع المعمورة . وقد ألحّ المبدعون في مختلف الآداب في الدعوة إلى إبراز دور الفضاء العلائقي البيني في إثراء الثقافة الغيرية وأثر الاختلاف في إذكاء الإبداع وإثراء الخطاب الغيري ، بل يذهب بعضهم إلى القول بأنّ "الإبداع الأدبي هم المجال الحقيقي لاكتساب الوعي الإنساني المرفه والإحساس الأصيل الشفاف بالغيرية ، وأنّ إنتاج الأدب واستهلاكه يدرّبان الذات الفردية على التحلّي بالغيرية، فالأدب يتحدّث في ذات الآن إلى الفرد وإلى العالم بأسره

<sup>292</sup> ينظر مثلا في : J.Bienvenu: Maupassant et le pays du soleil, Klincksieck, Paris 1993

<sup>293</sup>والأدب الحقيقي هو تلك الأشكال التواصلية التي "تسعى إلى الالتقاء بالآخر ، إذ لا يمكن لنص أدبي أوللوحه فنية أو مسرحية أنحوها من أشكال الإبداع أن تحيا إذا لم يكن ذا طابع بيني أو حمل تجربة غيرية " <sup>294</sup>. ويرى آخرون أن الشعر هو مواجهة لغوية أوفضاء مشترك مع الآخر <sup>295</sup>، وكان المذهب الرمزي في الآداب الغربية أهم رواد هذا الفكر الغيري، كما كان التفكير البيني المحرك الأول لنشأة ما يسمّى بالتربية على حوار الحضارات <sup>296</sup>، وقد ظهرت في العقد الأخير عدة دراسات عربية اهتمت بموضوع الفضاء البيني في الأدب عامة وفي الشعر العربي القديم والحديث <sup>297</sup> والمعاصر <sup>298</sup> وانخرطت الشخصية الثقافية الفلسطينية في هذا الاتجاه الكوني واتضحت ملامح الحوار مع الآخر في الثقافة الفلسطينية عامّة وفي الشعر خاصّة منذ أواخر العقد الثامن من القرن العشرين ، واتضح هذا الاتجاه إلى الحوار ونضج شيئاً فشيئاً مع ظهور جيل جديد من المفكرين والمثقفين الشعراء الذين تبوّأ مقولات البينية الفكرية ، وتشبّعوا بقيم حقوق الإنسان الكونية، وتوجّ هذا النضج الفكري بالكتاب الشهير الذي أصدره الدكتور الطبيب عزّ الدين أبو عياش " لن أحقد على أحد : I sall not hate " وبذلك يمكن أن نقول إنّ الحوار مع الآخر في الشعر الفلسطيني تجربة جديدة في حياة الشاعر وفي مغامرته اللغوية والإبداعية ، والوجودية، وهي تجربة تعبّر عن انعطاف مهمّ في الشخصية الثقافية الفلسطينية عامّة، انعطاف قالت عنه آمنة حجاج : "هي الفترة التي (...) خرجت فيها القصيدة الفلسطينية من بوتقة القصيدة المعركة إلى مرحلة القصيدة الغيرية حيث انصرف الشعراء عن إرهاب ذواتهم بالصراخ وبتعظيم الحدث الفلسطيني وشخصياته ، لتصبح قصائدهم أكثر إدراكاً للحقيقة الراهنة " <sup>299</sup> ، وأيضاً هي مرحلة

<sup>293</sup> ينظر في Martine Abdallah Pretceille: Synérgies, Brésil no spécial ,2010 pp145-155.

<sup>294</sup> Omer Massoumou: L' image de l' autre dans la littérature française, Harmaton 2004

<sup>295</sup> Michel Callot et Jean Mathieu ; Poésie et altérité, Rue d'Ulm 1990 .

<sup>296</sup> ينظر في Eduquer au dialogue des civilisation ,Ed du Sphinx Québec 1983

<sup>297</sup> ينظر مثلاً : نجم عبد الله كاظم ، الآخر في الشعر العربي الحديث ، المؤسسة العربية للدراسات و النشر بيروت .

<sup>298</sup> منها التجليات الفنية لعلاقة الأنا بالآخر في الشعر العربي المعاصر لأحمد ياسين السليمانى ، كلية الآداب جامعة القاهرة 2007 .

<sup>299</sup> الغياب في الشعر الفلسطيني المعاصر ، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، 1432 ص 5 .

قال عنها إبراهيم السعافين : " إنَّ رؤية الأجيال التالية بدأت تتغيّر وتتأمل الواقع بنضج أكبر وتحاول أن تحلّل العوامل الموضوعية التي أدّت إلى المأساة متسلّحة بقدر كبير من الوعي (...) فرأوا القضية من خلال أبنائها ومن خلال بعد قومي وبعد عالمي<sup>300</sup> .

وقد واكبت الدراسات العلمية العربية هذا الموضوع فصدرت منذ سنوات أبحاث عديدة تتناول مسألة البينية في الشعرية<sup>301</sup> الفلسطينية<sup>302</sup> وموضوع ثقافة العولمة ما بعد الحداثة<sup>303</sup> وقضية الآخر في الأدب الفلسطيني . وفي خصوص هذه المسألة نذكر البحث الذي أنجزه عبد الله رضوان بعنوان الآخر في شعر محمود درويش ، واهتم بالمرأة في هذا الشعر بما هي آخر ، وحلّل صورة المرأة في خمس مجموعات هي ريتا والبندقية وتقاسيم على الماء والحديقة النائمة وشتاء ريتا وريتا أحبيني . أما الدراسة الثانية فهي البحث الذي أنجزه المتوكل طه بعنوان صورة الآخر في الشعر الفلسطيني<sup>304</sup> . ولكنه درس الآخر بطريقة تحليلية فبالغ في تجزئته إلى الآخر السياسي والملتبس والفاقد والإنساني والعدو والاجتماعي ...

---

<sup>300</sup> الشعر العربي المعاصر في الأردن و فلسطين ضمن معجم البابطين للشعراء العرب الطبعة الثانية 2002 ص 68 .

<sup>301</sup> نستعمل عبارة الشعرية لأن مسألة الثقافة والهوية تجاوز الأجناس الأدبية كالشعر و الرواية إلى المقولات الفكرية المتحركة في آليات الإبداع عموماً

<sup>302</sup> ينظر مثلاً في : عادل الأسطه سؤال الهوية : فلسطينية الأدب و الأديب ، دار الشروق للنشر و التوزيع ، غزة 2000.

<sup>303</sup> ينظر في فؤاد نصر الله: تجليات العولمة الثقافية في شعر محمود درويش، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت لبنان 2004.

<sup>304</sup> منشورات المركز الفلسطيني للدراسات و النشر 2005 وجاء الكتاب في 534 صفحة وقد قسمه الباحث ثلاثة فصول بالإضافة إلى مدخل تمهيدي واستعرض فيه التحولات السياسية وانعكاساتها على القصيدة الفلسطينية بعد اتفاقية أوسلو سنة 1994 ، وفي الفصل الأول تناول صورة الآخر في الثقافة العربية من الجاهلية إلى العصر الحديث ، وهو في تقديرنا حشو لا يخدم البحث بل يثقله بما لا يحتاج إليه واهتم الباحث في الفصل الثاني بصورة الآخر في الشعر الفلسطيني قبل اتفاقية أوسلو وبعدها ، وخصص الفصل الثالث لدراسة الأداء الفني في القصيدة الفلسطينية .

## الفصل الخامس

البينية في الإبداع الأدبي بين الجنسين السرد والرسائل



لم يكن تقديرنا لمسألة الفكر الأدبي البيني قد اتضح حين نشرنا صيغة أولى من هذا المبحث في أعمالنا المتصلة بالرسائل الأدبية وتفاعل الأجناس<sup>305</sup> ، وكان للاهتمام الذي خصصنا به كتاب جاك دريدا "البطاقة البريدية" منذ خمس سنوات -على قدم هذا الأثر الجميل- دور حاسم في تعميق نظرتنا إلى أدب الجوار أو أدب القرب ( Proximity Literature ) كما يقول دريدا نفسه، فأدركنا بعد اطلاعنا على هذا الكتاب أنّ المراسلات في نظر كبار كتّاب العصر الحديث هي جنس من الأدب المحفّز للتفكير البيني، ولتعميق البعد بين المتخاطبين بما من شأنه أن يبرز العلاقة البينية، أو هو أدب تحويل العلاقة بالآخر إلى علاقة غياب مستمرّ: فالمتّربل يتحوّل في رسالته السردية التخيلية أو المشكلة للواقع على السواء إلى راو غريب كل الغربة عن المروي له الذي قد يكون ابنا أو صديقا أو حبيبا، ومهما تفنّن المترّبل في رواية أحداث الحكاية لتقريب حياته من المرسل إليه فإنه يعمّق معنى الغياب ويقوي واقع البعد الذي يعيشها المتخاطبان، فالبطاقة البريدية حسب جاك دريدا هي كتابة الغياب، ويمكن أن تدرس بمنهجين متقاطعين : منهج سردي ومنهج تأويلي، فهي من الأدب المحفّز على تطوير الدراسة البينية في الخطاب الأدبي<sup>306</sup> .

والواقع أننا كنّا منذ أكثر من عقدين اهتمنا باللقاء المخصب بين السرد والرسالة في الأدب العربي القديم، وكنا خصّصنا في كتابنا الرسائل الأدبية ودورها في تطوير النثر العربي بابا كاملا لدراسة العلاقات السردية الرسائلية دراسة إنشائية تناسية حوارية، فبيّنا أنّ المدينة القديمة بوجه عام والمدينة العربية القديمة بوجه خاص أنتجت هذا النوع المولّد من الكتابة البينية أو الحوارية القائمة على مفهوم الظرف والتواصل المدني، وعزونا تطور هذه العلاقات الرسائلية إلى ما عرفته البنية الاجتماعية والفضاء العمومي والخاص والروابط الإنسانية من تعقّد أنتج طبقات من العلاقات المهنية والأسرية، وأنتج مفاهيم جديدة لم تكن مما يحتفل به المجتمع القبلي قبل القرن الثالث الهجري كمفهوم الصداقة، وهو مفهوم

---

<sup>305</sup> انظر المتكلم في المراسلات السردية القديمة ضمن المتكلم في السرد العربي القديم، منشورات كلية الآداب منوبة ودار محمد علي الحامي تونس 2011 .

مدني علائقي من أبرز مفاهيم الظرف والتمدّن الإنساني أسّس له ابن المقفع بكتابه الأدب الكبير والأدب الصغير، ثم تضافرت الرسائل الأدبية في القرنين الثالث والرابع على بناء دلالات هذا الموضوع الحضارية والإنسانية العامة، ثم توجّ أبو حيان التوحيدي التأليف فيه بكتابه الشهير الصداقة والصدق. وكان للجنس الرسائلي وخاصة الرسائل السردية دور بعيد المدى في بناء معانيه الحقيقية والرمزية. ولم نقرأ منذ ذلك التاريخ ما يدلّ على رغبة الباحثين في استغلال ما وصلنا إليه إذاك من النتائج عدا بعض الملحوظات الموثقة هنا وهناك في مراجع لم تكتب في الأصل ضمن الاهتمام بأدب الرسائل، ونذكر منها كتاب الأدب العربي القديم ونظرية الأجناس الأدبية لفرج بن رمضان، وهو بحث في إنشائية الأجناس النثرية القديمة اتسم بالعمق والدقّة في تتبّع الصلات التفاعلية بين الأجناس، وفي الاتجاه بالفكر النقدي اتجاهاً بينياً. وقد خصّص صاحبه لمسألة الصلة بين الرسالة والسرد مبحثاً وسمه بالقصص والرسالة وقال في مستهلّه: "لا شكّ أنها أشهر صيغة ممثلة لنشأة القصص في صلب التفاعل بين الأجناس داخل نظام الأدب العربي"<sup>307</sup>. والحقّ أننا لسنا سباقين إلى هذا النوع من الدراسات لأنّ اهتمام الفكر الأدبي بعالم الرسائل في السرد اهتمام واسع في الحضارات الغربية، وهو اهتمام راجع إلى تطور الفكر الأدبي المهتمّ بالهامشيات أو الأجناس البينية التي تبتعد عن المركز وعن المحور. وقد كان لنا حظّ الاطلاع على نماذج كثيرة ممّا كتبه دولا كلو (De Laclos 1803) في العلاقات الخطرة (Les Liaisons Dangereuses) ومدام دي ستايل (1766 Me De Staël) في رسائلها ومدام دي سيفينه في مراسلاتها (Me De Sévigné 1862)، وامتزجت فيه السيرة الذاتية بأدب المذكرات واليوميات والمراسلات الخاصة. وقد ازداد اهتمام المحدثين بالجنس الرسائلي بما هو جنس بيني في مختلف معاني البينية، فهو بيني لأنه من حيث التخاطب عمل قولّي مشترك بين المتخاطبين المنتمين إلى الفضاء الثقافي والجمالي نفسه، وقد بيّن جاك دريدا في كتابه الشهير بطاقة بريدية أنّ نقطة التقاطع بين المرسل والمرسل إليه في رحلة الكتابة الرسائية هي الفراغ البيني الذي يعيشه طرفا التخاطب ولا يمكن أن ينشأ خطاب الرسالة دونه، وهو فضاء بيني من جهة تعدّد انتماءات كتابه، وقد ذهب جاك دريدا كذلك إلى أنّ أدب الرسائل السردية هو أدب التلاحق بين الفنّ والعلم وبين الفنّ والسياسة وبين الفنّ والفكر وبين الفنّ والفلسفة، لأنّ كتاب الرسائل بعكس سائر الكتاب في أجناس أخرى هم أعلام عصرهم في مختلف الميادين. بل يمكن أن نزعّم في تصورنا الجديد للعلاقات الرسائية من وجهة نظر بينية أنّ

<sup>307</sup> منشورات دار محمد علي الحامي صفاقس تونس 2001 ص 187.

المفكر الذي ينال درجة عالية من المعرفة العلمية أو الاجتماعية أو التجربة السياسية أو القيادية في ميدان من ميادين الحياة هو الأقدر على الكتابة في هذا الفضاء البيئي. وربما عزونا الضعف والسطحية والتكرار وعامة مظاهر التكلّف التي اتسم بها أدب الترسّل القديم وخاصة بعد القرن الرابع إلى الفقر الثقافي والنقص في التجربة الإنسانية الذي جفّ منابع الثروة الإنسانية في أدب الرسائل القديمة. فأدب المراسلات بين السياسيين يقتضي تأويله وتحليله أن تتضافر تخصصات مختلفة تأخذ بالاعتبار المناخ السياسي الذي كتبت فيه المراسلات فضلا عما يحتاج إليه من معارف اجتماعية وثقافية وتاريخية. ونلاحظ من جهة ثالثة أن أدب الرسائل السردية يبني لأنه أدب ذاتي اجتماعي في آن ، فهو أدب ذاتي لأنّ كتابته محورها ذات الكاتب الخاصة وتجربته ومغامراته وموقفه من ذات أخرى قد تكون مثل ذاته وقد تكون مختلفة عنها. ، ولكنه اجتماعي لأنه ينشد التواصل والتفاعل والتحاور مع الآخر المشارك له في تجربة الكتابة .

لقد وجدت مذاهب النقد الجديد في مدونة الرسائل أو المراسلات السردية مجالا خصبا لاختبار مفهوم العلاقات النصية أو النصوية (Textuality) ، فمفهوم العلاقة يغيّر نظرة الدارس إلى الخطاب السردى الرئائلى تغييرا جوهريا، وقد مكّنتنا نظرتنا البينية من إعادة التفكير في العلاقات الرئائلية، ومن تغذية المرجعيات الإنشائية التي أفقرت أبحاثنا وسجنتها في إطار ما أسميه بالعقل التقني. وقد أسهم بعض الدارسين في التنبية على قيمة السردية في الجنس الرئائلى، ومن الأعمال التي يمكن أن نذكرها في هذا السياق بعض المقالات التي أدرجها محمد صابر عبيد في جمعه للأبحاث المتصلة التجنيس الرئائلى،<sup>308</sup> وخاصة المقال الموسوم بجمالية الوصف والمكان قراءة في رواية مدينة الله لحسن حميد، وهو من تأليف جمال نوري والمقال الموسوم بمدينة الله : الرواية الرئائلية وفضاء التشكيل السردى لخليل شكري هياس. فقد كتب المقالان بمنهج بيئي في تناول الخطاب الأدبي ، منهج جامع بين الإنشائية البنيوية وحوارية الأجناس ، ويقول خليل شكري هياس في مقدّمة مقاله : " يشكّل التلاحق الأجناسي بين الفنون موضوعا معنويا حيويا في الأدب والنقد على حدّ السواء إذ أخذ النوع المهجن من أكثر من نوع أو جنس أدبي يتجاوز الإرث المفهومي التقليدي المؤطر بإطار الجنس أو النوع، فأخذ الأديب يفتح آفاق النصّ بأقصى امتداداتها ليستوعب تقانات النصوص الإبداعية الأخرى مع الاحتفاظ

<sup>308</sup> ينظر في مغامرة التجنيس الرئائلى :سؤال الجنس والنوع منشورات عالم الكتب الحديث إربد 2012.

بحدود التجربة بوصفها موضوع النص<sup>309</sup>. فهذا التلاحق الذي يلمع إليه الباحث هو ما نسمّيه بالفضاء البيني في الكتابة الأدبية، وقد سمّاه هذا الباحث بالمنطقة الحرّة يقول: "هذا الانفتاح الأجناسي أوجد منطقة حرّة أتاحت للأديب فرصة مناسبة للانفلات من قيد الشكل الأجناسي ومنحه طاقة وفاعلية إضافية استطاع من خلالها الأديب تعميق الخصائص الفنية لهذا الشكل وإسعادها بخصائص فنية وجمالية للشكل الملقح معه"<sup>310</sup>. ونذكر كذلك من الأبحاث المهمة في هذا الباب كتاب العربي الضيفوي الموسوم بالرواية الرسائية، ولئن اهتم هذا الكتاب بالأدب الفرنسي الحديث فهو من ناحية التفكير البيني مصنّف لا يمكن أن يستغني عنه الراغبون في دراسة الرسائل في الرواية وفي السرد عموماً، لأنّ القوانين الإنشائية التي يستخلصها من هذا الجنس المركّب لا تخصّ الأدب الفرنسي بل يمكن أن نستخلصها من الآثار الأنجليزية والعربية وخاصة الإسبانية<sup>311</sup>، ونذكر من هذه القوانين ما يتصل بخصائص التبئير في العلاقة الرسائية السردية أو تحويل المترسل إلى راو، وقد بيّن الباحث كيف تجاوز الرسالة السردية أو العلاقة الرسائية السردية إطار الجنس الأدبي لأنّه إطار ضيق محدود معرفياً لا يتسع لفهمها ولا لتحليل آليات اشتغالها في المتخيل السردية .

وقد استفادت بعض الأبحاث المؤسسة للنقد البيني من جنس الرواية الرسائية<sup>312</sup> وهي كما هو معلوم رواية تدرج فيها الرسائل بضمير المتكلّم المفرد، فهي ذات صلة بالتلفظ السردية الرسائي كما تقول كات همبورقار (K. Hamburger) في كتابها عن منطق الأجناس الأدبيّة. وقد ظهر هذا الجنس الروائي أوّل ما ظهر عند دياقو دي سان بيدرو في كارسيل دي أموري وعند نيكولا بروتين، ثمّ انتشرت أساليب تضمين الرسائل (التضمين الانعكاسي) منذ القرن السابع عشر في سائر الآداب الغربيّة، وهي

<sup>309</sup> م.ن ص 67.

<sup>310</sup> م.ن .

<sup>311</sup> A.Dhifaoui: Le Roman Epistolaire et son peritexte; C.P.U Tunis 2008.

La mise en abyme :

<sup>312</sup> انظر في خصوص التبئير

L .Dallembach : Le récit speculaire: essai sur la mise en abyme Paris Seuil 1977

أجناس سردية بينية منها الرسائل النثرية واليوميات المتخيلة التي يسعى الدارسون إلى تجريد الأنموذج السردية المميز لها من سائر أجناس الكتابة المتقطعة في هذا المجال الذي تمثل الرسائل عامة والمراسلات خاصة أحد فضاءاته الأجناسية.

ونشهد في هذه السنوات الأخيرة صدور بحوث عديدة في سردية الرسائل، وقد كانت الأجناس الرسائلية - باعتراف الباحثين أنفسهم - على هامش الدراسات المتصلة بالأنا تلك الدراسات التي هيمنت عليها السيرة الذاتية والأجناس المتاخمة لها. وتتنامي القراءات المهمة بالعتبات النصية وبمعطيات النقد التكويني<sup>313</sup> اتسعت آفاق اهتمام الدارسين بالمراسلات بما هي نصوص عتبات يتحدث فيها الكتاب والشعراء عن مراحل تكون النصوص وتنظيمها وطبعها وإخراجها، فتعوض المخطوطات والمسودات، ويعلقون فيها على آرائهم في أعمالهم على نحو ما نجد في المراسلات المنسوبة أخيراً إلى ليو تولستوي (1828-1910) وقد أخرجتها للناس المتخصصة في الأدب الروسي في القرن التاسع عشر سلمى أنسيرا. ومن هذه الرسائل التي تعيد كتابة تاريخ الشخصية محدثة عن نفسها بضمير المتكلم مراسلة حبّ وغرام كتب بها إلى المرأة التي ستصبح زوجته يقول فيها إنه بات يمقت رواية الحرب والسلام ، ويقصّ فيها آخر أطوار تعديله لآخر نسخة منها، وتقول الباحثة في هذا السياق : " إنه نصّ ( نصّ المراسلة ) يتكشف فيه التحوّل الروحي العميق الذي جعله لا يرفض أعماله الكبيرة فقط ( قال إنه انقلب كارهاً لأنا كارينينا ) بل بات يمقت الأدب الروائي كلّهُ، ولم يحفل بالمراسلة التي بعث بها إليه صديقه وغريمه إيفان تورقينياف ، فقد بدأ مسيرته نحو التنسّك . وإنّ كُنّا مدعوين إلى أن نحترز في التعامل مع هذه العتبات حتّى لا نقع في ما وقع فيه - بالنسبة إلى الأدب العربي طبعاً - جيل محمد كرد علي ثمّ زكيّ مبارك وأنيس المقدسي وغيرهم ممّن كان يخلط بين وضعيات التلقّظ في الأجناس السردية المشاكلة للواقع ووضعيات التلقّظ في الأجناس الغنائية مثل الفخر والهجاء: فراحوا يدقّقون الأمر في

---

<sup>313</sup> كنت بيّنت في بحث لي قدّمته بمناسبة مرور ستّين سنة على وفاة أبي القاسم الشّابي واهتممت فيه بمراسلاته أنّ جنس الرسالة الأدبية عند هذا الشاعر مسوّدة يمارس فيها كتابة الخطاب الرومنسي منشوراً قبل إفراغه في القلب العروضي، ولحظت أنّه يضيء في رسائله ظروف كتابة القصائد وحلّت الرسالة التي بعث بها إلى صديقه محمد الحليوي وفيها سرد لظروف كتابة قصيدة نشيد بروميتوس أو نشيد الجبار.

ما ضاع من الأربعمئة مقامة التي زعم الهمذاني وهو يفاخر أبا بكر الخوارزمي في موضوع أدبي بأنّه كتبها أي في قوله في إحدى مراسلاته: " بلغني أنّه أحسن البصيرة في بغضي ....فليعلم أنّ من أملى من مقامات الكدية أربعمئة مقامة لا مناسبة بين المقامتين لفظا ولا معنى وهو لا يقدر على عشر حقيق ألاّ نهاج لكشف عيوبه " <sup>314</sup>.

لقد أصبحت المصطلحات التي تميّز هذه الأجناس بعضها من بعض مألوفة لدى عدد لا بأس به من الباحثين . وازداد اهتمام الدارسين بهذا المجال الأدبي البيني إخصابا حين أصبح مفهوم العلاقة الرسائلية مفهوما بينيا متمحّضا للدلالة على التخاطب في الفضاء الرسائي وما ينتجه من نصويّة دون سائر أنماط التلقّظ في هذا المقام الأدبي الكبير. وقد بدأ هذا التطوّر يحصل كذلك حين فهم بعض الدارسين في الأدب العربي طبعاً أنّ خطاب المراسلات الأدبيّة خطاب تبعيد ومفارقة لا خطاب تواصل وتقريب من جهة، وأنّه خطاب ينهض على التلقّظ المزوج، وأنّه من جهة ثالثة كما تقول ميريال بيسيس نفسها مجال خصب للتخصّصات المتعدّدة لأنّ العلاقات الرسائيّة ليست علاقات أدبيّة فحسب بل هي كذلك علاقات تبادل معرفي وتعدّد ثقافي في شتّى مجالات الحياة الفرديّة والجماعيّة. ونذكر في هذا المضمار نماذج من البحوث القيّمة التي تصدر هنا وهناك منذ عقد أو أقلّ بقليل مثل البحث الموسوم بالترّسل الأدبي بالمغرب النصّ والخطاب لأمّنة الدهري<sup>315</sup>. وملاحظات صالح الغامدي المفيدة في إشكاليات الخطاب الترّسلي ضمن بحثه المتّصل بإشكاليات الخطاب الترّسلي عند حمزة شحاتة حيث ألّمع إلى تذبذب المحدثين وغموضهم في التعامل مع هذا الخطاب<sup>316</sup>.

إلاّ أنّ الاهتمام بسرديّة المراسلات سواء الرسائل السردية أو المراسلات المدرجة في الأجناس السردية كأدب السيرة والأخبار لم يبلغ من التقدّم في البحث ما بلغه في الدراسات الغربية مثل المقال

---

<sup>314</sup> الرسائل، طبعة هندية لقاهرة 1928 ص 315.

<sup>315</sup> ط1 جامعة الحسن الثاني كلية الآداب والعلوم الإنسانيّة الدار البيضاء المغرب 2008.

<sup>316</sup> مخاتلة العزلة : قراءة في رسائل حمزة شحاتة ضمن ملتقى قراءة النصّ ، علامات المجلّد 15 الجزء 60 ماي

. 2006

الشهير عند أهل الذكر لفرانسوا جوست عن الرواية الرسائلية وتقنيات السرد الصادر سنة 1966<sup>317</sup> وكتاب الرواية الرسائلية للوران فرسيني الصادر منذ 1979<sup>318</sup>.

فقد تأسست هاتان الدراستان على مرجعية إنشائية بينية، وهي تتضمن من الملاحظات المتصلة بوضع المتكلم في السرد الرسائل ما يمكن أن يفيدنا في دراسة المتكلم في هذا المجال الأدبي، وقد بقي الدارسون عالة عليهما إلى الآن. وبقوا كذلك عالة على أفكار سادت في الستينات من القرن الماضي. وقد اتّصلت بعض هذه الأفكار بالمتكلم في النثر القديم عامة، وفي القطاع الذي تسمّيه بلاندا كانون بسرد الحياة الداخلية<sup>319</sup> ويسمّيه غيرها مثل لويك توميري بكتابة الذات<sup>320</sup>. ويختلف الباحثون في مسألة صلة النثر بالذات الكاتبة، وينشعبون فريقين كبيرين: فريقا يتزعمه المستشرقون أمثال فون جرانباوم (V.Grunbaum) ويذهب إلى أنّ الكاتب العربي القديم لا يتحدّث عن ذاته إلّا بما يلحقه بالذات الجمعيّة والمثال المشترك، وأنّ بينه وبين التجربة الأدبيّة قطيعة أونطولوجية راجعة إلى جذور الثقافة التي سيطرت فيها الذات المتعالية على الذات المضروفة في الزمان والمكان. ويتراوح هذا الموقف بين التعبير الانفعالي الانطباعي المنتفخ المزهو بموجة الليبرالية على نحو ما نجد في رسائل

---

<sup>317</sup> Francois Jost : Le roman épistolaire et la technique narrative au 18<sup>e</sup> siècle; dans Comparative literature Studies 111 , 4, 1966.

<sup>318</sup> Laurent versini : Le roman épistolaire , Paris : PUF 1979.

<sup>319</sup> Belinda Cannone : Narrations de la vie intérieure Paris Klincksieck 1998 .

<sup>320</sup> Loic Thommeret : La memoire créatrice . Essai sur l'écriture de soi au 18<sup>e</sup> siècle Paris L harmattan 2006.

مي زيادة<sup>321</sup> وهو موقف غدّته محوريّة الثقافة الغربيّة التي ترفض الانفتاح على المدنيّة العربيّة القديمة خوف الإقرار بها، لأنّ العلاقات الرسائيّة لون من ألوان التمدّن<sup>322</sup>، وبين الموقف المستند إلى النقد التكويني دون أن يكون له من الأدوات ما يتيح له الخلوّص إلى ذلك الموقف، وفي هذا السياق يعلّل بعضهم ما يرونه ضمورا في هذا الجانب بضياح النصوص يقول صاحب فصل الترسّل في الأدب العربي في الموسوعة العربيّة " وقد ضاعت الكثرة الكثيرة من الرسائل الشخصية الخاصّة، ولم يصل منها سوى النزر القليل الذي لا يكاد يفصح عن شيء كثير من حياة عموم الناس في تلك العصور<sup>323</sup> ". وهذا بطبيعة الحال غير سليم من جوانب مختلفة، فنصوص المراسلات التي وصلت إلينا ليست قليلة، هذا من جهة ، وريّما كانت قليلة إذا اقتصرنا على دواوين الرسائل التي وصلت إلينا كاملة وهي تقريبا من القرن الثالث إلى القرن العاشر ثلاثون ديوانا، ولكنّا نفضّل في مثل هذا الفنّ الأدبي أن نتحدّث عن العلاقات الرسائيّة وهي أكثر من هذا العدد بكثير وأشدّ تعقيدا من حيث النصوصية . ويسلمنا هذه التقدير المستند إلى نظرة بينية إلى الملاحظة الثانية وهي أنّ البحث عن مادّة الرسائل لم ينفذ عند الكثيرين إلى أعماق كتب الأدب وما تزخر به من نصوص يمكن أن تغيّر نظرتنا إلى ما حرص المستشرقون على ترسيخه منذ أكثر من قرن، ونرى ثالثا أنّ مناهج القراءة التي اعتمدت في دراسة الرسائل لم تنتبه إلى المضمرات النسيقيّة التي تعبّر عن حياة الجماعات في بواطن هذه النصوص. ومهما يكن من أمر فقد أعيدت في هذا السياق أفكار عامّة لا تخصّ في الحقيقة الكتابة في الأدب العربي، وإنّما تنطبق على سائر الآداب الكلاسيكيّة التي تسود فيها القيم المشتركة والنماذج المعروفة المسطورة وتهيمن فيها الأنا الجماعيّة على الأنا الفرديّة، ولذلك فإنّ الاهتمام بسرديّة المراسلات في الدراسات الغربيّة على كثرته ينصبّ هو أيضا على العصور القريبة لأنّ القدامى في الآداب

<sup>321</sup> انظر تحليل هذا الرأي ضمن سعد أمل داعوق: فنّ المراسلة عند مي زيادة دار الآفاق الجديدة بيروت 1982 وخاصة قولها " بالأمس كانوا يكتبون طويلا دون أن يقولوا شيئا إذ لم يكن معظم الرسائل إلّا استعارات محفوظة وأسجاع مرصوصة " .

<sup>322</sup> انظر مختلف المعاجم في تأريخها للكتابة الرسائيّة ولدور كلّ أمة في هذا المجال فإنّك تجد حديثا عن الفراعنة وعن الحضارة الكلدانيّة والآشوريّة والسوماريّة والإغريقية طبعاً. وهي ترجع نشأة مصنّفات أدب الكتاب إلى القرن الحادي عشر ميلادي في حين اكتملت في هذا العصر مصنّفات أدب الكتاب في الحضارة العبّاسيّة.

<sup>323</sup> الموسوعة العربيّة المجلّد السادس .فصل الترسّل الأدبي.



الأوروبية لم يحتفلوا هم أيضا بالحوارية التي يحفل بها السرد الرسائي بداية من المراسلات البرتغالية وغيرها ، ورغم هذا فإننا نرى أنّ الاهتمام بالمضمرات النسقية في هذه المراسلات - وهي لا تظهر إلا من خلال العلاقات الرسائية التي سعت إلى التمرّد على القيم التعبيرية الكلاسيكية وعلى أحادية الصوت ، وإلى الخروج عن صورة المتكلّم الذي ضبّطت إيقاعه تعاليم أدب الكتاب - قلنا إنّ هذه المضمرات هي التي تمكّنتنا من تنسيب هذا الرأي القائم على التعميم وعلى محورية الفكر التحرري الحديث الذي يرى أنّ الكاتب القديم لم يعتن بلغة الشخصية وרגائيتها ومنازعها ، ويزعم أنّه لم يحاك في ما يصنع من علاقات رسائية لغة اليومي المعيش ، وإنّما كانت في تقديره لغة المراسلة في هذا الجنس القصصي لغة الإنشاء البياني المشترك والتعابير الجاهزة التي تملئها العقلانية الكلاسيكية .

أمّا الفريق الثاني فينقسم بدوره مذاهب مختلفة منها ما يستخدم في تحليل النصوص مسالك متواضعة أو قل مسالك لا تستند إلى مرجعية علمية جادة فيعتمد مقدّمات رسائية يتحدّث فيها الكاتب بضمير المتكلّم المفرد كطوق الحمامة لابن حزم ليدرجها في قطاع السيرة الذاتية فيخلط بيت العلاقة النصوصية والجنس الأدبي<sup>324</sup> وهو مذهب يغالي أهله في قراءة الأجناس السردية القديمة قراءة متشعبة بالفكر الرومنسي وبأدوات النقد التعبيري، وهي قراءة تميل إلى تصنيف أدب الاعتبار ضمن أدب السيرة الذاتية مثلاً. ولسنا بحاجة إلى الاستدلال على أنّه لا صلة لأدب الاعتبار بالسيرة الذاتية أي بذلك الجنس الأدبي الأوروبي المنشأ ، المتّصل ظهوره بمراحل العبور من الكلاسيكية إلى الرومنسية على ما يقول جورج ماي (G.May) في مقدّمة كتابه عن السيرة الذاتية.

ونلاحظ أولاً أنّنا لا نعتني في هذا المقام بالمراسلات السردية المرتبطة بسياق سردي في جنس حاضن لها أي باعتبارها أسلوباً من أساليب الخطاب مثل رسائل النمر والثعلب أو البخلاء أو الرسائل المدرجة في سير العظماء مثل سيرة أحمد ابن طولون للبلوي وفي الأخبار الأدبية مثل أخبار أبي الفرج

---

<sup>324</sup> انظر مثلاً إحسان عباس: فنّ السيرة، دار صادر ودار الشروق عمّان 1996 ص 114 وما بعدها وشوقي المعاملي : السيرة الذاتية في التراث ، مكتبة النهضة المصرية القاهرة 1984. وانظر كذلك نقد عبد الحميد إبراهيم لهذا الاتجاه في الكتابة عند هذا الكاتب ضمن دليل الرسائل الجامعية من البداية إلى النهاية دار المعارف مصر 1992 وانظر كذلك دائرة المعارف الإسلامية الطبعة الجديدة م 8 1994 فصل رسالة بقلم ألبار عرازي.

الببغا وإن كنا نعتقد إلى الآن أنّ دراسة هذا النوع من المراسلات أو العلاقات الرسائيّة لم تفض بعد إلى نتائج خصب، ففي تقديرنا وحسب الجرد الببليوغرافي الذي ننجزه منذ أكثر من عشرين سنة لم تكن هذه الكتابة تمثّل في البحث العلمي الخاصّ بالخطاب الرسائي القديم تقليدا يوازي في أهميّته ما كنا ألّمعنا إليه في مستهلّ حديثنا عن اهتمام الغربيين بأدب الرواية الرسائيّة أو العلاقات الرسائيّة القصصيّة وقصص العشاق الرسائيّة في الآداب الغربيّة بدء من القرن السابع عشر. ومما يدلّ على إغراء هذا القطاع الأدبي بالدراسة ما نقف عليه من حين إلى آخر من أشكال التعقيد في حركة انتقال النصوص من جنس إلى آخر، ففي هذا الصدد نرى الرسالة المكتوبة تتحوّل إلى خبر يتناقل شفهيًا . جاء في أخبار القضاة لمحمد بن خلف بن حيّان (ت 306) "أخبرني غير واحد، منهم أبو عبد الله بن الحسن بن أحمد عن أحمد بن أحمد أنّ عبيد الله بن الحسن العنبري دفع إليهم كتابا ذكر أنّ أباه عبيد الله بن الحسن كتب به إلى المهدي وقرأه أحمد بن عبد الله عليهم بسرّ من رأى : بسم الله الرحمن الرحيم أمّا بعد أصلح الله أمير المؤمنين<sup>325</sup> ومن وجوه التعقيد في صيرورة الرسالة عبر الأجناس السردية الحاضنة لها ما جاء في المصدر نفسه من الأخبار الدالّة على أنّ الرسائل قابلة أن تتحوّل إلى أخبار شفويّة، وأنّ بعضها يضيع ويبعد كتابة فحواه في أخبار. فكلّ هذا التعقيد الذي يستحقّ دراسة واسعة نقصر اهتمامنا في سياقنا الراهن على المراسلات السردية الثابتة صيغها في دواوين أصحابها المستقلّة عن تلك السياقات القصصيّة، ومدوّنة الرسائل السردية من جهة وضع المتكلم وصلته بالمروي له وبتجربة الكتابة نوعان :

## 1- البينية في المراسلات السردية الذاتية ( السيرداتي في الرسائل):

التفاعل بين السرد والترسل هو القيمة البينية الإنشائية في هذا القطاع الإبداعي، ويدخل في النوع الأوّل المراسلات السردية المشاكلة للواقع اليومي الذاتي ( مقابل الواقع الخارجي في رسائل الوقائع والفتوحات مثلا ) ونلاحظ في البداية أنّ زعمنا أنّ لهذا السرد قيمة تعبيرية عالية لا تمنعنا من أن نقرّ بأنّ تاريخ السردية الرسائيّة الذاتية لا يخلو من اتّجاه انتكاسي لم ينجح أصحابه في تمكين اللغة الرسائيّة من الحفر في ذات المترسل ومن الحديث الحرّ عن بواطن النفس ، ومن إشنشاء عالم لغوي

<sup>325</sup> أخبار القضاة ، تحقيق عبد العزيز مصطفى المراغي، مطبعة السعادة مصر 1947ص.

تخييلي متصل بالحياة الخاصة. وهذا الاتجاه مثله أبو عثمان الجاحظ وبيدع الزمان الهمداني وأبو بكر الخوارزمي خير تمثيل، فهم وإن انتموا إلى عصور أدبية مختلفة يشتركون في هذا الاتجاه الأدبي الذي سمّاه أبو القاسم الكلاعي بالمرصع أي المتناصّ مع "الأخبار والأمثال والأشعار وآيات القرآن والأحاديث"<sup>326</sup> وهم من أبرز الكتّاب الذين حرصوا على الهروب إلى التلقّظ المثلي وإلى الاحتماء بالعبارة الأدبية الجاهزة وتقويض التعبير عن الذات في مختلف المضامين والمواقف إلى الموروث الشعري والاطمئنان إلى أنّ الشاعر قد كفاهم مؤونة البحث عن الذات في لغة الكتابة فلم يتموضعوا داخل الخطاب السردى كذوات متلقّظة تتحمّل مسؤوليّة الكتابة. وربّما وضع المترسّل منهم لخطابه إطاراً نثرياً ثمّ انقلب عليه وتتكّر له فارتدّت الرسالة نظماً كقول الهمداني في شكوى الزمن :

"و لقد جادلت الزمان و أنشدته

ما للزمان و صرفه لا ينتحي

\*\*\*إلاّ العلا و منازل الأشراف

فأنشدني :

لا تعتننّ على الزمان و صرفه \*\*\* ما دام يقنع منك بالأطراف

فألزمته قولي

هلاً سوى الأغصان إن يك آخذا \*\*\* والفرع إن يك لا محالة فاعلاً"<sup>327</sup>.

ولكنّا لا نعدم اتّجاهاً ثانياً يضمّ المراسلات التي صنّفها المحدثون ضمن قطاع السرد الذاتي المتقطّع، أو ما يصطلح عليه بعضهم بالشذر ، ونلاحظ أنّ عدد لا بأس به ممّا يمكن أن نعدّه من المراسلات السردية هو في الحقيقة معادل موضوعي كتابي للأعمال القولية الأساسية في التحوار اليومي الخاصّ في المجتمع القديم، وقد تفرّعت عن هذه الأعمال القولية ذات القيمة التداولية أزواج

---

<sup>326</sup> محمد بن عبد الغفور الكلاعي: إحكام صنعة الكلام، تحقيق محمّد رضوان الداية، ط عالم الكتب بيروت 1985 ص 145.

<sup>327</sup> الرسائل ص 339.

رسائلية حوارية جوابية في الأغراض المسمّاة قديما بالإخوانيات مثل شكوى الزمن والتسليّة عن شكوى الزمن والعتاب والاعتذار بمقاصده الفرعية المختلفة كالاعتذار عن الزيارة أو عن المراسلة أو نحوها ممّا نطلق فيها على المتخاطب مصطلح المتراسل. وقد عدّ كثير من الباحثين هذه المراسلات السردية جنسا غنائيا ، إلى ذلك ذهب أحمد أحمد بدوي إذ يرى أنّ الرسالة الإخوانية (المونولوج) جنس كتابي غنائي<sup>328</sup> 'وعنه أخذ عدد لا بأس به من الدارسين يقول حسام أحمد فرج: " كذلك فإنّ اعتبار نصّ الرسائل الإخوانية واقعا في منطقة بين المونولوج والديالوج ينعكس انعكاسا وظيفيا على لغته، فالمساحة الكبيرة من الحرية في التعبير عن الشعور دون وجود قيود عليها وتخيّله لحوار ودّي مستمرّ بين حالته الشعورية في التعبير وحالة المتلقّي الشعورية كلّ هذا يؤدّي بالكاتب إلى أن ينحى (كذا) بلغة نصّه منحى معيّنا يرسم به تلك الغنائية المرتبطة بالحوارية بما يحقّق لها بعدها الوظيفي المطلوب " <sup>329</sup> . وقد أخذ أحمد بدوي نفسه هذا المصطلح عن الاستعمال الشائع في الآداب الغربية إذ ينمى النصّ الرسائي المكتوب بضمير المتكلّم بصيغة المفرد إلى الجنس الغنائي مثل رسالة الحبّ في القرنين السابع عشر والثامن عشر، وريّما نظمت هذه الرسائل شعرا وتسمّى الرسالة الغنائية .

إنّ هذه المراسلات جنس من الأدب البيني أو العلائقي لأنها تنتزل منزلة وسطى بين الخطاب التخيلي والخطاب المشاكل للواقع، فهي من أدب التاريخ لأنها تكوّن جانبا من تاريخ العلاقات بين الكتاب، وهي تسرد تفاصيل وقائع الحياة اليومية في مراسلات الأدباء وغيرهم ( في العصر الحديث رسائل السياسيين والمفكرين عموما ) ولكنهم يميزوها من اليوميات ومن السيرة الذاتية من جهة المضامين فهي تختلف باختلاف مراتب المتراسلين وصلاتهم التخاطبية وأغراض التراسل الجاري بينهم. وهي تختلف كذلك عن اليوميات من جهات عديدة منها القيمة التداولية : فالمراسلات السردية الشخصية لا تتدرج في مشروع أجناسي مثلما هو الحال في اليوميات ، بل تتدرج في سياق التفاعل التخاطبي بين المتراسلين، وهي لا تتخذ من اليوم وحدة زمنية تنتظم فيها الحكاية بل يقتضي مقام الترسّل أن تنهض على السرد المجمل، وهي من جهة أخرى لا تكون إلّا أجوبة عن مراسلات استخباريّة ضمن ما سمّيناه بالأزواج الحوارية

328 : أسس النقد الأدبي عند العرب ، نهضة مصر القاهرة 1960.

329 نظرية علم النصّ، مكتبة الآداب القاهرة ص 40 لكنه لا يحيل على الذين سبقوه إلى هذه الأفكار.

التي لا يكون المتكلم فيها إلا في وضع مجيب عن سؤال أو منكر لموقف أو محاور لمخاطب، ولذلك اعتبر المهتمون بهذا الجنس من السرد أنّ القيمة الحقيقية لها ليست في كلّ نصّ من نصوصها يؤخذ في قيمته المطلقة بالمعنى الرياضي وإنّما في العلاقة السردية الرسائيّة، ففي هذا الجنس من النصوص تتقلب موازين أنماط الخطاب فعوض أن يكتنف السرد الحوار ينبجس السرد من الحوار ويتولّد عنه ويؤثّر فيه حتّى أنّك ترى الأحداث المسرودة تشقّر وتشعر قارئها أنّه متطفّل على المراسلة جرّاء قوّة الإحالة على لحظة التكلّم وكثافة الإشارات المقامية . فقراءة هذا السرد لا تكون إلاّ قراءة "متطفلة" منكسرة "Oblique" لأنّ المتكلم وهو متخاطب يعوّل على المخاطب في تفكيك الإشارات المقاميّة : "وأما ما استدعيته من مطالعتك بجملة الخبر فاعلم أنّ القمر بعد مستتر في السرار ومحجوب الوجه عن ضوء النهار"<sup>330</sup> .

وهذا الجنس من المراسلات يستدعي في قراءته وتأويله تضافر التخصّصات المعرفية والحقول الإنسانية لأنه أدب مثقل بالتاريخ وبالقيم المرجعية، فهو أدب يعبر عن ذات كاتبه في رسائل الشكوى والعتاب والاستعطاف، ويعبر عن السياق الاجتماعي والسياسي والحضاري الذي كتب فيه، لما تتضمنه الرسائل من حكاية الوقائع والأحداث والمواقف، فهو إذن أدب يبني من جهتي الكتابة والقراءة.

ونلاحظ من ناحية أخرى أنّ هذا الجنس من الرسائل هو جنس من الأدب السيرذاتي لأنّ فيه تطابقا بين الكاتب والراوي والشخص المتحدّث عنه من جهة، ولأنّ عوامل كتابته عوامل بينية لأنها تتقاطع وعوامل كتابة السيرة الذاتية : فالتبرير مثلا عامل من عوامل كتابة هذه المراسلات نجده على سبيل الذكر في مراسلة أبي حيّان التوحيدي في تبرير إحراق كتبه ، وهو - كما سبق أن ذكرنا - إحراق رمزي، ورسالة التوحيدي هذه إنّما جاءت ردّا على رسالة عتاب من صديق حقيقي أو متخيّل، وقد لامس فيها التلقّظ الرسائي التلقّظ السيرذاتي لأنّ أبا حيّان ينظر فيها إلى الماضي وقد تخلّص منه وأحدث بين زمن التجربة وزمن الكتابة مسافة كافية لمحاسبة النفس ومساءلة المجتمع، ولتقويم مسيرة كاملة واستخلاص ذلك المنطق الأخرق الذي يسوس - في تقدير الكاتب - حياة المثقّف.

<sup>330</sup> كمال البلاغة رسائل قابوس بن وشمكير، جمع وتقديم عبد الرحمن اليزدادي، ط2 المطبعة السافية مصر 1341 هـ ص60.

إنّ مدوّنة هذه الرسائل السردية الذاتية تستجيب بشكل كبير لمنهج الدراسات البينية في مختلف مستويات التحليل السردى من أوضاع تَلَفَظ وأعوان السرد وأنماط الخطاب وغيرها من المستويات. وقد سعى بعض الدارسين إلى تناول نماذج من هذه السرديات لكنّ تواضع الأدوات المنهجية حدّت من قيمة النتائج التي وصلوا إليها<sup>331</sup>. وينبغي كذلك أن ننظر إلى هذا الجنس من المراسلات السردية الذاتية في مستويين من مستويات التخاطب أو التَلَفَظ مختلفين : مستوى التخاطب بين الكاتب الحقيقي والقارئ الحقيقي، ويظهر في إحدى لوازم الرسالة من خلال صيغة " كتابي إليك " أو من فلان إلى فلان، ومن خلال استعمال ضمير الخطاب المفرد وفي الدعاء حسب الطبقة، وفي سائر المؤشّرات المقامية . ويكون هذا المخاطب حاضرا برسالته الابتدائية، وقد يطلب من الكاتب أن يقصّ عليه ما جرى من أحداث<sup>332</sup> وقد اهتمّ دارسو الرسائل في الآداب العربية بهذا المستوى ولكنهم لم يجاوزوه إلى غيره من المستويات الممكنة في هذه العلاقة المعقّدة ، وقد كنّا أفضنا في نقد هذا المستوى وفي بيان حدوده وقصوره في دراساتنا السابقة ، ولكننا نلاحظ أن أغلب المهتمين بهذا القطاع يصرّون على تقسيم الرسائل الأدبية وفق التصنيف الجامع بين القديم والحديث على ما سقناه من الحجج العلمية في بحثنا الموسوم بالرسائل الأدبية، من ذلك مثلا كتاب حسام أحمد فرج : نظرية علم النصّ : رؤية منهجية في بناء النصّ النثري مكتبة الآداب القاهرة 2007 لكن محتوى الكتاب يختلف عمّا يعد به عنوانه إذ اهتمّ فيه صاحبه بالرسائل الإخوانية في عصر الموحّدين والمرابطين وعرف ببعض القواعد الأجناسية في المراسلات كمفهوم التكافؤ الثقافي، والحوارية والتخاطب الرسائلي أو انبناء النصّ الرسائلي على الأزواج الرسائلية، وقد سبق لنا أن حدّدنا هذه المقومات الأجناسية كلّها وحدّدنا غيرها وأفضنا فيها في الفصل الثالث من الباب الأوّل من الرسائل الأدبية، ويمكن أن يقارن القارئ الكريم بين ما ذكره هذا الباحث في الصفحة السادسة والخمسين من كتابه في خصوص الأنا الجمعية التي يصدر عنها الأندلسيون بما كنّا

<sup>331</sup> انظر مثلا تحليل حسام أحمد فرج لبنية الحكاية في الرسائل الأندلسية المتأخّرة وخاصة رسائل ابن عميرة وابن الأثير صص 212- 216.

<sup>332</sup> انظر مثلا قصّة ابن ثؤابة في تعلّم الهندسة ردّا على طلب أحمد بن الطيّب السرخسي ،معجم الأدباء ط دار المشرق بيروت د- ت 2 / 162-168.

قد قلناه منذ أكثر من عقدين يقول " النصّ إذا لم يكتمل برسالة واحدة فهذه الرسالة تمثّل نصف النصّ الذي يكتمل بردّ المتلقّي برسالة أخرى وعلى هذا فالنصّ يشترك في بنائه طرفان <sup>333</sup>. وإذا نظرنا إلى رسالة التوحيدي السالف ذكرها من هذه الزاوية أمكن أن نقرأها بما هي جواب على رسالة عتاب لكاتب حقيقي معاصر له ، ويمكن أن ينتظم هذا القطاع الأدبي كلّ في هذه النظرة لأنّ مقاصد الترسّل الأدبي تنتظم بين متخاطبين حقيقيين : ففي المدح مثلاً يستعمل السرد الرسائلّي الذاتي جهات معنويّة في هذا الغرض يقول ابن شهيد في رسالة مدحيّة كتب بها إلى المؤتمن بن أبي عامر : " ومن مواتيّ بالناصر أبيه أنّي صرت بين يدي المنصور في يوم مطير وأنا ابن خمس أذكر ذلك كذكر لما كان بالأمس، وكان من إكرامه لي أنّه وهبني يوماً تفاحة كانت بين يديه كبيرة رأيّ أنظر إليها نظر الكلف فأمرني بالقبض عليها والعضّ فيها فضاق فمي عن أن أحيط بجزء من أجزائها فأخذ يقطع لي بفمه ويطعمني على حكمه <sup>334</sup>. لكنّ وراء هذا التلفّظ نوعاً ثانياً من التخاطب يتحوّل بمقتضاه كاتب الرسالة إلى كاتب مجرد لا يخاطب الممدوح في مقام مدح وإنّما يخاطب القارئ الضمني أو الافتراضي أيضاً ، وربّما كانت عين التوحيدي في رسالته السالفة الذكر على قارئ المستقبل كذلك فكان يروي حدثاً لم يقع على الحقيقة وإنّما على المجاز "فشقّ عليّ أن أدعها لقوم يتلاعبون بها (....) و كيف أتركها لأناس جاورتهم (....) فما صحّ لي من أحدهم وداد ولا ظهر لي من إنسان منهم حفاظ ". لقد كان التوحيدي على يقين أنّ رسائله المنسوخة في دكاكين الوراقين بين أيدي القراء، وكان يعلم كذلك أنّ رسائله غير باقية لمعاصريه بل لقراء المستقبل فلم يكن تصريحه بإعدامها إذن تصريحاً بإعدام قارئها في ذلك العصر فحسب بل كان تصريحاً ذا قيمة أنطولوجية ، تصريحاً بإعدام الكتابة مطلقاً . ونجد في رسائل بديع الزمان الهمذاني الصوت نفسه إذ يقول في شكوى الزمن : " وإنّي على قرب العهد بالمهد قطعت عرض الأرض، وعاشت أجناس الناس فما أحد بالجهل تبعته وبالحيرة نعتّه، وما من حمد في أحد وضعته إلّا أضعته <sup>335</sup>.

<sup>333</sup> قارن بمقالاتنا الصادرة في ندوة مشكل الجنس الأدبي في الأدب العربي القديم عن كليّة الآداب منوبة تونس 1993 وفي مجلّة علامات الصادرة عن النادي الأدبي بجدة 1999 و في كتاب الرسائل الأدبيّة الصادر بكلية الآداب ، منوبة تونس 2001 وعن دار الفارابي ببيروت 2008.

<sup>334</sup> النصّ في الذخيرة لابن بسّام، تحقيق إحسان، عبّاس الدار العربيّة للكتاب تونس ليبيا 1976 1/1 ص 195.

<sup>335</sup> الرسائل ص 228 و انظر كذلك رسالته في وصف هجوم الأعراب عليه م.ن ص 68.

## 2- الخطاب الرسائي في أدب النشريات :

إنّ النشريات في عامة الآداب العالمية جنس أدبي على غاية من الثراء الفكري والاجتماعي نظرا إلى اتصاله الوثيق بأحداث الحياة العامة والتحوّلات الطارئة على أصحاب كتابها. وهو أيضا خطاب ذو قيمة إنشائية ببنية، وهو من أدب المراسلات التي لها أصول غير أصول النثر الأدبي، فهي سليفة الرسالة الديوانية التي انتكس فيها صوت الكاتب بمقتل عبد الله بن المقفّع بعد قصّة عهد الأمان الذي كتبه عن المنصور لعمّه عبد الله بن علي . وقد كان التمتع بالصناعة البديعة الثمن الباهض الذي دفعه جيل كامل من كتّاب القرنين الثالث والرابع مقابل التنازل عن ملكيّة السرد في المراسلات الموسومة ببشائر الفتوحات وسائر السلطانيات أو الديوانيات . وليس قول الثعالبي في مدح سلطانيات أبي القاسم الإسكافي دليل حريّة وملكيّة للمعنى في هذا الجنس من الكتابة وإنّما هو لون من ألوان الإشهار لبضاعته البيانية " ومن عجيب أمره أنّه كان أكتب الناس في السلطانيات فإذا تعاطى الإخوانيات كان قصير السعي وكان يقال إذا استعمل أبو القاسم نون الكبرياء تكلم من في السماء" (يتيمة الدهر) .

لكنّ التطوّر الذي عرفه هذا المجال في مراسلات ضياء الدين بن الأثير والعماد الأصفهاني والقاضي الفاضل وغيرهم من المترسّلين مكنّها من الدلوف إلى ما أسمّيه بمجال المروي الأدبي التاريخي أو أدب الوقائع. وينبغي لنا أن نعيد النظر أيضا في المضمّرات النسقيّة لهذه المراسلات لأنّنا نرى أنّ هذا الجيل من الكتّاب قد تمكّن من تحويل رسائل النشريات التي كانت تلقى على المنابر وفي الأمكنة العامّة إلى جنس سردي قائم على محاكاة الأفعال والأحوال وعلى وحدة الزمن والحدث. وقد أقرّ بذلك الناصر صلاح الدين في تقريره لمراسلات القاضي الفاضل حين قال : " لا تظنّوا أنّي ملكت الديار بسيوفكم بل بقلم القاضي الفاضل" <sup>336</sup>. ففي هذه المراسلات التي واكبت مرحلة النخوة في حروب صلاح الدين عادت للمترسّل نخوة الإحساس بملكيّة القلم وبالقدرة على ممارسة البلاغة الكتابيّة، والفعل التاريخي،

---

<sup>336</sup> النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، تقديم وتعليق محمد جسين شمس الدين، دار الكتب العلمية بيروت



وعاد للأدب موقعه البيني، بين التخيل والتاريخ ، أي بين بناء المتخيل الجماعي وكتابة تاريخ الأمة، وهو ما يحتاج إلى دراسة مستقلة .

## الفصل السادس

### الأجناس العالمية والكتابة البينية

## تمهيد

### في أنّ الأدب العالم أدب بيني

ماذا نعني بالأدب العالم ؟

الأدب العالم هو المصطلح الذي يطلقه بعض المتخصصين في إنشائية الأجناس الأدبية، وفي تاريخ الحركة الثقافية الجمالية أي الحركة التي تتفاعل فيها الأجناس وتنمو وتتطور وتقلص فاعليتها الجمالية والثقافية، ثم تتحجّر وتتلاشى . والجنس العالم (Genre Savant) هو التجربة الجمالية التي تكتب في عصور الازدهار الثقافي وفي مراحل تطور الثقافة المكتبية وأعراف مؤسسة القراءة، وهو الجنس الأدبي الذي ينعكس على الأجناس السابقة بالتقليد أو المحاورة أو التجديد أو نحوها من وجوه التعقيد الفني المتأثر بذلك الازدهار القرائي. وقد لفتت انتباهنا الصلة الوثيقة بين هذا المفهوم ومبدأ الكتابة البينية، لأنّ الأدب العالم هو الأدب الذي تلتقي في رحابه مختلف الأجناس فيكون منطقة التماس بينها. ويمكن أن ننبئ في تعريف هذا الأدب وأن نوضح معالمه بأطروحة اللساني الألماني أندري يوليس (A.Jolles) في كتابه الشهير أشكال بسيطة (Formes simples)، فهو تعريف لساني يذهب فيه يوليس إلى أنّ التاريخ الأدبي في أي أمة من الأمم يمرّ بثلاث مراحل متدرّجة تاريخيا من الأبسط إلى الأكثر تعقداً، ومن الشفهية إلى الكتابية. وأولى هذه المراحل هي مرحلة ظهور الأشكال البسيطة المحققة في أجناس أدبية ذات قيمة تداولية عالية، وتلتحم في هذه الأجناس الوظائف التداولية والوظائف الاجتماعية المعبّرة عن حاجات الجماعة في حياتها اليومية في الرعي والسقي والحرث والاستعداد للحرب والبكاء على الميت، وفي تحقيق طقوس العبور وغيرها من أشكال التعبير البسيطة كمصارعة الحيوان في مشاهد الصيد والقنص ، والاندھاش برؤية التحولات الطبيعية العنيفة، ولوحات وصف السيول والأمطار، ومغامرات الرحلات الليلية. وقد ظهرت في الشعرية العربية من خلال الرجز والحداء والأمثال السائرة، والعبارات المأثورة التي ألحقها اللغويون بالأمثال. وفي هذه المرحلة لا يكون للجنس الأدبي ملكية واضحة . يقول ابن سلام الجمحي: " ولم يكن لأوائل العرب من الشعر إلاّ الأبيات يقولها

الرجل في حاجته ، وإنما قُصِدَت القصائد ، وطوّل الشعر على عهد عبد المطلب ، وهاشم بن عبد مناف ، وذلك يدلّ على إسقاط شعر عاد وثمود وحمير وتبع<sup>337</sup>.

فهذا التعليق الذي يؤرخ للأجناس الأدبية عامة والشعرية خاصة يعني أنه لم يكن للعرب في مرحلة طفولة اللغة وبداياتها إلاّ الأشكال البسيطة التي يقولها الشاعر في تداولية الشعر، ثم جاء التقصيد والتطوير وهما أساس في انتقال الشعر من الشكل البسيط إلى مرحلة التقصيد والتطوير ، والتقصيد يعني تشطير البيت إلى شطرين ، أوتجزئته إلى أغراض وموضوعات. ففي ذلك العصر القديم كانت تقاليد الذاكرة الجمعية أو الجماعية بوصفها مرحلة وسطى رابطة بين الأشكال البسيطة حيث لا ملكية لأحد " قال أحد الرجاز " ومرحلة استقامة الشعر في الأشكال العالمية التي استقرت في الدواوين.

وفي مرحلة ثانية من مراحل التطور الثقافي تستقرّ الأشكال البسيطة في مؤسسات تواصلية مدنية أو شبه مدنية، وتستثمر الأشكال البسيطة فتطورها وتزواج بينها، وتنسبها إلى أفراد معلومين تمكّنهم من ملكيتها فتصبح هذه الأشكال أشكالاً محققة (Formes Actualisées). ويمكن أن نعدّ القصيد في تاريخ الثقافة العربية الشكل المحقق الذي اكتمل فيه تجنيس الشعر العربي البدوي في القرن السادس للميلاد أي قبل ظهور الإسلام بقرن تقريباً. فالقصيد هو الخلاصة التركيبية التأليفية للأغراض الشعرية البسيطة التي كانت منتشرة في الفضاء البدوي والتي تختلف باختلاف المقامات، فكان فيها البكاء على الميتّ تأبيناً وتوقيعات تطلقها المرأة على قرع الطبول والدفوف في حفلات جنائزية نجدها عند البدو إلى عصر غير بعيد، ونجد الآثار الدالة على هذه التوقيعات في القوافي الداخلية لبعض القصائد الرثائية الحاملة للنفس البسيط كقول الخنساء في رثاء صخر :

"حمال أُلوية شهاد أندية \*\*\* هباط أودية للجيش جرار" .

وفي هذا المعنى بالتحديد يقول الدكتور مبروك المناعي : "يذهب الباحثون الذين اعتنوا بأولية شعر الرثاء إلى أنه تطور لممارسة طقوسية شعرية معروفة عند العرب القدامى، هي أنشودة النوح أو الندبة، وهي ضرب من الكلام المسجوع أو من الرجز كانت تردده النسوة أثناء احتفاليات الندب، وتشرف عليه غالباً أم الميتّ أو أخته، فالمرثية أو قصيدة الرثاء سليلة شعائر طقوسية، ولكنها تطورت من تعبيرة طقوسية

<sup>337</sup> تحقيق شاكر ، ص:26.

إلى تعبيرة فنية، قال فؤاد سيزكين(استخدم السجع في الشعر القديم في النياحة على الموتى، وفي مرحلة ثانية من التطور يبدو أنّ المراثية قد حلّت محلّ شعر النياحة الأقدم)<sup>338</sup>. فالتعبيرة الفنية هي ما نعنيه بالجنس الأدبي العالم، وهو فعلا سليل الشكل البسيط .

ومن هذه الأغراض كذلك الذم واللعن والهجاء وجميعها أشكال بسيطة تطورت في القصيد وأصبحت غرضا رئيسا تجاوزه أغراض أخرى، تمهّد له أو تتوّجه، لكن بقايا الشكل البسيط نجدها كذلك في شعر الحطيئة وفي بعض الأرجاز. لقد استقرّ القصيد في الجاهلية الأخيرة الشكل العالم المعبر عن مرحلة اكتمال الشعرية العربية .

## 1- المقامات وبينية الجنس النثري العالم/ النصّ الأدبي مجمع أجناس:

لحظنا إذن أن أندري يوليس عالم اللسانيات الأدبية قد عرّف الجنس العالم بأنه مآل كلّ تاريخ أدبي يمرّ من عصور الشفاهية والأشكال البسيطة إلى عصور المدنية والتراكم الثقافي المولد للقراءة الصامتة والثقافة العالمية. وإذا أردنا البحث عن نص ممثّل للتداخل بين جنسين أدبيين أو لمجمع أجناس فإننا نجد أنّ خير ما يمثّله إنما هي مقامات الهمذاني والحريري وغيرهما ، ففي عناوينها أولا ما يدلّ على هذه البينية التناسية، وفي المقامتين القريضية والشعرية تداخل بين النثر والشعر، وفي المقامة الخمرية تفاعل بين المقامة وجنس فرعي من أجناس الشعر هو الخمرية، وفي المقامة الوصية تفاعل بين المجلس المقامي وجنس الوصية وهو جنس خطابي قديم. وقد ورثت المقامة عناصر من جنس المقام وهو جنس سردي شفهي ظهر منذ القرن الثاني للهجرة في مجالس الزهاد والقصاصين . ويستجيب جنس المقامات في الأدب العربي من جهة النسيج النصّي إلى مقتضيات الدراسة البينية الإنشائية، فهو جنس يتحاور فيه فضاءان كبيران أو بنيتان ثقافيتان مختلفتان : بنية البادية وبنية المدينة، وبنية الشفاهية وبنية الكتابية ثقافة الشعر وبلاغة المشافهة، وبلاغة المقامة العالمية هي بلاغة قوامها نظرة حوارية ، وقانون إنشائي أخرج به النثر العربي من مراتب النثر البسيط إلى دوائر الكتابة العالمية. ففي المقامة البغدادية للهمذاني نجد صراعا بين صوتي ثقافة الريف وثقافة المدينة، وهو ضرب من ضروب الكتابة بالمعنى الحوارية الذي يجعل المقامة صوتا محاورا لأصوات الثقافة التي تخترقها، وهو عين ما نجده في المقامة الدينارية حيث يرسم الهمذاني في مشهد كاريكاتوري على درجة عالية من

<sup>338</sup> افتتاح المراثي بالنسب: شدوذ فني أم تقليد بائد؟، حوليات الجامعة التونسية العدد 57 لسنة 2012 ص90.

الفرجوية الكرنافالية رجلين يتهاجيان في دينار، فكان الخطاب المقامي شكلا من أشكال النقد الساخر لتقافة الهجاء التي مثلت في عصر الكاتب لونا من ألوان التكبّس بالشعر.

إنّ الأدب العالم في المقامات أدب بيني يكرّس الأزمة الحضارية التي عاشها مجتمع الهمذاني، وما عرفه الإنسان من تمزّق بين القيم المتدهورة النافعة من حيث المادة والقيم الروحية والأخلاقية التي يرى الهمذاني والتوحيدي والخوارزمي وغيرهم أن تشبث الأديب بها هو الذي جعله يعيش عيشة إلحاف وبؤس. وبهذه الرؤية الفنية تصبح البينية في هذا الأدب موضوعا من موضوعات الكتابة، موضوعا معبرا عن الضياع والتمزّق والحيرة.

## 2- الرسالة العالمية أدب بيني:

يمكن أن نعدّ كتابة الرسالة العالمية في جميع الآداب شكلا من أشكال التعبير عن التقاطع الثقافي والمعرفي في المدينة، وإذا كانت القصيدة الغنائية عنوان الوحدة والعزلة والفردية الشعرية فإنّ العلاقة الرسائلية عنوان الانفتاح الحوارى بين أفراد المجتمع . ولقد افتتح أبو عثمان الجاحظ برسالة الترييع والتدوير وهي في الهجاء الكاريكاتوري عصرا أدبيا كتابيا ينهض على المحاكاة الساخرة بكافّة أطيافها، وتواصل هذا المسلك في تضخيم الصورة الأدبية عند المعرّي في الصاهل والشاحج وفي التوابع والزوابع لابن شهيد ، فهذه النماذج قابلة لاحتضان هذا المنهج في دراسة الخطاب الأدبي لأنّها أنسجة نصيّة قائمة على التمثيل الفنّي للنظام الأدبي القديم في مختلف أجناسه . ويمكن أن نقارن الصاهل والشاحج بكليّة ودمنة لابن المقفّع بما هما قصّتان على لسان الحيوان لنرى الفرق بين النصوص الممكن دراستها وفاق الطراز الحوارى الاجتماعى ومنهج التناصّ والنصّ الذي يعسر أن نخضعه لهذه المقاربة في التحليل ،على انتماء النصّين إلى نفس الجنس الأدبي، والمناخ الثقافى مناخ الأدب الحكيم والاعتبارى : فالقصّ في كليّة ودمنة ذو طبيعة رمزية عالميّة ، وهو موجّه إلى مخاطب عالمى لإقناعه بالحكمة التي صاغها الحكيم الهندي، أمّا الصاهل والشاحج فهي قصّة على لسان الحيوان مطبوعة بنصّ الثقافة العربيّة ، تتداخل فيها أصوات الشعر العربى والحكمة والأمثال العربيّة والقواعد اللغويّة المستقاة من الخطاب النحوي العربى . وفي المشاهد القصصيّة التي تنهض عليها هذه الحكاية المثلّيّة يتداخل التراثى والفنّي ليسهما في بناء الحكمة وفي صياغة الحوار، ونذكر مثالا على هذا التناصّ بين الحكاية المثلّيّة والموروث الثقافى مقطع الاحتكام إلى الضبّ، فقد جاء في القسم الأول من هذه الحكاية

مقطع حوارى تخاصم فيه الصاهل وهو الحصان والشاحج وهو البغل، وأرادا أن يحتكما إلى طرف محايد ، فاقترح الصاهل أن يكون الحكم الضبّ فقال : " أما الضبّ الذي هو قاضي البهائم فبعيد المنزل عنّي وعنك " ، وهذا القول يمثّل شكلا من أشكال التناصّ المفيدة دراسته في هذا السياق لأنّ دلالة الضبّ في الذاكرة الأدبيّة العربيّة قد ارتبطت بقصّة المثل في بيته يؤتى الحكم ، وهي ليست بدلالة لغويّة معجميّة بل هي دلالة تداوليّة أو ثقافيّة اصطلاحيّة وثيقة الصلة بمخيال السامع العربي في الثقافة العربيّة، وقد لمّح المتكلّم إلى هذه الدلالة دون أن يصرّح بالسياق الذي أخذت منه فكانت الجملة الأدبيّة قائمة على تداخل بين صوتين أو بين نصّين . وهذا النوع من الأنسجة النصيّة هو الخطاب الأدبي الممكن دراسته باعتماد الطراز الحوارى دون خوف من التكلّف في التحليل أو الإسقاط للمناهج . إنّ الجملة الأدبيّة التي كتبها المعري في هذا اللون الجديد من القصّ على لسان الحيوان هي استغلال فنّي قائم على توظيف قانون التناصّ بما هو قانون إنشائي تنهض عليه الكتابة العالمية في عصور تعقّد الثقافة الأدبيّة وتراكم المعرفة ، وإنّ الذي يطالع هذا النوع من الكتابة لا يمكن أن يفكّك رموزها ويستقصي دلالاتها ما لم يكن يشترك والكاتب في نفس الرصيد الثقافى وفي المرجعين الاجتماعى والتخيلى اللذين متح منهما، وربّما غربت هذه الدلالات المرجعيّة عن القارئ الذي لا تحيله ثقافته على هذا المرجع فعزا اختيار الضبّ إلى خيال الكاتب الطبيعى ، وهو في الحقيقة من الخيال الثقافى . والحقّ أنّ هذا المثال الذي ذكرناه ليس سوى أنموذج بسيط أردنا أن نستدلّ به على حدود تأصيل هذا المنهج، وأردنا أن نبين به وهن المنهج البنيوي في تحليل هذا الضرب من الأنسجة النصيّة التي لا يمكن أن يكتفى في قراءتها بالوحدة النصيّة المغلقة ، وإنّما يحسن أن ينظر إليها باعتماد ما سمّته يمنى العيد - وهي محقّة في ذلك - بالدلالة الموسّعة أي الدلالة التي تقرأ حسابا للمرجع وللسياق ، وقد كان منهج التناصّ بأطيافه الإجرائيّة المختلفة بإزاء المأزق الذي وقعت فيه البنيويّة شكلا من أشكال النجاة من هذا المأزق .

ونختار كذلك من الأمثلة التي يمكن أن نوضّح بها هذا المفهوم الإنشائي البيني المحاكاة الساخرة في الرسائل الأدبية وبوجه أخصّ التعزية الساخرة وهي جنس فرعى من الرسائل ازدهر في المدينة العربيّة منذ القرن الثالث الهجرى، وكان ثمرة من ثمار أدب الظرف والظرفاء والعلاقات الرسائليّة بين الأدباء المتناظرين في المرتبة والمكانة الاجتماعيّة والثقافيّة، إذ يتمازح هؤلاء الأدباء بكتابة التعازي الساخرة كأن يعزّي أحدهم صديقا له بموت ثور أو شاة فتكون الرسالة غرضا جادّا ذا مقصد هازل أي تكون نصا بينيا

يتداخل فيه الجدّ والهزل. ومن الأغراض البينية في الشعرية القديمة كذلك المدح الذي يراد به الذمّ والذمّ الذي يراد به المدح، وهي جميعها أشكال تناسية يقوم فيها الإبداع على إنشاء منطقة وسطى بين الأغراض تقتضي قراءة بين المتضادات . ومن هذه الأشكال المفاخرة الساخرة وقد افتتح الكتابة فيها أبو عثمان الجاحظ، واستعملها في غرضي الهجاء والعتاب، سواء في رسالة التريب والتدوير وهي في هجاء أحمد بن عبد الوهاب الكاتب أو في رسالة الجدّ والهزل وهي في معاتبة محمد بن عبد الملك الزيات. لقد ارتبط مفهوم التناس في الأدب بثقافة المدينة وبأصوات المدينة كما تقول جوليا كريستيفا<sup>339</sup>، وهذه الأصوات ظهرت أول ما ظهرت في كتاب البخلاء للجاحظ، فهو كتاب التعدّد الثقافي وتتوّع أصوات سكان المدينة القديمة، صوت المرأة والرجل والصبي والكاتب الرسائي والكارى والتاجر والفقير .

وبعد فما هي صلة القصيد بالمقامة وبالرسالة العالمية من جهة الدراسة البينية؟ إنّ المتمعّن في التراث البلاغي والنقدي واللغوي لا يمكن ألاّ يستخلص أنّ أسس المعرفة العالمية في مجالات الثقافة اللغوية والأدبية هي خلاصة تفكير العقل العربي القديم في بلاغة الأجناس العالمية ، سواء أكان ذلك في الجهاز الإيقاعي أو العروضي أو الجهاز البديعي أو في قطاع نظام التمثيل، أو في نشاط كتاب الأدب من الذين ألفوا في المعاني ( معاني الخيل - معاني المراثي - معاني المدح...) أو الذين ألفوا في ثقافة المترسل العالمية (مصنفات أدب الكتاب - موسوعات الإنشاء: نهاية الأرب للنويري - صبح الأعشى للقلقشندي - موادّ البيان لعلي بن خلف) فقد كانت علوم العربية في جملتها نتاجا للتفكير في ذلك الأدب العالم وما تقتضيه قراءته من تقاطع في التخصصات الأدبية واللسانية المختلفة.

### 3- الحوار الشعري والتناس:

كنا بيّنا في تحليل صلة الأسلوبية بالفكر البيني أنّ القوافي في المعارضات يمكن أن تكون مكوّنا من مكوّنات البينية في الظاهرة الأدبية ومنطلقا لحوارية الشعر، وفعلا فقد كان الحوار بين الأجيال



الشعرية في القرن الثاني للهجرة شكلا من أشكال التناص الداخلي أو التغوير<sup>340</sup>. وهو حوار تتصارع فيه الأذواق والمواقف من جمالية الشعر ومن التصورات الاجتماعية في مختلف الأغراض والمعاني، وتعكسها قصائد بشار بن برد رأس مدرسة التوليد والتحديث عند عامة المؤرخين القدامى والمحدثين. ففي نونيته الشهيرة "وذا دلّ كأنّ البدر صورتها" يحاور بشار أولاً السنن الجمالي في بناء تركيب التشبيه، ويدرك تشبّع التشبيه المجلد وافتقاره إلى التأثير الفني، فيقلبه ويصبح المشبه مشبّها به وهو وجه المرأة والمشبه به مشبها وهو القمر أو البدر. وهذا القلب الفني هو مظهر أول من مظاهر التحوّل بين النصوص. ثم يتحوّل في صلب القصيدة نصاب مختلفان نصّ يمثل جمالية النسيب البدوي، ونصّ يمثل جمالية النسيب الحضري الطريف في مجتمع المدينة. فقد انطلق التلقي الجمالي من النص القديم:

وذا دلّ كأنّ البدر صورتها \*\*\* باتت تغني عميد القلب سكرانا

"إنّ العيون التي في طرفها حور \*\*\* قتلنا ثم لم يحيينا قتلنا".

ويتواصل الإعجاب بهذه الثقافة القديمة :

فقلت أحسنت يا سؤلي ويا أملّي \*\*\* فأسمعيني جزاك إحسانا

يا حبّذا جبل الريّان من جبل \*\*\* وحبّذا ساكن الريّان من كانا

ولكن الصوت الجديد صوت الثقافة المولدة والقيم المحدثّة يرفض هذا الشعر القديم بما يمثله من ثقافة، ويطلب أفضل منه ولكن في لغة الظرف والأدب :

قالت فهلاًّ فدتك النفس أحسن من \*\*\* هذا لمن كان صبّ القلب حيرانا

يا قوم أدني لبعض الحيّ عاشقة \*\*\* والأذن تعشق قبل العين أحياناً<sup>341</sup>.

---

<sup>340</sup> التغوير ويسمّى كذلك التضمين الانعكاسي هو : "أسلوب فني يشبه التضمين، ويتميّز منه في كون الجزء المضمن يتجلّى مرّة داخلية تعكس الإطار الذي يحتويه فإذا بالآثر الفني كلّه يمسي منعكسا في جزء من أجزائه" معجم السرديات، منشورات دار محمد علي للنشر تونس 2010 ص97.

<sup>341</sup> الديوان، تحقيق محمد الطاهر ابن عاشور، الشركة التونسية للتوزيع، تونس 1976 ج4 ص216

إنّ الحوار الشعري في هذا النوع من القصائد تفاعل بين الأجيال الشعرية على تخوم النصوص، وهم يمثل مرحلة الإبداع والتألق والتحديث ، ويؤكد أنّ الفضاء البيئي هو فضاء التجديد والتوليد والإبداع، ولعل هذه المراحل البيئية هي أخصب مراحل الإنتاج في عامة مجالات المعرفة سواء منها الأدبية أو العلمية، وهي فضاء العبور من حال إلى حال، من ثقافة إلى أخرى، من مناخ جمالي إلى سواه.

وبعد فإنّ الكتابة على حدود الأجناس الأدبية وتخومها هي التي تمنح الخطاب الأدبي قيمته البيئية، وقد أجمع الإنشائيون على أنّ الاحتكاك بين الأجناس والتدافع الذي يحدث بينها وهي تتناسخ ويحاكي بعضها بعضا هو المولد الحقيقي للإبداع، فالأدب طرس كبير من طروس الحياة أو هو كتاب الحياة الكبير الذي يتنافس الكتاب والشعراء على أن يخطوا سطورا بين سطوره، وبذلك تكون البيئية في الإبداع أكثر مظاهر الإبداع دلالة على حياة الأدب والفكر والثقافة .

## خاتمة:

لقد كان التداخل بين الشعر والنثر في الكتابة العربية القديمة القانون الإنشائي الناظم لفني المقامة والرسالة والشعر ذي الصبغة العالمية في عصورها المختلفة والمحرّك لصناعتها وإنشائها ، إذ لا تخلو مقامة أو رسالة من مقطع شعري يتخلّل بنيتها السردية أو نتفة تختتم بها القصة، فهما من حيث التركيب الأجناسي جنس بيئي . إنّ المقامة جنس نثري لكنها جنس منظوم ويمثّل التصنيع اللفظي في المقامة بما تتضمنه من سجع وترصيع وجناس ومختلف مظاهر الإيقاع حال وسطى بين الشعر والنثر. وقد كان الحوار بين القصيدة البدوية وقصيدة المدينة أو حياة الطرف أو التوليد الشعري عند بشار بن برد ومسلم بن الوليد وربيعة الرقي وغيرهم من شعراء القرن الثاني مظهرا من مظاهر ازدهار الشعرية البيئية في تاريخ الشعر العربي القديم. إنّ البيئية في التصور البلاغي والإنشائي القديم هي حذق الصناعتين والأخذ بأطراف المنظوم والمنثور، ولكنها في الآن نفسه حذق لمقامات التلفظ في خطاب واحد تتسجم فيه علامات الأجناس الأدبية المختلفة في صوت ثقافي واحد متعدّد في آن، هو صوت المدينة القديمة بما هي فضاء بيئي.

القسم الرابع

الملاحق

## الفصل الأول

أعلام الفكر البيني في تاريخ الإنسانية

ولما قال الخليل بن أحمد: "لا يصل أحد من علم النحو إلى ما يحتاج إليه حتى يتعلّم ما لا يحتاج إليه" ، قال أبو شمر " إذا كان لا يتوصل إلى ما يحتاج إليه إلاّ بما لا يحتاج إليه فقد صار ما لا يحتاج إليه يحتاج إليه " .

### الجاحظ

#### كتاب الحيوان

كنّا ألمعنا في مقدّمة عملنا هذا إلى أنّ الوعي المعرفي بالقيمة البيئية لتاريخ الفكر البشري ليس منتوجا جديدا من منتوجات الحضارة الحديثة، بل إنه خصيصة ثقافية من الخصائص الحركية الثقافية الإنسانية أو النسيج الفكري والجمالي و"المجرّة المعرفية" التي تعيشها أو تمرّ بها كل حضارة في مرحلة ازدهارها وفي المنعرجات الكبرى التي تنفتح فيها على الحضارات العالمية السابقة لها، وهي سمة من سمات العقل البشري وآية من آيات المرونة والتفاعل بين الأفكار والحقول المعرفية، وكلما انغلقت الثقافات دون الروافد التي يمكن أن تغذيها ازداد رفضها للفكر البيئي واشتدّ دفعها للتداول بين الحقول العلمية، بل يمكن أن تكون البيئية سمة من سمات التفاعل الحضاري في عامة مستويات الحياة الاجتماعية والاقتصادية والثقافية بما في ذلك امتزاج الأجناس والأعراق واللغات والتفاعل بين

المجموعات الإثنية. وفي ضوء هذا المعيار الإبيستيمولوجي اخترنا أن نتصفّح ملامح من الفكر البيني في نماذج من أعلام الحضارتين العربية والغربية، وأن ننظر إلى أثر الفكر البيني في ما أنتجوه من الأعمال . ولقد كان التقاطع بين العلوم واقتراض المفاهيم المعرفية أساسا من أسس تاريخ الفكر في عامة العلوم اللسانية والإنسانية والاجتماعية. ولعلّ قولة الخليل التي ذكرناها في مطلع هذا الكلام تدلّ على ما كان يعتمل بباله وببال سيبويه من حاجات معرفية تخصّ الكليات الرياضية والمنطقية التي يحتاج إليها في بناء المقولات النحوية. ولكننا لن نتوقف عند هذين العلمين وقد سبق لنا أن أثّرنا مسألة الصلة بين النحو العربي والمنطق اليوناني وانتهينا إلى أن التقاطع بينهما ليس راجعا بالضرورة إلى خصائص الثقافة بين الحضارتين وإنما نرجّح رأي أبي سعيد السيرافي في مناظرته لمتى بن يونس القنائي في الإمتاع والمؤانسة، وقد ذهب فيها إلى أنّ التفكير النحوي مبني على الكليات اللغوية. وسنقتصر في هذا المبحث على ثلاثة من أعلام الفكر العربي القديم وهم عمرو بن بحر الجاحظ وعبد القاهر الجرجاني وعبد الرحمن بن خلدون، وثلاثة من أعلام الفكر الغربي الحديث وهم قاستون باشلار وإدغار موران وبول ريكور .

## 1- أبو عثمان الجاحظ والعقل العالمي :

قد لا يختلف معنا القارئ الكريم إنّ نحن زعمنا أنّ من كبار أعلام الفكر البيني في تاريخ الثقافة العربية أبا عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، وقد سبق لنا أن بيّنا جانباً من هذا الفكر في ما أنجزنا من بحوث عن التعدّد الثقافي والتحاور الفكري في أدب الجاحظ<sup>342</sup>. وكنا في المبحث الخاص بالتناص من هذا الكتاب ألمعنا إلى مفهوم تعدّد الأصوات عند أبي عثمان الجاحظ ولكن الاتجاه إلى دراسة اللغة العربية وثقافتها في آفاق الفكر البيني يفتح لنا اليوم مسالك أخرى لفهم فكر الجاحظ الأدبي ما كنّا لننقطنَ إليها لولا هذا الاتجاه الجديد في النظر إلى علاقات المعارف بعضها ببعض. ونذكر في مستهلّ هذا المبحث بأنّ المناخ الثقافي الذي عاش فيه الجاحظ مناخ تقاطعت فيه جميع الروافد الحضارية في الشرق القديم . وهو من ناحية تاريخ الثقافة العربية الإسلامية مرحلة تقاطع عصور المشافهة وعصور التدوين، ومرحلة تأسيس علوم اللغة العربية لذلك نقول إنّ المرويات الشفهية قد تفاعلت في نص الجاحظ الكبير، وهي مرويات متنوّعة تتحدّر من العلوم القديمة كعلم الأنساب والحيوان والقيافة

<sup>342</sup> ينظر في بحث : التعدّد الثقافي في بخلاء الجاحظ، حوليات الجامعة التونسية، العدد 56 لسنة 2007.

والألخيميا والجغرافيا والبلدان والنجوم، وتتفاعل والروافد اليونانية والحكمة الهندية والثقافة السياسية الفارسية والبيان العربي لتنتج ما سمّاه أهل العصر بالأدب وعرفه الجاحظ في رسالة المعاش والمعاد والآداب بالعقل الجماعي بقوله: "وقد أجمعت الحكماء أنّ العقل الغريزي والكرم الطبيعي لا يبلغان غاية الكمال إلاّ بمعاونة العقل المكتسب، ومثلوا لذلك بالحطب والنار والمصباح والدهن، وذلك أنّ العقل الغريزي آلة والمكتسب مادّة، وإنما الأدب عقل غيرك تزيده في عقلك"<sup>343</sup>. لقد وضع الجاحظ أسس المكوّن الأول لتلاقح المعارف بإرجاعها جميعها إلى الزوج المنجب لها وهو زوج الطبيعة والثقافة، فالنشاط الذهني البشري نشاط بيني، يكون نتيجة انقذاح المعرفة في لحظة التقاء الكفاية الطبيعية والثقافة المكتسبة، وقد حرص الجاحظ في كتابة الموضوعات الأدبية التي شغلته على أن يكون المعنى خلاصة الأصوات الثقافية وعناصر الإنسانيات الموروثة من تلك العلوم القديمة والوافدة إلى مدينة البصرة في نهاية القرن الثاني ومطالع القرن الثالث الهجري. ويعرّف الجاحظ الكتابة الأدبية بدلالاتها البينية بقوله: "ولم أزل أبقاك الله بالموضع الذي قد عرفت من جمع الكتب ودراستها، ومعلوم أنّ طول دراستها إنما هو تصفّح عقول العالمين والعلم بأخلاق النبيّين، وذوي الحكمة من الماضين والباقيين من جميع الأمم وكتب أهل الملل"<sup>344</sup>. وقد أثمر التراكم المعرفي والتنوّع الفكري الذي تدفّق على المدينة الإسلامية الناشئة نوعاً من الكتابة "محا فيه الجاحظ الحد الفاصل بين الرواية والإبداع، فكان رواية كاتباً في آن"<sup>345</sup>. وقد قدّم الجاحظ لهذه الكتابة البينية في صدر كتاب الحيوان بقوله: "وهذا كتاب تستوي فيه رغبة الأمم وتتشابه فيه العرب والعجم، لأنّه وإن كان عربياً أعرابياً، وإسلامياً جماعياً فقد أخذ من طرف الفلسفة وجمع بين معرفة السماع وعلم التجربة، وأشرك بين علم الكتاب والسنة، وبين وجدان الخاصة وإحساس الغريزة، ويشتهيه الفتيان كما تشتهيه الشيوخ، ويشتهيه الفاتك كم يشتهيه الناسك،

<sup>343</sup> الرسائل، تحقيق عبد السلام هارون، ط دار الجيل بيروت 1991/96.

<sup>344</sup> م.ن 95/1.

<sup>345</sup> ينظر في صالح بن رمضان: أدبية النصّ النثري عند الجاحظ، منشورات مؤسسة دار سعيدان للطباعة والنشر سوسة تونس 1990 ص 4.

ويشتهيه اللاعب ذو اللهو كما يشتهيه الماجد ذو الحزم، ويشتهيه الغفل كما يشتهيه الأريب ويشتهيه الغبي كما يشتهيه الفطن<sup>346</sup>.

ولا يمكن أن يجد المرء نصاً أفصح من هذه المقدمة في التعبير عن عالمية الفكر والأدب وعن حوارية الكتابة، وعن التعدد الثقافي، وعن قدرة الشكل الأدبي على الاستماع إلى عامة الأذواق وآفاق التلقي والانتظار وردود الأفعال في فضاء تلك المدينة الجديدة مدينة البصرة في القرن الثاني الهجري، وبغداد في القرن الثالث . فقد كانت الكتابة في تصور الجاحظ الثقافي ملتقى الثقافات ومجمع المعارف الكونية في عصره، وكانت نظريته إلى المعرفة نظرة منفتحة على المكان والزمان، منفتحة على مختلف الأمم التي أسهمت في بناء الحضارة الإنسانية، ومنفتحة على حركة الزمان لا تقصي الماضي ولا تزدري الحاضر. وقد انعكست هذه النظرة البيئية على أسلوب الجاحظ في معالجة مختلف الموضوعات الأخلاقية والعقدية والأدبية والاجتماعية والنفسية. ففي الموضوعات الأخلاقية بالمعنى الإيظقي أنشأ الجاحظ رسائل من قبيل رسالة الحاسد والمحسود وكتمان السرّ وحفظ اللسان وتفضيل النطق على الصمت وغيرها من الفصول التي أسهم بها في تأسيس الفكر الأخلاقي في الثقافة العربية الإسلامية. وحرص على أن يكون منهجه في الكتابة جامعاً بين العلوم العقلية والعلوم النقلية أو المرويات القديمة، بل والعلوم التجريبية وبين المعارف الطبيعية والاجتماعية والنفسية.. ولقد اختلفت تسميات الأصناف المعرفية في النظرية القديمة بين علوم حكمية وأخرى شرعية أو علوم نقلية وعقلية أو علوم النظر وعلوم الصنائع، ولكن هذه الأصنافيات تتفق جميعها في أنّ العقل والنقل أو السماع والقياس والمنطق هما معيار التمييز بين المعارف، وقد أثر هذا التصور الثنائي في الخطاب النقدي المتصل بتقويم الأدب. إنّ عصر الجاحظ هو عصر المدّ الثقافي الذي عاشته الحضارة الإسلامية، وإنّ الفكر البيئي خصيصة من خصائص التفكير البشري في مراحل ازدهار الحضارات وحاجتها إلى الاتساع والانتشار والأخذ عن الآخر، فالفكر البيئي هو فكر غيري بالضرورة، هو فكر مؤمن بأنّ تطور الثقافات والحضارات لا يتمّ إلاّ بالتلاقح بين التجارب والمعارف، ولذلك تزدهر في جميع الحضارات المتوتّبة للنهوض حركة الترجمة عن الثقافات السابقة، والتبادل المعرفي إذ لا يمكن لأمة أن تتقدّم وتشبع حاجياتها الثقافية وتجاربها المعيشية بمعزل عن التراكم المعرفي الذي يتمتع به تاريخ الإنسانية. وإنّ الفكر البيئي في كلّ عصر من

---

<sup>346</sup> الحيوان 11/1.



العصور هو خلاصة ما يحدث من ثقافة بين الحضارات المتخلية عن الدور الحضاري والحضارات الصاعدة المتوثبة للقيام بدور حضاري جديد، وقد عبّر الجاحظ عن هذه اللحظة الفارقة في تاريخ الفكر العربي الإسلامي وهو يدعو العقل الاجتماعي إلى الوعي بالزمنية التاريخية التي كانت تعيشها الأمة العربية الإسلامية، وبصلة الأجيال المعرفية بعضها ببعض فقال في السياق نفسه: "وينبغي أن يكون سبيلنا لمن بعدنا كسبيل من كان قبلنا فينا على أننا قد وجدنا من العبرة أكثر مما وجدوا، كما أن من بعدنا يجد من العبرة أكثر مما وجدنا"<sup>347</sup>. إن هذه النظرة التاريخية نظرة مستقبلية تدلّ على أن فكر الجاحظ لم يكن فكراً ضيق الأفق، ولم يكن ينظر إلى الماضي بمعزل عن الحاضر وعن المستقبل، بل كان يرى التاريخ سلسلة من الأطوار تتضافر فيها عقول الناس على إنجاز ما ينفع البشرية وما يتراكم فيها من معارف نظرية وعملية صالحة لها في معاشها ومعادها.

## 2-البينية عند عبد القاهر الجرجاني بين الجملة والخطاب :

تتّجه عامة الدراسات الحديثة التي تهتمّ بفكر عبد القاهر الجرجاني إلى تصنيفه ضمن المدرسة البلاغية التي تغلب المعاني على الألفاظ أي المدرسة الجاحظية، يقول عبد العزيز عتيق: "ومن مقدّمة عبد القاهر لكتابه أسرار البلاغة يشعر القارئ أنّ مدرسة الألفاظ كانت قد بدأت تتحكّم في عصره وتغطّي على مدرسة المعاني، ومن أجل ذلك حاول بكتابه تأييد المعاني وبيان أثرها ودورها في بلاغة القول"<sup>348</sup>. وقد صنّف كتبه دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة ضمن كتب علم البيان بالنسبة إلى الأول وكتب علم البديع بالنسبة إلى الثاني. ومن الموضوعات الكبرى التي اعتنى بها مؤرّخو البلاغة العربية موضوع النظم حتى عدّه حمادي صمود في كتابه التفكير البلاغي عند العرب من رواد مدرسة السياق في تاريخ البلاغة العربية، ومن الموضوعات الأخرى موضوع معنى المعنى والاستدلال البلاغي حتى قال عبد العزيز عتيق: "ثم نرى برتراند روسل أحد كبار فلاسفة الغرب في القرن العشرين يؤلّف كتاباً من خيرة كتبه أطلق عليه اسم معنى المعنى (The Meaning of Meaning) لم يزد فيه كثيراً على ما

---

<sup>347</sup> الحيوان 86/1.

<sup>348</sup> تاريخ البلاغة العربية، دار النهضة العربية بيروت لبنان 1970 ص 247.

أتى به إمام البلاغة العربية عبد القاهر الجرجاني في فصل من فصول كتابه دلائل الإعجاز<sup>349</sup>. إلا أن هذا المؤرخ لم يحلّ مفهوم معنى المعنى، ولم يضع تفكير الجرجاني في طار نظريته الشمولية للحدث البلاغي، فقد بنى صاحب الأسرار نظريته في معنى المعنى على فكرة بينية، واستند إلى مفهوم المثاقفة أو التفاعل بين الثقافات في مسألة المجاز فذهب إلى أن المعنى أمر مشترك وبيني تتقاسمه جميع الشعوب لأنها تشترك في التصورات العالمية للأشياء، فالأسد في جميع الثقافات رمز للشجاعة، ويرجع ذلك إلى رواسب الثقافة الرعوية والزراعية حيث كان الإنسان يخشى هذا الحيوان المفترس فارتبطت صورته بالشجاعة في الضمير الإنساني عبر كل اللغات، ففي مقدّمة هذا الكتاب يثير الشيخ عبد القاهر مسألة المثاقفة بين اللغات يقول الجرجاني : " فقولك رأيت أسدا تريد وصف رجل بالشجاعة وتشبيهه بالأسد على المبالغة أمر يستوي فيه العربي والأعجمي وتجده في كلّ جيل وتسمعه من كل قبيل " <sup>350</sup> .

فقد جاوز الجرجاني حدود الثقافة العربية ليعود إليها ويفهم خصائصها، وهذه المجاوزة هي في ذاتها نشاط بيني. وقد أردنا في هذا الكتاب أن نعود إلى هذا العلم لمزيد الحفر في طبقات فكره البيني ونشير أولا إلى أننا ذكرنا في الفصل الخاص بعلوم القرآن أنّ عبد القاهر الجرجاني من أعلام الفكر العربي الذين لم يهتموا بعلم من العلوم وإنما اهتموا بتحليل الخطاب في القرآن الكريم، فأفضى بهم هذا الطموح المعرفي البعيد إلى طرح قضايا العقيدة والنحو وأصوله والبلاغة وعلومها طرعا متشابكا معقدا لا يمكن تبسيطه وتجزئته أو يقع الباحث دون ما يقتضيه فهم هذا الفكر في إطار نظرية المعرفة ، وهو - مع الأسف - ما وقع فيه جيل عبد العزيز عتيق وشوقي ضيف وداود سلوم وأحمد بدوي وبدوي طبانة . لقد ضبط الجرجاني في مقدّمة الأسرار حدود الفرق بين اللغة والخطاب فعرف الخطاب بأنه الكلام المنظوم على سمت تظهر معه فيه ملامح المتكلم النفسية وسياق الكلام والاسترسال الدلالي يقول: " فلو أنك عمدت إلى بيت شعر أو فصل نثر فعددت كلماته عدا كيف جاء واتفق وأبطلت نضده ونظامه الذي عليه بني وفيه أفرغ المعنى وأجري، وغيّرت ترتيبه الذي بخصوصيته أفاد ما أفاد وينسقه المخصوص أبان المراد نحو أن تقول في "قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل" "منزل قفا ذكرى من نبك حبيب" أخرجته من باب البيان إلى مجال الهذيان، نعم وأسقطت نسبته من صاحبه، وقطعت الرحم بينه وبين منشئه، بل

<sup>349</sup> م.ن ص 258.

<sup>350</sup> أسرار البلاغة ، ص 25-26 .

أحلت أن يكون له إضافة إلى قائل، ونسب يختص له بمتكلم<sup>351</sup>. لقد استعمل الجرجاني في تمييزه الكلام المفيد من الكلام غير المفيد جملة من المصطلحات المشتقة من علم الخطاب وهي النضد والنظام والترتيب والنسق، وهي جميعها مفردات دالة على أن اللغة في تصور الجرجاني لا تتداول بين المتخاطبين من خلال ألفاظها بل تتداول من خلال أنساقها الخطابية، وهي أنساق مرتبطة بذاتية المتكلم أي بما سمّاه إيميل بنفينيست الإنسان في اللغة، وهو ما جاء في عبارات من قبيل "النسبة إلى الصاحب" "وصلة الرحم بينه وبين المنشئ" و"الإضافة إلى القائل"، فالكلام عمل نفسي متصل بالمتكلم وليس له دلالة في ذاته بل إنّه يكتسب دلالاته من "تخطيئه" أي من تحويله إلى ملفوظ أو قول أو خطاب. ولمّا كان كل خطاب إنّما هو عمل قولي حواري يتقاطع فيه البعد الاجتماعي والعامل النفسي والصوت الثقافي والأفق العلمي والبعد العاطفي فإنّ نظرة الجرجاني إلى اللغة هي نظرة بينية .

### 3- عبد الرحمن بن خلدون والخطاب التاريخي :

من نافلة القول أن نذكّر بأنّ المسار الفكري الذي عاشه عبد الرحمن بن خلدون في مقدّمته وهو يترسّم نواميس التاريخ البشري كان مسارا يزواج بين كتابة التاريخ بما هو حركة سردية في الزمن أو بما هو فعل لغوي ينظّم الوقائع ويرتّبها في خط أفقي من وجهة نظر مخصوصة وبين علم المنطق بما هو محاولة لمقولة الوعي التاريخي أو سعي لفهم تلك الوقائع والأحداث فهما عقلانيا فيه يعمل المؤرّخ على تفسير الظواهر الاجتماعية والعمرانية والثقافية، ومحاولة فهم المحركات الموضوعية المتحكّمة في إنتاجها، وهذه المزوجة الخصبة أو المخصبة بين علم التاريخ بما هو خطاب يدوّن الوقائع والأحداث وعلم المنطق بما هو علم يعمل على فتح مسارات التفكير وعلى شكلنة المفاهيم في أي علم من العلوم الأخرى، هذه المزوجة هي التي أفضت بهذا المفكر إلى استنباط علم جديد سمّاه علم الاجتماع الإنساني أو علم العمران البشري، فكان عمله التأسيلي حدثا جليلا من الناحية الإيبستيمولوجية أي من ناحية الكشف عن موضوع علم جديد، وهو بطبيعة الحال علم بيني بالنسبة إلى شجرة العلوم في تلك الحقبة من تاريخ الفكر العلمي. هو علم بيني لأنّ عبد الرحمن بن خلدون انطلق في تأسيسه له من إعادة تصنيف المعارف التي وصلت إليه أي العلوم التي عرفها عصره فوجد أنّ جانبا من هذه المعارف الإنسانية تسمّى تاريخا عند كتّاب من قبيل المسعودي والطبري وابن الأثير وهي ليست كذلك. ولئن

<sup>351</sup> أسرار البلاغة، تحقيق هـ- ريتز، دار المسيرة بيروت 1983 ص3-4.

صرّح عبد الرحمن بن خلدون في مقدّمة كتاب العبر بأنّ علم العمران البشري علم مستحدث وحقل إنساني جديد فإنّه التزم التحريّ في الإعلان عن ميلاد هذا العلم وقرأ حساباً لما يمكن أن يحدث من تداخل بينه وبين علوم أخرى قديمة كعلم السياسة المدنية الذي استتبطه أرسطو وآداب الاجتماع عند ابن المقفع وغيره من علماء العربية فقال: "وفي الكتاب المنسوب لأرسطو في السياسة المتداول بين الناس جزء صالح منه إلّا أنه غير مستوف ولا معطى حقّه من البراهين، ومختلط بغيره (...) كذلك تجد في كلام ابن المقفع وما يستطرد في رسائله من ذكر السياسات الكثير من مسائل كتابنا هذا غير مبرهنة كما برهناه (...) وكذلك حوّم القاضي أبو بكر الطرطوشي في كتاب سراج الملوك وبوّبه على أبواب تقرب من أبواب كتابنا هذا ومسائله ولكنه لم يصادف فيه الرمية ولا أصاب الشاكلة ولا استوفى المسائل ولا أوضح الأدلة"<sup>352</sup>. إنّ علم العمران البشري عند ابن خلدون علم بيني ومجمع تقاطع جملة من العلوم القديمة والعلوم المستحدثة، فهو علم سردي يقوم على الحكاية والقص ورواية الأحداث ولكنه في الآن نفسه تركيب مخصب بين علمين قديمين علم المنطق وعلم التاريخ، لأنّ الأسئلة التي طرحها ابن خلدون على المؤرّخين الذين سبقوه تتصل بمسألتهم عن صحة ما كانوا يسردونه من وقائع وأحداث بالأدلة العقلية. وهكذا فإنّ الفكر البيني هو المحرك المعرفي الذي مكّن ابن خلدون من اكتشاف علم الاجتماع الإنساني أو علم العمران البشري، فقد عاب ابن خلدون ضمناً على ابن المقفع خلوّ كتابته من التعليل العلمي أو التأسيس التنظيري للمسائل الاجتماعية والأخلاقية، وفعلاً فإنّ كتابات ابن المقفع تنزع إلى الرواية ونقل الآراء وعرضها دون تسليط الضوء على الأصول الفكرية التي أنتجتها، فكتاب الأدب الكبير والأدب الصغير يعرض المرويات العربية والفارسية في آداب السلطان والصدّاقة دون تأسيس للمفاهيم النظرية في هذين المجالين المهمّين في السياسة المدنية والمراتبية الاجتماعية بالقياس إلى ما كتبه أرسطو في كتابه أخلاق نيكوماك مثلاً. وقد عدّنا ابن خلدون من أعلام الفكر البيني لأنّه طرح بشكل واضح مسألة التقاطع بين علم التاريخ وعلوم اللغة، أو مسألة الكتابة التاريخية للمعارف القديمة.

<sup>352</sup> المقدمة ط دار الكتاب اللبناني بيروت 1979 ص 65.

#### 4- قاستون باشلار: مدرسة بينية بين الموضوعاتية وعلم الظواهر أو بين الحلم والعلم :

لم يكن الجمع بين الفكر الرياضي والفكر الظاهراتي أو علم الظواهر حكرا على إدموند هيسرل وقراءته لرونيه ديكرت بل كان قاستون باشلار علما من أعلام الفكر العلمي يهتم بتاريخ العلوم ويتكوّن العقل العلمي وبالخيال والشعر في آن ، وقد ورث عن الفكر الرومنسي الألماني الشغف بالخيال فأدرك أنّ بين الشعر والعلم أكثر من وشيجة، لقد أدرك أن كليهما قائم على الحدس تجاه الإبداع الإنساني، وأنّ كليهما يسعى إلى أن يعطي معنى للكون من خلال الخيال والحلم الفردي، فالعالم في فكر باشلار هو الشيء الذي نحلم به، وهو الاندهاش المستمر إزاء العناصر الطبيعية الكبرى كالنار والماء والهواء، تلك العناصر المتقلبة والباعثة على الخوف والأمل والرغبة والرغبة . وإنّ المتأمل في تاريخ العلوم الإنسانية في العصر الحديث يلحظ أن قاستون باشلار كان من أهمّ المفكرين الذي أقاموا فكرهم كلّ على النظرة البينية للعلوم والآداب: فقد ذهب عامة المؤرخين إلى أنّ باشلار هو الذي وضع أسس التداخل بين النقد الموضوعاتي والظاهرية، وكان كتابه لوتريمون (Lauthréamont) لبنة أولى في دراسة ظاهرية الصورة، فقد اهتم بالطاقة العدوانية التي تتضمنها الصورة الشعرية في أناشيد الشاعر الفرنسي إيزودور دي كاس (I. Ducasse)، وهذه الطاقة تتجسّد في مشاهد الصيد والقنص. ولا يخفى على القارئ أنّ هذا التحليل هو جوهر التفاعل بين دراسة الموضوع والمنهج الظاهراتي.

وفي مجال التحليل العلمي للصعوبات المعرفية التي تعترض المتعلمين أدرك باشلار بحسّ بيني مرهف أنّ الصعوبة تكمن في الصدام المعرفي الذي يحصل بين الممارسات الاجتماعية أو المعارف المكتسبة خارج العلم والمعارف العلمية الدقيقة. ويرى باشلار أنّ التلميذ يختلف إلى المدرسة وهو يحمل معارف اختبارية مسبقة، معارف اكتسبها بالتجربة الاجتماعية وبالمحاكاة، وهذه المعارف هي التي تعطل عملية الاكتساب وتقاومه لأنها تشغل الحيز الذهني الذي ينبغي أن تشغله المعارف الصحيحة . فالتربية بمفهومها البنائي إذن عمل بيني تفاعلي يقتضي أولا إفراغ الذاكرة من المعارف السلبية أو الخاطئة، ثم مساعدة المتعلم في مرحلة ثانية على بناء المعرفة الحقيقية. فمن المعارف الخاطئة التي يقبل بها المتعلم على مادة الفيزياء مثلا وهو يدرس التيار الكهربائي أنّ هذا التيار يتنقل في الأسلاك كما يتنقل الماء في الأنابيب، ولكنه يصطدم بالمعرفة العلمية التي مؤداها أنّ الكهرباء حقل مغناطيسي يتنقل بحركة تصادم

الكهارب. ومن الأمثلة كذلك على هذا التقاطع بين المعارف أنّ المتعلم يقبل في درس الجغرافيا المجالي، وهو يعتقد أنّ الفيضانات حدث طبيعي، ولكنه يصطدم بالمعلم وهو يعلمه أنّ الفيضانات حدث اجتماعي من صنع الإنسان في مجاله الحياتي !!! فينبغي للمعلم أن يتدرج بالمتعلم في اتجاه محور المعلومة غير الصحيحة وهي أنّ الفيضان لا يقع في المناطق غير الآهلة بالسكان وهو لا يسمّى فيضانا، وأنّ لمياه الأمطار مسالك طبيعية يتعدّى عليها الإنسان بالبناء في مجاري السيول والأودية والمنخفضات وهي طبيعيا أمكنة تجمع المياه، ولو أنّ الإنسان اتخذ أمكنة عالية للبناء لما حدث له فيضان.

ولم يكن فكر قاستون باشلار العلمي ببعيد عن فكر مارتن هيديجير وهو يعرف صلة العلم بالشعر في قوله: "إنّ كلّ شاعر عظيم يكتب قصيدة واحدة، ثم يتوسع فيها وينوع عليها ويأخذ منها<sup>353</sup>، فهذا المفكر المنحدر من بيئة أصول الفكر العلمي اهتمّ أولا بالعقل العلمي المنتج للمعرفة وقد عرفته الموسوعات العلمية بأنه يجمع بين فلسفة العلوم والشعر ، وهو مبتكر علم النفس المعرفي الموضوعي ومجدّد الدراسات المتصلة بالمخيال في سياق المساءلة عن العلاقة بين العلم والأدب أو بين المخيال والعقلانية، وهو أول من أثار إمكان التفكير في علاقة التشابه بين صلة النار بالكهرباء من جهة وصلتها بالشعر أي الاستعارات المتصلة بصور النار من جهة ثانية، وهو يرى أنّ أحلام العلماء قبل اختراعهم لما يبتكرون إنما هي أحلام شعرية. ويتغذّى الفكر البيني عند باشلار من أفكاره العامة حول الإدراك، فالنظرة بالنسبة إليه مبدأ كوني، وهي لا تتحقق إلا بابتكار وعي جديد بالعالم من خلال الذات (مدخل إلى مناهج النقد الأدبي ص102).

## 5- إدقار موران وترسيخ الثقافة الثالثة:

كنا تحدثنا في معرض تحليل الوشائج التاريخية بين العلم والأدب عن الدور الذي اضطلع به المفكر الفرنسي إدقار موران في تجديد الفكر العلمي البيني، وقد فضلنا أن نخصّه بهذه الفقرة من هذا الفصل لأنّه من المفكرين القلائل الذي ظلّوا أوفياء لهذا النهج الإبيستيمولوجي، فقد تأثر موران

---

<sup>353</sup> نقلا عن فهم الفهم مدخل إلى الهرمينوطيقا، العادل مصطفى منشورات، دار رؤية للنشر والتوزيع القاهرة 2007 ص239.

بالفيلسوف الجمالي جوته (Geuthe) ويعلم القارئ الكريم أنّ انفتاح فكر جوته وتذوّقه للآداب العالمية وما تحمله من قيم كونية قد دفعه إلى الاهتمام بالأدب العربي وإلى ترجمة نماذج من الشعر الجاهلي ومن شعر أبي الطيّب المتنبي.

وكان أوّل مؤلف وضعه إدقار موران يعالج موضوع الموت، ثم انصرف إلى التأليف في الرياضة والسينما والتاريخ وعلم الاجتماع وفلسفة العلوم. لقد عرف إدقار موران بأنّه رائد الدعوة إلى التعالي التخصصي ( Transdisciplinarity /Transdisciplinarité ) وأنّه يرى أنّ المعرفة المعقدة متعدّدة الوجوه والمستويات هي وحدها القادرة على حلّ الإشكاليات المعقدة، ويرى من جهة أخرى أنّ العلم لا يستحقّ أن تسند إليه هذه الصفة ما لم يكن بينيا ، يرى كذلك أنّ التخصص الدقيق المنغلق على نفسه يدمّر المعرفة العلمية ويفسدها ولا يمكن لأية معرفة أن تكون مفيدة ما لم توضع في سياقها الثقافي والاجتماعي. وكثيرا ما كان موران يستشهد بقول باسكال : " لا يمكن أن أعرف الجزء دون أن أعرف الكل"، وكان ينتقد العقل التقني الذي يسعى في كلّ تخصص من التخصصات إلى حلّ المشاكل الجزئية وينسى أنها تندرج في مشاكل أكبر وأنّ المشاكل الحقيقية في أيّ تخصص من التخصصات ليست جزئية بل هي مشاكل عابرة للتخصصات، وهي مشاكل كونية. وقد أثر إدقار موران استعمال مصطلح التعالي البيئي على التداخل بين التخصصات لأنّه يرى أنّ تاريخ العلم ليس تاريخ التخصصات فقط بل هو أساسا تاريخ التنازع بينها وهو تاريخ التفاعل الذي يحصل بين موضوعاتها، وما يولّده تمازجها من حقول جديدة . وهو تاريخ الرحيل المعرفي للمفاهيم من حقل إلى سواه ،وهو عين ما أشار إليه ماكس فيبير من مطالع القرن العشرين (فيبير:موهبة العالم 1969) حين ذهب إلى أنّ القضايا المنهجية والمعرفية التي تعترض رجال الاقتصاد وهو منهم هي المشاكل نفسها التي تعترض علماء الاجتماع لكنه لم يستغلّه الاستغلال الأمثل كما فعل إدقار موران. ويرى موران من جهة أخرى أنّ للعلم تاريخين اثنين: تاريخا رسميا هو تاريخه الذاتي المنغلق وتاريخا خفيا هو تاريخ علاقاته بسائر العلوم. وقد اقترح هذا الباحث على واضعي المناهج التعليمية إنشاء مقرّرات وبرامج بينية تهتمّ مثلا بالأسرة أو بنوعية الحياة وبظروفها حيث تتقاطع علوم الاجتماع والاقتصاد والبيئة وعلم النفس وعلوم التربية. إنّ مهمّة التعليم الأولى عند إدقار موران هي إكساب الطالب القدرة على الربط بين الأشياء، وعلى فهم المنظومات في كليّاتها وعلى طرح الإشكاليات المتصلة بالحياة ، وعلى إبراز سمة التعقّد والتركيب التي يتّسم بها الإنسان مع نفسه ومع محيطه. وهو تعليم ينبغي أن يساعد المتعلّم على بناء ذات قادرة على

مواجهة الكم الهائل من المعلومات التي توفّرها طرق التواصل الحديثة وعلى معالجتها واختيار ما يناسب كفاياتها منها، وما يساعدها على معرفة العالم الذي تعيش فيه وفهم نواميسه وحركته وأسرار ما يحدث فيه من تحولات اجتماعية وثقافية واقتصادية وغيرها. وهو تعليم يساعدهم على استغلال كفاياتهم على أحسن وجه، ويدربهم على السلوك الاجتماعي وعلى تجديد التكوين بأسلوب مرّن كلما رأوا أنفسهم بحاجة إليه أو وجدوا فرصة مناسبة لإعادة التأقلم مع الوسط المهني والاجتماعي.

## 6- بول ريكور وفلسفة الفكر البيني:

لنا في سير كبار المفكرين في العصر الحديث العلمية أمثلة عديدة تبرهن عن أثر التفكير البيني في مساراتهم الفكرية، وتدلّ على عمق التجربة في الكتابة والتأمل، ونذكر منهم المفكر الفرنسي بول ريكور ذلك المفكر التأويلي الذي خرج من الفكر التاريخي إلى الفكر الأدبي وإلى لسانيات الخطاب فالتأويلية، والذي حاول مدّ جسور التواصل بين أجنحة الفلسفة التحليلية. وقد ذهب جورج زيناتي في تقديمه لكتابه الذاكرة- التاريخ - النسيان إلى: "أنّه اعتقد دوماً أنّ الفلسفة لا تستطيع أن تتوقع على ذاتها ولا تسمع النداء الذي يأتيها من العلوم الأخرى وخصوصاً العلوم الإنسانية لأنّ الفلسفة اقترنت دوماً بمسيرة العلم وربطت مصيره بمصير كلّ العلوم، لأنها لو انكشفت على ذاتها لجفّت وببست وتلاشت. وقد طبق هذا المبدأ فدخل عالم اللسانيات مع كتابه الاستعارة الحيّة ودخل ميدان التحليل النفسي حين كرس كتاباً خاصاً بمؤسّس هذا العلم فرويد دعاه في التأويل"<sup>354</sup>. لم يكن رأي ريكور في صلة الفلسفة بالعلوم فكراً جديداً بل هو رأي عامة المفكرين الكبار منذ قديم العصور والدهور، فقد رأوا أن تاريخ الأفكار لا يمكن أن ينتج من المعرفة المفيدة للإنسان في مختلف العلوم والصناعات ما لم تدفعها روح التساؤل ولم تخطّ مسالكها المستقبلية طرح الإشكاليات وبسط القضايا المتصلة بتلك المعارف. لقد كانت أعمال ريكور في جملتها ذات قيمة ببنية عالية سواء منها ما جاء لمكافحة وجهات النظر المختلفة في مجال معرفي واحد أو ما جاء مقرباً بين هذه الوجهات. فمن الاهتمامات البينية في فكر بول ريكور دراسته المقارنة بين فيتغنشتاين (Wittgenstein) وإيدمون هيسرل، وهي مقارنة تجرى في جوهر التفاعل بين أجنحة الفلسفة التحليلية، وقد قارن ريكور مفهوم اللغة عند هيسرل منذ كتاباته الأولى "دراسات منطقية"، وخاصة مجال المنطق الشكلي أو الصوري والمنطق الفوقي وتداولية اللغة في

<sup>354</sup> الذاكرة-التاريخ- النسيان منشورات دار الكتاب الجديد المتحدة بيروت لبنان 2009 ص14.



مراحل تفكير فيتغنشتاين المتأخرة، وخاصة في مؤلفه الأخير "تحقيقات فلسفية". ومن أهم مسالك البحث البيني عند ريكور كذلك ما نلاحظه في مؤلفاته التي خصصها لدراسة علاقة الفلسفة التحليلية بالظاهريّة وتناول فيها بالقراءة كتابات جان بول سارتر ومفهومه للتخييل، لقد أبرز بول ريكور في عامة كتابته القيمة البينية للغة بصفتها مجمع جهود التأويل في مختلف التيارات الفلسفية .

## الفصل الثاني

### مختارات من وجهات نظر بينية

يقول هيدجير: "إنَّ كلَّ شاعر عظيم يكتب قصيدة واحدة ثم يتوسَّع فيها ويتنوع عليها ويأخذ منها"، وما دام الفكر الأصيل شعريا بالضرورة فإنَّ كلَّ مفكر عظيم يصدع بفكرة واحدة ثم يبقى طيلة عمره يستقصيها دون أن يستفدها".

يبدو في رأي الأنثروبولوجي فيكتور تيرنر أنَّ اتخاذ موقف هرمسي والنظر من المنطقة الحدودية هو ما يتيح لكبار الفنانين والكتاب ونقاد المجتمع رؤية تتجاوز الأشكال الاجتماعية وتسمح لهم أن يشهدوا المجتمع من خارج وأن يبلغوه رسالة مما وراءه. هذا الموقف الحدي أو الحالة البينية أو هذا المقام في الصدع ما بين العوالم على حدِّ تعبير كارلوس كاستنيدا هو مصدر لكلِّ من الإبداع والنقد، نقد الصور السائدة من الفكر والوجود، وتعبير آخر يمكننا القول بأنَّ هذه القدرة على الانفصال عن الوسط الاجتماعي للحكم عليه أو الانسلاخ عن الثقافة المحيطة لرؤيتها وجعلها موضوعا للنقد والتقويم هي قدرة لا يتحلَّى بها إلاَّ القلة من المبدعين والمصلحين، فالخروج من أقطار العالم الثقافي الذي نشأ المرء في كنفه وانغمس في قلبه هو رحلة شاقة وسفر طويل ومهمة هرمسية صميمة (...) من طبيعة هرمس كما قلنا أنه لا ينتمي إلى موضع بعينه، وليس له محلَّ إقامة دائم، فهو دائما في الطريق بين هنا وهناك، وعندما يكون المرء في الطريق فهو عرضة لتقلبات الحظ، وحين يعثر المسافر أوالتاجر على ثروة مباغته غير مرتقبة ستكون تلك هبة من هرمس.

#### د عادل مصطفى

فهم الفهم مدخل إلى الهرمنيوطيقا

نظرية التأويل من أفلاطون إلى جادامار

## تقاطع المعارف ونظرية المعرفة

العلم المعاصر يسمح بالتقارب غير المرتقب بين العلوم، ويتسامح في التعايش بين مجموعات العلوم الكثيرة والمتنوعة، ويقبل إعادة التنظيم والتنسيق المستمر بين فروعها المختلفة، وباختصار فإن مرونة العلم المعاصر تتعارض مع صلة الاتجاه الوضعي، وفي ما يختص بالروح العلمية وما تتطلبه من قدرات متنوعة عند مختلف المتخصصين في الرياضة والبيولوجيا والتاريخ إلخ... فإنها تظل هي نفسها في خصائصها الأساسية وأهمها مبدأ التحقق وصفة الموضوعية، هاتين الخاصيتين اللتين تحدّدان المعرفة العلمية وتفصلانها عما عداها من صور المعرفة الأخرى القريبة منها. وإذا كانت وحدة العلم قد غدت واقعا معترفا به على مستوى الممارسة اليومية للعلم فإنها أصبحت تشغل اليوم كذلك مكانا هاما في الفلسفة التجريبية المنطقية حيث اصطبغت بصبغة فلسفية متميزة، ولم يعد هناك أي تضارب إلا في الظاهر فقط بين وحدة العلم والدعوة القائلة بتلك الثنائية الراديكالية بين العلوم الصورية (المنطق والرياضة مجتمعين) وعلوم الواقع على أساس أنّ العلوم الصورية عبارة عن أداة علمية وليست علوما بالمعنى الخالص للكلمة، لأنها لا تخبرنا بشيء عن العالم الخارجي، ومعنى هذا أنّ وحدة العلم لا تطرح إلا بالنسبة لعلوم الواقع، والتصوير الحالي لوحدة العلم يختلف عن تصور ديكرت له، أما اليوم فإن وحدة المعرفة تعالج على المستوى اللغوي ويرفض البعض الاعتراف بالخصوصية النوعية للمفاهيم الأساسية للعلوم المختلفة ويصرّون على التعبير عنها في ألفاظ وحدود مستقاة من اللغة الطبيعية.

روبرت بلانشيه

نظرية المعرفة العلمية

الشعر والوسائط المتعددة

يمكن للتجربة الشعرية العربية أن تتطور إذا ما تكاملت أبعادها ولم يتمّ فيها تغييب الأبعاد الأخرى من جهة، وعملت من جهة أخرى على الاستفادة مما تقدّمه لها الوسائط المتفاعلة من إمكانات صورية وبصرية وصوتية . إنّ هذه الوسائط إذا ما أحسن استثمارها على أحسن وجه يمكن أن تعطي إمكانات ثرة للإبداع والإنتاج . وقد يتساءل متسائل ما جدوى الحاسوب والفضاء الشبكي في تطوير هذه التجربة؟ جوابا على هذا التساؤل أقول : إنّ الوسائط المتفاعلة تختزل كل الحقب الشعرية التي قطعها الشعر من اللحظة الشفاهية إلى الكتابية، وما صاحب كلّ مرحلة من إمكانيات: ففي الوسائط المتفاعلة يمكننا المزوجة بين الشفاهي (الإنشاد) والكتابي (التشكيل البصري) وكلّ ما يتصل بهما من إمكانيات موسيقية وصوتية وصورية. كما أنّ التعامل مع الفضاء الشبكي يساعد على التلقّي بغضّ النظر عن مكان الشاعر، وبذلك يمكن التعرف على التجارب في حينها . لقد مرّ الشعر العربي بأطوار كثيرة ولعلّ في انتقاله إلى الطور الإلكتروني ما يساعد الشاعر على اقتحام فضاءات جديدة للإبداع والتواصل ، هذا طبعا إذا كان يقوم على الإبداع في تكامله وتفاعله، وعلى فهم دقيق للإبداع، وتبقى كلمة أخيرة في هذا الاتجاه تتصل بالنقد الشعري، فهو بدوره مضطرّ لتدقيق أدواته وتحديد تصوراتهِ الجديدة للشعر لأنّ ما سيفرضه عليه النصّ الإلكتروني الشعري من أسئلة أكثر تعقيدا من تلك التي واجهها نقادنا القدامى مع الشعر في مرحلته الشفوية والكتابية، وأكثر تعقيدا من القضايا والظواهر التي انهمك فيها نقادنا في العصر الحديث.

سعيد يقطين

من النص إلى النص المترابط

## الأدب والتاريخ

أعمال الأدب واللغة الفنية دائما ما تنتمي إلى هذا الشعب أو ذاك الذي أنشئت بلغته، وإلى مرحلة معينة في تاريخ هذا الشعب. لا يستطيع علم الأدب ألا يضع في الحسبان العلاقة الوطيدة القائمة بين تطور الأدب واللغة الفنية والحياة التاريخية لهذه الشعوب، والأكثر من ذلك أنه يضع فهمه هذه العلاقات في أساس دراسته وتبعاً لذلك يبدو علم الأدب نفسه علماً اجتماعياً تاريخياً قائماً في عداد العلوم التاريخية التي تدرس من جوانب الحياة التاريخية لمختلف شعوب العالم. تعكس أعمال الأدب واللغة الفنية على الدوام في داخلها تلك المرحلة التاريخية من الحياة القومية التي كتبت فيها (...) فهم الروابط القائمة بين المؤلفات الأدبية الفنية وحياة الشعوب يسمح لعلم الأدب بأن يحلّ مسأله الأساسية مسألة تفسير الخصائص الجوهرية والتطور التاريخي للمؤلفات الأدبية الفنية. تفسير الظاهرة يعني العثور على أسبابها وتحديد لماذا تظهر أمثال هذه الظواهر وما الذي يستدعي وجودها ويشترط قيامها وفيه يكمن جوهرها ومدلولها ؟.

المدخل إلى علم الأدب

مجموعة من الكتاب الروس

تعريب أحمد علي الهمذاني

## الشعر والنقد النفسي

إنّ الذين يعتقدون أنّ الدراسات الأدبية لعملية الإبداع من الجانب النفسي هي وليدة القرن العشرين على يد رائدها الطبيب النفسي فرويد إنما هو اعتقاد يحتاج إلى تمعن أكثر بإعادة النظر في كثير من الأحكام ، ونحن لا ننكر استخدام المصطلحات الجديدة في هذا الشأن والتي دخلت أدبنا من ضمن التأثيرات الغربية وما تميّزت به جهود الباحثين في النقد الأدبي لإبراز مواطن القدرة الإبداعية وما يكتنف شخصية المبدع من حقائق نفسية ضمن معالمه الشعورية من خلال إنتاجه الإبداعي . أما أصل الدراسات الأدبية وعلاقتها بالنفس فهي قديمة في الآداب الإنسانية على وجه العموم، وليس معنى ذلك أنّ معالم هذه الدراسة كانت تحمل النظريات الحديثة نفسها وإنما كلّ ما في الأمر أنها جاءت بأفلاذ نقدية نابعة من تأثير النفس في علم الأدب إلى أن تقدّمت هذه الظاهرة لاحقاً على يد عبد القاهر الجرجاني الذي حاول من خلال ملاحظاته النفسية أن يعطي وجهاً آخر للدراسات النقدية بتوضيحه معنى الدلالة النفسية لكنها لم تلق صدًى إيجابياً في نقدنا العربي تباعاً إلاّ بعد أن دخلتنا نظرياته عن طريق التأثيرات الغربية... والواقع أنّ دراسات علم النفس الحديثة استكشفت لنا حقائق هامة في هذا المضمار أهمّها إحساس الإنسان بإظهار وجهه الحقيقي المكبوت استجابة لمثير خارجي فيتميّز المرء نتيجة هذا الهيجان بتهيؤ فعال للكشف عن مكبوتاته غير الواعية .

عبد القادر فيدوح

الاتجاه النفسي في نقد الشعر العربي

## المعارف الحضارية وتقاطع العلوم الإنسانية

يجد تأملنا في مفهوم الحضارة مبرراً في التداخل الظاهري بين هذه المادة ومواد أخرى كالتاريخ والفلسفة وعلم الاجتماع والأنثروبولوجيا والأدب، وقد يجد أهل هذه الفنون من يتبرّم من عمل المشتغل بالحضارة إذ فيه مواطن يراها من مملكته ويستتشف من تحوّلها إلى غيره، ولا نريد أن نفتعل عراكاً بين حقول من العلوم الإنسانية متكاملة بقدر ما نسعى إلى استتفار الخصائص الممكنة في مادة الحضارة انطلاقاً من عمل جوهري هو شرح النص، ونقبل مصادرة أنّ التاريخ والحضارة خصوصاً قسيما تحت البحث في التراث وفي المعاصرة، وأنهما يعودان إلى اتجاهات مختلفة وإلى مدارس متباينة وإلى مناهج متناقضة. آثرنا أن نرغب عن استقصاء معاني الحضارة وفروعها لنبقى عند مفهوم مزدوج هو الاتجاه الذي يمسّ مظهر الحياة الاجتماعية في بناها المتكاملة. ولا شكّ في أنّ الحضارة تفتح على حقول معرفية أخرى كالأنثروبولوجيا والإثنولوجيا وعلم الاجتماع وعلم اجتماع المعرفة والفلسفة فضلاً عن التاريخ كما أسلفنا. إلّا أنّ ما ينبغي أن يميّز الحضارة عن هذه المعارف لما بينها من قواسم مشتركة صفة الجمع فهي كلّ النصوص المكتوبة لأنها ذات صلة مباشرة بالواقع، وهي متميّزة تنطق عن الإبداع في مستوى الحياة الاجتماعية والفكرية لذلك تتمتع بنصيب من الجمال لا يضاهي جمال الأدب ولكنّه يتوقّر فيها بالضرورة حتى لا يكون الكلام إسفافاً أو عادياً. فإذا كان المؤرّخ يستقصي الأحداث ويحصر همّه في الإطار الحدّثي لأنّ نظريته تبقى ضمن تطور الكون داخل الزمن وذلك رغم اختلاف المناهج والمدارس، فإنّ المشتغل بالحضارة يسعى إلى الإبداع الإنساني في قطاعات نلخصها في الفكر والمجتمع والتحوّل.

كمال عمران

في التعامل مع النص الحضاري



## مفهوم التحقق فلسفة وشعرا

والحقّ أنّ الحركة الفلسفية ما فتئت منذ أفلاطون وعبر ما مرّت به من مراحل حتى العصر الحديث تتراوح مدّا وجزرا بين التّصلّ من البعد التخيلي في أبحاثها الاستكشافية وتبني التخيل فيها. فإذا كانت الأفلاطونية منهجا مقصيا للخيال وقد ورّث هذا المسلك الديكارتية بعد عدّة قرون فإنّ الأرسطية على خلاف الأفلاطونية ورّثت هي الأخرى الكانطية مبدأ اعتماد الخيال واستيعابه ضمن نشاط الفكر الفلسفي فاستقامت بذلك مدرستان متوازيتان منشأ وتوصلا. ولكن مهما يحاول الفلاسفة استبعاد الخيال فإنّه واقع في أبحاثهم لأنّه واقع فيهم ولأنّ هذه الأبحاث صادرة عن موقف تعاملي مع الوجود سمته الانطباع والانفعال والإغراق في الذاتية. ولعلّ الدليل على هذا التلازم الجدلي أنّ ظاهرة قول الشعر من قبل الفلاسفة أو الكتابة حوله كما نيتشه أو هيديجر أمر بارز للعيان يصعب التغافل عنه، ويقتضي إيجاد تبرير له. إنّ هذا الاقتران الحتمي يفرض على الدارس طرح سؤال معرفي على درجة كبيرة من الأهمية وهو الآتي : هل الشعر وما يستتبعه من صور تخيلية هو فجر العقل أو طفولته لنستعمل عبارة هيجل ؟ أم هو وجهه الآخر الذي لا ينكشف من دونه ؟ وبعبارة أخرى أمن الحتمي أن يكون الفيلسوف شاعرا يتحسّس مسالك الحقيقة ففيلسوبا أم هل الفيلسوف هو شاعر بالضرورة في آن ؟ الحقّ أنّ الرأي الثاني عندنا أقرب إلى الصواب بحكم أنّ الفلسفة العقلية الصرف كما تقدّم وهم لا وجود له وأنّ الفلسفة تخيلية أو لا تكون. ويحلو لبعض النقاد أن يقارب بين الممارسة الفلسفية ومثيلتها الشعرية والفنية عموما ، ذلك أنّ هذه لا تكتسب معنى إلّا من خلال تحققها، أما خارج إطار التحقق فلا يصدر عن الفنّان أيّ موقف، وكذا الفلسفة فإنّ إنتاجها المعرفي يتمّ بواسطة الأسلوب، وكل محاولة للفصل بين العمل الفلسفي والأسلوب تضعه في العدم ، علما أن الأسلوب هو نفسه ضرب من المعاشية وتقمص التجارب .

محمد بن عياد

الشعر والفلسفة

## النحو الوظيفي الخطابي وبناء نموذج حاسوبي

إن استعمال الحاسوب في درس اللغوي لم يسهل عمليات الإحصاء والترتيب والتخزين والاسترجاع والتكثيف وغيرها مما فعلت الآلة فعلها الحاسم فيه، وإنما ساعد على تغيير المفاهيم واستقراء حقائق جديدة في عالم اللغة بل كان له تأثير في الكيفية التي ننظر بها إلى الأشياء والمناهج التي ينطلق منها لتقرير القواعد وسنّ القوانين اللغوية (هادي نهر - دراسات في اللسانيات ثمار التجربة). وهذا ما أدى إلى أنّ البحوث والدراسات في ميدان المعالجة الآلية يمكن تقسيمها إلى قسمين اثنين: نوع يتعلّق بوضع برامج لمعالجة النصوص من غير الاهتمام بتركيبها اللغوية أو معانيها، وتستعمل هذه البرامج في وضع الفهارس والتكثيف والتصنيف والترتيب والإحصاء وغير ذلك، ونوع يتعلّق بتصميم برامج ذكية تفهم النصوص والجمل، وتجعل تفاهم الحاسوب مع اللغة مماثلاً لتفاعل الإنسان معها فتسهل عندئذ عمليات الاتصال بقواعد المعلومات والاستفسار عن بعد بواسطة اللغة الطبيعية، ويمكن أيضاً تكليف الحاسوب بمهام معقّدة كالترجمة وإصلاح الأخطاء اللغوية والتدريس (هادي نمر ص 58).

إن وصف الأنظمة اللغوية آلياً وبناء أنساق حاسوبية قادرة على استعمال اللغات الطبيعية ومعالجتها مسلك لفهم الطريقة التي تعمل بها الأنساق البشرية، كما قد يسهم في فهم البنية الداخلية للغة، وهي بنية بالغة التعقيد تحتاج إلى استحضار معطيات كثيرة سبق أن أشرنا إليها في كيفية اشتغال نظام القوالب في النحو الوظيفي الخطابي. وبما أنّه يفترض في النماذج النحوية المعاصرة أن تمثل قدرات مستعمل اللغة الطبيعية فإنّ أحد أهمّ المعايير المعتمدة في قياس درجة نجاحها يكمن في ما تقدّمه من إمكانيات تساهم في إقامة نموذج حاسوبي يحاكي مستعمل اللغة الطبيعية، وهذا النموذج الذي يفترض فيه حسب "ديك" (Dick 1989) أن يتوقّر على عدد من القوالب الرئيسة والقوالب الفرعية في إطار تفاعلي إذ إنّ

كلّ تغير محليّ يمسّ أحد القوالب يؤثر في بقية القوالب الأخرى، فكيف يمكن للنحو الوظيفي الخطابي بناء نموذج حاسوبي يحاكي مستعمل اللغات الطبيعية ؟ وما هي الأسس التي ينبغي أن يرتكز عليها وطبيعة العلاقة بينهما؟.

محمد السهلول

اللسانيات وإعادة البناء

وقائع الندوة العلمية الدولية الثالثة لللسانيات

## اللسانيات وتمازج التخصصات

أما على الصعيد الأصولي في فلسفة العلوم ونظرية المعارف فقد كان لللسانيات فضل تأسيس جملة من القواعد النظرية والتطبيقية أصبحت الآن من فرضيات البحث ومسلمات الاستدلال حتى عدّت مصادرات عامة ، وأبرز هذه القواعد- فضلا عن النزعة العلمية المتخفية لحواجز النسبية والمعيارية بغية إدراك الموضوعية عبر الصرامة العقلانية- اثنتان هما قاعدة تمازج الاختصاص، وقاعدة التقرّد والشمول: فأما تمازج الاختصاص فإنّه يعدّ أسّا من أسس البحث الحديث. وقد سنّت اللسانيات شرعيّته لما تتبعت الظاهرة اللغوية حيثما كانت حتى ولجت حقولا مغايرة لها، وكان من ثمار هذه الممارسة المستحدثة بروز علوم هي بالضرورة نقطة تقاطع علمين على الأقلّ فسُمّيت معارف متمازجة الاختصاص، ومن بينها علم النفس اللغوي والنقد اللساني والأسلوبية . وأما مبدأ التقرّد والشمول فإنّه ثمرة من ثمار اللسانيات، وصورة ذلك أنّ المنهج اللساني ينصهر فيه التحليل والتأليف فيغدو تفاعلا قارّا بين تفكيك الظاهرة إلى مركّباتها، والبحث عمّا يجمع الأجزاء من روابط مؤلّفة (...) فبعد البحث عن

خصائص الخطاب الإخباري والشعري الأدبي تعتمد اللسانيات إلى دراسة نواميس الخطاب العلمي والقضائي والإشعاري والأيدولوجي. بهذا الذي أسلفنا بسطه أضحت اللسانيات قطب الرحى في التفكير الإنساني الحديث من حيث بلورة المناهج والممارسات".

عبد السلام المسدي

التفكير اللساني في الحضارة العربية

## العلم والحكمة

واليكم بادئ ذي بدء أولى الخواطر، وهي ليست إلّا سؤالاً يمكن أن نطرحه أسوة بإدقار موران في أثره الموسوم بـ"العلم مع الوعي" صحيح كما يقول المؤلف أنّ عودة الذات العالمية على نفسها بالتفكير أمر محال علمياً، ذلك أنّ المنهج العلمي قائم على الفصل بين الذات والموضوع، وأنّ الذات إنما تردّ إلى الفلسفة والأخلاق؟ ولئن كان بوسع أهل العلم دوماً أن يفكّروا في ما يشغلهم من علم فإنّ ذلك التفكير تفكير مجالته خارج حدود العلم أو وراء تلك الحدود، وليس له ما للعلم من فضائل التنبّث؟ أيقنني الأمر حقاً أن نخشى هذا الفصل أو أن نسلّم بأنّ ذلك قد قدّر على أهل العلم تقديراً حتّى غدا اجتماع العلم والفلسفة وتحصيلهما في الصدر معاً أمراً عسيراً بل مستحيلاً... وإن كان اجتماعهما قد ساد طيلة قرون عند الإغريق القدماء أو عندنا نحن كما كانت الحال مع جلة أعلام الحكمة العربية الإسلامية أمثال ابن سينا وابن رشد والبيروني، وقد كانوا أطباء وعلماء وفلاسفة وشعراء في الآن ذاته؟...

محمود المسعدي

مجلة المدار عدد 4

## الأيدولوجيا والتقنية

نشأت الثقافة الحديثة بنشأة التقنيات، وبيّنت هذه الثقافة الجديدة باكتشاف القارة الأميركية أنّ البحر الأبيض المتوسط ليس مركز الأرض، وأصبحت الحضارة الصناعية المثل الذي يحتذى، وأخذ مجتمع الخدمات يعوّض مجتمع الاقتصاد الزراعي والصناعي، وأمست التكنولوجيات الحديثة سيّدة زمام التطور في عامّة مناحي الحياة المادية والمعنوية.

والواقع أنّ عبارة تكنولوجيا ليست فرعاً متطوراً عن عبارة تقنية القديمة. إنّ عبارة تقنية (Teknikos) ذات الأصل اللاتيني تعني كلّ ما له صلة بالفنّ وبالصناعة وبالمهنة، وإذا استعملت العبارة نعنا فهي تعني كلّ عمل له صلة بمجال خاص من المجالات، ولعلّ هذه الدلالة تفسّر الدلالة الاستعارية في اللغة العربية إذ يعني الفنّ الفرع من الشجرة أو الغصن، وبهذه الدلالة فإنّ عبارة التقنية تتفصل انفصالاً تاماً عن العلم لتدلّ على تحكّم الإنسان في الأشياء من الناحية المادية، وتحويل الموادّ الأولى إلى مصنوعات، وبذلك نفسّر المقابلة اللغوية في الثقافات القديمة بين الصانع والعالم. وقد ارتبطت دلالة التكنولوجيا في المعاجم العامة بالحقل نفسه، فهي تعني مجموع التقنيات المستعملة في مجال مخصوص من مجالات العمل اليدوي، ولكنها اكتسبت دلالة جديدة وهي دراسة تلك الوسائل التقنية المستعملة في مجال من المجالات، ثم حصل للكلمة انزلاق دلالي فأصبحت التكنولوجيا تعني بالأساس الحقل المعرفي الذي يتمّ فيه تنظيم المعارف التقنية أو التطبيقية.

وقد أسلم هذا التطور في الوظيفة المعرفية إلى ظهور نوع من الأيدولوجيا الحديثة يمكن أن ننعتة بأيدولوجيا العصر التكنولوجي حيث أصبحت التكنولوجيا تعني الحقل المعرفي الذي يهتمّ بنشر الثقافة التقنية في الجسم الاجتماعي، فالمجتمع الذي يهيمن عليه الاقتصاد التكنولوجي والمعيش التكنولوجي بحاجة إلى خطاب نظري للتشريع لهذا السلوك الحضاري الجديد الذي ينتج فضاء ثقافياً جديداً، فالتكنولوجيا اليوم هي أسطورة العصر الحديثة وليست مجرد تطور للتقنية في دلالتها القديمة .

ومن وجوه هذه الأيديولوجيا ما تحققه وسائل الاتصال من تحويل في طبيعة الإنسان الاجتماعية بفضل التواصل الإلكتروني الذي يغيّر يوميا بنية التواصل اللساني ليقص من الاتصال المباشر ويكتف من الاتصال الافتراضي وقضاء الحاجات بواسطة التقنيات الاتصالية، ففرص التفاعل الحيّ تتراجع إزاء التواصل الافتراضي. ومن هذه الوجوه كذلك تغيير علاقة الإنسان بالزمن وتمكينه أكثر فأكثر من مراكمة الأعمال بواسطة التخزين الحاسوبي وما ينجّر عن ذلك من إعادة نظر في زمنية العمل وفي الإنتاجية الاقتصادية .

علي مزغني

المدار العدد 4 بتصرف

## الحقل السيميائي وتقاطع التخصصات

إن القارئ قد يكون لاحظ خاصية المزج بين مناهج مختلفة واضحة فيما سقناه أعلاه، وهي تتمثل في الطابع الموسوعي الذي تتمتع به نظرية إيكو نتيجة لاستلهامه تخصصات عدّة ، ويكفي للنتيبت من ذلك الرجوع إلى قائمة المصادر والمراجع التي يحيل عليها في كتبه ، ولا شك أنّ ذلك يرجع إلى طبيعة المنهجية السيميائية التي هي أساسا مزيج بين المناهج المختلفة.

وترتبط هذه الخاصية بتداخل العلوم الإنسانية فيما بينها وتشكيلها لما يسمّى بتعدّد التخصصات والتي تمثل الأنثروبولوجيا الأميركية حسب فيون أحد مصادرها الأساس. وقد سمحت فيما بعد مقاربات جديدة بتطوير هذه النزعة وتسويقها وجعلها ثابتا من ثوابتها، ويكفي أن نذكر هنا العلم المعرفي الذي هو مزيج من علوم مختلفة مثله في ذلك مثل علم الاجتماع المعرفي والتفاعلية الرمزية لغوفمان وإثنوميتودولوجية

غرفينكل. وإيكون نفسه يشير إلى هذا التعدّد في معرض حديثه عن استفادته من بطوفي وفان ديك وغريماس حيث يذهب إلى أنّ الأطر النظرية لهؤلاء السيميائيين مختلفة فيما بينها: فالإطار النظري لغريماس هو إطار من نمط لساني يهتم بالقيم الدلالية أكثر من اهتمامه بالسيرورة التداولية بينما فان ديك أكثر اعتناء بالقيم التداولية ولكنه رغم ذلك يأخذ أبحاث غريماس وكلّ التراث البنيوي بعين الاعتبار مثله في ذلك مثل بطوفي الذي يحاول هو الآخر التركيب بين الاتجاهين، لذلك فإن إيكون يؤكد أنّ هؤلاء الباحثين وغيرهم حتى وإن استعملوا مصطلحات متباينة فإنهم يتحدثون عن شيء واحد أي عن النص وعن الطريقة التي بواسطتها يتم تحيينه ورغم أن إيكون يرى أن موضوع الخطاب يختلف باختلاف الإطار النظري الذي يتم إدخاله فيه فإن ذلك لا يعدّ ذريعة كافية لكي تواجه كل نظرية النص بمفردها دون الاستعانة بالنظريات الأخرى ، بل المطلوب هو تشكيل نموذج موحد يأخذ كل المشاكل المختلفة بعين الاعتبار وهذا بالضبط هو ما حاول إيكون القيام به في أبحاثه المختلفة .

رشيد الإدريسي

سيمياء التأويل

## الفصل الثالث

### المفاهيم والمصطلحات



## مقدمة

جمعنا في هذه القائمة المختصرة عدّة أصناف من المفاهيم، وذكرنا في صدارتها المفاهيم الإجرائية التي يستعملها الدارسون في تحليل الخطاب الأدبي، وسمّيناها المفاهيم النقدية البينية لأن الخطاب النقدي يستعيرها من مجالات معرفية أخرى غير المجال الأدبي، ولم نذكر في هذه القائمة المفاهيم السردية الكثيرة التي استعارها السرديون من تحليل الخطاب لأنها تمثل أغلب هذه المفاهيم، ولأن الخطاب النقدي في مجال السرديات يتداخل بنسبة تفوق الستين بالمائة والخطاب العلمي في مجال النحو وعلم الدلالة والصوتيات، فمفهوم الإحالة والإضمار والعامل جميعها مفاهيم نحوية وسردية في آن. ثم استعرضنا في مرحلة ثانية المفاهيم التصنيفية لعلوم البينية، وعرفنا بكل علم مركّزين النظر على سمة البينية فيه.

## الإسقاط (Projection):

هو مفهوم نفسي استعاره النقد الأدبي النفسي من العلوم النفسية وخاصة من خطاب سيقمون فرويد. وهو حركة نفسية يتم بمقتضاها إلباس الغير ملمحا نفسيا أو صفة خلقية. ويرى فرويد أنّ الإسقاط حيلة من حيل اللاوعي أو اللاشعور يدافع بها الأنا (Le Moi) عن كيانه الشعوري ومنازعه العدوانية أو العنيفة ورغائبه بإسقاطها على الآخر، وذلك ليتجنّب تأنيب الضمير وليوهم شعوره بأنه تخلّص منها. وقد استعملها الدارسون لتفسير بعض الأغراض الشعرية مثل الهجاء عند الحطيئة أو ابن الرومي أو المتنبي. وقد طور سامي علي هذا المفهوم في كتابه "في الإسقاط" وربطه بالخيال وبمفهوم الداخل والخارج.

## الاكتساب البنائي (Apprentissage et constructivisme):

هو مجال معرفي تربوي ولید تطور علم النفس الإدراكي، وهو **حقل بيني** ينطلق من مبدأ مؤداه أنّ الإنسان يتعلّم وهو يغيّر علاقته بالعالم وباللغة التي تقطّع العالم بما فيه من موجودات وأشياء. ولا يمكن للاكتساب اللغوي أن يتم بشكل طبيعي ما لم يراع المعلم خصوصية المعلومة التي يرغب في أن يكتسبها المتعلم، وما يحدث في ذهن المتعلم أثناء تلقّيه تلك المعلومة. وهذه شعبة من التحليل كنّا اهتمنا بها في تعريفنا لخصائص البينية في تعلمية المواد. ويذهب بعض مؤرخي علم نفس الاكتساب ( Psychologie de l'apprentissage ) المتصل بالإنسان إلى أنه علم قد تميّز من علم النفس السلوكي الذي هيمن طوال خمس وسبعين سنة ليقترّب أكثر فأكثر من الاشتغال الإدراكي، وهو علم يضع في صدارة اهتمامه دور المفاهيم والأبنية المفاهيمية في بناء المعرفة عند الإنسان. وقد كان لجان بياجيه بعيد الأثر في التأسيس لهذا الحقل التربوي اللساني. وقد ذهب إلى أنّ الاكتساب هو بناء ذاتي للمعرفة يمرّ عبر التمثّل (Assimilation) والتكيف (Accommodation) وإدراج عناصر من العالم الخارجي في أبنية المتعلم الإدراكية. وبهذا الإدراج يعاد هيكل تلك الأبنية وأقلمتها مع المعطيات الجديدة، لتبرز المعارف الجديدة. وينبغي كي ينجح الاكتساب أن تكون المعارف القديمة جاهزة لاستقبال المعارف الجديدة، وتمكينها من الاندراج في فضائها.

### البراكسيماطيقا (Praxématique):

تتهض النظرية البراكسيماطية على أنقاض نظرية هلمسلاف المجردة أو المثالية، وهي فرع من فروع لسانيات التلفظ يذهب أصحابها إلى أنّ إنتاج الدلالة يتمّ بدوافع وحوافز تداولية عملية، وإلى أنّ تمثّلات الإنسان اللسانية ترجع جميعها إلى القيم العملية (Praxis). ومن الموضوعات التي تهتمّ بها البراكسيماطيقا حياة النص الاجتماعية : كيف ينتقل المعنى ؟ كيف يختلف الناس في تلقّيه وتأويله باختلاف السياقات ؟ ومن هذه الموضوعات كذلك تطور مفهوم النص بتطور السياق التواصلّي الذي يكتب فيه ، وهو ما خصّصت له مجلة كراسات البراكسيماطيقا الصادرة بجامعة مونتبلييه (Montpellier) عددها التاسع والثلاثين لسنة 1999.

### بين خطابات (Interdiscours):

يعرفها معجم تحليل الخطاب بكونها الخطاب الذي تخترقه خطابات أخرى، وله من الخطاب ما للتناص من النص (معجم ص 314) ويطلق مصطلح "بين الخطابات" كذلك على الوحدات الخطابية المنتمية إلى خطابات سابقة من الجنس نفسه، ويمكن لكلمة أن تستعار في أكثر من خطاب فتكون نقطة التقاطع الاستعاري بين الخطابات كقولنا : أعطني أذنك- كلّي آذان صاغية- للحيطان آذان- هو أذن قومه.

## **البيوايطيقا (Bio-Ethique):**

هو حقل معرفي يهتم بالقضايا التي تثيرها التخصصات العلمية من الناحية الأخلاقية، وما تستدعيه دراستها من مفاهيم تتصل بالجانب الأخلاقي في الموضوعات البيولوجية مثل زراعة الأعضاء وتعاطي المنشطات في الألعاب الرياضية، والتجميل، والتعديل الجيني للمزروعات .

## **التربية الفارقة (Education Différencielle) :**

كان لنظريات الخطاب أثر بعيد المدى في تطوير النظريات التربوية البنائية، فقد صاغ التعليميون مفهوم المتعلم وهو يختلف عن الطالب أو التلميذ على أسس مفاهيم التخاطب التي أنشأها علماء لسانيات التلفظ بداية من إميل بنفنيست. فالتلميذ أو الطالب هو ذات اجتماعية متعددة المكونات ،وهو تلميذ أو طالب في المحيط المدرسي وخارج المدرسة، في حين يعني المتعلم الذات المدرسية، فهو مصطلح تعليمي صرف. والذات المتعلمة مثل أي ذات أخرى تتمتع بخصوصية وبملاحم تميزها من غيرها من الذوات المنتمية إلى الفضاء نفسه. ففي الفصل الواحد يتكوّن المتعلمون من عدد مساو لعدد ذواتهم، ولا يمكن حسب التحليل الفارقي أن نعامل جميع المتعلمين كما لو أنهم ذات واحدة .صحيح أنّ بين المتعلمين المتساوين في السنّ وفي التكوين وفي المحيط الاجتماعي والنفسي والثقافي والحضاري قواسم مشتركة في هذه المكونات يهتم بها علم نفس المراهق أو علم نفس الطفل إلّا أنّ لكل ذات متعلمة كفاية وقدرة على الاستيعاب وتجربة اجتماعية خاصة وظروفا نفسية مميزة لها لذلك تأخذ التربية الفارقة بالاعتبار هذه التعددية في الفصل الواحد، فتوجّه إلى أن يكون التفاعل بين المتعلمين ومعلّمهم بأنساق مختلفة ، ووفق ما يقتضيه ذلك التعدّد في المخاطبين من تنوّع في الخطاب.

## **التعالّي البييني (Transdisciplinarité):**

يرفض التعالي البيني أن يسطر على العالم مفهوم التخصص ويأبى أن يكون إطارا معرفيا للبحث العلمي ، والتعدد البيني لا ينطلق في البحث من مجال معرفي نظري بل من قضايا الإنسان ومحيطه ، ويجعل التخصصات العلمية خادمة له .

## الثقافة الثالثة :

كنا لحظنا في حديثنا عن أعلام الفكر البيني أنّ تشارليز سنوي ينحو باللائمة على المدرسة الحديثة التي تضع حواجز صارمة بين العلوم التقنية والعلوم الإنسانية والتجارب الاجتماعية، وقد قدّم أطروحته الداعية إلى هذه الثقافة البينية في جامعة كامبريدج سنة 1959، ووسمها بعنوان لافت للانتباه وهو "الثقافتان والثورة العلمية" وبيّن أنّ علماء الإنسانيات من أدباء وفلاسفة ومؤرخين يفكرون وينظرون ويؤسسون النظريات العلمية بمعزل عن نظرائهم من علماء الكيمياء والفيزياء والجيولوجيا والفلك والرياضيات. ويستعمل هذا المصطلح في الثقافة التعليمية الحديثة، ويدعو أصحابه إلى تجديد المنظومة التربوية بتحويل المقررات التعليمية إلى كفايات ومهارات وأنشطة تمهينية، فقد كانت مدرسة القرن الماضي تنهض على عمودين أساسيين هما العلوم الصحيحة والعلوم الإنسانية، وتعدّ الخريجين للوظائف التقليدية التي ارتبطت بحاجات المجتمع الصناعي الثاني وهي الإدارة والتعليم والطب التقليدي (الطب العلاجي<sup>355</sup>) والقضاء والبريد والإدارة . وقد كان القطاع الثالث أي التجارة والخدمات قطاعا غير جالب للوظائف ، وبظهور الجيل الثالث من الحضارة الصناعية أي التكنولوجيا الحديثة من نهاية النصف الأول من القرن الماضي أخذت المدرسة تراجع مضامين التعليم ومناهجه ومخرجاته لتعطي مكانا للعلوم الاقتصادية وللتجارة الجديدة القائمة على التسويق والإشهار والمنافسة والبحث العلمي، فالتجارة الإلكترونية فالنقل العصري، فأعاد العالم بناء منظومة الوظائف والمهن وظهرت مهن المستقبل في التجارة والاتصالات والسياحة والتسويق والاقتصاد اللامادي أو الذكاء الصناعي ، والبيئة فيما يسمى بالثقافة الثالثة ومن أهم دعائها - بالإضافة إلى إدغار موران وشارل بيرس سنوي وقد تحدثنا عنهما في فصول سابقة- نذكر برنار لاكروا (B.Lacroix) وبرنار لاهير (B.L'ahire) ومحمد الشرقاوي.

<sup>355</sup> ينظر أسفله الطب البديل والاستباقي.

## الجغرافية (Géopoétique):

هي حقل معرفي بيني مستحدث في منظومة العلوم ما بعد الحداثة (Postmodernism) يهتم بالتفاعل الإبداعي بين المعلومات الجغرافية الطبيعية والإنسانية والأجناس الأدبية، فالجغرافيا العلمية سواء في المجال أو في الطبيعة تمدّ الأديب بالمفاهيم والمصطلحات والأبعاد المكانية والفضائية اللازمة لبناء الصورة الأدبية. فالمدينة في الرواية أو في القصيدة فضاء جغرافي لأنه كتابة شعرية لمجال جغرافي. ومن أهمّ الدراسات التي اهتمّت بهذا الحقل البيني نذكر شكل مدينة لجوليان جراك: (J.Graq: La Forme d'une ville; Paris José Corti; 1985) والأدب والجغرافيا لأنطوان سيباستيان (A.Sébastien: Littérature et Géographie; L'Oekoumène; 15 Janvier 2008; U.R.L). لقد أصبحت الجغرافيا مجالا إنشائيا بينيا ذا قيمة أدبية حين تحوّل الاهتمام بالفضاء عند الأدباء إلى بناء جديد للمجتمع من خلال المكان، وحين أصبح المخيال الروائي في أدب الرحلة والاكتشاف يصل الجغرافيا الطبيعية بنظرية النص ويتأويل الخطاب الجغرافي •

### الحقل العلمي :

كثيرة هي التعريفات التي اجتهد مؤرخو العلوم والمتخصصون في النظريات المعرفية في تقديمها لحصر مفهوم التخصص أو الحقل العلمي، وقد كان أرسطو في كتاب المقولات وضع الأسس المنهجية لتعريف العلم بصفته صنفا تنظيميا، واستند إليه المحدثون في تعريفاتهم . وقد زادت المدرسة الحديثة هذه الإشكالية تشعبا لأن ارتباطها بسوق التشغيل اقتضى من التعليم إعادة تنظيم الحقول المعرفية بحسب متطلبات سوق الشغل. وفي هذا السياق يعرف إدغار موران الحقل العلمي بأنه "صنف تنظيمي في صلب المعرفة العلمية، وهو يندرج في تاريخ المؤسسة التعليمية والعلمية في كلّ مجتمع من المجتمعات، ويمرّ بمرحلة النشأة والنمو والازدهار فالانحدار والتلاشي أو الذوبان في تخصص آخر"<sup>356</sup>. ونستخلص من هذا التعريف أن الحقل العلمي ليس ظاهرة طبيعية حتمية تفرض على الإنسان حدودها

<sup>356</sup> Sur L'Interdisciplinarité; Carrefour des sciences; Acte du colloque du comité national de la Recherche; Editions du CNRS 1990.

المعرفية بل هو جهد بشري في تنظيم المعرفة ، ويعني هذا أنّ الحقل العلمي يمكن أن تتغير حدوده بتغيّر التعريف وبتغير المادة وبتغير الوظيفة، ويمكن أن نستشهد في هذا المضمار بالعلوم الخفية التي كانت تكوّن في منظومة العلوم القديمة جزءا من العلم العلاجي الذي يعوّض علم الطب، وكانت حدود هذه العلوم تمتدّ لتشمل مناطق من الثقافة السحرية والخرافية والأسطورية عبر الخطاب الطوطمي المعروف عند الكهنة والسحرة وأصحاب الرؤى.

## الطبّ البديل:

ندرج هذا الحقل المعرفي في هذا المبحث لأنّ الطب البديل مسلك من مسالك التعامل مع الصحة الآدمية يقوم على فهم غير مادي للجسم ولما يعتوره من أدواء. وفي هذا الحقل المعرفي تقاطع مجالات معرفية واختبارية لا نجدها في الطب التقليدي . ففيه تتقاطع الموسيقى والعلاج بالإيقاع الذي يحاكي إيقاع الأعضاء الحيّة في الجسم وخاصة القلب، ويتفاعل فيه إيقاع الجسم مع إيقاع الكائنات الطبيعية المحيطة به كإيقاع تدفق مياه الأنهار ، وحفيف الأشجار ، وإيقاع المطر وغيرها مما يمتّصه الغلاف الخارجي للجسم ويحوّله إلى ذبذبات لها دور كبير في معالجة المشاكل العصبية والفيزيولوجية.

## الظاهرتية – علم الظواهر (Phaenomenologia):

يذهب هيجل إلى أن الظاهرتية هي علم الأفكار منذ تكوّنها في عالم الحسّ والمدرّكات الحسية إلى درجة بلوغها مراتب العقل الكوني..ويذهب جون فرانسوا لوتار (J.F.Lyotard) في تعريفه للظاهرتية إلى أنها العلم الذي يهتم بالتفكير في المعرفة وبمعرفة المعرفة<sup>357</sup> .

إنّ علم الظواهر مذهب فكري يهتم بدراسة الظواهر وبالتجربة المعيشة في الحياة اليومية. ويرجع أصل هذا المذهب إلى تفكير إيمانويل كانت فيما سمّاه بالجمالية المفارقة، ويعني بها علم تجربة الوعي، وهذه التجربة هي التي يمكن أن تتمثّل الأشياء في ذواتها.

وقد واصل إدموند هيسرل هذا التفكير فسعى إلى بناء نظام صارم لمكوّنات الوعي، وإلى بيان أنّ الوعي لا يكون إلّا من خلال الأشياء المعيشة، فبالنسبة إلى هيسرل تعدّ الظاهرتية منهجا لمقاربة الجواهر

---

<sup>357</sup> La Phénoménologie; P.U.F1964p4.

المطلقة والموضوعية المتصلة بالدلالات المثالية انطلاقاً من الأحداث الاختبارية، قصد القبض على جواهر الأشياء الملموسة. إنّ الهدف الذي تسعى الظاهرية إلى أن تحققه هو استخلاص الترابط والتناظر والتلازم بين نمط ظهور الأشياء المتصلة بالوعي والتجربة، والجانب الذاتي الذي تحمله هذه التجربة<sup>358</sup>. ومن المظاهر البينية التي يستفيد منها الإنسان في العصر الحديث التضايف الحاصل بين علم النفس التحليلي والظاهرية في دراسة الأمراض العصبية ووجوه الانحراف في التفكير والشعور وأعراض من قبيل انفصام الشخصية والعصاب والهذيان. وتعمل الظاهرية على قراءة التاريخ والثقافة قراءة مقصدية لتفهم معنى التاريخ ومعنى الثقافة .

### **العقل الباطن والأدب (Unconscious of literature):**

العقل الباطن مفهوم يبني من المفاهيم الأساس في التحليل النفسي. ويمكن تعريفه من خلال المقال العميق الذي كتبه نورماند هولاند (N. Holland). ويعدّ أصحاب هذا المفهوم النص الأدبي شكلاً من أشكال الفتازيا أو الحلم معبراً عن رغبة من رغائب الشاعر المكبوتة من مرحلة الطفولة وهذا الشاعر هو مريض نموذجي تتداعى في قصيدته لغة الرغبة والحلم.

### **علم اللغة الاجتماعي:**

يعرّف هــسون علم اللغة الاجتماعي بقوله "هو دراسة اللغة في علاقتها بالمجتمع ("علم اللغة الاجتماعي ترجمة محمود عياد عالم الكتب 1990 ص 17 ).

ويعني هذا التعريف أنّ موضوع هذا العلم هو اللغة وليس المجتمع فهو إذن علم بيني لساني. ودراسة اللغة في المجتمع تقضي بنا إلى فهم خصائص البنية اللغوية في كل مجموعة ذات حدود جغرافية وإثنية واجتماعية وثقافية متميّزة، وكيف تتغير الأعراف اللغوية بتغير الظواهر الاجتماعية، فاللغة بنية تاريخية تتأثر بالمكون الاجتماعي في معجمها ونظمها الاستعارية .

### **- علم النفس التحليلي (Analytical Psychology):**

<sup>358</sup> La présence maniérée; in Phenomenologie de l' experience

maniérée; L' Art de comprendre; Juin 2001 p74.

هو الاتجاه الجديد الذي عارض به كارل قوستاف يونغ آراء فرويد مميّزا اللاشعور الفردي الذي اهتم به فرويد من اللاشعور الجمعي الذي أهمله. وقد ذهب يونغ إلى أنّ اللاشعور الجمعي هو اللاشعور الذي ينغرس في أعماق النفس الإنسانية، وهو حاصل نفسي من التجارب والمعارف والصور والتمثّلات المشتركة بين جميع الناس. فالبشرية تشترك في الإحساس بالخوف تجاه القوى الطبيعية والكوارث والحيوانات المتوحشة والكائنات الغريبة فتصنع قصصا وأساطير ورموزا ومعتقدات يتقاسمها الجنس البشري ويخزنها في لاشعور جمعي. ومن هذه الجهة يتقاطع علم النفس التحليلي والأدب في أشكاله المعبّرة عن هذا اللاشعور الجمعي. فإحساس الإنسان بلحظة الولادة والموت والزواج والرحيل يتردّد عند الجميع ويمثّل استجابة جمعية لمثل هذه الأحداث. وقد استفاد الدرس الأدبي من النقد الأنموذجي في ما يسمّى بالأنماط الأصلية (Archetypal Criticism). ومن أبرز أعلامه نورثروب فراي، وقد ذكرناه في متن هذا الكتاب. ويمكن أن نستفيد من آراء كارل قوستاف يونغ حول الأحلام الجماعية وتيماتنا في دراسة نماذج من السرديات الاجتماعية المعبّرة عن أحلام الجماعة مثل الفرج بعد الشدة للقاضي التتوخي، فإنّ تواتر تيمة الحلم في أخباره يبرر اختيار هذا المنهج لتحليل هذا النوع من القصص الواقع بين السرديات العالمية والسرديات الشعبية .

## علم النفس الإدراكي (Psychologie- Cognitive-Psychology) :

ندرج هذا الحقل المعرفي ضمن المفاهيم البيئية لأنه محور تقاطع اللسانيات وعلم النفس والحاسوب وعلوم التربية وعلم الأعصاب (Neurosciences). وقد شرع المتخصّصون في هذه المجالات منذ الخمسينات من القرن الماضي في إعادة بناء تصور علم النفس، وتطوير حقله وموضوعه وأدواته الإجرائية. وقد ذهب جورج ميلار (G.Miller) إلى أنّ علم النفس التربوي ينبغي أن يهتمّ بمعالجة الرموز الذهنية وعمليات تحويل المعلومات إلى رموز، ويرى أنّ النظرية السلوكية تهتم بالمحيط ولا تميّز في المنبّهات وردود الأفعال في ذلك بين الإنسان والحيوان وتهمل العمليات الذهنية الداخلية لأنها تعدّ الذهن صندوقا أسود لا يمكن فتحه، وهي لا تتشغل إلّا بردود الأفعال الظاهرة فلا تفيد علم النفس التربوي بشيء. فعلم النفس الإدراكي حقل معرفي يهتم باشتغال الذاكرة وبطاققتها التخزينية، وعمليات تنظيم المعلومات، أو الوحدات المعلوماتية (Unités d' information) وبناء الأطرزة المعرفية وتحويلها إلى نماذج ومناويل نفسية وثقافية. إنّ الدماغ البشري ينظم المعلومات ويحوّلها إلى رموز



ويخزنها في أبنية . وهذه الأبنية الرمزية يصطلح على تسميتها بالتمثلات الذهنية ( Représentations Mentales)، فالنار في التواصل الشعري الجاهلي تتحول بواسطة الصورة الشعرية إلى رمز تمثله في الذهن مرتبط بالكرم وبالشهرة وبالبروز الاجتماعي وبالدفء والأنس، ويصبح طرازاً من أطرزة المعنى الشعري في الإدراك الاجتماعي. ويهتم علم النفس الإدراكي في مختلف المجالات المعرفية بطبيعة هذه التمثلات. وتكون هذه التمثلات الجسر الرمزي الرابط بين المحيط الخارجي والفضاء الذهني، ويستعمل الذهن في معالجة هذه التمثلات لغة عامة تسمى لغة الفكر، وهي لغة متكونة من قضايا وجمل منطقية (إثبات - شرط - تقرير...).

## العلوم الإدراكية :

يعرف قاردنار في كتابه الصادر سنة 1985 بعنوان "علم النفس الاجتماعي وتعليم اللغة الثانية" العلوم الإدراكية بأنها محاولة معاصرة تتوسل بالمناهج الاختبارية للإجابة عن الأسئلة الإيبستيمولوجية المتصلة بطبيعة المعرفة؟ ومكوناتها؟ ومصادرها؟ وتطورها؟ ومآلها؟. وقد كان الأصل في نشأة العلوم الإدراكية الرغبة في معالجة المعارف الإنسانية وخاصة الذكاء بصفته أسلوباً لمعالجة المعلومات والتصرف في ما بينها من علاقات وتصنيفها وإرجاعها إلى مقولاتها، والتحكم في مخرجاتها. ويمكن أن نجد في المصنّف الذي وضعه هاورد قردينار (H.Gardner) سنة 1981 وعنوانه بالعقل وعلم الإدراك الجديد (The mind's new science) الحاصل التأليفي عن العلوم الإدراكية التي جاءت خلاصة تأليفية بين علم النفس واللسانيات وجانب من الفلسفة والأنثروبولوجيا<sup>359</sup>.

ولكن يمكن أن نرجع نشأة العلوم الإدراكية إلى أواسط القرن التاسع عشر حين توصل كل من جال (Gall) وبروكا (Broca) إلى تحديد الوظائف الدماغية. والواقع أنّ تطور العلوم الإدراكية في أواسط القرن الماضي كان إجابة عن سؤالين كبيرين طرحهما علم النفس التربوي منذ القرن التاسع عشر وهما : ماهي اللغة؟ وما هو التفسير؟ فكانت هذه العلوم بذلك تأصيلاً فلسفياً لعلم النفس التربوي، ومن ثمة اكتسبت قيمتها البيئية . لقد أجاب علم النفس عن السؤال الأول بأنّ اللغة ملكة منغرس في الدماغ

J.P.Dupuy: Aux origines des sciences cognitives;Paris;La Découverte 1994.

<sup>359</sup>راجع

البشري، وذهب علم الاجتماع إلى أنها عنصر من عنصر الثقافة الإنسانية، وأنها قائمة فيما بين الناس من علاقات تواصل. ويمكن أن نجد إجابة ثالثة مثالية، وهي أن اللغة ظاهرة ذهنية مجردة ونظام من الأشكال التي يمكن دراستها بصفاتها أشكالاً رياضية كما يدرس أي نظام رمزي آخر. أما التفسير فقد تنازعتاه ظاهرتان ظاهرة نفسية اجتماعية ترى في اللغة هوية ثقافية وذاتية اجتماعية وتاريخية ونزعة رياضية خوارزمية ترى في اللغة نظاماً من المعادلات الرياضية، وكانت علوم الإدراك وخاصة بتبلور النحو التوليدي شكلاً من أشكال التوفيق بين هذين المنزعين. إنَّ التعريف النفسي لاشتغال الدماغ وإنتاج الكلام ومعالجته للغة (التخزين - التصنيف - الربط...) منهج في الدراسة يطمئن إليه الإدراكيون وإن كانوا يقرّون بأنّ نتائجهم وقدرته على الوصف العلمي لا تزال ضعيفة. وقد نشط هذا الاتجاه في المختبرات الأنجليزية والأميريكية في الخمسينات من القرن الماضي وكان من رواده جورج ميلار (G.Miller). وفي السياق المعرفي نفسه انطلقت الأبحاث الخاصة باستعمال الحاسوب في استكشاف عمليات الذكاء الصناعي، وتوطدت الصلة بين هذه الجهود وجهود علماء النحو التحليلي.

## قابلية التصوير (Figurabilité):

مصطلح نفسي من المصطلحات التي استنبطها سيقمون فرويد من أعماله المتصلة بالحلم، فالأفكار التي تحشر في اللاوعي الفردي تتحرّر من الوعي وتتشكل في أحلام بما في ذلك الأفكار المجردة، وفي الحلم حسب فرويد تتقاطع ثلاثة تخصصات أو لغات: لغة الرسم واللغة الطبيعية ولغة الحلم. يقول ماريل ماريني: "قد يبدو قانون الحلم هذا بعيداً عن الخطاب الأدبي، ومع ذلك فباستطاعته إعانتنا على فهم بعض التقنيات المسرحية وخصوصيات التركيب السردية وأهمية الوصف الروائي وإنشاء الاستعارة"، مدخل إلى مناهج النقد الأدبي ص 57. فالتصوير في الحلم يستدعي تضافر التخصصات لفهم دلالة ما ينتج عنها من صور.

## مقاطع تعليمية بينية:

المقطع التعليمي مصطلح من مصطلحات تعليمية المواد اقترضه هذا العلم من اللسانيات الوظيفية، ومن علم الأصوات على وجه التخصيص، ويعني المقطع التعليمي وحدة خطابية دنيا يصوغ فيها المشرّع التعليمي أو المدرس قسماً من مقرر صياغة قابلة للإنجاز في وحدة زمنية محددة، وتكون

عادة وحدة موافقة لحصة من حصص الجدول. وتحتاج صياغة المقطع التعليمي فضلا عن المعرفة المرجعية العالمية إلى معارف من تخصصات أخرى تساعد على صياغة المفهوم والفكرة أو تحليل الصورة أو طرح السؤال، وذلك بحسب المحتوى الدراسي. فتحليل صورة الحرب في شعر المتنبي يحتاج إلى معارف متصلة بالوضع السياسي والاجتماعي في عصر الشاعر وإلى معارف تتصل بصورة الحرب في تمثل الفارس القديم ، فتقاطع بذلك المعارف الأدبية والمعارف التاريخية والأنثروبولوجية .

## موادّ بينية داخلية (Intradisciplinary) :

هي التخصصات الفرعية الدقيقة التي يمكن أن نستغلّها أفقيا في أكثر من تخصص، مثل علم الأصوات فهو تخصص بيني داخلي يمكن أن نستغلّه في علم العروض وفي علم الأسلوب وفي الدراسة الشعرية الإيقاعية .

## النرجسية :

هي مفهوم من المفاهيم النفسية البينية التي استغلّها علم النفس الأدبي. وهو ذو أصل أسطوري راجع إلى الثقافة اليونانية وشخصية نرجس الصياد الذي عشق صورته على صفحة الماء. وتعود قيمة هذا المفهوم البينية إلى الإفراط في تقدير الإنسان لذاته وتعظيمها بالكلام الفاتن والاستعارات وتمجيدها إزاء الآخر، وهذه خصيصة من خصائص الشعر الغنائي. ويستعمل المصطلح في علم النفس الاجتماعي وخاصة في التصور السلوكي للذات والتصنيف النفساني للأمراض، ومعلوم أنّ الشعر عرض من الأعراض المرضية المعبرة عن النرجسية. ويتداخل هذا المفهوم مع مفهوم آخر قريب منه هو الأنانية (Egocentrisme) وهو الإحساس بأنّ الذات الفردية هي مركز الوجود ومركز الكون الاجتماعي والطبيعي في آن، ويتجسّم هذا المفهوم البيني في قول المتنبي :

"الليل والخيّل والبيداء تعرفني \*\*\* والسيف والرمح والقرطاس والقلم

سيعلم الجمع ممّن ضمّ مجلسنا \*\*\* بأنّني خير من تسعى به قدم" .

وقد بلغ "هوس" المتنبي بالأنّا أنه استعملها في كلمات أخرى غير كلمة أنا وذلك في قوله في القصيدة نفسها

"(أنا)م ملء جفوني عن شواردها \*\*\* ويسهر الخلق جرّاهم ويختصم

فأنت تلحظ أنّ المقطع الأول من فعل نام مسندا إلى ضمير المتكلم المفرد يتطابق وضمير "أنا"، وهي أنانية صادرة عن لاوعي الشاعر.

## نظرية المعرفة :

ترادف هذه العبارة في الاستعمال الاصطلاحي عبارة الإيبستيمولوجيا ، وهي فرع من فروع التفكير الفلسفي يبحث في طبيعة المعرفة ومصادرها وأصولها وحدودها ومضامينها ومناهج إنتاجها. ويمكن لنظرية المعرفة أن تتناول بالبحث علاقة العلم بالاجتماع الإنساني وبالأخلاق وبالمعتقدات. ولما كانت مصادر المعرفة جزءا من نظرية المعرفة فإنّ هذه الأخيرة تهتمّ بعلاقة المعرفة بقوى الإدراك كالحسّ وهو ما تقوم عليه نظرية المعرفة عند جون لوك (J.Lucke) ودافيد هيوم (D.Hume) والمعرفة العقلية عند ديكارت وكارل بوبر (K.Popper) وتهتم بالفرق بين المعرفة التي يمكن للإنسان أن يستدلّ على صحتها ضمن نظرية الاستدلال والمعرفة المكتسبة دون أدلة .

## الجدول التوضيحية

### أصنافية التخصصات البينية:

| التخصص الأول      | التخصص الثاني | التخصص البيني                                     |
|-------------------|---------------|---------------------------------------------------|
| علوم سياسية       | علوم الأخبار  | الصحافة السياسية                                  |
| لسانيات التواصل   | علوم التغذية  | التثقيف الصحي                                     |
| لسانيات الخطاب    | علم النفس     | علوم طبّ حوار تشخيصي<br>تقويم التخاطب/علاج التوحد |
| علم وظائف الأصوات | علوم طبية     | تقويم النطق                                       |

### نماذج من الموضوعات البينية في علوم الأرض (s.v.t. Interdisciplinary/)

| الموضوع             | العلم الأساس                    | العلم المكمل                           |
|---------------------|---------------------------------|----------------------------------------|
| التلوّث .           | الجغرافيا البيئية والمناخية     | الكيمياء الحيوية –<br>الجيومورفولوجيا  |
| التصحّر .           | الجغرافيا الطبيعية- علوم المناخ | علم طبقات الأرض-<br>الجيومورفولوجيا    |
| انتظام عناصر الفريق | فريق يعمل في المؤسسة نفسها.     | عناصر الفريق تعمل في<br>مؤسسات مختلفة. |

|              |                        |                                |
|--------------|------------------------|--------------------------------|
| ثقافة الفريق | الفريق من ثقافة واحدة. | عناصر الفريق من ثقافات مختلفة. |
|--------------|------------------------|--------------------------------|

تفاعل التخصصات الطبيعية والاجتماعية :

| الموضوع         | العلم الأساس 1         | العلم الأساس 2                 |
|-----------------|------------------------|--------------------------------|
| الهجرة والنزوح. | الجغرافيا السكانية.    | علم الاجتماع .                 |
| الانحراف.       | علم النفس الاجتماعي .  | علم نفس المراهق.               |
| الفيضانات.      | جغرافيا المجال .       | جغرافيا المناخ .               |
| ثقافة الفريق .  | الفريق من ثقافة واحدة. | عناصر الفريق من ثقافات مختلفة. |

الخطاب الأدبي وعلوم التربية :

|         |               |                 |
|---------|---------------|-----------------|
| الموضوع | العلم المساند | النموذج الأدبي. |
|---------|---------------|-----------------|

|                 |                                          |                                        |
|-----------------|------------------------------------------|----------------------------------------|
| صراع الأجيال.   | علم نفس المراهق.                         | إلى ولدي لأحمد أمين                    |
| التربية الأولى. | علم نفس الطفل                            | سياسة الصبيان لابن<br>الجزار           |
| التعاون.        | تعليمية الإنتاج الكتابي في اللغة<br>الأم | كتابة قصص الأطفال<br>(الحمامة المطوقة) |

#### الخطاب الأدبي والعلوم النفسية:

| العلوم المساعدة                             | الجنس الأدبي                                              | النماذج                                                               |
|---------------------------------------------|-----------------------------------------------------------|-----------------------------------------------------------------------|
| علم النفس الاجتماعي/<br>اللسانيات النفسية.  | رسائل ذاتية : شكوى - عتاب -<br>وصف الحال - كتابة رحلة ... | رسالة التوحيدي في إحراق<br>كتبه - رسائل الشابي إلى<br>محمد الحليوي... |
| علم نفس الطفل /السرديات<br>التأويلية .      | الرواية النفسية .                                         | السراب لنجيب محفوظ.                                                   |
| علم النفس السريري/ الأسلوبية<br>الإحصائية   | شعر هجاء الذات/ الفخر الذاتي.                             | هجاء الحطيئة لنفسه.                                                   |
| اللسانيات النفسية /علم النفس<br>الاجتماعي . | شعر هجاء الآخر/ رثاء البلدان<br>وشعر الوجدان الجماعي .    | هجاء المتنبي لكافور/ رثاء<br>الأندلس .                                |



## الخاتمة العامة

وبعد فقد أردنا أن يكون هذا الكتاب بحثاً في تاريخ الفكر العلمي الحديث، أي بحثاً في منعرج من منعرجات الإبيستيميا الحديثة، وهو منعرج التفكير البيني.

ولحظنا في ثنايا هذا العمل المتواضع أنّ الأطروحة الأساس التي عليها انبنى مفهوم البينية نظرياً وإجرائياً هو أنّ الاهتمام بالمعرفة العلمية لا ينصبّ على التخصص بل على النقاط التي يتقاطع فيها مع التخصصات المجاورة إذا كان البحث متصلاً بالمنظومة المعرفية الواحدة، وينصب على النقاط التي يتقاطع فيها مع دوائر معرفية أخرى من المجال نفسه (الإنسانيات - الطبيعيات - الاجتماعيات) أو ربّما دوائر معرفية أبعد كتقاطع الإنسانيات مع الطبيعيات ومثال ذلك تقاطع تاريخ طبقات الأرض وعلم آثار الإنسان. وقد بيّنا في فقرات عديدة من بحثنا هذا أنّ تاريخ العلوم والفنون عرف تفاعلاً مخصباً بين مجالات معرفية تبدو للنظرة العجلى متباعدة، لكن البحث الأفقي الدقيق يكشف عمّا بينها من تواشج وتواصل وتفاعل كتفاعل الرياضيات والأدب أو الطبّ والموسيقا أو الفيزيا وعلم الدلالة السيميائي. وقد حاولنا تفسير هذا التقاطع بحاجة كل علم أو كل حقل معرفي إلى جملة من المعارف الأفقية التي تمولّ جميع الأنشطة الفكرية وتمدّها بالعناصر الأساس التي تشتغل بها، ومن هذه المعارف ما يستمدّ من

المنطق الصوري كمفاهيم التوازن والتناسب والتضاد والتناقض والتناسق، وهي مفاهيم تتقاسمها الرياضيات والموسيقا والإيقاع والزخرف المعماري. ويمكن أن تكون موضوعا تربويا واحدا في مرحلة من مراحل التربية الأساسية، فالتلميذ بحاجة إلى أن يتدرّب على إدراك التناسب بين الأشياء واكتشاف التناظر بين مكوناتها سواء أكانت أصواتا في الموسيقا أم عمليات رياضية في حقل الرياضيات أم خطوطا وألوانا وأشكالا هندسية في مجالات التربية التشكيلية والفنية. وخلصنا في بحثنا هذا كذلك إلى أنّ النظرية المعرفية أو العلمية لا تطرح قضايا المعرفة من خلال التخصصات الضيقة، بل تعالج مسائل تصنيف العلوم ووظائفها وصلتها بالواقع وإشكالياتها الأخلاقية (الإيطيقية) كل ذلك تعالجه الإبيستيمولوجيا من خلال المنظومات العلمية في تقاطعها وتفاعلها.

وخلصنا في بحثنا هذا إلى أنّ البينية في الفكر الحديث ليست حقلًا معرفيًا مخصوصا ولا هي مجال من مجالات الدراسة بقدر ما هي توجه فلسفي معرفي، ونظرة جديدة إلى الكون العلمي في تاريخ الإنسان، هي مسار في البحث العلمي القائم على الدراسات النوعية المفصلة والمناهج التأويلية المتنوّلة في ملتقى التخصصات والشاهد على هذا الحكم ما نراه من تقاطع مخصب بين العلوم البيولوجية والعلوم الاجتماعية.

إنّ العلم والأدب والفلسفة حقول معرفية لم تكن في لحظات الإنسانية الكبرى مناطق متميزة، معزولة بعضها عن بعض بل كانت فضاءات متداخلة متواشجة. وانتهينا من جهة أخرى إلى أن الفكر البيني - وإن كانت النظرة الحديثة قائمة على أسس إبيستيمولوجية حديثة - ليس اكتشافا حديثا بل كان منذ أقدم عصور المدنية سمة مميزة لتاريخ العلوم والفنون والآداب، وقد كان يمثل مرحلة الإبداع والتألق، ويؤكد أنّ الفضاء البيني هو فضاء التجديد والتوليد والإبداع، ولعلّ هذه المراحل البينية هي أخصب مراحل الإنتاج في عامة مجالات المعرفة سواء منها الأدبية أو العلمية، وهي فضاء العبور من حال إلى حال، من ثقافة إلى أخرى، ومن مناخ جمالي إلى سواه.

وإنّ الحركة البينية التي تصل المجالات المعرفية بعضها ببعض تتيح لمختلف العلوم اللسانية والأدبية والإنسانية والصحيحة فرص التكامل وتبادل التجارب المنهجية في صياغة المفاهيم وفي معالجة المعطيات العلمية، وقد رأينا في بحثنا هذا كيف استفادت العلوم الإنسانية من اللسانيات البنيوية وفي صدارتها الأنثروبولوجية البنيوية. ويمكن لهذه النظرة البينية إذا تعمّقت واتخذت لها موقع الصدارة في

ثقافة من الثقافات أن تسهم في بناء المشاريع العلمية والثقافية، وأن تدرب العقل العلمي في تلك الثقافة على اجتناب المنزع الانتقائي للمعارف وأن تدربه على اكتساب النظرة النسقية والشمولية والإدماجية بفضل تلك الجسور التي تمدّها بين مختلف الأنظمة المعرفية.

وتتيح هذه النظرة البينية المتقدّمة لأنظمة التعليم والتكوين إعادة النظر في بناء المنظومات التعليمية بالتخفيف من الإسراف والتبذير الذين تعاني منهما هذه المنظومات إذ تكرر المقرّرات بعضها بعضا سواء في مناهج التكوين أو في مضامينها ومحتوياتها، وذلك لأن كلّ تخصص يصمّم مهاراته وأهدافه ويبني مجاله المعرفي دون تنسيق مع سائر المقرّرات والمجالات والتخصّصات ، ودون أن يأخذ في الاعتبار أنّ جانبا كبيرا من التكوين تتقاطع فيه التخصّصات ضمن ما يمكن أن نسميه بالكفايات الأفقية ، فنرى مقرّر الجغرافيا يعيد مقرّر التربية المدنية وعلوم الأرض، وقد مكّنت النظرة البينية مطبقة على التعليم من إنشاء ما يعرف بالتعلمية الإدماجية والبينية.

وقد أردنا من هذا البحث أن يكون لبنة أولى في بناء مشروع تجديد البحث العلمي في مجال اللغات والتواصل، وأن يسهم في إعادة تعريف مجال اللغة العربية وتعليمها والبحث في مجالاتها وعلومها النظرية والتطبيقية. وقد وجدنا أنّ انخراط اللغة العربية في دائرة اللغات الحيّة التي بها تكتب اليوم المعارف العلمية في مختلف الحقول والتخصصات يقتضي من الساهرين على حظوظها مدّ جسور التواصل بينها وبين الدراسات البينية. وقد انتهينا في عملنا هذا إلى أنّ الفكر العلمي في العصر الحديث أعاد قراءة تاريخ العلوم والأفكار والنظريات المعرفية وصلات المنظومات العلمية في مختلف الحضارات فانتهى إلى أنّ التعدّد الذي تميّز به المعرفة الكونية في زماننا هذا يفرض على العلماء ألاّ يتناولوا أي موضوع من موضوعاتها نظريا كان أو تطبيقيا دون أن تكون لهم معرفة متعدّدة التخصص، فعالم الأدب العربي لا يمكن أن يحلّ النصوص ذات الصبغة الاجتماعية تحليلا مقنعا من الناحية العلمية دون أن تكون له معرفة دنيا بالحاصل المعرفي في مجال علم الاجتماع الأدبي على الأقلّ. ولا يمكن للباحث في الصوتيات العربية وفي علم الصرف أن ينتج معرفة ذات قيمة علمية ما لم تكن له معرفة دنيا بالصوتيات السمعية، ولم تكن له قدرة على معالجة الأصوات بالحاسوب. كما أنّ الطبيب الجراح لا يمكنه اليوم أن يتحدث عن علم الجراحة وأن يمارسه خارج فضاء تكنولوجيا المعلومات واستعمال الأشعة الليزرية والاستشعار عن بعد. إن البينية تصبح بهذا المعنى مكوّنا من مكوّنات تعريف

العلم، وهي تعلمنا أنّ كلّ علم أنتجه الفكر البشري لا يخلو من نافذة يطلّ منها على علم آخر، وهذه النافذة هي التي تمثل بينية ذلك العلم، وقد أصبح مفهوم العلم منذ الاكتشافات الكبرى التي سبقت عصور الاختراع أي منذ أواخر القرن الخامس عشر الميلادي مفهومًا بينيًا، فمنذ ذلك القرن أخذت أصنافية العلوم تتفجر لتؤسّس في كلّ حقل من الحقول الكبرى أصنافية جديدة يتخصّص كل علم من علومها في موضوع من موضوعات العلم القديم، وانتهى الفكر العلمي كذلك إلى أنّ المفاهيم العلمية تنتقل من مجال معرفي إلى آخر ويمكن للعلم الواحد أن يكون مصدر نشأة صنف علمي، فالمنطق الصوري كان العلم الذي تلاقح ومختلف العلوم اللغوية والإنسانية فتولدت عنه علوم أصول، أو فلسفة العلوم كعلم أصول النحو وأصول الفقه وعلم الاجتماع، لذلك يمكن أن نعدّه نموذجًا للعلم البيني في منظومة العلوم القديمة . وقد رأينا أنّ القياس من المفاهيم المشتركة بين مختلف العلوم التي أثمرت بتلاقحها مع علم المنطق الصوري علوم الأصول. وإذا عددنا علم الاجتماع ثمرة تلاقح علم التاريخ والمنطق جاز لنا أن نقول إن البينية في تاريخ العلوم حركة تقاطع منتجة للعلوم الجديدة. وقد بيّنا في كتابنا هذا أنّ الفكر البيني كان مسارا في تاريخ الفكر العلمي مناهضا في جوهره الإبيستيمولوجي لعامة المبادئ التي تقوم عليها قيم الفكر العلمي في العصور القديمة.

إنّ الخطاب العلمي في العصر الحديث يقرب المعارف بعضها من بعض ويعمل على إنشاء صلات اقتراض وتعاون وتراشح بين مناهج البحث العلمي في عامة الحقول، وقد تمكّنت الحضارة التكنولوجية منذ أربعة عقود تقريبا من فرض منظومات علمية أفقية أي حقول علمية مشتركة تستفيد منها مختلف الحقول العلمية التقليدية.

وبيّنا في دراسة صلة الترابط النصي بالتعليم والتمهين أنّ هذا المفهوم التناسلي الحاسوبي منتج من منتجات الثقافة البينية يجمع المعرفة العالمية إلى المعرفة الحاسوبية الإجرائية ، ويوفّق في صيغة تأليفية رائعة بين الكفايات النظرية والمهارات العملية، وهو مفهوم بالغ الأهمية في تحديد مستقبل ثقافة المتعلّم في عصرنا هذا وتوجيهها ، وهو كذلك لأنه يمكّن القارئ من أن يكون قارئًا مبدعا في آن، ويساعده على الانتقال بين المرجعيات المعرفية بشكل مرّن وسلس وشيق. ولم يعد القارئ في عصرنا هذا بحاجة إلى أن ينتقل من كتاب إلى آخر انتقالا مكانيا أي انتقالا من صندوق مصمّد إلى آخر مصمّد أيضا، كلاً بل لم يعد بحاجة إلى البحث العمودي في فهارس الكتب عن الأعلام والموضوعات والأماكن

والمصطلحات الفنية، وعن قوائم المصادر والمراجع المودعة في ذيل المؤلفات الضخمة بل أصبح قادرا على التجوّل الافتراضي واللامادي بين المعارف بواسطة ما توفّره المكتبة الإلكترونية من مداخل متنوّعة متعدّدة ،وبواسطة الكلمات المفاتيح التي أصبح إثباتها من شرائط البحث العلمي .

ولكننا نَبّهنا في بحثنا هذا كما نبّه غيرنا قبلنا على أنّ حقول البحث العلمي في اللغة العربية تتفصل كلّ يوم أكثر فأكثر عن العالم الاجتماعي والنفسي والجمالي والاقتصادي الذي يعيشه الإنسان العربي، وأنّ مخيال البحث في التخصصات الضيقة ينضب يوما فيوما، ويظهر عجزه عن استنباط الموضوعات المفيدة لإنسان هذا العصر الداعمة لإشعاع اللغة العربية وثقافتها في آدابها وعلومها . وفي هذا السياق يقول علي الغضائوي متحدّثا عن الفقر المعرفي الذي تعيشه الدراسات العربية في مجال البيئية من جهة التقاطع المعرفي : "وإذا كانت الدراسات الغربية التي استظهرنا مخالفة للدراسات العربية من جهة تدقيق المفاهيم والتوفّر على عدد منها ومن جهة وضوح التصور لوضوح الغاية فلاّن أصحابها وجدوا من التقاليد الفلسفية ما مكّنهم من المفاهيم الأساسية في دراسة موضوع الزمان فضلا عما أفادوه من دراسة الزمان في المجالات العلمية المختلفة كالفلسفة وعلم النفس وعلم الاجتماع وعلم اللسان وعلوم الطبيعة وعلم الأحياء وعلم التاريخ ،ولست هذه التقاليد ولا تلك الزاوية من النظر في البحوث بمألوفتين في المجال العربي<sup>360</sup> .

وإننا نتفق مع الدكتور عبد السلام المسدي تمام الاتفاق في تطلّعه إلى أن تكون اللغة العربية في عصرنا اللغة التي تضطلع بدور ريادي في مجال التقريب بين العلوم الإنسانية، يقول : "من كلّ هذه الجوانب تمثل اللغة العربية شيئا ثميناً بين أيدي العلوم الإنسانية ولا سيما العاكف منها على استكشافات الحقائق الإدراكية الجديدة من خلال أرقى النماذج اللغوية وأكثرها غزارة واستكمالا وتجريدا<sup>361</sup> . واتضح لنا في مسار هذا العمل أنّ المعرفة العلمية في التواصل الحديث لا تنتقل بشكل مغلق بين مجموعة من العلماء تنتمي إلى فضاء واحد وتستعمل خطابا متعاليا رمزيا واحدا، كلاً بل لقد أصبحت المعرفة العلمية بفضل التواصل الافتراضي تنتقل بشكل انتشاري أفقي سريع بين جميع الناس القادرين على الولوج إلى هذا العالم وهم يعدّون بالملايين إن لم نقل بالمليارات. وهذا الانتشار هو الذي يسهم في تغذية البيئية

<sup>360</sup> الإحساس بالزمان في الشعر العربي 193/1.

<sup>361</sup> العربية والإعراب ص 65.

العلمية لأنّ تلقي المعارف بشكل معقد يتداخل والثقافة الفلسفية والأدبية والصناعية وينتج مجموعة مستهلكة للعلم أوسع من مجموعة العلماء التقليدية . وأخيرا فإننا نقدر أنّ النظرة البينية العلائقية في عصرنا العلمي هذا هي التي تمكن الإدراك المعرفي من التجدد المستمر، ومن اكتساب ديناميكية متواصلة ، ومن ابتكار حقول البحث بفضل ما يكتشفه المفكرون من تقاطع بين التخصصات يفضي إلى إنتاج دوائر معرفية جديدة كما يقول متاي دوغان وروبرت باهر، وإلى إثراء الحقول المعرفية بعضها من بعض إن في المفاهيم وإن في المناهج والمقاربات .

وأخيرا فقد وقفنا في تحليل الإشكاليات المنهجية التي تطرحها الدراسة البينية على نماذج من المآزق المعرفية التي يمكن أن يقع فيها تعليم اللغة العربية وآدابها والنقد الأدبي عموما جرّاء سوء استخدام المناهج المستعارة من منظومات علمية أخرى، فبيّنا أنّ تاريخ الأدب مثلا ينبغي ألاّ يستعير المفاهيم الإجرائية المستخدمة في تاريخ الطبيعة والنبات والحيوان دون مناقشتها وتعديلها بما يتلاءم وخصوصيات الجنس البشري الذي يبني تاريخها وفق عوامل معقّدة متنوعة، عوامل لا يحكمها بالضرورة منطق الحتمية أو منطق الصدفة. فسمّة الدائرية التي يميّز به تاريخ الحيوان أو التراكم المادي والتفاعلات المناخية ذات الحتمية الفيزيائية التي يميز بها تاريخ المناخ أو التضاريس لا يمكن أن ينطبق آليا على الظواهر اللغوية والأدبية والحضارية التي ينتجها الإنسان، ولا يمكن أن نعدّ هذه الظواهر المعقّدة في تكوينها ونموّها وحركتها نتاجا آليا لظواهر اجتماعية أو عمرانية معيشة. ويمكننا الآن بعد إذ أسسنا تصورا منهجيا لدراسة الأدب العربي دراسة بينية، تصورا نقدر أنه مقبول، يمكننا أن نعيد النظر في نتائج تلك الدراسات الأدبية التاريخية التي اتخذت من الأدب وثيقة لدراسة الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والعمرانية في العصور القديمة، ونذكر منها على سبيل المثال لا الحصر اتجاهات الشعر في القرن الثاني لمحمد مصطفى هدارة وحياة الشعر في الكوفة ليوسف خليف، ومن حديث الشعر والنثر لطف حسين، والجاحظ حياته وآثاره لطف الحاجري ، وهي جميعها متأثرة غاية التأثير بالمناهج التاريخية الوضعية في قراءة الأدب، ويمكن للنظرة البينية التي نتبناها في هذا الكتاب أن تساعدنا على تعديل تصور هؤلاء المؤرّخين للظواهر الاجتماعية والثقافية من خلال الخطاب الأدبي بصفته مؤسسة تعبّر عن التاريخ ، فالظاهرة الأدبية تتحوّل في الخطاب الأدبي مهما يكن جنسه أو نظامه السيميائي إلى ظاهرة معقدة مثقّلة بالعلامات الرمزية، وتغدو هذه العلامات في انتقالها من التاريخ أو المرجع إلى شكل من أشكال الأدب وظاهرة جمالية تتجسّم في موضوع أو في جذر أو في مدار من مدارات الكتابة الأدبية، قد

يضخمها المبدع أو يقلبها أو يخفف من حدتها أو يؤولها، كل ذلك استجابة لإكراهات الشكل الأدبي والموقف الاجتماعي والثقافي والجمالي والنفسي على غرار ما نجد في رسائل شكوى البؤس عند التوحيدي أو الخوارزمي، ففي هذه الرسائل يتحوّل المترسل إلى راو أو إلى وضع من أوضاع السرد يكتب التاريخ الاجتماعي من وجهة نظر ثقافية وجمالية ونفسية محدّدة .

وبعد فقد أصبحنا مقتنعين اليوم وأكثر من أي وقت مضى بفضل ما تسعفنا به النظرة البيئية إلى الأدب بأنّ تاريخ الأدب إنّما هو في الحقيقة تاريخ المناطق التناسية التي تظهر في منعرجات التاريخ الثقافي، فالتحولات الثقافية الكبرى هي تلك التي تحدث في المفاصل التاريخية والمنعرجات الفكرية الكبرى. وبهذه الرؤية يمكن أن ننضم في خاتمة هذا البحث إلى النظرة التي تدعو إلى إعادة تعريف العلم وصلته بالأسر أو بالمجالات المجاورة له، وهي في الحقيقة رؤية تفاعلية حركية تختلف عن تلك التي وصفناها في مقدمة هذا العمل وذكرنا أنّ أصحابها يرون أن للعلم حقيقة واحدة دائمة غير قابلة للتغيير، وأنّه خطاب ثابت فوق كل حركة تاريخية، وأن لكل علم موضوعا ومنهجا وأدوات لا تتغير ولا ينبغي لها، والواقع أنّ هذه الرؤية لا تؤمن بتاريخية العلوم ولا ترى أنّ الكسر المعرفي أو القطيعة المعرفية محرّك من المحركات الأساس الدافعة لتاريخ العلوم. وأما الرؤية المقابلة فهي رؤية الذين يذهبون إلى أن العلم منتج بشري متغيّر، وهو شكل من أشكال التعبير عن التفكير الإنساني في مرحلة من مراحل تاريخه، وأنّ إنتاج المعرفة العلمية ممارسة اجتماعية متغيرة، وهم يرون أنّ البيئية مكوّن من مكونات كلّ علم، وهي السدى الذي يشدّ النسيج المعرفي الإنساني بعضه إلى بعض، ويرون أنّ كلّ علم من العلوم يتضمّن في مادته ومنهجه ومفاهيمه نسبة ما من علم آخر يشترك فيها معه، فعلم التاريخ القديم يتضمّن في جانب منه مجالا يتقاطع فيه مع علم الحفريات وهو علم قائم بذاته. وعلم المنطق يتداخل والرياضيات في أكثر من مستوى، ويرون كذلك أنّ الأصول المنهجية التي يقوم عليها علم المنطق إنّما هي قاسم مشترك بين الرياضيات وعلوم اللغة، فالقياس أصل من الأصول المنهجية في علم النحو، وعليه يعتمد النحاة في استنباط القواعد من المدونة اللغوية، ولكنه كذلك أصل من الأصول المنهجية في علم الفقه لأن استنباط الأحكام الفقهية لا يتم إلّا بالقياس والسماع .

ولا بأس في خاتمة المطاف أن نكرّر القول بأنّ حركة تجديد النظر في مفهوم العلم وحدوده ليست عملا جزئيا يحدث من داخل الحقل المعرفي الضيق بل إنّ الذين يؤسسون لبنات المعالم البيئية

الشامخة، ويتقحّمون إعادة طرح الأسئلة الأنطولوجية في نظرية المعرفة هم مؤرخو المعرفة والعلماء الموسوعيون متعدّدو التخصص الذين جمعوا بين حقول لا يمكن للعالم ذي التخصص الواحد أن يتمثلها كجمع الجاحظ في العصور القديمة بين الحيوان والأدب والبلاغة، والفارابي بين الموسيقى والفلسفة وأصول اللغة أو قاستون باشلار في العصر الحديث بين تاريخ العلوم والشعر، فهؤلاء العلماء هم الذين أسهموا في بناء الفكر البيني قديما وحديثا .



## المراجع العربية

لم ندرج في هذا الفهرس سوى المراجع التي استندنا إليها بشكل مباشر وأحلنا عليها في حواشي هذا الكتاب، وهي مرتبة بحسب اسم الباحث ودون اعتبار لابن أو أبو .

-الآبي، أبوسعء منصور بن الحسين :

نثر الدرّ، تحقيق محمد علي قرنة ومراجعة علي البجاوي، الهيئة المصرية العامة للكتاب 1980.

-ابن الأثير، ضياء الدين:

المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تحقيق بدوي طَبَّانة ومحمّد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة  
العصرية بيروت 1990.

-أرسطوطاليس:

الخطابة، تعريب عبد الرحمن بدوي ، دار الرشيد للنشر بغداد 1980 .

فن الشعر، ترجمة وتحقيق عبد الرحمن بدوي، مكتبة النهضة المصرية 1953 .

-أسعد، أحمد سامية :

النقد المسرحي والعلوم الإنسانية ، مجلة فصول، المجلد الرابع، العدد الأول، 1983.

- إسماعيل، عز الدين:

التفسير النفسي للأدب، دار العودة ودار الثقافة بيروت 1962.

الشعر العربي المعاصر قضاياها وظواهره الفنية والمعنوية، دار العودة، بيروت 1985 .

-الأنيس، عبد الحكيم:

أضواء على ظهور علم المناسبة القرآنية، مجلة الأحمديّة، دار البحوث للدراسات الإسلامية وإحياء  
التراث دبي العدد 11 لسنة 1423.

-أيزر، فولفغانغ:

فعل القراءة (نظرية جماليّة التجارب في الأدب )، ترجمة حميد لحداني، منشورات مكتبة المناهل ،فاس  
المغرب 1998.

- باختين، ميخائيل:

الخطاب الروائي، ترجمة محمد برّادة ،دار الفكر، القاهرة 1987 .

- البازعي ، سعد:

الاختلاف الثقافي وثقافة الاختلاف ، المركز الثقافي العربي ، بيروت 2008 .

- باشلار، قاستون :

جماليات المكان، تعريب غالب هلسا، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع بيروت 1987.

شاعرية أحلام اليقظة، ترجمة جورج سعد، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع بيروت 1991.

- البطل، علي:

القصيدة الطقوسية، مجموعة ميرانا للترجمة والتأليف والبحث العلمي، مصر 1991.

-البلاذري، أبو العباس أحمد بن يحيى:

فتوح البلدان، تحقيق د ي خويه، بريل 1968.

-بلانشيه، روبرت:

نظرية المعرفة العلمية، تعريب حسن عبد الحميد، دار رؤية للنشر والتوزيع ،القاهرة 2014.

-بوحوش، رايح :

معظلة الخطاب الأدبي وأزمة المناهج الحديثة ، ضمن تحولات الخطاب النقدي العربي المعاصر، عالم الكتب الحديث، عمّان 2008.

-بوخالفه، فتحي :

النصّ التراثي وإشكالية القراءة : دراسة تأويلية لرواية نوار اللوز لواسيني الأعرج ، ضمن كتابه شعرية القراءة والتأويل في الرواية الحديثة ، عالم الكتب الحديث، الأردن 2010 .

- تزفيتان ، طودوروف:

الشعرية ، ترجمة شكري المبخوت و غيره ، دار توبقال المغرب 1987 .

أصل الأجناس الأدبية ، ترجمة محمد بزّادة ، مجلة الثقافة الأجنبية ، العراق ربيع 1982 .

شعرية النثر ، ترجمة أحمد المديني ، الثقافة الأجنبية العراق 1982.

نقد النقد، ترجمة سامي سويدان، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد 1986.

- التوحيدي، أبو حيان:

المقابسات ، تحقيق حسن السندوبي، المطبعة الرحمانية، القاهرة 1929.

- توفيق، حسن:

بدر شاكر السياب، دراسة فنية وفكرية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر 1979.

- تيفيم، بول فان :

الرومانسية في الأدب الأوروبي، ترجمة صيَّاح الجهم، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق 1981.

- ابن تيمية :

الرد على المنطقيين، تقديم وتعليق رفيق العجم، دار الفكر اللبناني بيروت 1993.

- الدحيات ،عيد:

النظرية النقدية الغربية من أفلاطون إلى بوكاشيو، المؤسسة العربية للدراسات والنشر بيروت 2007

- درويش، محمود :

الأعمال الكاملة الحديدية دار رياض الريس بيروت 2008 .

-ابن جاء بالله، حمادي:

تحولات العلم الفيزيائي ومولد العصر الحديث، سراس للنشر تونس 1995.

-الجاحظ، عمرو بن بحر :

البخلاء،تحقيق محمد طه الحاجري، دار المعارف مصر 1963.

البيان والتبيين، تحقيق عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي مصر 1964.

الحيوان، تحقيق عبد السلام محمد هارون، ط دار الجيل بيروت 1983.

الرسائل، تحقيق عبد السلام محمد هارون، ط دار الجيل بيروت 1991 .

- جبّار ، سعيد :

التخييل وبناء الأنساق الدلالية ، نحو مقارنة تداولية، رؤية للنشر والتوزيع ، القاهرة 2013 .

- الجرجاني ، السيّد الشريف :

التعريفات ، دار الكتب العلمية ، بيروت 1988 .

- الجرجاني ، عبد القاهر :

أسرار البلاغة في علم البيان ، هـ- ريتز ط3 دار المسيرة بيروت 1983.

دلائل الإعجاز في علم المعاني ، تحقيق محمد رشيد رضا ط بيروت 1982 .

-الجمني، عمر مقداد:

طه حسين مؤرخاً، منشورات بيت الحكمة تونس 1993.

-الحسيب، عبد المجيد:

حوارية الفن الروائي، كلية الآداب والعلوم الإنسانية مكناس المغرب 2007

- حمادي، صبري مسلم :

أثر التراث الشعبي في الرواية العراقية الحديثة،. بيروت 1980 .

-حمودة، عبد العزيز:

الخروج من التيه: دراسة في سلطة النص، عالم المعرفة الكويت العدد 298 لسنة 2003.

-خضر، العادل:

الأدب عند العرب، منشورات كلية الآداب منوبة تونس 2004.

يحكى أنّ، منشورات دار المعرفة للنشر تونس 2006.

- خطّابي ، محمّد:

لسانيات النصّ، مدخل إلى انسجام الخطاب، المركز الثقافي العربي. ط1 ، 1991 .

-الخطيب، حسام:

الأدب والتكنولوجيا ،المكتب العربي لتنسيق الترجمة والنشر 1996.

-ابن خلدون، عبد الرحمن :

المقدمة، ط دار الكتاب اللبناني، بيروت 1979.

-الراجحي،عبد:

النحو العربي والدرس الحديث ،دار النهضة العربية للطباعة والنشر بيروت 1979.

- راستيه ، فرانسوا :

فنون النصّ، ترجمة إدريس الخطّاب، دار توبقال للنشر ، الدار البيضاء 2010 .

-ابن رسته، أبو علي لأحمد بن عمر:

الأعلاق النفيسة، ط ليدن 1892.

-

ابن رمضان، صالح:

أدبية النصّ النثري ، منشورات سعيدان سوسة تونس 1990.

المعنى في التخاطب الرسائل القديمة، ضمن المعنى وتشكّله، منشورات كلية الآداب منوبة، تونس 2003.

الرسائل الأدبيّة ودورها في تطوير النثر العربي من القرن الثالث إلى القرن الخامس للهجرة (مشروع قراءة إنشائيّة)، جامعة منوبة تونس، ط 1 منشورات كلية الآداب منوبة. 2001 ، ط2 دار الفارابي بيروت 2007 .

السيرة في النثر القديم ومعالم اكتمال الجنس الأدبي ، ضمن حوليات الجامعة التونسية العدد 47 لسنة 2003.

-ابن رمضان، فرج:

الأدب العربي القديم ونظرية الأجناس، منشورات دار محمد علي الحامي، صفاقس تونس 2001..

- ريگور ، بول :

الذاكرة، التاريخ، النسيان ، ترجمة جورج زيناتي ، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت 2009 .

-الزركشي، بدر الدين محمد بن عبد الله:

البرهان في علوم القرآن ،دار الجيل بيروت 1988.

-السامرائي، مهدي صالح :

تأثير الفكر الديني في البلاغة العربية، المكتب الإسلامي دمشق 1977.

-السكاكي ، أبو يعقوب :

مفتاح العلوم ، تحقيق و تعليق و شرح نعيم زرزور ،دار الكتب العلمية بيروت 1983 .

- شارتيه بيير :

مدخل إلى نظريات الرواية ، ترجمة عبد الكبير الشرقاوي، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء 2001.

- الشاوش ،محمد :

أصول تحليل الخطاب في النظرية النحويّة العربيّة، "تأسيس نحو النصّ". مجلدان، جامعة منوبة، كلية الآداب بمنوبة، والمؤسسة العربية للتوزيع، تونس. ط1، 2001.

-الشريف، محمد صلاح الدين :

الدائرة النحوية البلاغية: مقارنة لتعلمية الألسن، حوليات الجامعة التونسية، العدد 57 لسنة 2012.

- صمود، حمادي:

معجم مصطلحات النقد الحديث ، حوليات الجامعة التونسية العدد 15 لسنة 1975 .

التفكير البلاغي عند العرب ، منشورات الجامعة التونسية تونس 1981.

الوجه و القفا ،الدار التونسية للنشر 1988.

نظرية الأدب عند العرب ، منشورات النادي الثقافي جدّة 1990 .

- صولة ،عبد الله :

الحجاج في القرآن من خلال أهمّ خصائصه الأسلوبية، منشورات دار الفارابي، بيروت 2007.

في نظرية الحجاج، مسكلياني للنشر، تونس 2011.

- ابن طباطبا الطقطقي:

الفخري في الآداب السلطانية، دارصادر بيروت د-ت.

- الطرابلسي، حسناء :

حياة الشعر في نهاية الأندلس، منشورات دار محمد علي الحامي صفاقس ومركز النشر الجامعي تونس 2001.

-طوقان، فدوى:

الأعمال الشعرية الكاملة، دار العودة بيروت 2005 .

-ابن عاشور، محمد الطاهر:

تفسير التحرير والتتوير، الدار التونسية للنشر 1984.

-عبيد، حاتم:

في تحليل الخطاب، منشورات كلية الآداب صفاقس، تونس، 2005.

-عتر، نور الدين:

علم المناسبات وأهميته في تفسير القرآن الكريم وكشف إعجازه ، دار العوثاني للدراسات القرآنية ،سورية 2011.



- عتيق، عبد العزيز:

تاريخ البلاغة العربية، دار النهضة العربية، بيروت لبنان 1970

- عجينة ، محمد :

موسوعة أساطير العرب عن الجاهلية و دلالاتها ، ط محمد علي الحامي للنشر والتوزيع ودار الفارابي  
بيروت 1994 .

- عريضة، نسيب:

الأرواح الحائرة، دار صادر بيروت، د- ت.

- ابن عساكر، أبو القاسم علي بن الحسن:

تاريخ مدينة دمشق، تحقيق محبّ الدين أبي سعد عمر بن غرامة المصري، دار الفكر للطباعة والنشر  
والتوزيع، بيروت 1997.

- العصيلي، عبد العزيز :

علم اللغة النفسي ، منشورات جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية 1427-2006.

-علا، مصطفى أنور:

التفسير في العلوم الاجتماعية، دار الثقافة النشر والتوزيع، القاهرة 1988.

-عمران، كمال:

الإنسان ومصيره في الفكر العربي الإسلامي، منشورات المؤسسة العربية للتوزيع وكلية الآداب منوبة  
تونس 2001.

-عيّاد، شكري :

المذاهب الأدبيّة عند العرب و الغربيين ، سلسلة عالم المعرفة الكويتيّة العدد 177 لسنة 1993.

- بن عياد، محمد:

الأدب المقارن ماثقة، ضمن حوليات الجامعة التونسية، العدد 50 لسنة 2006 .

- العيادي، عبد العزيز :

إيتيقا الموت والسعادة ، دار صامد للنشر والتوزيع، تونس 2005.

-غاليم، محمد :

النظرية اللسانية والدلالية العربية المقارنة، دار توبقال للنشر الدار البيضاء 2007.

- الغامدي، صالح:

مخاتلة العزلة : قراءة في رسائل حمزة شحاتة ضمن ملتقى قراءة النصّ ، علامات المجلّد 15 الجزء

60 ماي 2006 .

-الغزالي، أبو حامد:

المستصفى في علم الأصول ،دار الكتب العلمية، بيروت 1983.

-الغضاوي، علي:

الإحساس بالزمان في الشعر العربي من الأصول حتى نهاية القرن الثاني للهجرة، منشورات كلية الآداب منوبة 2000.

- ابن فارس، أحمد :

الصاحبي في فقه اللغة و سنن العرب في كلامها ،المكتبة السلفية القاهرة 1910.

-ابن فضلان، أحمد:

رسالة ابن فضلان في وصف الرحلة إلى بلاد الترك والخزر والروس والصقالبة، تحقيق سامي الدهان، دار صادر بيروت ط3، 1993.

- فراي، نور تروب:

الأسطورة والرمز، ترجمة جبرا إبراهيم جبرا، المؤسسة العربية للدراسات والنشر بيروت ط2 1980.

- الفهري، عبد القادر الفاسي:

أساسيات الخطاب العلمي و الخطاب اللساني، ضمن المنهجية في الأدب و العلوم الإنسانية ،  
بلاشترك ، الدار البيضاء 1996.

-فوكو، ميشيل:

جنيلوجيا المعرفة، ترجمة أحمد السلطاني وعبد السلام بنعبد العالي، دار توبقال للنشر الدار البيضاء  
1989.

-فيدوح، عبد القادر:

الاتجاه النفسي في نقد الشعر العربي، دار صفاء للنشر والتوزيع عمان 2010.

-القاضي، محمد:

في حوارية الرواية، دار سحر للنشر، تونس، 2005.

- القرطاجني، حازم :

منهاج البلغاء وسراج الأدباء ، تحقيق محمّد الحبيب بالخوجة ، دار الكتب الشرقية، تونس 1966 .

-القرني، طارق:

الاستعارات الاتجاهية في شعر أبي القاسم الشابي :الاستعارة إلى الأعلى نموذجا،بحث مكمل لشهادة  
الماجستير ، كلية اللغة العربية، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية 1434.

- قوبعة، محمد:

الشاعر والتذكير بجوهر الوجود، حوليات الجامعة التونسية، العدد 47 لسنة 2003.

-كرونة ، سندس:

اللسانيات وتطور العلوم العرفانية، حوليات الجامعة التونسية، العدد 47 لسنة 2003.

- لبيب، علي (مشرفا) :

قاموس الجغرافيا، شمال جنوب ، تونس 2002.

-لحسن، توبي:

الحجاج والمواطنة، رؤية للنشر والتوزيع، مصر 2014.

-ماتز، آدم:

الحضارة الإسلامية في القرن الرابع، تعريب محمد عبد الهادي أبو ريدة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط، 1995.

-الماكري، محمد:

الشكل والخطاب:مدخل لتحليل ظاهراتي، المركز الثقافي العربي الدار البيضاء - بيروت 1991.

- المتوكل، أحمد:

الخطاب المتوسط، مقارنة وظيفية موحدة لتحليل النصوص والترجمة وتعليم اللغات، دار الأمان الرباط 2001 .

- مجموعة مؤلفين :

مدخل إلى مناهج النقد الأدبي ، تعريب رضوان ظاظا ، سلسلة عالم المعرفة الكويت العدد221.

-المحاسني، زكي :

شعر الحرب في أدب العرب في العصرين الأموي والعباسي إلى عهد سيف الدولة الحمداني، القاهرة 1961.

-المسدي، عبد السلام:

اللسانيات وأسسها المعرفية، منشورات الدار التونسية للنشر بتونس والمؤسسة الوطنية للكتاب بالجزائر 1986 .

العربية والإعراب، مركز النشر الجامعي تونس2003.

-مصطفى، العادل:

فهم الفهم مدخل إلى الهرمينوطيقا، منشورات دار رؤية للنشر والتوزيع القاهرة 2007.

-مصلوح، سعد:

في النص الأدبي، دراسة أسلوبية إحصائية،النادي الأدبي الثقافي جدة 1411.

-المغربي، صالح:

الجغرافيا في خدمة الأدب، حوليات الجامعة التونسية العدد34 لسنة 1993.

- المقدسي، أنيس:

الفنون الأدبية وأعلامها في النهضة العربية الحديثة، دار العلم للملايين، بيروت 1978.

- ابن المقفع، عبدالله:

كليلة ودمنة، منشورات دار بوسلامة للطباعة والنشر تونس 1977.

- المناصرة، عز الدين:

بين الأدب المقارن إشكاليات الحدود، ضمن أعمال الملتقى الأول للمقارنين العرب،:الأدب المقارن عند العرب : المصطلح والمنهج، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر 1991 .

- المناعي، مبروك:

في صلة الشعر بالسحر، حوليات الجامعة التونسية، العدد 31 سنة 1990.

افتتاح المراثي بالنسيب: شذوذ فني أم تقليد بائد؟ حوليات الجامعة التونسية العدد 57 لسنة 2012.

- مندور، محمد:

النقد المنهجي عند العرب دار النهضة مصر د-ت .

الأدب و فنونه ، دار نهضة مصر للطبع و النشر القاهرة 1977 .

- منصوري، عبد الحليم :

النقد الأسطوري من التحليل النفسي إلى الدراسة المقارنة، مجلة تواصل منشورات جامعة باجي مختار  
عناية- الجزائر العدد 11 ديسمبر 2003 .

-المهيري، عبد القادر:

خواطر حول علاقة النحو العربي بالمنطق واللغة، حوليات الجامعة التونسية العدد العاشر 1973.

- الموساوي، محمد علي:

الرمز في الشعر الفلسطيني المعاصر، منشورات كلية الآداب والفنون والإنسانيات، منوبة 2013.

- موسى، نهاد:

العربية نحو توصيف جديد في ضوء اللسانيات الحاسوبية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، عمان  
2000.

- ناصف، مصطفى :

قراءة ثانية لشعرنا الجاهلي ، ليبيا 1981.

نظرية المعنى في النقد الأدبي ،دار الأندلس بيروت دت .

الصورة الأدبية ، دار الأندلس بيروت د- ت.

- ناصيف، نصار:

الذات و الحضور: بحث في مبادئ الوجود التاريخي ، دار الطليعة ، بيروت 2008.

-النعمي، أحمد إسماعيل:

الأسطورة في الشعر العربي قبل الإسلام، سينا للنشر، القاهرة 1995.

-النويري، محمد :

علم الكلام و النظرية البلاغية عند العرب، منشورات دار محمد علي الحامي صفاقس تونس  
1998،

-هامون، فيليب :

في الوصفي، تعريب سعاد التريكي، بيت الحكمة تونس 2003.

- وتّار، محمّد رياض:

توظيف التراث في الرواية العربية المعاصرة، منشورات اتحاد الكتّاب العرب، دمشق 2002.

- ابن وهب الكاتب :

البرهان في وجوه البيان ،تحقيق أحمد مطلوب و خديجة الحديني ،ط العاني، بغداد 1967.

- يعقوب، غسان:

سيكولوجيا الاتصال والعلاقات الإنسانية، دار النهار للنشر بيروت 1979.

- اليعلاوي، محمد:

أدب أيام العرب، حوليات الجامعة التونسية مجلة كلية الآداب، العدد 20 لسنة 1980.

- يقطين، سعيد:

انفتاح النصّ الروائي،النصّ- السياق، المركز الثقافي العربي ، بيروت الدار البيضاء 1989 .

السيرة والرواية : نوار اللوز لواسيني الأعرج نموذجاً، الفكر العربي المعاصر، العدد 76-77، ماي-جوان 1990.

-يونس، محمد:

علم التخاطب الإسلامي لمناهج علماء الأصول في فهم النص،.دار المدار 2006.

التفاعل النصي والترابط النصي بين نظرية النص والإعلاميات، مجلة علامات، منشورات نادي جدّة الأدبي، المجلد 32، صفر 1430.

\*المعاجم :

قاموس الجغرافيا، شمال جنوب ، تونس 2002.

قاموس اللسانيات لعبد السلام المسدي، الدار العربية للكتاب، تونس 1984.

القاموس الموسوعي للتداولية ، تأليف جاك موشلار وأن ريبول ، تعريب مجموعة من الباحثين المركز الوطني للترجمة، تونس 2010 .

كشاف اصطلاحات الفنون للتهانوي، دار صادر بيروت د-ت.

معجم تحليل الخطاب بإشراف باتريك شارودو و دومينيك منغينو ، تعريب عبد القادر المهيري وحمادي صمود ، المركز الوطني للترجمة، تونس 2008 .

معجم السرديات، منشورات دار محمد علي، تونس 2010.

معجم النقد العربي القديم لأحمد مطلوب، دار الشؤون الثقافية بغداد 1989 .

\* الندوات والمؤتمرات العالمية :

أعمال ندوة المكتبة الإلكترونية والنشر الإلكتروني،الاتحاد العربي للمكتبات والمعلومات، تونس 2001.

## المراجع الأجنبية

**P.Achard** (1995):

-Langage et Pouvoir en interaction ; Centre de recherche sur le discours et la domination . E.N.S Fontenay-St Cloud.

**A.Achit** (2002):

-Formalisation de la théorie Néo-Khalilienne par les grammaires d'unification et les systèmes multi\_agents; Université la Mannouba ;Tunis.

**M. Sami Ali**(2004):



De la projection; Collection Psychismes; Dunod.

**F. Armengaud** (1985) :

-la pragmatique, Presses Universitaires de France, Paris.

**D..Arthur**(1965):

-Analytical Philosophy of History; Cambridge University Press.

**Ch.Baron**(2001):

-Littérature et Géographie; Lieux; espaces; paysages et écritures; Fabula 8; 2001.

**E. Benveniste**(1966):

-Problèmes de linguistique générale, Paris, Gallimard.

**P .Bourdieu**(1992) :

- Les règles de l'art; Ed Seuil .

**M. Boutaghou** (2006) :

- Roman historique: novation littéraire et identité culturelle

**R.Brunet**(1992):

- Les mots de la géographie: Dictionnaire critique;Reclus; La documentation Française .

**B .Cannone**(1998) :

- Narrations de la vie intérieure ; Paris; Klincksieck .

**P. Charaudeau** (1994):

-Le discours publicitaire; Revue Mscope 8 ; Versailles.

**R.Char** (1983):

- Sous ma casquette amarante; Recherche de la base et du sommet; Gallimard.

**R.Chartier** (1993):

-Les pratiques de la lecture; Payot; Marseille.

**R.A.Ciccorio**(1970):

-Integration in the curriculum. An Historical and semantic inquiry.Main.Currents;27 .

Paris ; Vuibert.

**M.Cisse. M.Diakite** (2007):

-Linguistique-Analyse du discours et Interdisciplinarité; Revue Internationale des sciences du langage; 8.

**J. Courtès** (1976):

- Introduction à la sémiotique narrative et discursive, Hachette, Paris.

- **L .Dallembach** (1977 ):

-Le récit spéculaire: essai sur la mise en abyme ; Paris Seuil.

**Ph. Daros** (1999):

-Anthropologie littéraire générale et comparée ; in Perspectives comparatistes; Paris ;Honoré; Champion Editeur.

**R.Debray** (1991):

-Cours de médiologie générale; Editions Gallimard.

**R.Descartes** (1966):

-Discours de la méthode; Paris; Flammarion

**J.Derrida** (1993):

-Mal d'Archive; Editions Galilée.

**A.Dhifaoui** (2008):

-Le Roman Epistolaire et son peritexte; C.P.U Tunis.

**J.P.Dupuy**(1994):

Aux origines des sciences cognitives; Paris; La Découverte.

**V.Dusseldorp** (1998):

-Interdisciplinary research for integrated rural development in developing countries: The role of social sciences; in Newell; H.N(ed): Interdisciplinary. Essays from the literature; College Entrance Examination Board ;New York.

**J.C.A.Fazenda** (1994):

-Interdisciplinaridade;historia teoria; SãoPaulo: Papirus; Editoria. .

**P. Fontanier** (1965):

- Les Figures du discours, Paris Flammarion, North Holland , Amesterdam .

**R.Frank** (1988):

- "Interdisciplinarity" The first Half century.Issues in integrative Studies;6.

**J.Gracq** (1985):

-La Forme d'une ville; Paris José Corti.

**A. Greimas** (1988) :

-La Lettre : Approches sémiotiques; Actes du 4e colloque interdisciplinaire  
éditions universitaires de Fribourg.

**R.Hawkins** (1997):

-Training in interdisciplinary teams research for agricultor development: The  
experience of ICRA; in the formal of agricultor education and extension;  
Volume 4 Number1

**S.Huntington** (1996) :

-The clash of civilizations and the remaking of world

**R Jackendoff** (2007):

-Language , consciousness, culture : Essays on Mental Structure , MIT Press  
,Cambridge.

**W.Janssen and P.Goldsworthy** (1966):

-Multidisciplinary research for natural resource management: Conceptual and  
practical implications ; in agricultural systems;51.

**L.Jenny** (1976):

-Stratégie de la Forme ; Poétique16.

**F. Jost** (1966):

- Le roman épistolaire et la technique narrative au 18e siècle ; Comparative  
literature Studies 111 ; 4 .

**-V. Kaufmann** (1990) :

-Equivoque épistolaire , Minuit.

**G.Kleiber** (2000):

-Sur le sens des proverbes ; in Langage 139 .

**J. T.Klein** (1998):

- Advancing Interdisciplinary studies ;in William.H.Newell éd;Interdisciplinary;Essays From the Literature.New York College Externale Examination Board.

**J.Kristeva** (1979):

- Le texte du roman, Ed Mouton publishers, The Hague;Paris;New York1979.

**J.M.Léger** (2003):

-Architectes et sociologues: des hommes de bonne volonté; in Communications 73.

**Y.Lenoir & L.Sauvé** (1989):

-L'interdisciplinarité et la formation à l'enseignement primaire et secondaire :Quelle interdisciplinarité pour quelle formation? Revue des sciences de l'éducation ; ;Vol XXIV;1pp3-29.

**G.A.Lynton**(1985):

-Interdisciplinarity: Rationales and criteria of assessment.In.L.levin etI.Lin;Interdisciplinaryrevisited Re-assessing the concept in the light of institutional experience StockholmOECD-CERI;Swedish National Board of Universities and colleges Linkoping University.

**D.Mangueneau** (2006):

-L'analyse du discours et ses frontières; Marges Linguistiques; n0 9;Mai.

**S.Mériaux** (2003):

-Sciences et Poésie: deux voies de la connaissance; L'Harmattan

**J.Moeshler. A.Auchlin** (2000):

-Introduction à La linguistique contemporaine; Paris Armand Colin.

-**E. Morin** (1990):

-Sur L'Interdisciplinarité; Carrefour des sciences; Acte du colloque du comité national de la Recherche; Editions du CNRS.

**H.L.Nielsen** (2002):-

-Interactive Arabic grammar on the internet: Problems and solutions; Processing Arabic; Université LA Mannouba; Tunis.

**M.Nissani** (1996):

-Fruits;salads;andsmoothies: A Working definition of interdisciplinarity. Association for Integrative Studies; Newsletter 18;1;4.

**Ch.Notari** (2002):

- Métaphore de l'ordinateur et Linguistique cognitive; ;Toulouse 2 Janvier.

**C.k.Orecchioni**(2002):

- L'Enonciation; Paris Armand Colin.

**G.Palmade** (1977):

-Interdisciplinarité et idéologies;Paris Anthropos.

:**Ch.Retoré**(2008):

-Les Mathématiques de la linguistique computationnelle; La Gazette des mathématiques; Volume 115 et 116 Janvier-Avril 2008. .

**J.P.Richard** (1955):

-Poésie et profondeur; Seuil; Paris.

**L.Roulin** (2006):

-Psychologie cognitive, Bréal Rosny .

**Nour.Selamna:**

-Interdisciplinarité : Concepts-Clés;in Ressources Pédagogiques; ICRA; Equipe Interdisciplinarité 1-14

.

**Schiller** (2001):

- Lettres sur l'éducation esthétique de l'homme; texte traduit de l'allemand par Robert Leroux ;Floch 2001.

**A. Semprini** ( 1992):

-Le Marketing de la marque; éd Liaisons Paris.

**Siheem Sidaoui** (2012):

-Pour une approche socio- poétique du roman contemporain; in revue de littérature générale comparée ,n 13 .

**S. Stetkevych** (1994):

- Pre-islamic Panegyric and the poetics of redemption , Indiana university Press.

**J.Stoetzel** (1963):

-La psychologie sociale; Paris; Flammarion.

**L. Thommeret** (2006)

-La mémoire créatrice . Essai sur l'écriture de soi au 18 siècle ;Paris Harmattan.

**L. versini** (1979):

-Le roman épistolaire , Paris ; PUF.

**M. Weber** (1969):

- La vocation du savant; in le savant et le politique; Paris; Plon.

## المحتوى

### مقدمة

تمهيد : الدراسات البيئية والثقافة العربية.

**القسم الأول** : مقدمات نظرية في أصول الفكر البيئي .

الفصل الأول: البيئية وإعادة بناء الخارطة المعرفية في العصر الحديث .

الفصل الثاني: الأصناف المعرفية :من فكر القطيعة إلى فكر التواصل.



**القسم الثاني : البينية والمنظومات المعرفية الحديثة.**

الفصل الأول : اللسانيات الحاسوبية وصداها في الدراسات العربية.

الفصل الثاني: البينية وعلوم الخطاب.

الفصل الثالث: الموضوعاتية بين علوم الاجتماع والمرجعيات النفسية.

**القسم الثالث : البينية والإبداع الأدبي.**

الفصل الأول: البينية والشعرية.

الفصل الثاني: أدب الأمثال والدراسة البينية.

الفصل الثالث: كتابة الأدب والتاريخ .

الفصل الرابع : البينية والإبداع الشعري.

الفصل الخامس: البينية بين الجنس الرسائي والجنس السردي .

الفصل السادس: الأجناس العاملة والكتابة البينية.

**القسم الرابع : الملاحق**

الفصل الأول: أعلام الفكر البيني.

الفصل الثاني : مختارات من وجهات نظر بينية.

الفصل الثالث: المفاهيم والمصطلحات.

جداول توضيحية

الخاتمة العامة